الروم

في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم وصلاتهم بالعرب

للدكتور أسد رستم

الجزء الاول

دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، كانون الاول ١٩٥٥

تمهيد

الروم عند العرب قبل الاسلام وبعده هم الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون. والبيزنطيون عند انفسهم روم ، اي رومان . وعاصمتهم « رومة الجديدة » ، اي القسطنطينية . ولا يزال الروم الارثوذكس يدعون القسطنطينية مركز البطريرك المسكوني « رومة الجديدة » حتى يومنا هذا .

واللفظ روم في نقوش الصفا اسم بلاد واسم شعب . فقد جاءَ في احد نقوش الصفا ان «عثمن بن طمثن بن عضضة نَفَرَ من « روم » . وجاء في نقش آخر ان « محوّر بن غطفن بن اذنة صيَّرَ بفنجة سنة حَرَبَ الجدي « آل روم » ببصره[1] . » وجاءَ في القرآن الكريم في سورة الروم : « غُلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غَلَبِهم سيغلبون . »

وأنفع التواريخ تاريخ الفكر . وألمع فصل في تاريخ الفكر البشري تاريخ الفكر عند اليونان الاقدمين . وافضل فضائل هؤلاء عنايتهم بالانسان وسعيهم لاسعاده سعادة حقيقية . واكبر خدمة قدمها الرومان انهم تبنوا ثقافة اليونان وقالوا بها . وفضل الروم على البشرية انهم حملوا هذه الثقافة وحموها في عصر الظلمات فحفظوها لنا في نصوصها الاصلية واضافوا اليها . ولا سبيل لفهم تاريخ العرب فهماً كاملاً الا بالاطلاع على تاريخ الروم .

١ *Dussaud, R., Mission dans la Syrie Moyenne*, 251, 547, 554.

فما جرى في سوريا والعراق ومصر في السياسة والحرب والحضارة والثقافة تأثر كثيراً بما كان يجري في القسطنطينية وغيرها من امهات مدن الروم.

والمراجع الاولية لتاريخ الروم متنوعة منها التواريخ التي صنفت في الازمنة المعاصرة لوقوع الحوادث او بعدها بقليل ، ومنها الرسائل الدبلوماسية التي تبودلت في تلك العصور بين الروم وغيرهم من الشعوب والدول ، ومنها القوانين التي اشترعت والنقوش الكتابية التي نُصبت والنقود التي سكت ، ومنها كذلك ما صنف خصوصاً للبحث في اخبار الكنيسة .

وما تبقى من التواريخ محفوظ في مجموعة نيبور - اذا جاز هذا التعبير - التي نشرت في تسعة واربعين مجلداً في بون ما بين السنة ١٨٢٨ والسنة ١٨٧٨[١]. ونصوص هذه التواريخ نفسها محفوظة ايضاً في مجموعة مين في مئة وواحد وستين مجلداً . وقد نشرت هذه المجموعة في باريز ما بين السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦[٢]. ولا يستغني الباحث عن الرجوع الى مجموعة توبنر للوقوف على بعض هذه النصوص التاريخية نفسها لانها جاءت في هذه المجموعة ادق واضبط[٣]. وقد يضطر الباحث الى مراجعة مجموعتي دندورف[٤] وموللر[٥] او الى نصوص بيوري[٦] ، وقد لا يستغني عن الاستعانة بسير القديسين فيعود عندئذ الى مجموعة الآباء البولنديين التي بدأت تظهر منذ السنة ١٦٤٣[٧] .

١ *Corpus Scriptorum Historiae Bysantinae.*

٢ *Patrologia Graeca, Ed. Migne ; Indices, Cavallera, 2 Vols., Paris, 1912.*

٣ *Teubner, Bibliotheca Scriptorum Graecarum et Latinarum.*

٤ *Dindorf, Historici Graeci Minores, 2 Vols., Leipzig, 1870-1871.*

٥ *Muller, Frangmenta Historicorum Graecarum, Vols, IV, V, Paris. 1868-1870.*

٦ *Bury, Byzantine Texts, Vols. 1-5, London, 1868*

٧ *Acta Sanctorum.*

وما تبقى من الرسائل الديبلوماسية التي تبودلت بين حكومة القسطنطينية والحكومات المعاصرة محفوظ في مجموعة ميكلوسيخ ومولر[١] ومجموعة تافل وتوماس[٢] . وقد جاءت المجموعة الاولى في مجلدات ستة نشرت في فيينة بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٩٠ . وجاءت المجموعة الثانية في ثلاثة مجلدات نشرت في فيينة ايضاً في السنة ١٨٥٦ – ١٨٥٧ . وجمع جافي رسائل الباباوات فنشرها في برلين في مجلدين ما بين السنة ١٨٨٥ والسنة ١٨٨٨[٣] . وتعاون أساتذة فيينة ومونيخ في ضبط هذه الرسائل واعادة نشرها . فظهر في السنوات ١٩٢٤ – ١٩٣٢ مصنف دولغر في ثلاثة مجلدات[٤] . وظهر في السنة ١٩٣٢ الكراس الاول من مجموعة الاب غرومل لبيانات ورسائل البطريركية المسكونية[٥] . وافضل ما يرجع اليه في التشريع والقوانين مجموعة مومسن وكروغر وشول في شرائع يوستنيانوس – وقد طبعت في برلين في مجلدات ثلاثة ما بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٩٥[٦] – ، ومجموعة زخريا لنغنتال في شرائع الاباطرة المتأخرين . وقد ظهرت هذه المجموعة في سبعة مجلدات في ليبزيغ ما بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٨٤[٧] .

ولا بد للباحث في تاريخ الكنيسة من الرجوع دائماً الى مجموعة منسي في المجامع . وقد نشرت هذه المجموعة لاول مرة في فلورنزة والبندقية في واحد وثلاثين مجلداً في النصف الثاني من القرن الثامن عشر (١٧٥٩–

١ *Miklosich, F., et Muller, J., Acta et Diplomata Graeca Medii Aevi.*

٢ *Tafel, G. L. F., et Thomas, G. M., Urkunden zur Alteren Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig.*

٣ *Jaffe, P., Regesta Pontificum Romanorum.*

٤ *Dolger, Franz., Regesten von Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches von 565-1453.*

٥ *Grumel, V., Regestes des Actes du Patriarcat de Constantinople.*

٦ *Mommsen, Kruger, Scholl, Corpus Juris Civilis.*

٧ *Zachariae de Lingenthal, Jus Graeco Romanum.*

١٧٩٨) ، ثم اعيد طبعها ما بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩٢٧ فظهرت في ثلاثة وخمسين مجلداً[١] . هذا ولا يخفى ان مجموعة الآباء اليونان Patrologia Graeca المشار اليها آنفاً تتضمن نصوص اشهر مؤلفات الآباء .

وليس لدينا في نقوش الروم مجموعة كاملة . وافضل ما يرجع اليه مصنف ميله في نقوش جبل آثوس[٢] وكتاب ليففر في نقوش مصر المسيحية[٣] ومجموعة غريغوار في نقوش آسية الصغرى المسيحية[٤] .

واقدم المصنفات العصرية في النقود البيزنطية كتاب سباتييه الافرنسي[٥] الذي ظهر في باريز في مجلدين في السنة ١٨٦٢ . واحدثها عهداً واكملها كتاب روث[٦] في مجموعة النقود البيزنطية في المتحف البريطاني . وقد ظهر هذا ايضاً في مجلدين ولكن في السنة ١٩٠٨ . وليس لدينا في الاختام البيزنطية سوى مؤلف شلومبرجه[٧] .

والمؤلفات الحديثة التي تبحث في تاريخ الروم كثيرة متنوعة تعد بالمئات . والمقالات التي دبجت في نواحي معينة من تاريخ الروم وحضارتهم ونظمهم كثيرة ايضاً . وأولاها بعناية الباحث مؤلف كارل كرومباخر الالماني في تاريخ آداب الروم . فأنه على الرغم من قدم عهد هذا المصنف لا يزال مفيداً جداً في كمية معلوماته ودقتها[٨] ولا يزال تاريخ ستوط

١ *Mansi, Joannes Dominicus, Sacrorum Conciliorum Nova et Amplissima Collectio.*
٢ *Millet, G., Inscriptions Chretiennes de l'Athos, Paris, 1904.*
٣ *Lefèvre, G., Inscriptions Chrétiennes d'Egypte, le Caire, 1907.*
٤ *Grégoire, H., Inscriptions Chrétiennes d'Asie Mineure, Paris, 1922.*
٥ *Sabatier, Description Générale des Monnaies Byzantines.*
٦ *Wroth, W., Catalogue of Byzantine Coins in the British Museum.*
٧ *Schlumberger, G., Sigillographie de l'Empire Byzantin, Paris, 1884.*
٨ *Krumbacher, K., Geschichte der Byzantinichen Litteratur von Justinian bis zum Ende des Ostromischen Reiches, Munshen, 1891, 2 éd., 1897.*

الامبراطورية الرومانية لادوارد غيبون مفيداً موقظاً لانه تاريخ كبير لمؤرخ عظيم[1] . ولنا في كتاب تاريخ الروم حتى نهاية القرن العاشر الذي صنفه المؤرخ الفرنسي غوستاف شلومبرجه قصة مفصلة جذابة ظهرت في مجلدات ثلاثة في باريز ما بين السنة ١٨٩٦ والسنة ١٩٠٥[2] . وللاستاذ بيوري الانكليزي مصنفان لاثنان بالاهتمام اولهما في تاريخ الروم ما بين السنتين ٨٠٢ و٨٦٧ وهو افضل ما صنف في تاريخ هذه الحقبة ، والثاني في تاريخ الروم ما بين السنة ٣٩٥ والسنة ٥٦٥ . وقد ظهر في لندن في مجلدين في السنة ١٩٢٣ . وهو مصنف عادي[3] . على أن افضل المصنفات في تاريخ الروم العام اربعة : اولها العالم الشرقي ثم اوروبة الشرقية للعلماء الافرنسيين شارل ديل وجورج مارسه ورينه غروسه وغيرهم وقد ظهرت في مجموعة غلوتز في السنتين ١٩٤٤ و ١٩٤٥[4] . وثانيها العالم البيزنطي للمؤرخ الافرنسي لويس براهيه . وقد جاء هذا في مجلدات ثلاثة في مجموعة تطور الانسانية التي يشرف عليها المؤرخ هنري بر[5] . وثالثها كتاب البحاثة اوستروغورسكي الذي ظهر في مونيخ سنة ١٩٤٠[6] . ولا يخفى ما لهذا العالم من ابحاث في اقتصاديات الروم واجتماعياتهم . ورابعها واحدثها جميعاً من حيث اعادة النظر والتنقيح كتاب العلامة الرومي الكبير فزيلييف الذي ظهر اولاً

١ *Gibbon, E., Decline and Fall of the Roman Empire, Ed. J. B. Bury, 7 Vols., London, 1897-1902.*

٢ *Schlumberger, G., l'Epopée Byzantine à la Fin du Dixième Siècle.*

٣ *Bury, J. B., History of the Eastern Roman Empire from the Fall of Irene to the Accession of Basil I, (802-867); Hist. of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene, (395-565.)*

٤ *Diehl, Ch., et Marçais, G., Le Monde Oriental; Diehl, Ch., Oeconomos, L., Guilland, R., Groussel, R., l'Europe Orientale.*

٥ *Bréhier, L., Le Monde Byzantin.*

٦ *Ostrogorsky, G., Geschichte des Byzantinischen Staates.*

بالروسية ثم نقل الى الانكليزية والافرنسية . وقد اعيد طبعه بالانكليزية باشراف مؤلفه الذي يجيد هذه اللغة في السنة ١٩٥٢[١] . وذلك في مديسن من اعمال ولاية وسكونسن الاميركية .

وهنالك ابحاث عديدة هامة في مواضيع خصوصية متنوعة اشير اليها في هامش هذا الكتاب فلتراجع في محلات وقوعها .

وفي الختام لا بد لي ، قضاء لحق الصنيعة ، من اسداء عاطر الشكر لحضرة الاديب المدقق الاستاذ رئيف خوري الذي بذل بسخاء من وقته لمطالعة مخطوطة هذا الكتاب "كلمة" كلمة" وحرفاً حرفاً فأبدى ملاحظات قيّمة في المعنى والمبنى . وكذلك لا بد لي من الاعتراف بفضل حضرة الاديب الشيخ فؤاد حبيش الذي شجعني على نشر هذا الكتاب .

ولن أنسى عطف مؤرخ بيروت الاكبر العلامة الاب رينه موترد اليسوعي ، وتشجيع صديقي الاستاذ فؤاد افرام البستاني رئيس الجامعة اللبنانية ، ومعونة زملائي فيها الاستاذ بطرس البستاني والامير موريس شهاب والدكتور بطرس ديب . وقد لقيت في شخص رئيس دائرة التاريخ في جامعة بيروت الاميركية الدكتور نقولا زيادة وفي الاستاذين الدكتورين جبرائيل جبور وانيس فريحة اصدقاء مخلصين مضحين . وهل أنسى ما عانته زوجتي وشريكة حياتي من مشقة في تأمين راحتي وانقطاعي لهذا العمل زهاء سنتين كاملتين !

وكان الفراغ من تأليفه في رأس بيروت في الثالث والعشرين من تشرين الاول سنة ١٩٥٥ .

اسد رستم

[١] *Vasiliev. A. A., The Byzantine Empire.*

الباب الاول

المقدمة

•

الفصل الاول

تقهقر رومة الداخلي وازمة القرن الثالث

النظام الكولوني وتأخر الزراعة : كان من جراء التوسع العسكري الروماني ان تعاظم كسب قادة الجيش وضباطه وحكّام الولايات وكبار الموظفين فعادوا الى اوطانهم متمتعين بجميع ضروب التنعم والترف ، مشبعين بغطرسة من ذاق لذة السلطة المطلقة بعيداً عن وازع الشريعة الرومانية وقيود النظم الجمهورية . ولم يكن في نظر الرومانيين ليليق بشيوخهم وعظمائهم ووجوههم ان يتعاطوا التجارة او الصناعة ، فتهافت الاغنياء والكبراء على اقتناء المزارع يضمون بعضها الى بعض ، فيكوّنون منها مزارع مترامية متسعة ، ويستاقون اليها من ملكت ايمانهم من الارقاء . ولم يقوَ المزارع الصغير على مزاحمة جاره الكبير فضم ارضه الصغيرة الى ارض جاره الكبيرة ، وربط نفسه بتلك الارض الى الابد . ومع ان هذا النظام الكولوني لم يجعل منه رقيقاً لسيده فانه فقد حريته ان يذهب حيث يشاء . وتعددت هذه المزارع الضخمة في ايطالية وصقلية واسبانية ،

ولم يبقَ من المزارع الصغيرة القديمة الا نزر يسير .

وكانت حياة الرقيق في هـذه المزارع شاقة تعسة . فانه كان يُحشر ليلاً في الثكنات حشراً ويُساق نهاراً الى الحقل سوقاً . وكان يكوى بميامم ليبقى الوسم علامة يعرف بها عند الفرار . فنفر الرقيق من صحبة سيده وانقبضت نفسه عن العمل له باخلاص وامانة . واضطر سيده ان يكلفه من العمـل انواعاً معينـة ، تلك التي لا تتطلب الكثير من الامانة والاخلاص ، فحمله على تربية المواشي ورعايتها . فتضاءلت عـلى الايام حقول القمح وبساتين الزيتون وكروم العنب ، وبار بعض الاراضي وترك لينبت فيه العشب فترعاه تلك المواشي . واعتمدت رومة عـلى قمح مصر وحبوبها لتغذية ابنائها وابناء المدن الايطالية الاخرى، وحذرت تصدير هذه الحبوب الى اي مكان آخر . وسئم المزارع الكولوني هذا النظام ، فهجر الارياف وازدحم في المدن، ولاسيما رومة، ونافس غيره من الفقراء فيها على نصيب يناله معهم من احسان الدولة . وكانت رومة قد اخذت تقل حروبها منذ عهد اوغوسطوس قيصر فيتناقص معها عـدد الاسرى . وقلت اليد العاملة . فبارت الارض لهذا السبب ايضاً . وضعف الانتاج الزراعي .

عداء مزمن بين الاغنيـاء والفقراء : وثار العبيد الارقاء قبـل اوغوسطوس اكثر من مرة ، ودامت ثورتهم الثـالثة بقيادة اسبارتاكوس سنتين (٧٣ - ٧١ ق. م) ، وانتقضوا عـلى سادتهم في صقلّية وقتلوهم واعلنوا استقلالهم عن رومة . ونفر اصحـاب الحقول الاحرار في ايطالية وغيرها واحرقوا المزارع الكبيرة التي انشأها كبار الملاكين . فكان هذا كله مظهراً للضغائن في الصدور بين الاغنيـاء والفقراء . ولم ينتهِ صراع العبيد والفقراء بانتصـار ليكينيوس كراسوس على اسبارتاكوس[١] ، بل

١ *Licinius Crassus, Spartacus.*

استمر متقطعاً مـــا دامت الامبراطورية الرومانية . ومن هنا قول ماكروبوس الفيلسوف السياسي الذي عاش في القرن الخامس بعد الميلاد : « عبيدنا اعداؤنا » . وكان كلما صرع سيد بيد مجهولة اتهم بقتله ارقاؤه وقاسوا من جراء ذلك شتى الوان العذاب وربما فقدوا الحياة .

ولا يخفى ان رومة ميزت في شرائعهـــا بين فصيلتين من الرقيق : ارقاء الارياف ، وارقاء المـدن[1]. وكان هؤلاء يشملون في عدادهم الخدم والحشم والاطباء والاساتذة ورجـال الفن والقلم وحاشية الاباطرة وكبار الرجال في السياسة والحرب . ولما كان الجهاز الاداري مربوطاً بشخص الامبراطور فانه اصبح منذ عهد كلوديوس يعج بهؤلاء الارقاء من رجال الاباطرة . بيـد ان الارقاء لم ينظموا صفوفهم ولم يكن لديهم في وقت من الاوقات برنامج سياسي معين يسعون لتحقيقه . وجل ما بلغوا اليـه انهم كرهوا اسيادهم ، وثاروا في وجههم ، وتمنوا زوال نعمتهم وذلك بحركات متفرقة في غالب الاحيان .

تأخر الصناعة والتجارة : وأدى توسع رومة في الشمال والجنوب والشرق والغرب الى توسع مماثل في افق ابنائها العاملين في حقلي الصناعة والتجارة . فخرجوا من ايطالية الى الولايات الجديدة يوظفون اموالهم فيها . وقام من ابناء هذه الولايات نفسها ، ولاسيما الشرقية منها ، من شاطر هؤلاء عملهم وانتاجهم . فنشطت الزراعة والصناعة والتجارة في الولايات ، واخذت آسية الصغرى مثلاً تصدر ذرتها وخمرها وسمكهـــا المجفف ومنسوجاتها الصوفية وصباغها الارجواني . وعاد زجاج الساحل اللبناني الى سابق تفوقه ، ومثله كتان هذا الساحل وحريره وصوفه المصبوغ . وعادت الجاليات اللبنانيـة السورية الى سابق عهدها في الغرب توزع بضاعة البلد الام في ايطـــالية

[1] Familia Rustica, Familia Urbana.

وصقلية وغالية ووادي الرين وبريطانية ، وظهرت نشيطة قوية في تراقية ووادي الدانوب الاسفل وجنوبي روسية . ومع الزمن فقدت ايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كانت قد كسبتها في حروب التوسع المتتالية ، وانتاجها الصناعي الذي كانت تنتجه بالكميات الكبيرة قلّ وتدنى فاصبح في مستهل القرن الثالث بعد الميلاد انتاجاً افرادياً قليلاً . وقلّ الدخل عموماً فقل دخل الدولة ، والتجأ الاباطرة الى غش العملة فاصبحت هذه في عهد مرقوس اوريليوس مغشوشة بمقدار ربع وزنها . وبعد جيلين فقط لم يبقَ في النقود الفضية اكثر من خمسة في المئة من زنتها فضة .

انحطاط الجيش : وكانت الخدمة العسكرية في اوائل عهد رومة محصورة في المواطنين الرومانيين اولئك الذين ملكوا ارض رومة وسنوا شرائعها . وكان على كل جندي ان يقسم بكل وقار واحترام يمين الطاعة لقادته والولاء للامبراطور والامبراطورية . وجاء يوليوس قيصر فمنح حقوق المواطن الروماني[1] بعض وجوه الولايات واعيانها ممن لمس فيهم الولاء والاخلاص لرومة وامبراطوريتها . وقضت ظروف الفتح والتوسع بتكبير الجيش فجندت رومة ابناء الولايات في وحداتٍ « مساعدة » . وفي ايام ادريانوس وخلفائه تساهلت رومة فمنحت كل من لمست فيه استعداداً لتفهمها والامتزاج بابنائها هذا الحق الكبير . ثم جاءت يولية دمنة الحمصية وابنها كركلا فاباحا هذا الحق في السنة ٢١٢ لجميع سكان الامبراطورية . فأصبح الجيش والحالة هذه مؤلفاً من جميع عناصر حوض البحر المتوسط .

وأدى التوسع العسكري الكبير الى تغيير آخر في الجيش . فالحدود الشاسعة الطويلة والاعمال الحربية المتتابعة المتتالية قضت بتطويل مدة الخدمة العسكرية . والتأخر الاقتصادي اضطر الحكومة الرومانية ان تقطع

[1] *civis romanus.*

جنود الحدود اراضي يحرثونها وان تجيز لهم ان يتأهلوا وان يقيموا في اكواخهم قرب الحدود. فقضى الجنود حياتهم باكملها في خدمة العلم واصبحوا طائفة عسكرية تعيش لنفسها، لا جيشاً شعبياً يقوم بخدمة الدولة.

ومما عجّل كثيراً في انحطاط الجيش ان اوغوسطوس قيصر لم يعنَ بايجاد طريقة قانونية لانتخاب الامبراطور تنتقل سلطة الامبراطور بموجبها من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار. فنتج عن هذا الخلل انه أصبح في طاقة الجند ان يختاروا من يرضون عنه وان يعزلوه وان يعينوا غيره مكانه كما امسى الامبراطور نفسه قليل المهابة والاحترام.

الامبراطور: وكان الامبراطور في بدء الامر وجيهاً رومانياً كبيراً يُخوّل سلطة عسكرية واسعة في ظروف حربية قاهرة. وكانت هذه السلطة او هذه القيادة[1] تنتهي بانتهاء الحرب. وكان مجلس الشيوخ يقيم في ظروف معينة اكثر من قائد واحد في وقت واحد. ثم جاءت الامبراطورية بطولها وعرضها وتعددت مشاكلها فوكلت رومة القيادة الى رجل واحد طوال عمره. وبقيت سيادة الدولة الرومانية تظلّ هذا الامبراطور الفرد ومنها يستمد سلطته. وبقي هو ممثل الجمهورية[2] الاوحد. واستحق لقب اوغوسطوس اي قديس لانه كان في نظر الرومانيين رمز الهة رومة الحي[3]. ويرى بعض رجال الاختصاص ان سلطة الامبراطور كانت في البدء سلطة عسكرية لانها لم تطبق قبل عهد سبتيميوس سويروس الا في خارج رومة وفي خارج ايطالية. ويرون ايضاً ان سائر

١ *Imperium.*
٢ *Respublica.*
٣ *Dea Roma.*

الالقاب[1] التي حملها الاباطرة الاولون لم تزدهم سلطة ابداً .

وتقادمت المجالس القوميسية [2] في رومة واصابها الهرم . فانحصرت السلطة التشريعية بيـد مجلس الشيوخ [3] و كذلك ادارة الدولة وفرض الضرائب فيها وجبايتها . ولو دام هـذا الحصر لصح القول بان الدولة الرومانية كانت ارستوقراطية يرأسها ديكتاتور عسكري . ولكن شيئاً من هذا لم يكن . فالامبراطور كان منذ البدء قـد شاطر مجلس الشيوخ السلطة في الولايات . فترتب عليه منذ بداية الامبراطورية ان يكون لديه حكام وان يفصل بين ماليته ومالية الدولة . ولما كانت القوة العسكرية بيده كان من الطبيعي جداً ان يتطاول على حقوق مجلس الشيوخ في نطاق سلطته وان تتدرج الدولة الرومانية في سلم الملكية .

وحاول الامبراطور الروماني اللبناني سويروس الكسندروس (٢٢٢ – ٢٣٥ ب . م) الذي نشأ وترعرع في عرقة عكار ان يعيد الى مجلس الشيوخ حقوقه المسلوبة ، فشاور المجلس في جميع اعماله وطلب اليه انتقاء كبار الموظفين في رومة وفي الولايات وتقديم الاكفـاء لجميع الوظائف الاخرى . ورقى حكام الولايات الى رتبة عضو في مجلس الشيوخ كي لا ينظر في امرهم من كان دون هذه الرتبة . وبعبارة وجيزة حاول الا يفعل شيئاً يعكر صفو العلاقات بينه وبين مجلس الشيوخ .

وعني سويروس الكسندروس بشؤون الجيش فراقب عن كثب حركات الوحدات وأمن العدل بينهم وأقطعهم الارض عند الحدود وزودهم بالمواشي والارقاء لحراثتها وزرعها شرط ان يدخلوا ابناءهم في الخدمة بعـدهم .

١ *Pontifex Maximus, Princeps Senatus.*

٢ *Camice.*

٣ *Senatus.*

ولكنهم لم يرضوا عن المفاوضات التي اجراها مع القبائل الالمــانية عبر الرين في السنة ٢٣٥ واخذوا عليه انقياده لوالدته فقـاوضوا مكسيميانوس مدرب الجيش وكانوا قد احبوه لشجاعته وكرمه . وقتلوا الامبراطور ووالدته ونادوا بمكسيميانوس امبراطوراً . فدخلت الامبراطورية الرومانية في ازمة سياسية مخيفـة كادت تمزقهــا تمزيقاً وتهوي بها الى الحضيض . وانكشف ضعفها وتبين ان اوغوسطوس قيصر ذاك المصلح الكبير لم يوفق الى طريقة قانونية لانتقاء الامبراطور تنتقل بموجبها سلطتـه من سلف الى خلف دون ما خلل يقطع الاستمرار . وتبين ايضاً ان الجيش بعد ان انفصل عن الشعب الروماني واصبح خليطاً من كل من هب ودب بقي يمارس سلطة هائلة في انتقاء الامبراطور بالاشتراك مع مجلس الشيوخ وان هذه السلطة اصبحت غاشمة بعد انحطاط الجيش كما سبق ان اشرنا .

أزمة القرن الثالث : وهب مكسيميانوس (٢٣٥ – ٢٣٨ب .م) وكان عملاقاً في جسمه يتابع الحرب فيما وراء الرين . ولكن الجنود في افريقية لم يرضوا عنه فاعلنوا غورديانوس الاول امبراطوراً في السنة ٢٣٧ وكان هذا قد ناهز الثمانين من العمر فـأشرك ابنه غورديانوس الثاني في الحكم معه . وقـاومهما والي موريتـانية (الجزائر) فقُتل غورديانوس الثاني في ميدان القتال وانتحر والده العجوز . وثار جنود مكسيميانوس في وجهه فقتلوه في اثناء حصار اكويلية في ولاية البندقية . وتدخل مجلس الشيوخ فانتخب بوبيانوس وبلبينوس فغورديانوس الثـالث حفيد الاول نزولاً عند رغبة الشعب، ولكن الحرس الامبراطوري قتل الاولين وابقى غورديانوس الثالث حفيد غورديانوس الاول وكان لا يزال في الثالثة عشرة من عمره (٢٣٨ – ٢٤٤) ثم خرّ صريعاً في السنة ٢٤٤ بيد قائد الحرس . وكان قد اضطر غورديانوس الثالث ان يشرك فيلوبوس العربي معه في الحكم في السنة ٢٤٣ نزولاً عند رغبة جنود الشرق فعقد هذا صلحـــاً مع الساسانيين

وهرول الى رومة وتسلم ازمة الحكم فيها (٢٤٤ - ٢٤٩ ب . م) . ومما يروى عنه انه تقبل النصرانية سراً . وفي السنة ٢٤٩ انتقض الجند في مناطق الدانوب فأرسل فيلوبوس العربي القائد ديقيوس ليخمد ثورتهم . وما ان وصل اليهم حتى نادوا به امبراطوراً (٢٤٩ - ٢٥١) فحارب فيلوبوس وقتله في موقعة فارونة . وقام ديقيوس يحارب القوط في البلقان في السنة ٢٥١ فسقط في ميدان القتال في ما وراء الدانوب . فنادى الجند بغالوس امبراطوراً (٢٥١ - ٢٥٣) واشرك هذا هوستيليانوس بن ديقيوس في الحكم معه ثم قتله . وعم داء الطاعون في اثناء حكمه جميع انحاء الامبراطورية فزاد في الطين بلة . ثم عمد اميليانوس هذا وهو قاهر القوط الى خلع الامبراطور في السنة ٢٥٣ فحلّ محله ولكن الجنود قتلوه بعد اربعة اشهر من الحكم ونادوا بفاليريانوس امبراطوراً بعده (٢٥٣ - ٢٦٠ ب . م) فأشرك هذا ابنه غاليانوس في الحكم معه وقاما يحاربان قبائل الافرنج في غالية والالماني في شمالي ايطالية والقوط عند الدانوب والساسانيين عند الفرات . وفي اثناء حصار الرها في السنة ٢٦٠ وقع فاليريانوس اسيراً في يد شابور وتوفي اسيراً . وتابع غاليانوس الحكم بعد ابيه (٢٦٠ - ٢٦٨) وجابه ما كان اشد هولاً : ضغط البرابرة ولاسيما القوط الذين انقضوا من البحر الاسود بمراكبهم الخاطفة ، وظهور عدد كبير من المنافسين . فدخلت الامبراطورية في فترة الطغاة الثلاثين واشهرهم تتريقوس في غالية واسبانية . ولا يجوز القول ان أذينة العربي كان منهم لانه حافظ طوال عهده على الولاء القانوني الشكلي لغاليانوس . واعتبره هذا شريكاً له في الحكم . وسقط غاليانوس محارباً ضد اوربولوس في السنة ٢٦٨ . ولكن الجنود نادوا بكلوديوس الثاني (٢٦٨ - ٢٧٠) امبراطوراً فقتل هذا اوربولوس وقهر الالماني والقوط ولكنه توفي بالطاعون فخلفه اوريليانوس (٢٧٠ - ٢٧٥) اذ نادى به جنوده امبراطوراً . وصالح القوط وتنازل عن حقوق رومة

في مـــا وراء الدانوب واخضع زينب ، ثم قهر تتريقوس في غاليـة واتخذ لنفسه لقب معيـد الدولة العالمية[1] ولكنه قتل في حملة قـــام بهـــا على الساسان فأنتخب مجلس الشيوخ تسيتوس امبراطوراً بايعاز من الجند (٢٧٥) . وتوفي هذا بعد ثلاثة اشهر في اثناء الحملة التي شنهـــا على قبيلة الالاني في آسيا الصغرى . ولم يفلح اخوه في تسنم الحكم بعده لانكساره امـام بروبوس (٢٧٦ - ٢٨٢ ب . م) . وردّ بروبوس هجمات الافرنج والبورغنديين والالماني والفندال وشغل الجنود بتجفيف المستنقعات وانشاء الترع وبناء الطرق فثـاروا عليه وقتلوه . فتولى الامر بعده قائد الحرس كاروس (٢٨٢ ٢٨٣) ولكن صاعقة اصابته بعد ان احتل طيسفون عاصمة ساسان . فخلفه ابنه نومريانوس (٢٨٤) ولكنه قتل بمؤامرة والد زوجته كارينوس الذي طمع في ملك صهره فلم يفلح لان الجند كانوا قد نادوا بديوقليتيانوس الشهير (٢٨٤ - ٣٠٥)[2] .

غزوات الشعوب الجرمانية : وكان يقطن المـــانية وسائر اوروبة الشماليـــة برابرة من الجنس الهندي الاوروبي شقر الشعور زرق العينين طوال القـامة لم يرتقوا كثيراً منذ عهد انسان العصر الحجري . وكانت كل قبيلة منهم تقيم في منطقة محدودة لا يتجاوز قطرها ستين كيلو متراً ، ولا يزيد عدد نفوسها عن خمسة وعشرين الفاً او ثلاثين . وكانوا يقيمون في قرى تضم كل واحدة منها مئة عائلة . وكانت المنازل التي يسكنونها اكواخاً حقيرة يسهل نقلها . وكان السكان على وجه الجملة لا يرغبون في

١ *Restitutor Orbis.*

٢ *Maximianus Gordianus, Pabienus Maximus, Calius Balbinus, Philippus Arabs, Decius, Gallus, Aemilianus, Valerianus, Gallienus, Tetricus, Claudius, Aurelianus, Tacitus, Probus, Carus, Numerianus, Carinus, Diocletianus.*

الفلاحة والزراعة، بل كانوا يؤثرون رعاية المواشي وتربيتها. وكانوا يجهلون الكتابة تماماً ولا يتعاطون التجارة الا قليلاً . وكانوا اقوياء البنية ذوي بأس وجلد يميلون الى الحرب والغزو والنهب وينتقلون من مكان الى آخر يتبعهم نساؤهم واولادهم في مركبات ضخمة . وكانوا يجيدون ركوب الخيل ويعتنون بها عناية فائقة .

وكانت رومة قد جعلت من الرين والدانوب وما بينهما حدوداً فاصلة بينها وبين هذه القبائل وحصنت هذه الحدود واقامت عليها فرقاً تحميها. ولكن هذا كله لم يمنع تسرب جماعات من الجرمان الى داخل حدود الامبراطورية واغوسطوس نفسه كان قد اذن لبعض هؤلاء بالبقاء داخل الحدود . وكان يوليوس قيصر من قبله قد ادخل الجرمان في خدمة الجيش ولاسيما فرق الخيالة . وكان قد ادى التقهقر الاقتصادي وقلة اليد العاملة الى قبول بعض العناصر الجرمانية في المزارع الكبيرة كما ادى ضعف الحكم عموماً الى التساهل مع بعض القبائل الجرمانية تدخل برمتها البلاد ويستخدم رجالها في الجيش جنوداً مرتزقة .

وفي اوائـــل القرن الثالث بعد الميلاد كانت قبيلة الافرنج لا تزال مرابطة عند ضفاف الرين الاسفل ووراءها الى الشرق قبيلة السكسون فالسويفي فالفندال وجميعها في شمالي المانية . وكانت قبائل الالماني مرابطة بين الدانوب والرين الاعلى . وكانت قبائل القوط قد نزحت عن البلدان الاسكندنافية منذ نهاية القرن الثاني بعد الميلاد وحلت ضيوفاً ثقيلة على الالاني والسرامطة في جنوب روسية . فأقام القوط الشرقيون بين نهري الدنيبر والدنيستر والقوط الغربيون في ما نسميه اليوم رومانية والمجر. وادى ضعف الدولة الرومانية واضطراب احوالها الى تيقظ هذه القبائل واشتداد طمعها . فحاول بعضها قطع الحدود الرومانية فزادوا الامبراطورية بعملهم هذا انهاكاً وتعباً وتقهقراً .

وفي ربيع السنة ٢٦٧ بعد الميلاد احتشد عدد غفير من القوط وغيرهم من قبائل الدانوب وجنوبي روسية عند مصب نهر الدنيستر. فأبحر بعضهم على متن بضعة آلاف مركب صغير واتجهوا جنوباً ولحق بهم الباقون براً. ونزل بعض المبحرين منهم في بيثينية وتوغلوا في آسية الصغرى، وتابع الباقون سفرهم البحري فدخلوا البوسفور وحاولوا اقتحام بيزنطة لكنهم لم يفلحوا فاستأنفوا رحلتهم الى بحر ايجه فغزوا ثيسالونيكية وكسندرية وسائر سواحل اليونان، وبلغ بعضهم الى كريت ورودوس وقبرص. فتصدى لهم بروبوس حاكم مصر عند بامفيلية بما جمع من سفن رومانية وردهم على اعقابهم. وفعل مثل هذا أذينة العربي في آسية الصغرى. وهب الامبراطور كلوديوس الى محاربتهم في البلقان فسجل انتصاراً كبيراً بالقرب من نيش وقتل منهم خمسين الفاً وطارد الباقين عبر مقدونية فهلك بعضهم بالطاعون ودخل الباقون في خدمة الجيش الروماني. ونال كلوديوس بحق لقب «قاهر القوط[١]» وتعددت هذه الهجمات البربرية وتعاقبت طوال هذا القرن.

الافلاطونية الجديدة: وأدى تقهقر رومة الداخلي الى نزعات جديدة في الفكر. فدفعت الفوضى والحروب والاوبئة وما تبعها بعض رجال الفكر الى الابتعاد عن هذا العالم الفاني والتأمل في عالم ازلي ملؤه الخير والجمال. فعكف عدد من رجال الفلسفة على فيثاغورس زاهدين ورعين مستوحين قائلين بالسحر والعرافة جاعلين من بعض حلقاتهم انتداءات سحرية. فظهرت فيثاغورية جديدة قال بها فلاسفة في الشرق والغرب معاً.

ودعا آخرون الى أفلاطون ووجدوا في كتابه الطيماوس Timaeus قوتاً قامت به انفسهم فانتعشت. فأكدوا قوله بالواحد الاوحد. وقالوا

١ Gothicus Maximus.

بالثنائية الافلاطونية ففرقوا بين النفس والجسد . وجعلوا من خيال افلاطون في الحياة بعد الموت عقيدة . وتقبلوا نظريته في الوسطاء بين الله والبشر Daimones . واكدوا ان رائد الانسان انما هو ان يصير مشابهاً لله . فظهرت افلاطونية جديدة كان لها شأن كبير في عالم الفكر حتى اواخر القرن الخامس[١] .

وأول من اشتهر بالافلاطونية الجديدة نومانيوس فيلسوف ابامية بين حماة والمعرة . ولا نعلم الشيء الكثير من اخباره . ويجوز القول انه علم في النصف الثاني من القرن الثاني . وان أفلوطين اعتمد عليه فيما يظهر . وكتب نومانيوس في « مذاهب افلاطون السرية » فشرح ما جاء عن النفس في فيدروس وفي الجمهورية . واطلع على حكمة اليهود وتعاليم المسيح فأولها . ورأى في افلاطون موسى فدعاه موسى اليوناني واعتبره نبياً . ورأى ان الوجود منقسم الى مملكتين مملكة العناية ومملكة المادة . وان المادة اصل الشرور والمفاسد . وانه ليس يليق ان تعزو صنع العالم الى الاله الاعلى وان الابن هو الصانع الذي نظم الكتلة المادية بتأمل النموذج تارة ويتحول عنه طوراً ليحرك الفلك فيصير حينئذ النفس الكلية ٢ .

واشهر المؤسسين في هذا الحقل افلوطين Plotinus . ولد في مصر في ليقوبوليس في السنة ٢٠٤ بعد الميلاد . وبدأ دروسه الفلسفية في سن متقدمة في الثامنة والعشرين في مدينة الاسكندرية . ولكن ما لقيه في هذه الدروس خيّب امله واعترف بذلك الى احد اصدقائه فقدمه هذا فوراً الى امونيوس سكاس . فعادت رغبته اليه . وبعد ان قضى احدى عشرة سنة

١ Nock, A.D. , *Paganism in the Roman Empire, Cam. Anc. Hist. XII, 438 ff.*

٢ الفلسفة اليونانية ليوسف كرم ص ٢٨٥ — ٢٨٦ .

Leemans, E.A., Numenius (Collection of Fragments) Brussels, 1937.

في معية هذا المعلم علم ان الامبراطور غورديانوس فتح ابواب هيكل يانوس في رومة ليعلن الحرب على ساسان . فصمم الفيلسوف الطالب على الالتحاق بهذه الحملة العسكرية ليسمع عن فلسفة الفرس والهنود . والتحق بجيش غورديانوس ووصل معه الى الفرات . ثم تمرد الجند واغتالوا الامبراطور عند دورة ، فعاد افلوطين الى انطاكية (٢٤٤) وزار ابامية ليطلع عن كثب على فلسفة نومانيوس . ثم قام من انطاكية الى رومة وبدأ يعلم فيها . وتميز بسمو اخلاقه ونفاذ بصيرته فصادف نجاحاً ، واقبل على الاخذ عنه عدد من افراد الاسر الممتازة[١] .

وكان قد قام في الاسكندرية في القرن الاول بعد الميلاد فيلون اليهودي وجمع بين الحكمة اليونانية والديانة الاسرائيلية فاستند الى نظرية افلاطون في الكلمة فجعلها متوسطة بين الاله والعالم ، وقال ان الاله هو سبب الكلمة وان الكلمة هي علة الروح وان الروح تحرك العالم بامره وتشيع فيه حكمة الخالق . وكان افلاطون قد فرق بين الخير الاعلى والعقل والنفس . وكان ارسطو قد جعل الاله عقلاً محضاً . وكان الرواقيون قد قالوا ان الله هو روح العالم . فأخذ فيلون من هؤلاء جميعاً وقال ان الواحد هو مبدأ كل شيء وانه الاقنوم الاول وان العقل هو الاقنوم الثاني ولكنه دون الواحد في الكمال وان الاقنوم الثالث هو النفس . وقال ان الواحد هو الخير الذي يفيض عنه الوجود من غير ان ينقصه هذا الفيض شيئاً والوجود يفيض عنه لجوده كما تفيض الحرارة عن النار والنور عن الشمس . وقال : كما ان كل شيء يصدر عن الواحد فكذلك كل شيء يعود اليه . والنفس ايضاً تعود الى خالقها عن طريق الرياضة

١ *Bibez, J., Lit. and Philosophy in the Eastern Half of the Empire, Cam. Anc. Hist. XII, 621 ff.*

والتأمل والاستغراق والغيبة عن الوجود[1].

واظهر تلاميذ افلوطين بورفيريوس السوري (٢٣٣ - ٣٠٥) . ولد في البثينة من اعمال حوران وتعلم في صور ثم درس الفلسفة على لونجينوس الحمصي في اثينة . فاعجب لونجينوس بشغفه بالعلم ومواهبه النادرة وكان يدعى مالكاً فأطلق عليه لونجينوس اسم « الارجواني » بورفيريوس . وفي السنة ٢٦٣ قام الى رومة فلزم افلوطين فيها واتبع طريقته . واعجب به افلوطين . وكان المعلم يمقت البيان ويستثقل العناية بالجمل والالفاظ. وادرك الحاجة الى اعـــادة النظر فيما كتب فوكل ذلك الى تلميذه بورفيريوس . فقبل التلميذ المهمة ولكنه لم ينفذ شيئاً منها الا بعد وفاة معلمه والحاح طلاب الفلسفة . فدوّن حياة استاذه وجمع محاضراته في مجلدات ستة عرفت بـ «الاقسام» Ennead التاسوعات وشَرَحها[2] . ووضع «المدخل الى المعقولات» آخذاً عن التاسوعات و «المدخل الى مقولات ارسطو» اي كتاب الايساغوجي . واشتهر بكتابه ضد النصرانية وجعله خمس عشرة رسالة فانتقد نسب السيد كما جاء في متّى ، وادعى ان الاناجيل الاربعة متناقضة وان بطرس وبولس غير متفقين في رسائلهما ، وهاله عبث المسيحيين بالتراث الثقافي الديني اليوناني[3] .

وقام في النصف الثاني من القرن الثالث في خلقيس (مجدل عنجر لبنان) يمبليخوس العيطوري يدعو الى الافلاطونية الجديدة ويدافع عنها . وهو تلميذ بورفيريوس اخذ عنه في رومة ودرس الرياضيات على اناتوليوس وعاد

١ من افلاطون الى ابن سينا للدكتور جميل صليبا ص ٣٤ - ٣٥ .

٢ *Henri, P., Enseignement de Plotin, Bull. Acad. Belge. Lettres. 1937, 310 ff.*

٣ *Bidez, J., Vie de Porphyre, Ghent, 1918.*

الى بلاده يعلم في ابامية وفي مجدل عنجر . فقال بصدور الموجودات بعضها عن بعض . ورأى ان افلوطين حين سمى الواحد الاوحد خيراً بالذات فقد حبسه بصفة فوضع فوقه واحداً غير معين ووضع بعده العالم المعقول فأصبح لديه حدود ثلاثة . وجعل العالم المعقول ثلاثة حـدود ايضاً العقل والصانع وبينهما القدرة الالهية . وجعل للعالم الاستدلالي ثلاثة حدود اخرى الاب والقوة والفهم[١] .

١ *Bidez, J., Jamblique et son Ecole, Rev. Etudes Grecques, 1919, 31 ff.*

الفصل الثاني

ظهور النصرانية وانتشارها

(٣٠ - ٣٩٥ ب.م)

الرسل والتلاميذ والاخوة: توفي السيد في السنة ٣٠ بعد الميلاد. وتابع اتباعه الطقوس الاسرائيلية الشائعة آنئذٍ. فتعبدوا في هيكل سليمان. وتجمعوا في اروقته. وكانوا جميعهم يهوداً من الطبقات الوضيعة تجمعوا من اورشليم ومن الجليل ومن سائر انحاء فلسطين. وكان بعضهم من يهود البونط ومن قبدوقية ومصر وليبيـة والقيروان؛ وكان بينهم بعض اليهود العرب ايضاً. وكانوا يعقدون من آن الى آخر اجتماعات خاصة تغمرهم فيها محبة قوية ويتناولون في اثنائها طعاماً مشتركاً. وكانوا رسلاً وتلاميذ بالنسبة لمعلمهم، واخوة بالنسبة للمحبة المتبادلة بينهم. ولم يعتبروا انفسهم في هذه المرحلة الاولى مذهباً خاصاً من مذاهب اليهود ولا كنيسة من كنائسهم. والكنيسة في عرف اليهود آنئذٍ جماعة قليلة من اليهود يتعبدون مستقلين عن الجماعة الكبرى.

ولا نعلم عدد المسيحيين في هذه الفترة الاولى من تاريخهم بالضبط. فهم مئة وعشرون في الفصل الاول من سفر اعمال الرسل، وخمس مئة في الفصل الخامس عشر من رسالة بولس الاولى الى اهل كورنثوس، وثلاثة آلاف بعد عظة بطرس الاولى، ثم خمسة آلاف في الفصل الرابع من سفر

الاعمال ، وذلك بين السنة ٣٥ والسنة ٣٧ بعد الميلاد . وليس لدينا من الادلة التاريخية الواضحة الراهنة ما يمكننا من وصف نظمهم وصفاً كاملاً . ولكن هنالك ما يدل على تقدم الرسل الاثني عشر بينهم ، وعلى تقدم التلاميذ السبعين بعد هؤلاء . وهنالك ايضاً ما يدل على نفوذ كلمة بطرس ويوحنا ابن زبدي ويعقوب اخي الرب . وكان يعقوب بموجب رواية القديس يوسيبيوس[١] نافذ الكلمة محترماً جداً نظراً لزهده وورعه الشديد ، اكنب الركبتين من كثرة الركوع ، لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ، وليس لديه سوى رداء واحد .

ومارس المسيحيون في هذه الفترة نفسها طقوساً ثلاثة : المعمودية ووضع الايدي والشركة . فكان على مستجد يقبل الدعوة ان يتعمد باسم يسوع المسيح وان يُبارك بوضع الايدي وان يمارس الشركة وكسر الخبز[٢] .

وجاء في الفصل الرابع من سفر اعمال الرسل ايضاً انه كان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، وانه لم يكن احد يقول ان شيئاً من امواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركاً . وانه لم يكن فيهم احد محتاجاً لان كل الذين كانوا اصحاب حقول او بيوت كانوا يبيعونها ويأتون باثمان المبيعات ويضعونها عند ارجل الرسل . فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج .

اليهود : وعلى الرغم من تمسك المسيحيين الاولين بالناموس والانبياء عملاً بقول السيد ان السماء والارض تزولان ولا يزول حرف واحد او نقطة واحدة من الناموس ، فان كرزهم بيسوع مسيحاً اخرجهم في

١ المؤرخ الاول للكنيسة واسقف قيصرية (٢٦٥ – ٣٣٩ ب٠م) .
٢ فقبلوا كلامه واعتمدوا وانضم في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف نفس وكانوا يواظبون على تعليم الرسل الشركة وكسر الخبز والصلوات . – اعمال الرسل ٢ : ٤١ – ٤٣ .

نظر اليهود على الله والناموس . واشتد نشاطهم وكثر عددهم فشكاهم الصدّيقيون الى المجمع وطلبوا الى رئيس الكهنة ان يوقف الرسل ففعل . ثم طلبهم الى المجمع وقال لهم : ألم نوصكم الا تعلموا بهذا الاسم ؟ فاجاب الرسل : ينبغي ان يطاع الله اكثر من الناس . ان اله آبائنا رفع يسوع رئيساً ليعطي اسرائيل التوبة ومغفرة الخطايا ! فلما سمع اعضاء المجمع هذا القول حنقوا وارادوا ان يقتلوهم . فقام غمالائيل الفرّيسي واوصى بالاعتدال . فاكتفى المجمع بجلد الرسل ثم اطلقهم . فخرج الرسل فرحين وعادوا الى التبشير . وحوالى السنة ٣٦ بعد الميلاد طلب المجمع اسطفانوس للمثول امامه بتهمة التجديف على موسى وعلى الله . فقال في الدفاع عن نفسه قوله المأثور : يا قساة الرقاب انتم دائماً تقاومون الروح القدس . ايُّ الانبياء لم يضطهده آباؤكم ؟ اخذتم الناموس بترتيب ملائكة ولم تحفظوه[١] . فصرّوا باسنانهم واخرجوه خارج المدينة ورجموه . فكان اول الشهداء . وظهر في هذه الآونة شاوول الفريسي (بولس فيما بعد) . وكان يدخل الى البيوت ويجر النساءَ والرجال من المسيحيين ويدفع بهم الى السجن[٢] .

وخشي اتباع اسطفانوس سوءَ العاقبة . وكانوا من اليهود اليونانيين . ففروا الى أوطانهم في شرقي البحر المتوسط . واستقاموا فيها كارزين مبشرين . وقام فيليبس في هذه الاثناء يبشر في السامرة وفي ساحل فلسطين في غزة ويافه وقيصرية فلقي فيها نجاحاً . وكان الرسل ولاسيما بطرس ويوحنا يرقبون عمل فيليبس فيقومون بزيارات رعائية خارج اورشليم يتعرفون بها الى المسيحيين الجدد مشددين عزائمهم مثبتين لهم في الايمان . وسجّل فيليبس بكرزه في السامرة خروجاً على الخطة المتبعة في التبشير

١ اعمال الرسل ٧ : ٥١ - ٥٣ .
٢ الاعمال ٨ : ٣ .

الاولى . فان الرسل كانوا قد حصروا عملهم في اوساط اليهود متبعين في ذلك قول السيد : « الى طريق امم لا تمضوا ، والى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا الى خراف بيت اسرائيل الضالة[1] . » ولكن العمل كان قد توطد فيما يظهر فبدأ التبشير بين الامم . ورأى بطرس وهو في يافه ان الله يأمره الا يقول عن انسانٍ ما انه دنس او نجس ، فقبل دعوة كرنيليوس قائد المئة الايطالية وقال ان الله لا يقبل الوجوه بل في كل امة الذي يتقيه ويصنع البر مقبول عنده[2] . وانتقل الرسل بهذا من دور الى دور وبدأوا يعملون بالآية : « واذهبوا الى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها[3] . »

وفي السنة ٤١ بعد الميلاد تولى عرش اليهود في ظل رومة هيرودوس اغريبه حفيد هيرودوس الكبير . فاراد ان يستميل الشعب اليه ، فتظاهر بالتدين وشرع يضطهد المسيحيين اضطهاداً منظماً . فقتل يعقوب اخا يوحنا بالسيف . وإذ رأى ان ذلك يرضي اليهود عاد فقبض على بطرس وزجه في السجن . وكان ما كان من امر خروجه باعجوبة[4] . وتوجه الى انطاكية .

انطاكية : وكانت انطاكية آنئذٍ ثالثة مدن الامبراطورية الرومانية ومركز الحكم والسلطة في سورية ولبنان وفلسطين . وكانت الجالية اليهودية فيها كبيرة يربو عددها على خمسين الفاً . وكانوا يتكلمون اليونانية ، ويعيشون عيشة اليونان ، ويكسبون الرزق بالاتجار . فلما تشتت المسيحيون من جراء الضيق الذي حصل بسبب اسطفانوس اجتاز بعضهم الى الساحل

١ مت ١٠ : ٥ .
٢ الاعمال ١٠ : ٣٤ – ٣٥ .
٣ مرقس ١٦ : ١٥
٤ الاعمال ١٢ : ١ – ٢٤ .

اللبناني وقبرص . وحلّ آخرون في انطـــاكية . وكان بين هؤلاء قوم قبرصيون وقيروانيون . فلما دخلوا انطاكية بشروا اليهود و « اليونانيين » بالرب يسوع . « وكانت يد الرب معهم فـآمن عدد كثير ورجعوا الى الرب[1] . » وجاءهم بطرس في السنة ٤٥ واقـام بينهم ثماني سنوات . وبعد ان اطمأن لعمله في انطاكية وما جاورهـــا اقام افذيوس رئيساً على كنيستهم وذهب في السنة ٥٣ الى رومة . وعرف المسيحيون بهذا الاسم لاول مرة في انطاكية .

بولس : وكان الشاب الفريسي شاوول بولس يتابـــع التفتيش عمن اعتنق النصرانية من اليهود ليضطهدهم باسم الناموس . فقـام في السنة ٣١ بعد الميـــلاد الى دمشق ليوقف انتشار النصرانية في اوساطها اليهودية . وما ان اقترب منها حتى « ابرق حوله نور من السماء . فسقط على الارض وسمع صوتاً يقول له : شاوول شاوول لماذا تضطهدني ؟[2] » فكان ما كان من امر تنصره . وكان قد ولد شاوول في طرسوس بين الخامسة والعاشرة بعد الميلاد . وكان والده فريسيـــاً متعصباً فجعل ابنه يدرس الشريعة والناموس . وأبعده عن المدارس اليونانية . ويرجح رجال الاختصاص ان ما ناله شاوول من الفلسفة اليونانية جاء عن طريق الاحتـــكاك الشخصي بابنائها لا عن درس وتعليم . ورحل شاوول وهو لا يزال حدثـــاً الى اورشليم في طلب العلوم الدينية فأخذ عن غمالائيل المشار اليه آنفاً . وكان غمالائيل من اكبر علماء الدين في ذلك العصر . ويستدل من كتاب « اعمال بولس » الذي يرقى الى القرن الثاني بعد الميـلاد ان بولس كان مربوع

١ الاعمال ١١ : ١٩ — ٢١ .
٢ الاعمال ٩ : ٤ .

القامة مائلاً نحو القصر ، معوج الساقين ، أصلع الرأس ، كثيف الحاجبين ، اقنى الانف . وجاء في رسالته الثانية الى اهل كورنثوس انه « أعطي شوكة في الجسد لئلا يرتفع[1] . » ويستدل من رسائله انه كان حاد الطبع ، شجاعاً جريئاً ، شديد العاطفة ، ثاقب النظر ، واسع الخيال ، مقداماً .

وبدأ بولس عمله التبشيري بين يهود دمشق . فضجوا وطلبوا حبسه . ولكن اخوانه في النصرانية عاونوه على الفرار . فقضى ثلاث سنوات او اكثر في البادية يتأمل رسالته الجديدة ويبشر العرب . ثم عاد الى اورشليم يستغفر الرسل ويبشر في الاوساط اليهودية اليونانية . ولكن هؤلاء حاولوا قتله ، فأشار عليه الرسل بوجوب الابتعاد والاقامة في طرسوس مسقط رأسه . وكانت الدعوة قد لقيت نجاحاً في انطاكية كما سبق ان اشرنا . فذهب كبير المسيحيين فيها برنابا الى طرسوس وجاء ببولس الى انطاكية فتعاونا في الخدمة (٤٢ - ٤٥ ب . م) . وكان بين المسيحيين في انطاكية جماعة من التجار . فجمعوا مقداراً من المال ووضعوه تحت تصرف بولس وبرنابا لاجل التبشير . فقاما برحلة تبشيرية الى قبرص وآسيا الصغرى (٤٥ - ٤٧ ب . م) ولقيا بعض النجاح . ثم عادا الى انطاكية ، فعلما فيها ان الرسل لم يرضوا عن اعمالهما التبشيرية لانهما كانا قد قبلا في النصرانية وثنيين لم يختتنوا . وكانا يريان ان لا بد من التساهل في مثل هذه الامور لئلا تبقى النصرانية شيعة يهودية منشقة . فنزلا الى اورشليم (٥٠ ب . م) وبحثا امر الاختتان فايدهما بطرس وعارضهما يعقوب . ثم تم الاتفاق على ان يمتنع المؤمن غير المختتن عما ذبح للاصنام وعن الدم والمخنوق والزنى . « فان حفظ نفسه منها فنعماً يفعل ويكون معافى[2] . » وعاد بولس وبرنابا

١ ١٠ : ٩ و ١٢ : ٧ .
٢ اعمال الرسل ١٥ : ٢٢ - ٣٠ .

الى انطاكية .

وقام بولس بعد هذا برحلتين تبشيريتين الثانية والثالثة . وشملت الثانية (٥٠ – ٥٢ ب ٠ م) غلاطية وفيلبي وثيسالونيكية واثينة وكورنثوس وافسس وانطاكية . وشملت الثالثة (٥٣ – ٥٨ ب.م) افسس وكورنثوس وبعض جزر الارخبيل اليوناني وصور وعكة وقيصرية فلسطين فالقدس . وكان بولس يبشر اليهود اولاً فالوثنيين فيلقى صعوبات واحدة لم تتغير إما مقاومة عنيفة من بعض الاوساط المتمسكة يهودية كانت او وثنية ، وإما تحريضاً من تجار المواشي المعدة للذبح في الهياكل او من تجار الاصنام . ولكنه كان يتغلب عليها بشجاعته وصبره وايمانه . وقدر له في هذه الآونة ان يكسب عدداً من الرجال والنساء الاطهار الذين عملوا معه بكل غيرة ونشاط ، فكانوا له شبه اركان حرب يقومون باهم الخدمات . وبين هؤلاء تيموثاوس ومرقس ولوقا الطبيب وليدية وبريسلة .

واثيرت قضية الاختتان مرة ثانية فعاد بولس الى اورشليم في السنة ٥٨ بعد الميلاد . وما ان ظهر في الهيكل حتى ثار ثائر اليهود . فامسكوا به وجروه الى خارج الهيكل وحاولوا قتله . ولكن الجنود تدخلوا وساقوه الى الحبس . واتهمه اليهود بالتشويش والتفرقة بين الصفوف . فابقاه الحاكم الروماني في السجن سنتين متتاليتين . وألح بولس بان ترفع قضيته الى القيصر لانه يتمتع بحقوق المواطن الروماني ، فكان له ذلك وارسل الى رومة في السنة ٦١ بعد الميلاد . فاوقف في بيت بحراسة الجند وبات ينتظر محاكمته امام نيرون . ويرجح انه قضى شهيداً في السنة ٦٤ مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون . ويعتقد البعض انه لم يلقَ حتفه قبل السنة ٦٦ . وجاءَ في التقليد انه اطلق سراحه بادىء ذي بدء ، وانه بشر في اسبانية وآسية قبل ان يقتل في رومة في السنة ٦٦ ، ولكنه قول ضعيف .

يوحنا : وليس بين الرسل الآخرين من نعلم عنه شيئاً بقدر ما نعلم عن يوحنا . فاننا نجده حوالى السنة ٦٧ في افسس محبوباً محترماً . ويبدأ دوميتيانوس اضطهاده فيقاسي يوحنا عذاب الزيت الحامي ويخلص باعجوبة ليُنقل الى جزيرة باتموس محكوماً عليه بالاشغال الشاقة فيكتب فيها رؤيا يوحنا . ثم يطلق سراحه في عهد نرفه فينتقـــل الى افسس مبشراً بالمحبة مجدداً ، مؤسساً ، مدوناً انجيله في السنة ٩٠ بعد الميلاد .

مرقس وتوما وغيرهما : ومما حفظه لنا التقليد ودوّنه القديس يوسيبيوس في تاريخه ان مرقس الانجيلي اسس كنيسة الاسكندرية ولقي حتفه فيها وذلك في السنة ٦٢ او ٦٨ بعد الميلاد . ومما يروى ايضاً ان القديس اندراوس أسس كنيسة القسطنطينية . وان القديس توما بشر في فارس والهند وأسس كنيسة الرها . وعلى الرغم من اجتهاد صديقنا المرحوم اغناطيوس رحماني بطريرك السريان الكاثوليك فانه لا يمكننا القول معه ان كنيسة الرها أسست في عهد السيد المسيح بناء على طلب ملكها العربي أبجر الخامس الذي اتصل بالسيد طالباً الشفاء من مرض المّ به . ومما جاءَ في التقليد ايضاً ان القديس كوارتوس احد التلاميذ السبعين أسس كنيسة بيروت .

ولم ترق مباحث أفلاطون كثيراً في عين اليونان ولم تعجبهم حكمة أرسطو بل صبت عقولهم على نوع من الفلسفة يكسبهم هناء المعيشة وراحة البال . فنادى زينون الصوري بالفضيلة غايةً للحياة يستوي لديها الالم واللذة . وعلم ابيقوروس ان الخير الاعظم هو اللذة سواء اكانت عقلية ام جسدية شرط الا تخرج عن دائرة الفضيلة . وشاعت قصة أوهيميروس ان آلهة اليونان كانت في الاصل ملوكاً بشراً أُلّهوا بعد وفاتهم وصدق الناس هذه القصة . ففقدت الآلهة القديمة ما كان لها من الاحترام في عيون المتعبدين . ولم يكن محظوراً على احد ان يصرح بما كان يكنّه قلبه نحو الآلهة مهما كان اعتقاده فيها . وكان السواد الاعظم من الشعب اليوناني غير متعلم . وكان لا بد لهم

من آلهة ، فمالوا الى تكريم الآلهة الشرقية . فاجتازت الديانة المسيحية من بلاد الى بلاد في سهولة ويسر . ولم تتعرض الديانة الرومانية القديمة لمسلك الشخص او لسيرته الخاصة ، ولم تَعِد العبادَ بالسعادة المستقبلة . وانشق المجتمع الروماني كما سبق ان اشرنا الى طبقتين متباغضتين طبقة المتمولين اصحاب الاراضي الفسيحة وطبقة الارقاء المستعبدين والفقراء المساكين . وكثر عدد هؤلاء وساءَت احوالهم وثاروا وتمردوا . فجاءهم بولس الخيّام الطرسوسي منادياً بتعاليم سيده ، معلناً ابوّة الله واخوّة البشر ، مردداً تعاليم السيد : « تعالوا اليّ يا جميع المتعبين . » فكان لكلامه اثر بليغ وفعل عظيم في قلوب الرومانيين التّعابى .

الدولة الرومانية والنصرانية : وكانت الدولة الرومانية قد بسطت سلطتها على جميع انحاء حوض البحر المتوسط وربطت اجزاء امبراطوريتها بشبكة واسعة من الطرقات وفرضت شرائعها ولغتها ، فبلغ بذلك عالم البحر المتوسط درجة من التوحيد لم يبلغها من قبل . وبهذا التوحيد سهلت رومة انتشار الدين الجديد . ولكن كبار الرومانيين لمسوا في تعاليم هذا الدين نفسه خطراً يهدد سلامة الدولة . وتفصيل هذا ان اليونانيين والرومانيين لم يفرّقوا بين الوطنية والدين . فالمواطن عندهم كان مواطناً بقدر اشتراكه في التعبد لاله المدينة . وباتساع افق المدينة السياسي اتسع كذلك افق دينها . فلما تمّ لرومة بسط سلطانها في حوض البحر المتوسط اعتبر رجالها إلاهتهم رومة إلاهة الامبراطورية بامرها . وبهر اوغوسطوس رعايا رومة في الشرق بقوته وتدبيره وعظمتـه فرأوا في شخصه مخلصاً الهياً يمنع الحروب ويوطد السلم . وهو ما تنص به جملة نقوش في نواحي متعددة من آسية الصغرى ترقى الى القرن الاول قبل الميلاد . وفي السنة ٢٩ قبل الميلاد ذهب اليونان في آسية الصغرى الى ابعد من هذا فانشأوا هيكلاً خاصاً لعبادة رومة واوغوسطوس . ورأى اوغوسطوس في هـذا الامر خيراً له

ولرومة . فشجع عليه رعاياه ونقله الى الغرب . فظهر في ليون مثلاً في السنة ١٢ قبل الميلاد مذبح لرومة ولاوغوسطوس معاً . وقام مثله في السنة ٥ بعد الميلاد في مدينة كولون . ونشأت في جميع انحاء الامبراطورية اخويات دينية سياسية دعيت الواحدة منها اوغوسطالية . وكانت تقيم الحلقات لاوغوسطوس وتترنم به وترقص . واتخذ هو لنفسه لقب الحبر الاعظم[١] . وما كادت تنتظم امور هذا الدين الامبراطوري الجامع حتى اخذ رسل المسيح وتلاميذه يبشرون باله لا اله الا هو ، تجسّد وولد من مريم العذراء ، وصلب وتألم ومات من اجل البشر ، وقام وصعد الى السماء ليدين الجميع . ولو حصر الرسل والتلاميذ عملهم في الاوساط اليهودية لما تنبه الرومان وتيقظوا . ولكنهم بشروا « الخليقة كلها » وحملوا رسالة السيد الى امهات المدن ، لا بل الى رومة نفسها . فكان لا بد من الاضطهاد .

الاضطهاد : ويجدر بالقارىء ان يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد اربع حقائق : اولاً ان المؤرخين يشيرون عادة الى عشرة اضطهادات بين السنة ٦٤ بعد الميلاد والسنة ٣١٣ سنة البراءة . وثانياً ان الاضطهاد أجري بموجب تشريع خاص صدر عن الامبراطور نيرون في السنة ٦٤ وقضى بألا يكون احد مسيحياً[٢] . وثالثاً ان الاضطهاد لم يكن دائماً عاماً شاملاً . ورابعاً انه لا يمكن تحديد عدد الضحايا ويجوز القول انهم كانوا كثراً .

وفي عهد نيرون (٥٤ — ٦٨ ب . م) اتهم المسيحيون باحراق رومة سنة ٦٤ فكان ما كان من شتى الوان العذاب . واستشهد الرسولان بطرس

١ *Pontifex Maximus.*

٢ *« Non Licet esse christianum ».*

وبولس . ويرى بعضهم ان بولس قضى حوالى السنة ٦٧ . وفي ايام دوميتيانوس (٨١ – ٩٦ ب . م) على اثر ثورة اليهود حلَّ بالمسيحيين دور آخر من العذاب . فاستشهد في رومة عدد من الاشراف لاول مرة . وذاق يوحنا الانجيلي آلام الحرق بالزيت الحامي ونفي الى جزيرة باتموس . وأستشهد تيموثاوس في آسيا الصغرى . والقي القبض على اقارب السيد في فلسطين ثم اطلق سراحهم . وجاءَ دور تريانوس (٩٨ – ١١٧) فلقي اسقف اورشليم القديس سمعان حتفه مصلوباً (١٠٧) . وقضى اسقف انطاكية اغناطيوس الشهير في رومة في السنة نفسها . وأعدم كثيرون في بيثينية ومقدونية . وكتب طيباريوس حاكم فلسطين الى الامبراطور يقول : ان المسيحيين في انطاكية ازدحموا مستميتين في سبيل الرب . وفي عهد انطونينوس (١٣٨ - ١٦١) في السنة ١٥٥ استشهد بوليكاربوس اسقف ازمير ومرقس اسقف اورشليم . وقضى في رومة حوالى السنة ١٦٥ القديس يوستينوس النابلسي الفيلسوف المعلم وذلك في عهد مرقس اوريليوس . واستشهد في ايام هذا الامبراطور نفسه ايضاً بوبليوس اسقف اثينة وحكم على كثيرين بالعمل الشاق في المناجم . واهتم سبتيموس سويروس (١٩٣ – ٢١١) لانتشار النصرانية في مصر فملأ السجون بالنصارى ودفع ببعضهم الى الجلادين في الاسكندرية، وببعضٍ الى الحيوانات المفترسة في مدرج قرطاجة . ولكن خلفاءَه اباطرة السلالة السورية اللبنانية لم يقتفوا اثره في شيء من هذا ، بل قام احدهم سويروس الكسندروس يحاول انشاءَ هيكل لعبادة المسيح في رومة . وجاءَ فيليبوس العربي (٢٤٤ - ٢٤٩) يلاطف ويهادن . فحمل ذلك خلفه داسيوس (٢٤٩ – ٢٥١) ان يُكره جميع السكان في المدن والارياف ان يمثلوا امام رجال السلطة في وقت محدد ليقدموا الذبيحة لشخص الامبراطور . فارتد عن الدين الجديد عدد من الاغنياء والوجهاء واستشهد في سبيله عدد كبير من المؤمنين . وبين هؤلاء اوريجانيوس

اللاهوتي الفيلسوف الذي سجن في قيصرية فلسطين وعذب فيها ومات من جراحه في صور (٢٥٤)، والكسندروس اسقف اورشليم، وبابيلاس اسقف انطاكية، ونسطوريوس اسقف مجدّو. ولاحق الامبراطور فاليريانوس (٢٥٣ – ٢٦٠) الزعماء المسيحيين والكهنة فأمر هؤلاء في السنة ٢٥٧ ان يقدموا الذبيحة للآلهة الوثنية وحرّم على المسيحيين الاجتماع في المقابر ومحلات العبادة، وأكد انهم ان فعلوا اعدموا اعداماً. فدهم القديس ترسيسيوس وجماعة من المؤمنين وهم يصلون في سرداب سلارية، فماتوا خنقاً. واستشهد سيكستوس اسقف رومة وكبريانوس اسقف قرطاجة. واستشهد في فلسطين الاخوة الثلاثة، وفي قبدوقية الطفل كيريلوس، وفي الاسكندرية عدد كبير من المؤمنين.

واعظم الاضطهادات وافظعها ما جاء منها على يد ديوقليتيانوس الامبراطور (٢٨٤ - ٣٠٥ ب. م) ويصعب القول في حقيقة اسبابها. فلم يكن لهذا الامبراطور شيء من شذوذ نيرون او دوميتيانوس، ولا كان ظنوناً ولا قاسياً ولا متديناً او داعياً لدين جديد كأورليانوس. وقد انقضى على حكمه عشر سنوات قبل ان بدأ بالاضطهاد. وليس لدينا من النصوص ما نستطيع معه ان نتوسع في الاجتهاد مطمئنين. ولكن هنالك امران لا بد من الاشارة اليهما: اولهما ان ديوقليتيانوس الامبراطور أراد ان يعيد الى الامبراطورية وحدتها ومناعتها، والثاني انه كان يعاني الصعاب في وقف البرابرة عند الحدود وفي كبت عدوه ملك ملوك الساسان. ولعله رأى في انتشار النصرانية عامل تفكك في الداخل وخطراً على سلامة الدولة وخصوصاً لان النصرانية كانت قد دخلت فارس وان المانوية كانت تمتّ اليها بصلة قوية.

ولم يكن بامكان ديوقليتيانوس ان يبيد جميع المسيحيين ويقطع دابرهم لانه لو فعل لجعل مناطق ومناطق في الشرق قفراً من السكان. فآثر فيما

يظهر تدمير الكنيسة واخفاء معالمها وتحقير المؤمنين والهبوط بهم الى اسفل الطبقات . وهكذا نراه في الرابع والعشرين من شباط سنة ٣٠٣ يأمر بمنع الاجتماعات المسيحية وبتخريب الكنائس وحرق الكتب وبنكران الدين المسيحي ، موعداً الاشراف المسيحيين والوجوه والاعيان بالخلع والاذلال ، مهدداً الوضعاء بالعبودية المؤبدة . ثم عاد في السنة نفسها فأمر بسجن الكهنة وباعدامهم ان هم ابوا ان يشتركوا في الذبيحة الوثنية . وزاد فأمر بوجوب نكران الدين الجديد . فكانت مذابح ومذابح لم تنجُ منها الا الاقاليم الغربية التي كانت آنئذ في عهدة قسطنس والد قسطنطين الكبير . ويقال ان الفضل في ذلك يعود الى زوجته الاولى هيلانة التي كانت قد تقبلت النصرانية قبل زواجها منه . ويقول القديس يوسيبيوس المعاصر ان الرؤوس بُترت في العربية (البادية المتاخمة للشام) ، وان السيقان قطعت في قبدوقية ، وان المؤمنين علقوا على الاخشاب بين النهرين واشعلت تحتهم النيران . ومما يقوله ايضاً ان عمال ديوقليتيانوس قطعوا الانوف والآذان والالسن وغرزوا القصب تحت الاظافر ودقوا الحديد في البطون .

والثابت الراهن في عرف البشر أجمعين ان الاضطهاد يقوي النفوس ويشدد العزائم فيثير في المؤمن صاحب العقيدة شعور التحدي ويحمله على التفنن في اساليب الوقاية والدعاية ويزوده بمثل عليا يفاخر بها ويسعى لتحقيقها . وليس ابلغ اثراً في تفتير الحماسة الدينية وتحويل الغيرة على الدين الى تنازع على المراكز واحداث الشقاق من تكريس الدين سياسياً وجعله ديناً رسمياً .

النظام والتنظيم : وكان السيد كما سبق ان أشرنا قد انتقى الرسل الاثني عشر والحق التلاميذ الاثنين والسبعين . وفي السنوات الاولى بعد وفاته تذمر اليونانيون اليهود المسيحيون من العبرانيين المسيحيين اليهود « ان

أراملهم كنّ يُغفل عنهن في الخدمة اليومية » . فدعا الرسل جمهور التلاميذ وقالوا : لا يُرضي ان نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد . فانتخبوا انتم سبعة منكم مشهوداً لهم فنقيمهم على هذه الحـاجة . ففعلوا فصلى الرسل ووضعوا عليهم الايادي . وهؤلاء هم الشمامسة[1]. ثم نقرأ في الفصل الحادي عشر والخامس عشر من اعمـال الرسل عن كهنة يشرفون على الاعمال الخيرية ويجلسون مع الرسل للتشاور وحلّ بعض المشاكل[2]. واذا تتبعنا بولس في رحلاته التبشيرية نجده ينتقي لكل كنيسة يؤسسها شمامسة لخدمتها ومجلس كهنة لادارتها وقيّماً اعلى يمثله فيها كتيموثاوس وطيطس ولوقا وغيرهم . ونجده يبقى على صلة بهذه الكنائس جميعها يوجهها ويحل مشاكلها. وكان طبيعياً جداً ان يخلف الرسول في رئاسة كل كنيسة يؤسسها ممثله الاعلى فيها وان يكون لهذا الخليفة سلطة مستمدة من الرسول المؤسس . والواقع الذي تؤيده النصوص انه منذ منتصف القرن الثاني كانت قد انتظمت كل كنيسة مهمة حول رئيس لها دعي اسقفاً ، وحول قسيسين وشمامسة وشماسات. ثم تعددت الكنائس فتكتلت في كل ولاية حول كنيسة عاصمتها تكتل المدن في تلك الولاية حول العاصمة . وتهيأت لاسقف كل عاصمة من عواصم الولايات زعـامة على غيره من اساقفة ولايته . وفي اغلب الاحيان نجد اساقفة الكنـائس التي كانت مبعث الحركة في عهد الرسل يتقدمون على غيرهم من اساقفة الولاية او الولايات المحيطة بهم شأن اساقفة رومة في ايطالية واساقفة قرطاجة في افريقية الشمالية واساقفة الاسكندرية في مصر وليبية والحبشة واساقفة انطاكية في سوريا ولبنان وفلسطين وغيرها واساقفة كورونثوس في اليونان وما جاورها . اما في آسية الصغرى فـان كثرة

١ الاعمال ٦ : ١ – ٩ .

٢ ١١ : ٣٠ و ١٥ : ٢ .

الكنائس التي فاخرت بشرف الانتساب الى الرسل قد حالت دون تزعم كنيسة واحدة على جميع الكنائس .

وكان طبيعياً ايضاً ان يتقدم اسقف رومـة على غيره من الاساقفة لانه كان اسقف عاصمة الامبراطورية وخليفـة الرسولين بطرس وبولس . وهو ما يجمع عليـه علماء الكنيسة اجماعاً . ولكن هؤلاء يختلفون في صلاحيات هذا الاسقف . فالكاثوليكيون منهم يرونـه مطلق الصلاحية والسلطة خليفة السيد على الارض منذ اوائل تاريخ الكنيسة . ويستدلون على هذا بالآية : « انت الصخرة » ، وباقوال الآباء الاقـدمين كالقديس اقليمنذوس الروماني والقديس اغنـاطيوس الانطاكي والقديس ايرينيوس اليوناني وغيرهم . والارثوذكسيون منهم يرون في الصخرة صخرة الايمان ويرون في اقوال القديسين ما يوجب تقدماً في الكرامة لا في السلطـة ، ويحتجون بورود كلمة Principatum في هذه الاقوال عنـد الاشارة الى صلاحيات اسقف رومة . وهذه الكلمة تعني في رأيهم التصدر في المجـالس لا السلطات المطلقة[1] .

وقدّس المسيحيون في عهدهم الاول السبت لا الاحد . ولم يصبح الاحد يوم الرب قبل القرن الثاني . وكانوا يشتركون جميعاً في عشاء واحد مرة في الاسبوع او اكثر ، فيستمعون لقراءة الاسفار وينتهون بعد العشاء بقبلة المحبة « الأغبة » . وكان على المؤمن ان يمتنع عن التقبيل اذا شعر باللذة . وكان على المؤمنات ان يسترن شعورهن بغطاء او ان يقصصن شعورهن اذا استثقلن الغطاء . وكانوا اذا اجتمعوا للصلاة استمعوا لقراءة الاسفـار وللعظة الاسبوعية واشتركوا في ممـارسة الاسرار وتنبأوا رجالاً ونسـاءً .

١ *Adv. hear III : (propter potentiorem principalitem)*
Epître 65,4 : (principatum)

وكان الكاهن او احد المتقدمين بينهم يفسر هذه النبوءات على ضوء الدين والخلاص . وقبيل انتهاء القرن الثاني اتخذت العبادة المسيحية شكلاً منظماً مع ما في ذلك القراءات والصلوات والذبيحة الالهية . وبقي هذا النظام معمولاً به على سبيل العرف حتى صاغه القديس باسيليوس الكبير (٣٢٩ - ٣٧٩) والقديس يوحنا الذهبي الفم (٣٤٧ - ٤٠٧) ، فتبلور واخذ شكله الحالي . وثمة خدمة خاصة بيومي الاربعاء والجمعة في اثناء الصوم يعود الفضل في اعدادها الى القديس غريغوريوس الذيالوغوس (٣٤٠ - ٤٠٠) . ونجد المسيحيين الاولين يقولون بالاسرار الثلاثة : المعمودية والتناول والكهنوت ، فالسبعة : المعمودية والمسحة والتناول والتوبة والكهنوت والزيجة والزيت المقدس . وعني المسيحيون الاولون بالموتى لانهم قالوا بقيامة الجسد فمارسوا طقوساً معينة لهذه الغاية وتولى الاكليروس الدفن باشراف منهم .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان المسيحيين الاولين كانوا مثال التقوى والصلاح ، وان الايمان بالمسيح وبقرب عودته ليدين الاحياء والاموات كان اعمق اثراً في نفوس اهل ذلك العصر من الايمان بالآلهة القديمة ، وان الرسل بلغوا النجاح حيث اخفق كبار الفلاسفة . ومما يجدر ذكره بهذه المناسبة ان الآباء المؤسسين حرّموا الاجهاض وقتل الاطفال . وانهم لموا اللقطاء وعمّدوهم باسم الرب وربوهم على نفقة الكنيسة . وانهم حضوا المؤمنين على العفة والبتولية واساغوا الزواج لمن خشي العنت فقط . وانهم لم يرضوا عن زواج الارامل ولم يأذنوا بالطلاق الا بين الوثني والنصرانية . ومما يثبت استقامة المسيحيين الاولين وصلاحهم شهادات الوثنيين انفسهم . فبلينيوس الاصغر وجد نفسه مضطراً ان يقول للامبراطور تريانوس ان المسيحيين عاشوا عيشة مثلية مسالمة . وقال غاليانوس العالم انهم توصلوا الى درجة من ضبط النفس وسمو الاخلاق اصبحوا بعدها لا يقلون عن الفلاسفة الحقيقيين في شيء . وادى الشعور بينهم بالخطيئة وبقرب انتهاء العالم ومجيء

الديان الى رغبة في الطهارة والى اجتنـــاب كل لذة من لذات الجسد. فكبحوا شهواتهم بالصوم ورياضة الجسم على العذاب، وصدفوا عن الموسيقى والمآكل الشهية والحمامات الساخنة، وارسلوا الشعور واللحى.

آثار المسيحيين الاولين: وحدّث السيد ولم يدوّن. وآثر المسيحيون الاولون السماع على القراءة، ولا عجب. بيد ان ظروف التبشير قضت بالتدوين. فالمؤمنون تفرقوا منذ السنين الاولى وتباعدوا. واليونانيون وغيرهم ممن دخل في الدين الجديد لم يكونوا يفهمون الآرامية. فكان لا بد من التدوين. واقدم ما دوّن انجيل متى. والانجيل لفظ يوناني معناه البشرى. ومتى عشّار يهودي تبع السيد واصبح احد الرسل الاثني عشر. ويستدل من اقوال بعض الآباء كايريناوس ولاسيما بابياس (١٣٠) ان متى تولى تبشير اليهود، فكتب انجيله لهم بالآرامية، وذلك بينما كان بطرس وبولس يعملان في رومة (٥٠ – ٥٥). وفي تضاعيف هذا الانجيل ما يدل على انه كتب لليهود. فهنالك سند طويل يصل نسب السيد بداود الملك، وثمة تفاصيل تجعل من سيرة السيد تكملة لنبوءات التوراة وما الى ذلك. وقد ضاع الاصل الآرامي وبقيت ترجمته الى اليونانية.

وكان بطرس يجهل اليونانية ولا يعرف سوى الآرامية. فلما قضت الظروف بذهابه الى رومة وباقامته فيهـــا استدعى اليه يوحنا الذي كان يدعى مرقس ليترجم له بين الرومانيين وسكان رومة. ومرقس هذا هو في الارجح ابن مريم التي آوت المسيحيين في بيتهـا في القدس في السنة ٤٤ بعد الميلاد. وقد يكون هو الذي اشير اليه في الاصحاح الخامس عشر من انجيل مرقس: «وتبعه شاب لابساً ازاراً على عريه فـــامسكه الشبان. فترك الازار وهرب منهم عريان». وكان مرقس من يهود قبرص يتكلم اليونانية ويقرأ ويكتب فالتحق ببرنابا وبولس. وبعد وفـاة الاول انتقل الى رومة ليعمل مع هامة الرسل. ودوّن سيرة السيد بطلب من اهـل

رومة بين السنة ٥٥ والسنة ٦٠ وذلك كما سمعها من فم بطرس بدون زيادة ولا نقصان . ويقول القديس بابياس ان مرقس كتب جميع ما تذكّره ، ولكن ليس بالترتيب الذي اتبعه السيد في اعماله واقواله . فبطرس الرسول تكلم بحسب ما دعت اليه الحاجة ودونما تقيد بتسلسل الاحداث .

وفي السنة ٦٤ بعد الميلاد ساد الاوساط المسيحية الموجهة شعور بالحاجة الى سيرة مرتبة منظمة ، مكتوبة بلغة واضحة مضبوطة ، وباسلوب رائق جذاب ، يستهوي العقول ، وينشط الهمم . وكان بينهم رجل عالم ولد في انطاكية ، ونشأ فيها ، وتعلم الطب وعمل به ، فأشاروا عليه بالامر . فاطلع على ما كتبه متّى ومرقس ، وسمع وتحرّى . ولعله اتصل بالسيدة نفسها واخذ عنها . وكان قد رافق بولس في رحلاته وفهم منه اشياء واشياء . فجاءَ انجيله تاريخاً رسمياً ، واثراً ادبياً . هو لوقا الطبيب الذي اشار اليه بولس في رسائله مراراً . وكان قد جاءَ رومة بصحبة معلمه فرأى هذا ان توجه الكلمة الى الاوساط العالية في رومة وان تحبب اليها . فظهر هذا الانجيل بحلته القشيبة بين السنة ٦٤ والسنة ٧٠ بعد الميلاد . ومن هنا في الارجح قول القديس ايريناوس ان انجيل لوقا هو انجيل بولس . ويرى رجال الاختصاص علاقة وثيقة بين هذا الانجيل وبين سفر اعمال الرسل من حيث جوهر الرسالة واللغة والاسلوب ، فينسبون سفر الاعمال ايضاً الى لوقا الطبيب . ولما كانت اخباره تنتهي عند السنة ٦٣ الى ٦٤ فأنهم يرون انه كتب في هذا الوقت نفسه .

ومن آثار هؤلاء المسيحيين الاولين رسائل بولس الرسول الى اهل رومية وكورنثوس وغلاطية وافسس وفيليبّي وكولوسي وثيسالونيكية ثم رسائله الى تيموثاوس وتيطس وفيليمون . وجميعها دوّن ما بين السنة ٥٢ والسنة ٦٦ بعد الميلاد . وفيها الشيء الكثير من شرح رسالة السيد وتفصيل العقيدة . فاما الرسالة الى العبرانيين فقد تكون له وقد لا تكون . ومن

هذه الآثار التي تركهـــا المسيحيون الاولون رسالة يعقوب اخي الرب واسقف اورشليم وهي تصور شدة ايمـانه وسمو اخلاقه . ورسالتا بطرس الاولى والثانية ، ورسائل يوحنا الرسول الثلاث ، ورسالة يهوذا .

ويُجمع علماء الكنيسة بفرعيها الرئيسيين الارثوذكسي والكاثوليكي على ان الانجيل الرابع هو ليوحنا الحبيب ويرون في دقة المعلومات الجغرافية التي وردت في هذا الانجيل عن القدس وفلسطين كما يرون في شدة العاطفة التي تضمنها نحو شخص السيد ما يؤيد التقليد الموروث ان كاتب هذا الانجيل وسفر الرؤيا هو يوحنا الحبيب نفسه . كتب سفر الرؤيا في اثنـاء اقامته الجبرية في جزيرة باتموس بين السنة ٩٢ والسنة ٩٦ وكتب الانجيل بعد انتقاله الى افسس بين السنة ٩٦ والسنة ١٠٤ . وكان يوحنا قد اشرف على نهاية عمر طويل وسمع انتقادات الفلاسفة ولمس بعض الشذوذ في العقيدة فجاءت كتابته فلسفية مسيحية دوّن فيها ذكريات شخصية صدر فيهـا عن حب خالص للسيد . وما زالت عباراته المملوءة حباً وعطفاً تهز القـارىء حتى يومنا هذا . « وهو ايضاً الذي اتكأ على صدر السيد وقت العشاء وقال : يا سيد من هو الذي يسلمك ؟ » وهو ايضاً ذاك الذي قال عنه يسوع مخاطباً بطرس : « إن كنت اشاء انه يبقى حتى اجيء فماذا بك ؟ »

هذا وليس لدينا من آثار هؤلاء المسيحيين الاولين اثر مادي سوى ما حفظته جدران مدافن رومة من صور الصلبان والحمام وجذوع النخل وغصون الزيتون والاسماك وجميعها يعود الى القرن الثاني . وليس بينها ما يستوجب الايضاح سوى السمكة . وهذه كانت تذكّر في الاوساط المسيحية الاولى بالآية : « يسوع المسيح ابن الله المخلص . » وتفسير هذا مرده الى العبارة اليونانية : Iesous Christos Theou Uios Soter فمجموع الحروف الاولى من هذه الكلمات اليونانية يشكل اللفظ اليوناني i - ch - th - u - s ومعناه السمكة .

الفصل الثالث

الدولة الساسانية

(٢٢٤ – ٣٠٢ ب. م)

تمهيد : ونظراً لترامي اطراف المملكة السلوقية من الهند الى سواحل بحر ايجه صعب ضبط شؤونها . فنهضت ولاياتها النائية واعلنت استقلالها . فاستقلت الهند اولاً بزعامة تشندراغوبته في السنة ٣١٧ قبل الميلاد اي بعد الفتح الاسكندري بعشر سنوات فقط . ثم استقلت فارس وما يليها بزعامة الامير الفرتي السكيثي أرساس الاول في السنة ٢٥٥ قبل الميلاد . ولا نعلم الشيء الكثير عن هذه الدولة الفرتية اذ تكاد مراجعنا الاولية تنحصر في ما تبقى من نقود ملوكها . واحدث ما وصل اليه رجال الاختصاص هو ان هؤلاء الفرت كانوا ايرانيين كسائر العناصر الايرانية لا يختلفون عنها بشيء الا ببداوتهم وفروسيتهم وشجاعتهم المتناهية في الحرب . وماشى ملوك الفرت غيرهم من ملوك عصرهم في تقبل المدنية الهلينية فتكنوا بالالقاب اليونانية واستعملوا اللغة اليونانية في سك نقودهم . فوصف مثراداتوس الاول وبعض خلفائه انفسهم بالالقاب نفسها التي تلقب بها زملاؤهم ومعاصروهم في انطاكية والاسكندرية[١] . وهنا تجب الملاحظة ان

١ *Philhellene, epiphane, evergete, dikaios.*

الشعب والحكومة تكلموا البهلوية وكتبوا بها وبالآرامية . وامتدت سلطة ملوك الفرت من الفرات حتى الهند ومن بحر قزوين حتى المحيط الهندي .
واشهر ملوك الفرت أرساس الاول (٢٥٥ – ٢٤٧ ق . م) وارساس الثاني والثالث (٢٤٧ – ١٩٦ ق . م) ومترادادتوس الاول (١٧٤ – ١٣٦ ق . م) وخسرو او ارساس الخامس والعشرون (١٠٧ – ١٢١ب.م) وآخرهم ارتبان الخامس او ارساس الثلاثون (٢١٥ – ٢٢٦ ب . م) .

قيام الدولة الساسانية : وكان نظام الحكم في الدولة الفرتية اقطاعياً في اسسه يرتكز على زعامة بعض الاسر وعلى عبودية الشعب . وكان بين هــذه الاسر بنو داریاف او أرتخشطر الذين حكموا مقاطعة فارس من اصطخر[1] . وكانوا محافظين مستمسكين بتقاليد فارس القديمة مؤثرين لغتها واللغة الآرامية على اليونانية كما يستدل على ذلك من نقودهم . وفي السنة ٢١٢ بعد الميلاد قام بابهاغ احد اشراف هذه المقاطعة بثورة محلية اوصلته الى الحكم فيها . وقام ابنه اردشير في السنة ٢٢٤ بعد الميلاد بثورة كبرى وواقع ارتبان الخامس آخر ملوك الفرت في الثامن والعشرين من نيسان من تلك السنة نفسها في هورميزداغان فتغلب عليه ودخل طيسفون عاصمة ملكه منتصراً . ولم يمض وقت طويــــل حتى دانت له مقاطعات الفرت جميعها : ميدية وسيستانة وخراسان ومرجيانة وأرية . واعترف بسيادته الكوشان في افغانستان والبونجاب . فأسس بذلك الدولة الساسانية نسبة الى ساسان احد الاجداد واتخذ لنفسه لقب شاهنشاه وتعريبه ملك الملوك . وكان يدعى بالآرامية ملكان ملكه . ولا تزال النقوش القائمة بالقرب من اصطخر كنقش رجب ونقش رستم تظهر لنا اردشير المؤسس يتسلم سلطته من اكبر الآلهة اهورا مزدة . ولا تزال نقرأ على نقوده البــاقية هذه

١ *Persepolis.*

العبارة : « خادم مزدة » .

وهكذا تميزت الدولة الساسانية الجديدة منذ بداية عهدها بتمسكها بالدين القومي وتعاونها مع رجاله . والدين القومي هذا هو دين مزدة او زوورواستر (زرادشت) قال بنزاع دائم بين الخير والشر وبوجود فئة من الكائنات الصالحة تقاومها فئة اخرى من الكائنات الشريرة لتفسد عليها عملها . ومثّل الخير في هذا الدين شخص الهي مزدة او اهرومزدة ومعناه رب الحكمة وكان يحيط به ملائكة اعظمهم النور مثراس . ومثّل الشر فيه اهريمان الشيطان. وكان على كل انسان ان يختار احد أمرين اما ان يملأ نفسه من الصلاح والنور او ان يقيم في الشر والظلام . واي الامرين اختار فقد كان لابد له من ديمومة في المستقبل . وزوورواستر مؤسس هذا الدين عاش حوالى السنة الف قبل الميلاد وطاف يبشر الشعب الايراني بديانته اعواماً عدة . وحافظ على احترام النار الآرية كرمز محسوس للصلاح والنور . وأوصى بالمحافظة على ايقادها بحيث لا تنطفىء .

وانتظمت امور كهنة مزدة في عهد الدولة الساسانية فكان بينهم الكاهن العادي «الموغان» . وكان على عدد من هؤلاء في كل مقاطعة رئيس دعي « موباذ » . وكان على كل هؤلاء بدورهم رئيس اعلى اطلق عليه لقب « موباذان موباذ » . وكان بين اعمال اردشير الاول مؤسس الدولة ان نقح كتاب الحكمة الالهية «الفيستة » (الزند) . وجمع ابنه وخلفه شابور الاول مجمعاً دينياً نقح الشرائع الدينية واقرها واوجب العمل بها . وكان القول المأثور بين رجال الفرس آنئذٍ ان الدولة والكنيسة شقيقتان لا تنفصلان ، فلا دولة بدون كنيسة ولا كنيسة بدون دولة . وأصبح واجباً لازماً على الشاه ان يتسلم تاجه من يد زميله الكبير رئيس كنيسة الدولة الموباذان مباذ .

وعظمت شوكة الشاه الساساني ففاقت سلطة زميله الارسامي . وبقي

النظام الاقطاعي سائداً في البلاد وبقي النفوذ الاعلى في يد سبع عائلات اقطاعية من الاشراف كما كان الامر في عهد الارساسيين. ولكن هذا النفوذ وذاك الاقطاع أصبحا خاضعين خضوعاً تاماً لمشيئة الشاه. وضبطت ادارة الولايات وأصبح حكامها المرازبة خاضعين لتفتيش متصل من قبل الحكومة المركزية. وكان يجب على الشاه الساساني الايراني النزعة ان يحكم بلاده من اصطخر المدينة الايرانية، ولكن علاقاته السياسية قضت عليه باتخاذ نقطة اقرب الى حدوده الغربية فعاد الى طيسفون العاصمة الارساسية وجعلها مقراً له وقاعدة لحكمه.

وادعى اردشير مؤسس الدولة انه متحدر من هخامنيش صدر الاسرة المالكة الاولى وجد قورش الاول، وزعم ان له حقاً في حكم جميع آسية الغربية ومصر لانها خضعت جميعها لقورش وخلفائه. ولا نزال نقرأ حتى ساعتنا هذه في الكارنامه البهلوية والشاهنامه الفردوسية ان الساسانيين احفاد لداريوس، فلا غرو اذا رأينا هؤلاء يحاربون رومة ورثة الاسكندر وخلفاءه ليسترجعوا ما اغتصب منهم اغتصاباً.

وعني الساسانيون بالخيل عناية فائقة جاءت في طبيعة الامور لان اواسط آسية موطن الخيل وبلاد الدروع والنصال. وأصبح جيشهم جيش خيالة في قلبه وجناحيه. ولم يدربوا المشاة ولا نظموهم ولا سلحوهم باكثر من ترس من الجلد. وكان تكتيكهم في غالب الاحيان يقوم على حشد خيالة القلب حشداً متراصاً بقوة وعلى دفع هذا الحشد في هجوم متراص خاطف غايته غمر مراكز العدو منذ اللحظة الاولى. وكانوا يحتاطون دائماً بحفظ قوة من الفيلة في ساقة الجيش يدفعون بها الى نقاط معينة في الجبهة عند الحاجة. وكان الفارس الساساني يرتدي درعاً من الحديد او البرونز تغطي جسمه بكامله، ويُلبس حصانه مثل هذه الدرع (التجافيف). اما تركيب هذه الدروع فمن قطع مستطيلة من الفولاذ او البرونز طول الواحدة منها عشرون

سنتيمتراً وعرضها خمسة . ويعلو هذه الدروع عند العنق زيق من الحديد او البرونز يغطي العنق والرأس . ثم تعلو هذه كلهـا خوذة من الحديد مزينة باوشحة من الحرير الملون . وكان الفارس الساساني يستعين بقنـاة طولها متران وسيف طويل وقوس ونشاب وفأس فولاذية يعلقها في طرف خوذته الى وراء . وتدل بقايا بعض هؤلاء الفرسان في الصالحية عند الفرات ان حمائلهم كانت مرصعة باليشب الصيني . وكان القائد الساساني قبيل بـدء القتال يذهب الى اقرب ماء فيسكب فوقه قليلاً مما يحمل من الماء المقدس ثم يرمي النبلة المباركة . وعلى الاثر يصفّ جيشه للقتـال ويأمر بالنفخ في الناي الفارسي والمناداة بالعبارة البهلوية « مرد و مرد » ، ومعناها « رجـل لرجل » . وكان يتكرر هذا القتال الفردي قبل التحام الجيشين . وكان الجيش يسمى جنداً ، كل جند يتألف من عدد من الدرفشات ، والدرفشة من عدد من الفشتات . وكان على رأس كل جند ، جند سالار .

وقُدِّرَ لشابور الاول (٢٤١ - ٢٧٢) ابن اردشير الاول ان ينتصر على رومة اكثر من مرة . ففي السنة ٢٥٣ بعـد الميلاد طرد تيريداتس الثاني ، ملك أرمينية وعميل رومة ، من بلاده ، وأقام محله اميراً خاضعاً لسيادة فارس . ثم كسر فاليريانوس الامبراطور في السنة ٢٦٠ عند الرها وأسره . ثم تابع الفتح فدخل انطاكية وطرسوس وقيصرية قبـدوقية ، ولكنه لم ينجُ من ضربة مؤلمة سددها اليه أمير تدمر العربي أذينة بن حيران . أما فاليريانوس الذي اسره شابور عند الرها ، فقد لقي حتفه اسيراً عند الفرس . وقام من اسر معه من الجنود باعمال عمرانيـة في فارس اشهرها جسر جند شابور . وظهر ماني ودعوته ، وكثر اتباعه ، فشغـل شابور وبعض خلفائه عن محاربة رومة . وانهمكت رومة في متاعب اخرى كما اوضحنا فبقي الفرات ردحاً من الزمن وهو الحد الفاصل بين الدولتين .

ماني ودينه الجديد : هو ماني بن بابك ولد في « ماردين من اعمال

بابل » في السنة ٢١٥ بعد الميلاد . وتلقى وحياً لاول مرة في الثالثة عشرة من عمره ثم في الخامسة والعشرين اي السنة ٢٤٠ بعد الميلاد . وعلّم وبشر في طيسفون اولاً وخص شابور باحدى رسائله الاولى . وقال بسببين اصليين : النور والظلام ، وبظروف ثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل . والنور والظلام عند ماني كائنان مستقلان منفصلان منذ الازل . ولكن الظلام غزا النور في الماضي وأصبح بعض النور ممتزجاً بالظلام وهذه هي حالة عالمنا في الحاضر . ثم يخلص ماني الى القول ان لا بد من تنقية النور من هذا الظلام كي يعود النور والظلام الى الانفصال التام كما بدآ . والله هو سيد عالم النور والشيطان سيد عالم الظلام . وعندما غزا الظلام النور لم يستطع سيد النور ان يستعين بالغرانيق الخمسة : الفهم والعقل والفكر والتفكر والارادة لان هذا الغزو كان مفاجئاً لها فذعرت واضطربت .

فخلق سيد النور ام الحياة التي ولدت الانسان وسلّحه بالعناصر الخمسة : النور والريح والنار والماء والهواء ليستعين بها في محاربة الظلام . هذا بعض ما قاله ماني عن الماضي . فاما في الحاضر فان قوى النور بحسب عقيدته قد ارسلت النبيين بوذا وزورواستر ثم يسوع وهو أهم الجميع . والعالم عنده ينتهي في المستقبل بثوران هائل وسقوط عظيم . فيصعد الصالحون في الفضاء الى اعلى ، والاشرار يهبطون الى ظلام دائم . ويرى رجال الاختصاص الذين وقفوا الى درس ما بقي من رسائل ماني في تركستان وفي كتاب الفهرست لابن النديم وفي اوراق البردي في مصر ان المانوية تفرعت عن المسيحية لا الوثنية وخصوصاً لان ماني اعترف بصحة الاناجيل الاربعة ورسائل بولس الرسول ، وقال انه البارقليس المنتظر .

وانتظم المانويون في «كنيسة» واحدة مؤلفة من طبقتين المتقين المصطفين والمستمعين . وكان على رأسها بادىء ذي بدء رسل اثنا عشر ثم تلاميذ ستون ثم اساقفة وكهنة وشمامسة ورهبان . وكانوا يجتمعون في كل احد

للصلاة والترتيل وقراءة الاسفار . وقد انتشرت تعاليم ماني في بابل اولاً ثم في سورية وفلسطين والعربية ومصر وافريقية الشمالية . وكان بين الذين آمنوا بها القديس اوغوسطينوس الشهير فانه واظب على درسها والعمل بها تسع سنوات متواليات . وانتشرت المانوية في فارس واواسط آسيا . وسكت عنها شابور الاول لرحابة صدره واتساع افقه . ولكن كهنة مزدة قاوموا هذه التعاليم مقاومة شديدة فاضطر ماني ان يغادر فارس الى الكشمير فتركستان فالصين .

وتوفي شابور الاول في السنة ٢٧٢ وتوفي ابنه وخلفه هورمزد الاول في السنة ٢٧٣ وتولى العرش بعدهما بهرام الاول فظن المانويون ان سيتاح لمعلمهم ان يعود الى وطنه ويعيش بامان وحرية . ولكنه اعتقل وحوكم وصلب وسلخ جلده وحشي قشاً في السنة ٢٧٥ بعد الميلاد .

بهرام الثاني : (٢٧٦ - ٢٩٣ ب . م) وأهم اخباره انه كان شجاعاً نشيطاً فحارب رومة في عهد كاروس الامبراطور ولكنه غلب على امره فتراجع امام الرومان حتى طيسفون . وتوفي كاروس فجأة فتقهقر الرومان بدورهم ولكن بهرام لم يستطع استغلال الموقف لاندلاع ثورة في ولاياته الشرقية اشعلها اخوه هورمزد . فصالح الرومان في السنة ٢٨٣ على ان يستولوا على ارمينية وما بين النهرين وهبّ الى خراسان ينازل اخاه فأخضعه وعين ابنه ولي عهده بهرام والياً محله ومنحه لقب « ساغان شاه » . وكانت قد جرت العادة فيما يظهر ان يلقب ولي العهد ملكاً على آخر ما افتتح من الممالك او على أهم الولايات .

بهرام الثالث ونرسي الاول : (٢٩٣ - ٣٠٢ ب م) وتولى العرش بعد بهرام الثاني ابنه بهرام الثالث ولم يطل ملكه فيما يظهر اكثر من اربعة اشهر . فأن نرسي عمه الاكبر وابن جده شابور الاول اغتصب الملك اغتصاباً . ودخل نرسي في حرب ضد رومة فاحتل ارمينية وتوغل في

سورية الشمالية ولكن ديوقليتيانوس الامبراطور أمدّ غلاريوس القيصر بالسلاح والرجال فانتصر على نرسي انتصاراً باهراً في ارمينية وأسر حرم الشاه واولاده ثم تابع الزحف حتى استولى على طيسفون العاصمة في السنة ٢٩٦ بعد الميلاد . وارسل نرسي معتمداً من قبله ابهربان يفاوض الرومانيين في انطاكية . وأرسل ديوقليتيانوس السكرتير الامبراطوري سيقوريوس بروبوس[1] يفاوض ويوقع . فتم الاتفاق على الاعتراف بسلطة الشاه في ما بين النهرين وبحماية رومة على ارمينية . وجعلت نصيبين مركزاً للعلاقات التجارية بين الامبراطوريتين .

[1] *Sicorius Probus.*

الباب الثاني

أصل الدولة ومنشأها

•

الفصل الرابع

قسطنطين الكبير والقسطنطينية

قسطنطين الاول الكبير : هو قسطنطين بن قسطنديوس كلوروس Constantius Chlorus من زوجته هيلانة . ولد في نيش من اعمال يوغوسلافية حوالى السنة ٢٨٠ بعد الميلاد . وقد أختلف في اصل والدته . فهي اما اناضولية بلقانية ، في بعض المصادر ، او سورية رهوية ، في البعض الآخر.

نشأ قسطنطين في نيقوميذية في حاشية الامبراطور ديوقليتيانوس والتحق بالجيش في الخامسة عشرة من عمره . وأظهر شجاعة وبأساً وحنكة ودراية فرقي الى رتبة قائد في الثامنة عشرة . وكان ان استقال ديوقليتيانوس وتولى غلاريوس مكانه ففصل قسطنطين عن الجيش وابقاه في معيته لتعلق الجند به واستبسالهم في سبيله ، ولتخوفه مما قد ينتج عن هذه السيطرة على الجند . ويروى ان غلاريوس حاول اهلاك قسطنطين ، فأمره بمصارعة اسد مرة ، وجبار من السرامتة مرة اخرى ، ولكن قسطنطين نجا من المحنتين. ثم استدعاه والده قسطنديوس قيصر فالتحق به . وكان قد تولى الحكم في

غالية واسبانية وبريطانية .

وكان قسطنطين طويل القامة ضخم الجثة ممتلىء البدن سمين الاطراف كبير العينين عابساً مقطباً ثابت العقد ماضي العزيمة . ولكنه كان في الوقت نفسه سهل الانقياد كثير التخلي . وكان واسع الخلق رحب الصدر حليم الطبع ولكنه يجمع الى ذلك سرعة البادرة وشدة الغضب . وجاء ايضاً انه كان متواضع النفس وشديد الكبرياء في آن معاً .

اخباره الاولى : وأراد ديوقليتيانوس الامبراطور ان يجعل جلوس الامبراطور امراً مدنيـــاً لا علاقة له بالجيش . فجعل للدولة الرومانية امبراطورين وجعل لكل منهما قيصراً يعاونه في الحكم ويحل محله عند الوفاة او اعتزال الوظيفة . وطبق هذا النظام الجديد . فجعل مكسيميانوس امبراطوراً يشاطره الحكم . وحكم هو الشرق متخذاً نيقوميذية قاعدة له ، وحكم مكسيميانوس الغرب وجعل قاعدته ميلان . ثم نصب غلاريوس قيصراً يحكم ايليرية واليونان ومقدونية واقام قسطنديوس كلوروس ابا قسطنطين قيصراً حاكماً على غالية واسبانية وبريطـــانية . فلما استقال الامبراطوران ديوقليتيانوس ومكسيميانوس في السنة ٣٠٥ تولى الحكم بعدهما بموجب النظام الجديد كل من غلاريوس في الشرق وقسطنديوس في الغرب . وعين الامبراطوران الجديدان قيصرين جديدين سويروس على ايطالية وافريقية ، ومكسيميانوس على سورية ومصر .

ثم توفي قسطنديوس الامبراطور الغربي في السنة ٣٠٦ في يورك من اعمال بريطانية . فعبث ابنه قسطنطين بالنظام الجديد وأعلن نفسه قيصراً على غالية واسبانية وبريطانية . ولم يرضَ الحرس في رومة عن غلاريوس فنادوا بمكسنتيوس بن مكسيميانوس امبراطوراً . وعادت شهوة الحكم الى قلب مكسيميانوس الوالد المستقيل ، فاعلن نفسه امبراطوراً ايضاً . وأصبح للدولة الرومانية اباطرة ثلاثة وقياصرة ثلاثة . وثار جنود سويروس عليه فقتلوه . فعين

غلاريوس قيصراً جديداً محله يدعى ليكينيوس . وقبض على مكسيميانوس في مرسيلية في السنة ٣١٠ فقتـــل بامر قسطنطين في السنة ٣١١ وتوفي غلاريوس في هذه السنة نفسها من مرض المّ به . ثم زحف قسطنطين على ايطالية وقهر مكسنتيوس في تورينو في السنة ٣١٢ فارتد هذا الى رومة. فلحق به قسطنطين ودحره مرة ثانية في ساكسة روبرة عند الصخور الحمراء[1]. وغرق مكسنتيوس في نهر التيبر . فلم يبق في الميدان سوى قسطنطين وليكينيوس . فحكم الاول الغرب وحكم الثاني الشرق . ثم شجر الخلاف بينهما في السنة ٣١٤ فاضطر ليكينيوس ان يتنازل عن ايليرية ومقدونية وآخية لقسطنطين . واستأنف الامبراطوران القتال في السنة ٣٢٣ فانكسر ليكينيوس في ادريانوبل وخلقيدونية واستسلم في نيقوميذية . فأمر قسطنطين بقتله، فقتل في السنة ٣٢٤ . وهكذا أصبح قسطنطين حاكم الامبراطورية الفرد.

موقفه من النصرانية : والشائع الذي دوّنه المعاصرون[2] هو ان قسطنطين في شفق ليلة من ليالي حربه ضد مكسنتيوس في خريف السنة ٣١٢ شاهد فوق قرص الشمس الجانحة الى المغيب صليباً من نور مكتوباً عليه « بهذا تغلب[3] » وان السيد ظهر له في اثناء تلك الليلة حـــاملاً هذه الشارة نفسها موصياً اياه باتخاذها راية يهجم بها على العدو . وتنص هذه المصادر ايضاً على ان قسطنطين استدعى اركانه عند فجر اليوم التالي وقصّ عليهم ما راى وأمر باتخاذ الصليب شعاراً . وراية قسطنطين هذه[4] التي اصبحت فيما بعد راية دولة الروم كانت تتألف من صليب تتدلى من عارضته الافقية قطعة من الحرير المزركش بالذهب المرصع بالحجارة الكريمة

١ *Saxa Rubra* وهي *Primaporta* الحالية.

٢ *Lactantius, De Mortibus Persecutorum; Eusebius, Constantini, I,38-40.*

٣ هكذا في الاصل اليوناني وفي المراجع اللاتينية : *IN HOC SIGNO VINCES*

٤ *Labarum.*

تحمل صورة قسطنطين وولديه ويعلو الصورة اكليل من ذهب في وسطه مونوغرام السيد المسيح .

ومما جاءَ في المصادر المتأخرة ان قسطنطين تقبل سرّ المعمودية بعد انتصاره على مكسنتيوس في السنة ٣١٢ نفسها . ويرى العالم الافرنسي جول موريس الاختصاصي في المسكوكات البيزنطية القديمة ان لا بد لقسطنطين ان يكون قد تعمد آنئذٍ لظهور مونوغرام السيد المسيح على مسكوكاته ولاهتمامه وعنايته بالنصارى بعد ذلك ولاسباب اخرى لا مجال لذكرها هنا فلتراجع في مظانها[1] . ويرى غير هذا العالم من رجال الاختصاص ايضاً ان دليله ضعيف وان المراجع الاولية قليلة غامضة وان قسطنطين بقي وثنياً طوال حياته وانه لم يتقبل النصرانية الا على فراش الموت[2] .

براءة ميلان: وسواء تقبل قسطنطين المعمودية فور انتصاره على خصمه في رومة في السنة ٣١٢ ام على فراش موته فانه ما كاد يرتب امور رومة حتى انتقل الى ميلان في مطلع السنة ٣١٣ ليجتمع بزميله ليكينيوس وكان هذا قادماً الى ميلان ليتزوج من قسطندية Constantia اخت قسطنطين . وبقي الامبراطوران شهرين كاملين يشتركان في ميلان في افراح العرس ويتشاوران في امور الدولة .

وكان غلاريوس الامبراطور قد اصدر قبيل وفاته في السنة ٣١١ براءة صفح فيها عما سلف للمسيحيين من مخالفات لاوامر الدولة واقر حقهم الشرعي في ممارسة دينهم : « وللمسيحيين ان يستمروا في الوجود وان ينظموا اجتماعاتهم شرط الا يخلّوا بالنظام . وعليهم بناءً على تسامحنا وتعطفنا ان يصلوا الى الههم ليسعد ظروفنا وظروف الدولة وظروفهم[3] . » ورأى

١ *Maurice, Jules, Constantin le Grand, 30-36.*

٢ *Vasiliev, A.A., Byz. Emp., 48.*

٣ *Lactantius, De Mortibus Persecutorum, 34 : 4-5.*
Eusebius, Historia Ecclesiastica, viii, 9-10.

الامبراطوران المجتمعان ان يشددا في تنفيذ هذه البراءة . فكتب كل منهما الى عمّاله بوجوب السهر على التنفيذ . ولدى عودة ليكينيوس الى نيقوميذية كتب الى حاكمها في الثالث عشر من حزيران سنة ٣١٢ ان يبيح للمسيحيين ولغيرهم ايضاً العبادة كما يشاؤون وذلك ليصبح كل انسان حراً في امر عبادته[١] . ورد للمسيحيين الابنية والكنائس التي كانت قد صودرت من قبل . وفي خريف السنة ٣١٥ أحيا قسطنطين اوامر اسلافه الاباطرة فحرّم التبشير باليهودية والدعاية لها[٢] . ثم بعد سنة وجد نفسه في ميلان مرة اخرى لينظر هذه المرة في امر الدوناتيين فيحكم عليهم . وفي اول اذار من السنة ٣١٧ نلقاه في سرميوم في إليرية يعلن ابنيه كريسبوس وقسطنطين الاصغر قيصرين وذلك في الوقت نفسه الذي اعلن فيه زميله ليكينيوس ابنه ليكينيانوس قيصراً ايضاً . ونراه يتقبل بهذه المناسبة الحرفين اليونانيين « خي » و « ابوته » ، فيأمر بنقشهما على خوذته في النقود الصادرة عنه . وهذان الحرفان هما مونوغرام السيد المسيح باليونانية . وفي السنة ٣٢٦ بعد تغلبه على زميله ليكينيوس نراه يتخذ لنفسه علم اللبّاروم الشهير المشار اليه آنفاً فيظهر على رأس هذا العلم المونوغرام المسيحي المذكور .

مجمع نيقية : وعلى الرغم من هذا كله استمرت سياسة الدولة الرومانية الدينية هي نفسها التي اقرت في ميلان سنة ٣١٢ سياسة تسامح وتساو بين جميع الاديان . واستمر الامبراطور قسطنطين حبر الدولة الاعظم يرعى جميع الاديان بالتساوي والتسامح . وهكذا نراه يعلن لجميع الرعايا بعد انتصاره على خصمه ليكينيوس انه وان يكن قد انتصر بمعونة اله المسيحيين فانه

١ *Lactantius, op. cit. 48, 4-8; Eusebius, op. cit X, 5, 6-9.*
٢ *Cod. Theod., XVI, 18, 1.*

لا يُكره احداً ان يذهب مذهبه وان لكل من رعاياه ان يتبع الرأي الذي يراه[1] .

واختلف الاحبـــار المسيحيون في هذه الآونة واختصموا . واتصل خلافهم بالقساوسة والرهبان والافراد . فاضطر قسطنطين الكبير ان يتدخل في الامر لانه كان حبر الدولة الاعظم ورأسها فمن واجبه ان يحافظ على الامن وحرية العبادة ثم انه كان يعطف على النصرانية ويعترف بفضل اله النصارى كما اشرنا . وكان قد سبق له مثل هذا عند ظهور الدوناتية في افريقية . ولكن الانشقاق الذي ادى الى تدخله الشخصي هذه المرة كان اشد خطراً بما لا يقاس مما حدث في ولاية افريقية . فانه حادث هدد السلم في الولايات الشرقية . وتفصيل الامر ان آريوس Arius احد قساوسة مصر وراعي كنيسة بوكاليس فيها قال بخلق الابن وخلق الروح القدس فانكر بذلك الوهية المسيح واثار عاصفة هوجـــاء من الانتقاد والاحتجاج شملت العـــالم المسيحي بكامله . ولسنا نعلم الشيء الكثير عن آريوس هذا . نجهل محل ولادته وتاريخها كما نجهل تفاصيل فلسفته الدينية . وقد ضاعت رسائله ولم يبق منهـا الا مقتطفات يسيرة جاءت في بعض الردود عليه ولاسيما ما كتبه القديس اثناسيوس الكبير . ولولا تعلق المؤرخ يوسيبيوس به لما حفظت رسائل قسطنطين عنه . وقد يكون لما اورده القديس امبروسيوس اهمية خاصة لانه اطلع فيما يظهر على تقارير الاسقف هوسيوس الذي انتدب للتحقيق في قضية آريوس قبيل انعقـــاد المجمع المسكوني الاول .

وهال قسطنطين امر هذا الانشقاق . وكان يجلّ اسقفاً اسبانياً يدعى هوسيوس وهو الذي سبق ذكره . وكان هذا شيخـــاً جليلاً محترماً . فاستدعاه قسطنطين اليه وانفذه الى الاسكندرية ليتصل بحبرها الكسندروس

[1] Eusebius, Vita Constantini, II, 48-60.

ويصلح الحال . وكتب الى كل من الكسندروس وآريوس فيها بوجوب التآلف ونبذ الخصام . وألمع الى وجوب طاعة الرئيس كما اشار الى « ان الاختلاف العقائدي امر فلسفي دقيق لا يستوجب ذلك الاهتمام » . ولكن هوسيوس اخفق في الاسكندرية وعاد الى نيقوميذية . وقصد اليها كل من الكسندروس وآريوس . واقترح هوسيوس عقد مجمع مسكوني يضم جميع اساقفة النصرانية للبت في قضية آريوس . فقبل الامبراطور اقتراحه ووجه الدعوة الى جميع الاساقفة في الامبراطورية الرومانية جاعلاً تحت تصرفهم وسائل النقل الرسمية . وعيّن نيقية مركز الاجتماع بدلاً من نيقوميذية عاصمة الدولة الموقتة لانحياز اسقف نيقوميذية الى آريوس ولعطف قسطنديه عليه .

ولبّى الدعوة عدد غير قليل من الاساقفة ، مئتان وخمسون في رواية يوسيبيوس ، ومئتان وسبعون في رواية افستاثيوس ، وثلاث مئة في رواية اثناسيوس القديس ، وثلاث مئة وثمانية عشر في رواية القديس هيلاريوس . وكان معظم هؤلاء من الولايات الشرقية . ودامت جلسات المجمع سبعة وتسعين يوماً بين العشرين من ايار سنة ٣٢٥ والخامس والعشرين من آب من السنة نفسها . وجلس افستاثيوس بطريرك انطاكية الى يمين الامبراطور وكان قد اشتهر بعلمه ورسائله وتقواه ، فافتتح المجمع بكلمة شكرٍ رفعها الى الامبراطو وبيّن فيها فضله على النصارى . وقام قسطنطين فألقى كلمة باللاتينية ترجمت الى اليونانية اشار فيها الى جمال الدين المسيحي مستشهداً ببعض اخبار السيد مؤكداً تعلقه بمشيئة رب السموات . ثم طلب الى المجتمعين ان يعودوا الى الكتب ليوحدوا الصفوف . وخرج من المجمع تاركاً الاساقفة في خلوة للعمل . فتشاوروا برئاسة احدهم ، ولعله الاسقف هوسيوس صديق الامبراطور . وظل قسطنطين يتابع اعمالهم عن كثب . وفي الخامس والعشرين من تموز دعاهم الى حفلة في قصره في نيقوميذية

لمناسبة انقضاء عشرين سنة على تسلمه الحكم . فاستقبلهم فيها حرس الامبراطور مقدمين السلاح .

واستمع الاعضاء الى شكوى الكسندروس الاسكندري ثم الى موقف آريوس من الثالوث كما ظهر هذا الموقف في رسائله . فأيد آريوس عشرون اسقفاً وخالفه الباقون . وأقر الاعضاء دستور ايمان مُعدّل في المجمع الثاني فاصبح دستور ايمان المسيحيين اجمعين ولا يزال كذلك . وهو يسند الى الكسندروس واثناسيوس الاسكندريين وهوسيوس الاسباني . ونظر المجمع في مسائل اخرى كمسألة عيد الفصح والمعمودية . وسنّ عشرين قانوناً اهمها ما تعلق بنظام الكنيسة . فنصّ القانون الرابع على ان الاسقف الواحد يجب ان يشترك في اختياره جميع اساقفة الابرشية . فان كان هذا مستصعباً لضرورة قاهرة او لبعد المسافة فلا بد من اجتماع ثلاثة معاً بعد اشتراك الغائبين في التصويت وموافقتهم كتابةً . وحينئذٍ يعملون الشرطونية . اما تثبيت الاجراءات في كل ابرشية فمنوط بالمتروبوليت .

وجاء في القانون الخامس : « لقد رأينا حسناً ان تعقد مجامع في كل ابرشية مرتين في السنة لكي تُبحث امثال هذه المسائل باجتماع عمومي من جميع اساقفة الابرشية . » وقضى القانون السادس : « بان تكون السلطة في مصر وليبية والمدن الخمس لاسقف الاسكندرية لان هذه العادة مرعية للاسقف الذي في رومة ايضاً . وعلى غرار ذلك فليُحفظ التقدم للكنائس في انطاكية وفي الابرشيات الاخرى . » وجاء في القانون السابع : « انه جرت العادة والتسليم ان يكون الاسقف الذي في إلية (اي اوروشليم) ذا كرامة . فلتكن له المتبوعية في الكرامة . »

وأيد قسطنطين هذه القرارات وأمر بوجوب تنفيذها والخضوع لها ونفى من الاساقفة كل من امتنع عن الموافقة عليها . ونفى الاب آريوس ايضاً . ومنح الاكليروس المسيحي والعذارى والارامل مبالغ محدودة

كانت تؤخذ من دخل المدن لا من موازنة الدولة . ووهب الكهنة الضمانات نفسها التي كان يتمتع بها الكهنة الوثنيون . واهتم قسطنطين في هذه الآونة نفسها ، ولاسيما السنتين ٣٢٥ و ٣٢٦ ، بالضعفاء فمنع تفريق عائلات الارقاء عند اقتسام الاراضي وحرّم مطالبة الكولوني باكثر من طاقتهم كما حرّم مشاهد المصارعة المؤلمة . وأمر بهدم بعض المعابد الوثنية التي اشتهرت بفسقها ، ومنها هيكل عشتروت في افقا لبنان . فقد جاء في ترجمة حياة قسطنطين ليوسيبيوس المؤرخ ما تعريبه : « لما استوى قسطنطين على منصة الملك رقب من سمو عرشه ما نصبه ابليس من الاشراك في فينيقية لصيد النفوس . فوجد من ذلـــك على هضاب لبنان في موضع قفر لا تطرقه السابلة معبداً تحدق به غيضة . وكان المعبد قد اقيم لبعض الاصنام الدنسة يدعى الزُهَرة يتوارد اليه البغايا واهل الفجور . فأضحى بذلك اشبه بماخور منه بمعبد ديني . ولم يتجاسر احد من اهل الفضل ان يدخل اليه ليتحقق صحة ما تناقلته الالسن . بيد ان قسطنطين وقف على حقيقة الامر فرأى من اخص واجبـــاته ان يقوّض اركان ذلك الزون النجس . فأمر عمّاله بان يهدموا ذلك المقام ويكسروا اصنامه ويتلفوا مـا حمل اليه من الهدايا النفيسة . فأرسلت الى افقـا فئة من الجند نفذوا اوامر الملك ولم يبقوا ولم يذروا . وكان ذلك في السنة ٣٢٥ . اما سكان افقا فأمروا بان يبارحوا مساكنهم فأستوطنوا بعلبك[١] . »

القديسة هيلانة : وفي مطلع السنة ٣٢٦ قـام قسطنطين الى رومة ليحتفل فيهـا كما احتفل في نيقوميذية بعيده العشرين . وأصدر في الثالث من شباط قانون الزنى واردفه في اول نيسان بقانون الخطف والاغتصاب وبقانون زواج اليتيم . ولعله حرّم السراري على المتزوجين في هذه الآونة

١ *Eusebius, Vita Con. III, 55.*

ايضـــاً . ورأت زوجته فاوسطة ان تستغل محافظة زوجها على الآداب والاخلاق فاتهمت كريسبوس ابنه من ضرّتها ، وكان قد بلغ العشرين من العمر ولمع في ميادين القتال ، بمحاولة الاعتداء على عفتها . فأماته والده مسموماً . ثم أتهمت هي بدورها بالخيانة وكانت لا تزال وثنيـة تشابه في صورتها الجانبية والدها مكسيميانوس ، وكان قسطنطين يكرهه ، فأمر قسطنطين باماتتها هي ايضاً خنقاً بحمام ساخن .

وكانت والدته القديسة هيـــلانة قد استقرت في رومة وتمتعت بلقب اوغوسطة واثرت ثراء كبيراً . فعزمت في السنة ٣٢٦ على القيام برحلة الى فلسطين للتبرك بزيارة الاماكن المقدسة . وغادرت رومة في اواخر الصيف واتجهت شطر فلسطين بحراً . وكان قسطنطين قد فاوض مكاريوس اسقف اوروشليم في اقامة كنيسة لائقة بالسيد في جلجثة في اوروشليم تكون افضل الكنائس . فأستحثت القديسة الاسقف على اتمام هذا العمل . فتم البناء في السنة ٣٣٥ . وكان قد سبق للنصارى ان اقاموا في القرن الثالث بناء مثمّن الاضلاع والزوايا فوق الكهف الذي ولد فيه السيد في بيت لحم ، فأضافت الى هذا المثمن بازيليقة فخمة . وفعلت مثل هذا عند كهف الصعود . وعند انتهاء هذا القرن الرابع بدأ النصارى يتناقلون خبراً مؤداه ان القديسة هيلانة ، بعد تفتيش دقيق وعناء شديد ، وجدت ثلاثة صلبان في جلجثة ، وانها أحبت ان تتعرف الى صليب السيد منها فلمست بها جسد مريض شاب وانتقت منها ذاك الذي شفى المريض . ولدى عودتها اذابت بعض مسامير الصليب في معدن خوذة قسطنطين الاول والآخر في لجام حصانه كما انها وزعت عود الصليب على كنائس عدة .

آريوس ثانية : ولم يتمكن المجمع المسكوني من استئصـــال بذور الشقاق فالآريوسيون كانوا كثراً تؤيدهم قسطندية اخت الامبراطور . ويقول المؤرخ صوزومينوس ان قسطندية اوصت اخاها وهي على فراش

الموت بكاهن آريوسي كان قد أصبح معلم ذمتها وان هذا الكاهن قدم يوسيبيوس الآريوسي اسقف قيصرية الى قسطنطين الامبراطور فتمكن الاسقف من اقناع الامبراطور انه لا فرق بين ايمان آريوس وايمان المجمع وان الامبراطور اعاد آريوس من منفاه وارسله في السنة ٣٣٠ الى الاسكندرية[١].

وعاد الآريوسيون الى العمل فعقدوا مجمعاً في انطاكية في السنة ٣٣٠ وقطعوا افستاثيوس بطريرك انطاكية وغيره ونفوهم بامر قسطنطين. وقام آريوس الى الاسكندرية فمنعه بطريركها اثناسيوس الكبير من الدخول اليها. فأتهمه الآريوسيون بالتعاون مع مُطالبٍ بالحكم على مصر وبدفع الضرائب اليه. فأضطر اثناسيوس ان يقصد القسطنطينية للدفاع عن نفسه. فأصغى قسطنطين اليه وعفى عنه وسمح له بالعودة الى الاسكندرية. وفي السنة ٣٣٣ عقد الآريوسيون مجمعاً في قيصرية فلسطين ودعوا اثناسيوس اليه فلم يحضر. ثم اعادوا الكرة في السنة ٣٣٥ فعقدوا مجمعاً في صور فدعوا اثناسيوس فحضر فقطعوه. فأستأنف حبر الاسكندرية قرارهم، فأمر قسطنطين بانعقاد مجمع في القسطنطينية في السنة ٣٣٦. وفاز الآريوسيون باغلبية المقاعد فحكم هذا المجمع على اثناسيوس فنفي الى فرنسة[٢]. وأصر آريوس على العودة الى الاسكندرية ولكن الاسكندريين لم يقبلوا به فأمره الامبراطور ان يخدم الاسرار في القسطنطينية. فأعترض اسقفها الكسندروس فأكره على ذلك اكراهاً. ومات آريوس في السنة ٣٣٦ وظلت قضيته قائمة حتى السنة ٣٩٥ كما سيجيء بنا.

القسطنطينية : وقضت ظروف قسطنطين السياسية والعسكرية ببقائه

١ Sozomenis, *Hist. Eccl. II, 16-17, III, 13.*
Gwatkin, Studies on Arianism, 57, 96.

٢ *Theodoretus, Hist. Ecc.;*
Socrates Scholasticus, Hist. Ecc.

في الشرق اكثر من الغرب . فالقبائل البربرية التي كانت تهدد حدود الدولة في اوروبة كانت تتأثر كثيراً بحركات القبائل الضاربة في مراعي روسية الجنوبية ، والاسرة الساسانية التي كانت قد اعادت الى فارس نشاطها وطموحها كانت قد بدأت تطمع في ولايات رومة الشرقية . وكانت هذه الولايات الشرقية قد احتفظت بنشاطها الاقتصادي فكانت تؤدي الى الخزينة مبالغ عظيمة من المال تفوق بكثير ما كانت تؤديه الولايات الغربية . وكانت ولايات البلقان تقدم افضل الرجال للجيش . ولمس قسطنطين هذا كله فرأى ان لا بد من انشاء عاصمة جديدة في الشرق تسهل الدفاع عن الدانوب والفرات وتضمن الطمأنينة اللازمة لابناء الولايات الشرقية . فاراد في البدء ان يجعل مسقط رأسه نيش عاصمة لملكه . ثم اتجهت انظاره نحو صوفية Sardica وثيسالونيكية . ورأى بعد ذلك ان طروادة احق بالشرف من هذه جميعها لانها كانت موطن الجبابرة ومسقط رأس الرومانيين الاولين الذين اسسوا رومة . وقام اليها بنفسه وخطط العاصمة الجديدة فيها وفي ضواحيها وانشأ الابواب الرئيسية ولكنه تراءى له في حلم ان إلهه يأمره بالتفتيش عن محل آخر فوقع اختياره على بيزنطة[1] .

وكانت بيزنطة مستعمرة يونانية قديمة أسسها ابناء ميغارة Megara في السنة ٦٥٢ قبل الميلاد للاتجار بحبوب روسية الجنوبية ومعادن حوض البحر الاسود ومصايد البوسفور . وقامت بيزنطة هذه على رأس ناتىء في البحر عند اول فجوة داخلة في ساحل البوسفور الاوروبي . وكانت هذه الفجوة على شكل هلال مائي داخل في الارض عشرة كيلومترات ولذا اسمه المتأخر « القرن الذهبي » . واتخذت بيزنطة شكل الرأس الذي عليه

١ *Sozomenis, Hist. Ecc. II, 3.*
Piganiol, A. , Emp. Chretien, 49.

فأصبحت مثلثاً تحمي المياه جانبين من جوانبه الثلاثة، ويحمي جانبه الثالث سور قوي لا تتحكم فيه اية مرتفعات مجاورة.

وجاءَ في التقليد ان الامبراطور المؤسس عندما بدأ بتخطيط العاصمة الجديدة أمسك رمحاً بيده وطاف حول بيزنطة وأطال الطواف، فقال له رجال الحاشية: متى تقف يا سيد؟ فأجاب: عندما يقف هذا الذي يسير امامي. وشاع بين القوم ان قوة سماوية كانت ترشده سواءَ السبيل[1]. والواقع ان قسطنطين لم يقف الا بعد ان ادخل في تخطيطه كل التلال السبع التي ضمها الرأس بين بحر مرمرة والقرن الذهبي. واختار قسطنطين الجزء الجنوبي الشرقي من بيزنطة فانشأ فيه قصره الامبراطوري. وجعل من الساحة المستطيلة التي وقعت الى الشمال الغربي من هذا القصر ساحة عمومية رئيسية دعاها الاوغوسطايوم Augustaeum، اي ساحة اوغوسطوس فغطى ارضها بالمرمر واحاطها من جميع جوانبها بالمنشآت العامة. واقام الى غربي ساحة اوغوسطوس الملعب الكبير Hippodromus الذي أصبح فيما بعد مسرحاً للسياسة ولجميع ظواهر الحياة العامة في العاصمة. فكان يشمل فيما شمل الكاثيسمة Kathisma، اي لوج الامبراطور. وكان العرش العظيم الذي اقيم في وسط هذا اللوج هو المكان الذي يطل منه الامبراطور على شعبه في غالب الاحيان. وازدان هذا الملعب بمسلة فرعونية أحضرت من مصر وبالثعبان النحاسي ذي الرؤوس الثلاثة الذي صنعه بوسانياس لهيكل دلفي بمناسبة الانتصار على الفرس في بلاتية (٤٧٩ ق. م) وبالعمود البرونزي المربع. وانشأ قسطنطين بالقرب من هذا الملعب والى شرقيه بناءً صغيراً جعله نقطة الانطلاق لبعد المسافات في جميع انحاء العالم الشرقي ودعاه المليون Milion. وكان هذا المليون يشبه الهياكل ويقوم سقفه على سبعة اعمدة وبداخله

١ *Philostorgii, Hist. Ecc.*, ii, 9.

تمثال للامبراطور وتمثال آخر لوالدته هيلانة . وخص قسطنطين المسيحيين بكنيسة كبيرة اسماها كنيسة الحكمة الالهية Hagia Sophia . ولم تكن هذه كنيسة الحكمة الالهية الحالية بل كانت بازيليقة احترقت مرتين فاندثرت . واقام قسطنطين في هذه المنطقة نفسها مجلساً للشيوخ وقصراً للبطريرك .

ولا نعلم بالضبط متى خطط قسطنطين عاصمته الجديدة . وربما كان ذلك بين السنة ٣٢٨ والسنة ٣٢٩ ولكننا نعلم ان تدشينها جرى في الحادي عشر من ايار سنة ٣٣٠ وان الاساقفة النصارى باركوا القصر واقاموا صلاة خصوصية في كنيسة الحكمة .

ودعا قسطنطين عدداً من شيوخ رومة القديمة وعدداً كبيراً من كبار الاغنياء في بلاد اليونان وآسية للاقامة في العاصمة الجديدة . واغرى آلافاً من رجال الفن والصناعة والتجارة للغرض نفسه . ووزع القمح والزيت مجاناً على السكان . وخصص القمح الذي كان «يجبى» من مصر للعاصمة الجديدة . وجعل قمح قرطاجة لمؤونة العاصمة القديمة . وأصدر أمراً منح بموجبه المدينة الجديدة لقب «رومة الجديدة» ولكن الشعب اطلق عليها اسم القسطنطينية[١] .

ولا يختلف اثنان في ان نقل العاصمة الى هذا المقر الجديد كان في حد ذاته عملاً تاريخياً عظيماً لانه اعطى الدولة الرومانية حصناً منيعاً تصمد فيه فتصد هجمات البرابرة وتحفظ تراثاً مدنياً كبيراً ولانه أمدّ النصرانية بعاصمة تنطلق منها الى جميع الجهات ، لاسيما وان رومة كانت لا تزال

١ *Maurice, J., Origines de Constantinople, Paris, 1904 ;*
Brehier, L , Constantin et la Fondation de Const., Rev. Hist. , 1915, 238;
Emereau, C. , Notes sur les Origines de Const. , Rev. Arch. 1925, 1 - 25.
اومان: الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، الفصل الاول ص ٣ - ١٣ .

حصن الديانة القديمة وانها بقيت وثنية الى وقت طويل[1] .

الادارة : ونهج قسطنطين في اصلاح الادارة الطريق نفسه الذي سلكه ديوقليتيانوس . ففصل السلطة العسكرية عن السلطة المدنية ، وقوّى الحكومة المركزية وحصر سلطتها العليا في شخص الامبراطور . ولم يكن هذا الاتجاه في الاصلاح ابن ساعته . فسويتونيوس المؤرخ الروماني يقول ان كاليكيولا الامبراطور (٣٧ – ٤١ ب . م) كان على استعداد تام لتقبل التاج وان الامبراطور هيليوس جبلوس الحمصي لبس التاج في ظروف خاصة وان اورليانوس (٢٧٠ – ٢٧٥ ب . م) زين رأسه بالتاج في المواقف الرسمية واتخذ لنفسه لقب الاله في نقوشه الرسمية وعلى نقوده[2]. ويرى رجال الاختصاص ان الاباطرة نقلوا رأيهم هذا في الحكم عن البطالسة والسلوقيين ثم عن الساسانيين في ايام ديوقليتيانوس وقسطنطين .

وليس لدينا من النصوص الاولية ما يخولنا التبسط في وصف الادارة كما انشأها ديوقليتيانوس وأقرها قسطنطين . والمرجع الاولي الاساسي في هذا الموضوع هو لائحة رسمية[3] بوظائف البلاط والادارة والجيش وباسماء الولايات ظنها المؤرخون السابقون من مخلفات القرن الرابع فاعتمدوها في ابحاثهم . ولكن النقد الحديث يجعلها من بقايا القرن الخامس لا الرابع .

وعلى الرغم من هذا يجوز القول ان حكومة الدولة الرومانية في عهد قسطنطين الكبير كانت قد اصبحت حكومة مطلقة الصلاحية تستمد سلطتها من قوة الجيش المرابط ومن محافظتها على الانظمة الموروثة ومن احترامها للقانون . وكان على رأس هذه الحكومة امبراطور متجلبب بعظمة شرقية

١ *Uspensky, Th. Hist. of Byz. Emp. I, 60-62.*

٢ *Deus et Dominus Aurelianus Augustus; Homo, L. Règne de l'Empereur Aurelien, 191-193.*

٣ *Notitia Dignitatum.*

يعلو رأسه التـــاج ويردّي جسمه الارجوان . وقد اعتزّل قومه وعظم قدره وغشيت جلالته الابصار فخشعت امامها العيون وتصاغرت عندهـا الهمم لا يقوم بين يديه الا كل متهيب ناكس مطرق . وجمع الامبراطور في شخصه شقّي السلطة المدنية والعسكرية وأصبح مصدر التشريـــع كما اصبحت اوامره التفسيرات الوحيدة لما يصدر عنه من تشريع . ولما كانت جميـــع امور الدولة في عرف الرومان تخضع لسيطرة الحكام كان الامبراطور بطبيعة الحال رئيس رجال الدين ايضاً وحبراً من احبارهم[١] .

وجـــاء على رأس الادارة المدنية مجلس استشاري اعلى[٢] مؤلف من رؤساء دوائر الدولة من رئيس الخصيـان اقرب المقربين الى الامبراطور[٣] ومن قومس الاحسان والانعام[٤] وقومس الامـلاك الخاصة[٥] ومن قسطور القصر المقدس[٦] امين القوانين ومن رئيس ديوان الرسائـل[٧] . وكان هذا يشرف على الكتبة والبريد والحرس ودور الصناعة والشرطة . وكان بين هؤلاء رجال الامن العام[٨] .

وكان الامبراطور ديوقليتيانوس قد اقصى الشيوخ عن ادارة الولايات وجعلها جميعها تابعة له وضاعف عددها ليقلل موارد حكامها واهميتهم فجعلها مئة وعشرين بدلاً من خمسين . وجعل على رأس كل منها رئيساً[٩] يشرف

١ *Pontifex Maximus.*
٢ *Consistorium Principis.*
٣ *Praepositus Sacri Cubiculi.*
٤ *Sacrae Largitiones.*
٥ *Res Privata.*
٦ *Quaestor Sacri Palatii.*
٧ *Magister Officiorum.*
٨ *Agentes in Rebus.*
٩ *Praeses.*

على ادارتها وينظر في دعاويها القضائية . ثم جمع بينها فجعلها اثنتي عشرة ذيقوسية : بريطانية وغالية واسبانية وافريقية وايليرية في الغرب ، وداقية ومقدونية وتراقية وآسية والبونط والشرق ومصر في الشرق . وجعل على رأس كل ذيقوسية نائباً[1] يشرف على اعمال رؤساء الولايات وينظر في ما يُستأنف اليه من الدعاوى . وجرّد قسطنطين المدبر الروماني القديم البرايفيكتوس[2] من صلاحياته العسكرية وجعل منه حاكماً مدنياً اعلى . فقسم الامبراطورية الى اربع برايفكتورات : غاليــة وايطالية وايليرية والشرق . فشملت برايفكتورة الشرق ذيقوسيات الشرق ومصر وآسية والبونط وتراقيــة . وشملت ذيقوسية الشرق ولايات فلسطين الاولى وفينيقية وسورية الاولى وقيليقية وقبرص وفلسطين الثانية وفلسطين الثالثة وفينيقية اللبنانية والفرات وسوريا الثانية والرها وما بين النهرين وقيليقيــة الثانية واسورية والعربية . ولا تزال اسماء هذه الولايات محفوظة في القاب احبار الكنيسة الارثوذكسية حتى يومنا هذا .

فمتروبوليت بيروت «مقام من الله على بيروت وتوابعهـا ، متقدم في الكرامة ، متصدر في الرئاسة على كل فينيقية الساحلية . ومثله متروبوليت طرابلس ، ومتروبوليت صور وصيدا . اما متروبوليت حمص فانه متصدر في الرئاسة على كل فينيقية اللبنانية . ومثله متروبوليت بعلبك ومتروبوليت دمشق . ومتروبوليت حماه متصدر في الرئاسة على كل سورية الثـــانية ، ومتروبوليت حلب على سورية الاولى . ومتروبوليت حوران على كل بلاد العرب الصخرية[3] . »

١ *Vicarius.*
٢ *Praefectus.*
٣ خدمة القداس الالهي ليوحنا الذهبي الفم وباسيليوس الكبير وغريغوريوس الذيالوغوس ، ترجمة جراسيموس متروبوليت بيروت ، ص ٢٤٧ — ٢٥٠ .

وراقب رجال الامن العام الموظفين ورفعوا تقاريرهم الى رئيس ديوان الرسائل ولكن دون جدوى لان معظمهم كان بحاجة هو نفسه للمراقبة. وقضت قوانين الدولة بان يقام في كل مدينة او قرية كبيرة من يفتقد الفقراء في بؤسهم وينظر في امرهم[1]. وكان الاسقف المسيحي افضل من هذا وذاك، لاسيا وان الامبراطور منحه حق النظر في بعض الامور برضاء الطرفين.

الجيش: واعلى ضباطه سيد الخيالة[2]، وسيد المشاة[3]. وكان هؤلاء الاسياد اربعة في آخر ايام قسطنطين واصبحوا ثمانية فيما بعد. وكان عليهم ان يقودوا الجيوش وينظموا الحرب. وجاء بعد هؤلاء خمسة وثلاثون دوقاً يقودون قوات الحدود. وكان الجيش مؤلفاً من قوات ثلاث: قوة مرابطة على الحدود لا تحيد عنها، وقوتين متحركتين. وكانت القوة المرابطة على الحدود[4] بربرية الاصل تحرث ما أقطعت من ارض وتستغلها. وكان الابن فيها ملزماً ان يأخذ مكان ابيه. اما القوتان المتحركتان فانهما كانتا تحت تصرف الامبراطور، الواحدة تدعى جماعة الرفقاء[5]، والثانية جماعة البلاط[6]. وكان هنالك نوعان من الفرسان: نوع خفيف ونوع ثقيل. وكان الاول قديماً يعود الفضل في انشائه الى الامبراطور غاليانوس الذي ألحق بالفرقة المجندة من المواطنين الرومان جماعة من الفرسان جُنِّدَ افرادها من حلفاء رومة، ولذا الاسم فرسان الحلفاء[7].

١ *Defensores.*
٢ *Magister Militum Equitum.*
٣ *Magister Militum Peditum.*
٤ *Limitanei.*
٥ *Comitatenses.*
٦ *Palatini.*
٧ *Auxilia.*

وكان النوع الثاني احدث عهداً من الاول واثقل سلاحاً وقد انشىء على طراز الفرسان الفرس ودعي المدرّع[1] . وكان معظم افراده من البرابرة من وراء الحدود .

طبقات المجتمع : ومنح الامبراطور كركلا حقوق الرومان المدنية لجميع سكان المدن في جميع انحاء الامبراطورية فأصبح كلهم مواطنين رومانيين منذ السنة ٢١٢ بعد الميلاد . ولكن هذا لم يعنِ التساوي بين جميع المواطنين . فبقي هنالك شرفاء ووضعاء[2] : شيوخ وفرسان وجنود لا تنالهم شدة القانون في العقوبات واكثرية ساحقة خاضعة لكل ما جاء في القانون من قساوة وشدة . وانتظم الشرفاء طبقات طبقات فجاء على رأسهم القناصل ثم البطارقة ثم المدبرون فأبناء الجنود والموظفين وقد عرف هؤلاء باللقب كلاريسيمي[3] ثم الموظفون المستجدون في الوظيفة الذين استحقوا لقب « صاحب الافضلية[4] » او لقب « صاحب الكمال او البراعة[5] » .

وانتظم سائر افراد الشعب طبقات وانحصروا فيها وأورثوها ابناءهم من بعدهم . وجاء في طليعة هذه الطبقات طبقة الكوريالس[6] اصحاب الاملاك المقيمين في المدن وامهات القرى الذين تربعوا في دست الحكم فيها جيلاً بعد جيل . واتسق التجار واصحاب المهن والحرف نقابات مقفلة موروثة . ولا يستبعد ان يكون اصحاب الفاقة ممن تناول خبزه يومياً من مخابز الدولة[7] قد اصبحوا في عهد قسطنطين طبقة موروثة ايضاً ومثله الكولوني

١ *Cataphracti* وهو لفظ يوناني معناه الدرع .
٢ *Honestiores, Humiliores.*
٣ *Clarissimi.*
٤ *Eminentissimus.*
٥ *Perfectissimus.*
٦ *Curiales.*
٧ *Proletarii.*

الذين سبقت الاشارة اليهم في فصل سابق .

الثقافة العامة : وكان قد طال عهد الامبراطورية ودام ثلاثة قرون متتالية وظل الناس في اطرافها يتكلمون لغاتهم الخاصة غير عابئين باللاتينية او اليونانية . فالقديس ايريناوس الذي كان يجيد اللاتينية واليونانية اضطر ان يتعلم الغالية للتفاهم مع سكان المنطقة التي كان يعمل فيها . وتكلم سكان الجزر البريطانية اللغة الكلتية كما تكلم المور في افريقية لهجاتهم البربرية الخاصة . ولم يتكلم الفينيقية فيها سوى الطبقة العليا من السكان وسكان مالطة . وعلى الرغم من انتشار اللاتينية في ايليرية فان سكان هذه المنطقة احتفظوا بلهجتهم الخاصة التي تطورت فيما بعد فأصبحت اللغة الالبانية . وظل الاقباط والآراميون والعرب والارمن محتفظين بلغاتهم الاصلية على الرغم من انتشار اليونانية واللاتينية في اوساطهم .

ومعظم الذين تكلموا اليونانية واللاتينية كانوا لا يزالون في عصر قسطنطين امين لا تهزهم الفصحى . ولم يتعلم الفصحى من هاتين اللغتين الا عدد قليل من الناس . وعني هؤلاء عناية خاصة بقواعد اللغة وبعلم المعاني والبيان وبذلوا قصارى جهدهم في حقل الخطابة . وكانت جامعة اثينة لا تزال تعنى بالفلسفة، وكانت الفلسفة الرائجة الافلاطونية الجديدة القائلة بوحدة الوجود ، اي : ان الله والكون واحد وان الكون المادي منبثق من الله . واول من قال بهذا النوع من التوحيد ووفق بينه وبين فلسفة افلاطون نومانيوس[١] الفيلسوف ، وهو فيلسوف سوري ابصر النور في ابامية في القرن الثاني بعد الميلاد وتلقى علومه الفلسفية في الاسكندرية ثم اقام في اثينة مدة وعاد الى ابامية يعلم ويرشد . ويرى رجال الاختصاص اليوم

١ *Numenius.*

ان افلوطين (٢٠٥ – ٢٧٠ ب . م) انما ادعى لنفسه بما كان لغيره[١] . واشهر من علم بهذه الفلسفة بعد نومانيوس وافلوطين مالك البثني (٢٣٣ – ٣٠١) الذي درّس العلم والفلسفة في صور ثم انتقل منها الى اثينة فأخذ عن فيلسوفها لونجينوس السوري وترجم اسمه مالك الى اليونانية فعرف بالفيلسوف بورفيريوس اي المتوشح بالارجوان الملكي[٢] . واشتهر بعد بورفيريوس في حقل الافلاطونية الجديدة يمبليخوس[٣] العيطوري . ولد في خلقيس (مجدل عنجر) في سهل البقاع في لبنان وعلم فيها وتوفي في السنة ٣٣٠ بعد الميلاد . واشتهر يمبليخوس بعدائه للنصرانية ودفاعه عن الوثنية وتطرفه في ذلك .

وآثر ابناء العائلات الرومانية الكبيرة درس القانون على غيره من العلوم . وأقبلوا عليه إما للحصول على وظيفة حكومية ، او للمحاماة امام المحاكم ، او لمجرد الاطلاع والتثقف . وادى اهتمامهم بالقانون الى الاعتناء بعلوم اللغة ولاسيا الخطابة والفصاحة ، والى الاطلاع على مبادىء الفلسفة . وعندما حلّ القرن الثالث بعد الميلاد كان عصر البحث والتنقيب والاجتهاد في القانون قد أشرف على النهاية ، وحلّ محله عصر الجمع والتنسيق . وكانت بيروت قد أصبحت مستودعاً هاماً للقوانين الرومانية ومركزاً خطيراً لدرس هذه القوانين وتدريسها . وكان قد لمع بين اساتذتها اميليوس بابنيانوس الحمصي مستشار الامبراطور سبتيميوس سويروس ، ودوميتيوس اولبيانوس الصوري[٤] في القرن الثالث . فقام غريغوريوس البيروتي بجمع

١ *Guthrie, K. , Numenius of Apamea, 96.*

٢ *Porphyrios.*

٣ *Jamblichus.*

٤ *Aemilius Papinianus, Domitius Ulpianus.*

القوانين في السنة ٢٩٥[1]. وجاء بعده هيرموغنيانوس يعمل العمل نفسه فيكمل مجموعة سلفه في السنة ٣٢٤[2].

وكان هنالك طبقة من العلماء آثروا الاحاطة على التدقيق والتحقيق فصنفوا في المواضيع الجامعة العامة. ولعل ابرزهم في عهد قسطنطين كان يوسيبيوس اسقف قيصرية فلسطين الذي توفي في السنة ٣٤٠ بعد الميلاد. وقد ألف في الدفاع عن النصرانية ضد تهجمات اليهود والوثنيين. وكتب في تاريخ الكلدانيين والاشوريين والعبرانيين والمصريين واليونان والرومان. واشتهر بمؤلفه تاريخ الكنيسة[3] (منذ ظهور السيد حتى استظهار قسطنطين على ليكينيوس) الذي أصبح فيما بعد من اهم المراجع لتاريخ النصرانية في القرون الثلاثة الاولى. وقد يكون تاريخ قسطنطين الكبير[4] له، وقد لا يكون.

تنصره ووفاته: وفي السنة ٣٣٧ بعد الميلاد أعد قسطنطين العدة لمحاربة الفرس. ولكن هؤلاء فاوضوه في الصلح قبيل عيد الفصح فاوقف استعداده للحرب. واحتفل قسطنطين بعيد الفصح في الثالث من نيسان. ونالته الحمى، فذهب الى مياه معدنية قريبة يستحم فيها. ثم انتقل الى هيلانوبوليس فأنقيرة بالقرب من نيقوميذية. وكان يلازمه في اثناء هذا كله معلم ذمة اخته قسطندية. وكان هو يود ان يعتمد في مياه الاردن كما فعل السيد نفسه. ولكن الوقت عاجله فتقبل سر المعمودية عن يد يوسيبيوس اسقف نيقوميذية. وخلع الارجوان والقاه جانباً وتردى

١ *Codex Gregorianus.*

٢ *Codex Hermogenianus.*

٣ *Historia Ecclesiastica.*

٤ *Vita Constantini.*

بالبياض . وتوفي يوم العنصرة في الثاني والعشرين من ايار من السنة نفسها. ولم يكن احد من اولاده بالقرب منه . وحُنّط جسمه ووضع في تابوت من ذهب ونقل الى القصر في القسطنطينية ليتقبل احترام الوجهاء . وجاء ابنه قسطنس قيصر من انطاكية ، فعرض جثمانه مكللاً بالتاج ملفوفـاً بالارجوان في ابهى قاعات القصر واجملها . ثم أمر بنقله بموكب فخم الى كنيسة الرسل حيث صلى الاكليروس عليه طوال الليل ودفن فيهـا في ناووس من الرخام السّماقي . وألّه الشيوخ قسطنطين حسب العادة الرومانية وعظّمه الشعب الوثني وعبده امام تمثاله الذي نصب فوق عمود من الرخام السماقي في الفوروم[١] .

١ Eutropius, *Breviarium Historiae Romanae*, X, 8;
Grégoire, *Conversion de Const.*, *Rev. Univ.*, Bruxelles, 1930-1391, 270;
Eusebius, *De Laudibus Constantini*, XVI, 3-5.

الفصل الخامس

قسطنديوس الثاني ويوليانوس الجاحد

(٣٣٧ - ٣٦٣)

قسطنديوس: (٣٣٧ - ٣٦١) وتوفي قسطنطين الكبير عن ذكور ثلاثة جميعهم من زوجته فاوسطة بنت الامبراطور مكسيميانوس وهم قسطنطين الثاني وقسطنديوس الثاني وقسطنس. وحكم الثلاثة الامبراطورية معاً. فتولى قسطنطين الثاني الغرب : ايطالية وغالية واسبانية وقسماً من افريقية. وتولى قسطنديوس الثاني الشرق باكمله. اما قسطنس فانه حكم إيليرية وقسماً من افريقية. وطمع قسطنطين الثاني في ملك قسطنس فحاربه ولكنه خرّ صريعاً في اكويلية سنة ٣٤٠. ثم تمرد الجند على قسطنس وقتلوه في السنة ٣٥٠ فأصبح قسطنديوس الثاني المالك وحده. وكان رجلاً عاقراً لا وارث له، فأستدعى ابن عمه غالوس من منفاه ورفعه الى رتبة قيصر وأمّره على برايفكتورة الشرق وجعل مقره انطاكية. ولكن غالوس هذا كان جافي الطبع فظّ القلب قليل الرحمة فطغى وتجبّر وأرهب الناس ارهاباً. فأستدعاه ابن عمه الامبراطور اليه في ايطالية في السنة ٣٥٣ وحاكمه وأمر بقطع رأسه. وعندئذٍ طلب ابن عمه الاصغر يوليانوس وجعله قيصراً على غالية.

شابور ذو الاكتاف[1] : وتوفي هرمز الثاني ابن نرسي في السنة ٣٠٩ بعد الميلاد وأوصى بالملك لشابور ابنه وهو لا يزال جنيناً . فدام السلم بين فارس وبين رومة زمناً طويلاً . وشب شابور الثاني وتسلم ازمة الحكم فهاله انتشار النصرانية وعطف قسطنطين عليها خصوصاً لانها كانت قد انتشرت بين رعاياه في بابل وطيسفون وجند شابور واشور وغيرها ولان تيريداتس الثالث ملك الارمن كان قد تقبلها في السنة ٣٠١ . فتطورت الخصومة بين شابور وزميله الروماني وأصبح النزاع بينهما نزاع عقائد بعد ان كان نزاعاً مادياً إستراتيجياً كما سبق ان اشرنا . وهكذا فاننا نرى شابور يعقد مجمعاً زرادشتياً يضم ائمة الدين الفارسي في السنة نفسها التي عقد فيها قسطنطين الكبير المجمع المسكوني الاول فيقر نصاً رسمياً نهائياً لكتاب الفستا ، ونراه ينزل بنصارى بلاده بين السنة ٣٤٠ والسنة ٣٧٩ اضطهادات قاسية واسعة النطاق لانهم دانوا بدين قيصر وشاطروه المحبة والعطف والولاء[2] .

وكادت الحرب تقع قبيل وفاة قسطنطين الكبير في السنة ٣٣٧ كما سبق ان أشرنا . فقطع ذو الاكتاف الحدود في السنة ٣٣٨ وحاصر نصيبين . ثم عاد اليها في السنة ٣٤٦ . وفي السنة ٣٤٨ جرت موقعة ليلية في منطقة سنجار . وفي السنة ٣٥٠ طلب ذو الاكتاف تغرانوس السابع ملك ارمينية للمفاوضة فأسره ومضى به الى بلاده ، ويقال انه سمل عينيه لانه كان نصرانياً مثل سلفه . وفي السنة نفسها مشى ذو الاكتاف الى نصيبين للمرة الثالثة وشارف اسوارها مستعيناً بالفيلة التي استقدمها من الهند . ولكنه

١ « وقصد اليمامة واكثر في اهلها القتل وغوّر مياه العرب وسار الى قرب المدينة وفعل كذلك وكان ينزع اكتاف رؤسائهم ويقتل ، فسموه شابور ذا الاكتاف. » — ابن الاثير ج ١ ، ص ٢٢٩ ، الطبعة المنيرية .

٢ *Acta Martyrum et Sanctorum, II. 136, 143.*

اخفق مرة اخرى وارتد على اعقابه لدرء خطر الشينيين الذين تدفقوا على فارس من الشمال والشرق . وفي السنة ٣٥٥ جدد ملك أرمينية ارشاك الثالث (٣٥١ - ٣٦٧) التحالف الروماني الارمني وتزوج من اوليمبياس خطيبة قسطنس السابقة . فأقضّ ذلك مضجع شابور الثاني ذي الاكتاف واستفزه للحرب وخصوصاً لان عاملا في بابل كان قد جرّأه بما بالغ له في تصوير المشاكل التي كان يعانيها قسطنديوس الامبراطور في الغرب . وعبر شابور دجلة في جيش عظيم في السنة ٣٥٨ فتجاوز نصيبين هذه المرة ولم يحاصرها بل زحف على آمد (ديار بكر) فاخذها عنوةً بعد حصار دام شهرين . وكان قسطنديوس لا يزال في سيرميوم في ايليرية يعالج بعض المشاكل الدينية المسيحية ولاسيما علاقة الآب بالابن فقام منها الى القسطنطينية وبقي فيها طوال شتاء السنة ٣٥٩ - ٣٦٠ . وفي ربيع السنة ٣٦٠ نهض من القسطنطينية لمجابهة الخطر الفارسي . ولدى وصوله الى قبدوقية سمع بخيانة ابن عمه يوليانوس فلم يكترث لها لانه كان يجهل مواهب هذا الزميل الجديد . وكان شابور ذو الاكتاف قد استأنف الحرب فاحتل سنجار ثم اتجه منها الى بيت زبدي (جزيرة ابن عمر) على ضفة دجلة الغربية وحاصرها . فحاول قسطنديوس ان يفك هذا الحصار فلم يفلح . وسقطت بيت زبدي في يد الفرس في خريف السنة ٣٦٠ . واقبل فصل الشتاء فتوقفت الاعمال الحربية ولبث قسطنديوس في انطاكية وفيها احتفل بزواجه الثاني بعد وفاة يوسيبية زوجته الاولى .

وكانت حاشية قسطنديوس لا تزال توغر صدره على ابن عمه يوليانوس بينما خطر الفرس في الشرق يتعاظم ، فطلب الامبراطور الى ابن عمه القيصر ان يوافيه باحسن ما عنده من الجند للصمود في وجه الفرس . ويقال ان يوليانوس مال الى تلبية الطلب ولكن جنوده تمردوا احتجاجا ونادوا به امبراطوراً في باريز في السنة ٣٦٠ . وكتب يوليانوس الى قسطنديوس

يرجو منه الاعتراف بما تم ولكن قسطنديوس اصرّ عليه ان يتنازل ويثبت الطاعة . فاضطر يوليانوس ان يزحف بجنده على الشرق . وسار قسطنديوس من انطاكية الى القسطنطينية فالغرب لمنازلة خصمه . ولكنه مرض وهو لا يزال في طرسوس ، واشتد الخطر على حياته فاعتمد بيد اسقف انطاكية الآريوسي افزويوس وتوفي على مسيرة يوم من طرسوس في الثالث من تشرين الثاني سنة ٣٦١ . واجمل ما يذكر عنه انه عندما اشرف على التلف اوصى بان يكون يوليانوس نفسه خلفاً له .

الوثنية : وأراد قسطنديوس الثاني ان يقضي على الوثنية فأمر بادىء ذي بدء « بان يوضع حد للخرافات وبان يستأصل مرض تقديم الذبائح[١] . » ثم أمر باقفال الهياكل وحظّر تقديم الذبائح للالهة مهدداً من يخالفه بالموت وبمصادرة الاملاك . وكان ان احتفل في السنة ٣٥٧ في رومة بمرور عشرين عاماً على تبوئه العرش فطاف بآثارها ودخل الى مبنى مجلس الشيوخ وفيه مذبح لالهة النصر فأمر بهدمه ، فأدرك الشيوخ وغيرهم من اعيان الوثنية ان دين الاجداد قارب النهاية .

ولكن قسطنديوس كان آريوسياً متطرفاً فأعلنها حرباً على النيقاويين الكاثوليكيين الارثوذكسيين فاضطهد اثناسيوس الكبير بطريرك الاسكندرية ونفى هوسيوس الاسقف الاسباني صديق والده وهو في سن تزيد على المئة كما نفى ليباريوس بابا رومة لانــه كان قد امتنع عن قبول مقررات مجمع ميلان (٣٥٥) .

يوليانوس الجاحد : (٣٦١ - ٣٦٣) هو يوليانوس ابن يوليوس ابن قسطنديوس الاول (كلوروس) . وهو اخو غالوس لابيه لا لامه كما كان والده يوليوس اخا قسطنطين الكبير لابيه لا لامه . فوالدة قسطنطين

١ *Codex Theodosianus, XVI, 10, 2.*

هيلانة ووالدة يوليوس تيودورة ووالدة غـــالوس غلّة ووالدة يوليانوس باسيلينة .

تيودورة = قسطنديوس الاول = هيلانة

باسيلينة = يوليوس = غلة   قسطنطين الكبير = فاوسطة

+ ٣٣٧   ٣٠٦ – ٣٣٧

يوليانوس   غالوس

٣٦٠ – ٣٦٣   + ٣٥٤

قسطنطين الثاني   قسطنديوس الثاني   قسطنس

٣٣٧ – ٣٤٠   ٣٣٧ – ٣٦١   ٣٣٧ – ٣٥٠

ولد يوليانوس في النصف الثاني من السنة ٣٣١ في مبسية على الدانوب. وما ان مضت بضعة اشهر حتى توفيت والدته فنقل الى القسطنطينية ونشأ في قصر لجدته في بر الاناضول لا يبعد كثيراً عن العاصمة . وفي السادسة من عمره اي في السنة ٣٣٧ شهـد مقتل والده وجميع اقربائه ونجا هو واخوه غـالوس باعجوبة فشبّ مضطرب العصب غير متزن . وتولى امره في هذه الفترة من حيـاته يوسيبيوس الآريوسي اسقف نيقوميذية ونسيب والدته فوكل امر تهـــذيبه الى خصي نصراني (مردونيوس) كان شديد الاعجاب بهوميروس الشاعر اليوناني . وتوفي يوسيبيوس في السنة ٣٤١ ، فنفى قسطنديوس الاميرين الصغيرين الى قصر في قبدوقية على مسافة قريبة من قيصرية . اما غالوس فشب شرساً احمق . واما يوليانوس فانه قضى ست سنوات يدرس ويطالع مؤلفات اعاره اياها كاهن نصراني . وفي السنة ٣٤٧

امر قسطنديوس بانتقال غالوس الى افس ويوليانوس الى القسطنطينية . واقام يوليانوس في عاصمة الدولة سبع سنوات احتك فيها بعالمين شهيرين احدهما وثني والآخر نصراني ، وتعلم مبادىء اللاتينية . ورحب الجمهور بالامير الصغير واكرمه فدخلت الريبة نفس عمه وأمر بنقله الى نيقوميذية . وكان ليبانيوس العالم الانطاكي (اللبناني ؟) قد ترك مدرسة نيقوميذية فلم يتسنَ ليوليانوس ان يأخذ شيئاً عنه . ولكنه تابع الدرس في نيقوميذية وحلق رأسه كمن يريد ان يكون فيلسوفاً مسيحياً . وفي السنة ٣٥١ رضي قسطنديوس عن الاميرين فجعل غالوس قيصراً واعاد الى يوليانوس ارثه فاصبح غنياً . ورحل يوليانوس في طلب العلم فأمّ برغامون في آسية الصغرى واتصل فيها بادسيوس Adesius الفيلسوف الافلاطوني الجديد وبتلميذه خريسانطيوس Chrisantius الفيلسوف الفيثاغوري . وتردد الى افس فاتصل بفيلسوفها مكسيميوس وكان هذا يمارس ضروب السحر ، فوقع يوليانوس تحت تأثير شعوذاته ، ودخل في زمرة اتباعه في كهف هيكاتية إلهة الشياطين عند الافلاطونيين الجدد . وسمع شقيقه غالوس بهذا كله فاضطرب وارسل اليه من انطاكية معلم ذمته ليرده عن الضلال . وكان ما كان من امر غالوس واعدامه في السنة ٣٥٤ . ومثل يوليانوس بين ايدي الامبراطور قسطنديوس في ميلانو ليدافع عن نفسه فيما اتهم به من انه اجتمع بغالوس في القسطنطينية . فشفعت له الامبراطورة يوسيبية وأذن له بالاقامة في آثينة . فتوجه اليها بشغف شديد والتحق بجامعتها ثلاثة اشهر ، وذلك في صيف السنة ٣٥٥ . وكان بين رفقائه فيها غريغوريوس النازيانزي وصديقه باسيليوس القديس . ومما قاله فيه غريغوريوس فيما بعد : انه كان تائه النظر في آثينة احمق السماء تنتابه رعشات عصبية من آنٍ الى آخر ، وان اسئلته لم تكن منظمة او مرتبة .

وكان قسطنديوس يخشى تطلع الغاليين الى الاستقلال . ولم يكن بامكانه

ان يشرف بنفسه على امورهم لكثرة اشغاله ولشدة خوفه من شابور ومطامعه . فاستدعى يوليانوس اليه واطلعه على ما كان يخالج فؤاده ودفع به الى شفيعته الامبراطورة . فقالت هذه ليوليانوس : انت مدين لنا بالشيء الكثير وسيكون لك اكثر فاكثر بعون الله اذا كنت اميناً منصفاً . وكان يوليانوس قد التحى لحية الفلاسفة فأمر بها عمه فحلقت وارتدى يوليانوس لباس الامراء . وفي السادس من تشرين الثاني من السنة ٣٥٥ استعرض قسطنديوس الجند وامسك بيده يوليانوس وقال للجند : « انتم الحكم ! لقد طغى البرابرة على غالية واني اوشح يوليانوس قيصراً ، فهل تقبلون ؟ » فصرخ الجند : « هذه هي مشيئة الله ! » وعندئذ وضع قسطنديوس التاج على رأس يوليانوس ووشحه بالارجوان . وشفع الجند عمله بان دقوا ركبهم بالتروس . ثم تزوج يوليانوس من هيلانة ابنة قسطنديوس وقام الى غالية . وبقي فيها ثلاث سنوات اظهر في اثنائها من الحزم والعدل واللطف ما فتن الناس به واذاع صيته في الغرب والشرق معاً . وكان ما كان من أمر شابور ذي الاكتاف فقضت الظروف العسكرية بوجوب الاستعانة بافضل من في الغرب من جنود . على ان جنود يوليانوس آثروا المناداة به امبراطوراً وسايرهم هو على الامر . وفي صيف السنة ٣٦١ مشى الى الشرق على رأس خمسة وعشرين الفاً ، واحتل سرميوم ونيش . ثم علم بوفاة قسطنديوس وبما اوصى به فأسرع الى القسطنطينية ودخلها في الحادي عشر من كانون الاول سنة ٣٦١ .

سياسة يوليانوس الداخلية : وما كاد يوليانوس يجلس على اريكة القسطنطينية حتى أمر بتشكيل مجلس خاص لتطهير الادارة من ادران الحكم السابق . وتألف هذا المجلس من اخصاء الامبراطور العسكريين فحكموا بالاعدام على طائفة من رؤساء الدوائر المدنية وبالنفي على غيرهم . وتناول مثل هذا التطهير القصر الامبراطوري . فطرد الامبراطور الجديد

عدداً كبيراً من الخدم والحشم ولاسيا الخصيان . واراد ان يظهر بمظهر جمهوري فعظّم القناصل وجالس الشيوخ كأنه واحد منهم . وعلى الرغم من قلة النقد في الخزينة فأنه أمر بتخفيف ضريبة التاج التي كانت تجبى في مناسبة تبوء العرش .

موقفه من النصرانية والوثنية : وكان يوليانوس يرى في مصنفات علماء اليونان وفلاسفتهم ينبوع الثقافة كلها ، ويرى في فلسفتهم فلسفة عالمية تتعدى حدود اليونان الجغرافية فتشمل العالم باسره . وكان يرى في مؤلفات فيثاغورس وأفلاطون ويمبليخوس مؤونة فكرية كافية يستغني بها كل عالم عن كل قول فلسفي آخر . واستهواه يمبليخوس اللبناني وسيطر على تفكيره فابتعد عن افلاطون ولم يهتدِ بهديه .

ويستدل من رسائله ولاسيا تلك التي جعل عنوانها « الملك الشمس » انه قال باكوان ثلاثة او شموس ثلاث : الشمس الاولى شمس الحقائق الراهنة والمبادىء السامية والعلة الاولى وهي التي سمّاها شمس النفس . والشمس الثالثة شمس المادة الملموسة وصورة انعكاس الشمس الاولى . وبين الاثنتين ، بين النفس والمادة ، شمس ثانية هي شمس العقل . ولما كانت الشمس الاولى بعيدة المنال وكانت الشمس الثالثة مادية غير صالحة للعبادة فأن يوليانوس عبد شمس العقل وسمّاها الملك الشمس . واعتقد انه هو سليل الملك الشمس يهتدى بارشاده عن طريق رؤى معينة يتفضل بها عليه الملك الشمس بين حين وآخر . وقال بتناسخ الارواح على طريقة فيثاغورس فاعتقد انه هو الاسكندر في دور آخر .

وتبنى في رسالته « ما يؤخذ عن النصرانية » موقف بورفيريوس الفيلسوف الحوراني اللبناني ، فقال ان الاله يهوه اله التوراة هو إله شعب خاص لا إله الكون باسره ، وانه هنالك تناقضاً بين التوحيد في التوراة والتثليث في الانجيل وان الاناجيل الاربعة متنافرة غير متآلفة . وكره النصارى لانهم

كفروا بالالهة كما كره كل وثني لعن آلهة اجداده وجدّف عليها .

ولانعلم بالضبط متى أعلن يوليانوس نفسه وثنياً . وقد يكون ذلك في السنة ٣٦١ في نيش عندما علم بوفاة قسطنديوس وبوصيته . ففيها ذبح يوليانوس باسم الالهة ومنها كتب الى بعض اصدقائه . ولكن هذا لم يعن اضطهاد النصرانية . فأنه عندما دخل القسطنطينية استدعى اليه مكسيميوس الوثني كما استدعى القديس باسيليوس رفيقه في جامعة آثينة .

ومنح يوليانوس الشعب حرية المعتقد وسمح بعودة من نفي مضطهداً . فاغتنم الفرصة اثناسيوس الكبير وعاد الى الاسكندرية ولكن يوليانوس ما لبث ان اصدر في السابع عشر من حزيران من السنة ٣٦٢ قانوناً جديداً للتعليم حصر بموجبه تعيين الاساتذة بيد السلطة المركزية ومنع المسيحيين من مزاولة هذه المهنة « لانهم حرّموا درس النصوص الفلسفية القديمة[١] » . فانبرى كل من ابوليناريوس كاهن اللاذقية وابنه اسقفها لنظم التاريخ المقدس في لغة يونانية قشيبة فصحى . فاخرجا اربعاً وعشرين قصيدة ضمناها اخبار التوراة منذ البدء حتى عهد شاوول . وحذا حذوهما غيرهما من الآباء . فتيسرت للنصارى نصوص يونانية فصحى استعاضوا بها في تعليم اولادهم عن النصوص اليونانية الوثنية .

وافرغ يوليانوس مجهوده في تذليل الاكليروس فنزع منهم امتيازاتهم وابطل ما كان قد أمر به قسطنطين الكبير من معونة لهم . وكان يقول مستهزئاً ان قصده من ذلك ان يقود المسيحيين الى الكمال بحملهم على اتقان الفقر الذي امر به الانجيل . وعرّى الكنائس ونقل تحفها الى هياكل الاوثان .

في انطاكية : ودبّ النشاط في صفوف قبائل التوط في قطاع

١ *Julianus, Opera, II, 544, Epistola, 42.*

الدانوب . وحسب يوليانوس لذلك حسابه . ولكنه آثر العمل في الشرق في جبهة الفرات لانه كان يعتقد انه هو الاسكندر في دور ثانٍ . فقام الى انطاكية في صيف السنة ٣٦٢ فوصلها في التاسع عشر من تموز يوم انتحاب العذارى على مقتل اذوناي عشيق عشتروت . وكان ليبانيوس الفيلسوف الاديب قد عاد اليها ليعلم فيها اخوانه الانطاكيين ، فاستقبل الامبراطور الجاحدَ استقبالاً حاراً . ولكن انطاكية كانت قد اصبحت مسيحية . فهال يوليانوس اعراضُ اهلها عن الدين القديم وقلة اكتراثهم بهياكل دفنة المقدسة . فقال في احدى رسائله الى الانطاكيين : « هوذا الشهر العاشر شهرُ لوس الذي تبتهجون فيه بعيد ابولون الاله الشمس . وكان من واجبكم ان تزوروا دفنة . وكنت انا اتصور موكبكم لهذه المناسبة شباناً بيضاً اطهاراً يحملون الخمور والزيوت والبخور ويقدمون الذبائح . ولكني دخلت المقام فلم اجد شيئاً من هذا وظننت اني لا ازال خارج المقام ، فاذا بالكاهن ينبئني ان المدينة لم تقدم قرباناً هذه المرة الا وزّة واحدة جاء بها هو من بيته[١] ! »

وأكرم يوليانوس ليبانيوس الفيلسوف الوثني ورقّى عدداً من الوجهاء الى رتبة المشيخة فجعلهم اعضاء سناتوس انطاكية . ووهب المدينة مساحات كبيرة من اراضي الدولة . ولكن الانطاكيين المسيحيين قابلوه بالهزء ووجدوا في النقيضين : لحيته الطويلة وقامته القصيرة ، مجالاً واسعاً لان يمارسوا ما طاب لهم من ضروب العبث والسخر[٢] . وعبثاً حاول ليبانيوس ان يوفق بين الامبراطور وبين رعاياه الانطاكيين . ثم اشتد الخلاف وتفاقم

١ *Julianus, Opera, II,167; Wright, W. C. , Works of Emp. Julian II, 487-489.*

٢ *Negri, G. Julian II, 430-470.*

الشر حين اخرج الامبراطور بقايا شهيد انطاكية القديس بابيلاس من قبره في دفنة . فغضب المسيحيون لكرامتهم واحرقوا في الثاني والعشرين من تشرين الاول هيكل ابولون . فاقفل الامبراطور كنيسة انطاكية الكتدرائية وأمر بنهبها وتدنيسها . فكسّر المسيحيون تماثيل الالهة وابى الجند المسيحيون ان يسيروا تحت لواء الامبراطور الجاحد لمحاربة الفرس[١].

وعلم يوليانوس ان يسوع تنبأ بان لا يبقى من الهيكل في اوروشليم حجر على حجر . فلكي يكذّب الكتب اهتم لاعادة بناء الهيكل فارسل الى اوروشليم احد امنائه إليبيوس ليشرف على العمل . وتقاطر اليهود واجتمع عدد كبير منهم في مكان الهيكل . فجرفوا المكان وحفروا في الارض كباراً وصغاراً رجالاً ونساء . ولما انتهوا من هدم الاساسات القديمة واوشكوا ان يضعوا الاساسات الجديدة حدثت زلزلة هدمت الابنية المجاورة وقتلت بعض الفعلة وملأت الحفر تراباً .

الحرب الفارسية : ولم يسعَ شابور ذو الاكتاف للحرب هذه المرة بل فاوض في سبيل السلم والوئام وبعث الرسل الى انطاكية . ولكن يوليانوس ابى ان يصغي اليهم واكتفى بالقول « قريباً ترونني » . واسترضى اليهود في مملكته طمعاً في ان يعاونه اخوانهم في فارس ، وحالف ملك ارمينية على الرغم من نصرانيته . ونهض في ربيع السنة ٣٦٣ الى الفرات على رأس جيش مؤلف من خمسة وستين الفاً . وكان يود ان ينصب على عرش فارس هورمزد اخا شابور وكان هذا لا يزال داخل الحدود الرومانية منذ السنة ٣٢٤ . وقطع يوليانوس الفرات على جسر من القوارب . ولدى وصوله الى الخابور افرز ستة عشر الفاً بقيادة بروكوبيوس احد انسبائه ليتجه بهم شرقاً عن طريق نصيبين ويتصل بالارمن الزاحفين شطر الجنوب .

١ *Ammianus, XXII, 13, 1; Soz. V, 19; Piganiol, A., Emp. Chret., 130-132.*

واعطى بروكوبيوس في السر ثوباً ارجوانياً وعيّنه خلفاً له في حـــال الوفاة . وزحف هو يحاذي الفرات في طريقه الى بابل . وكان ذو الاكتاف قد اخطأ التقدير فحسب ان الجيش الروماني سينطلق من نصيبين ، فاتجه هو الى دجلة لمقابلة اعدائه . وتابع يوليانوس زحفه جنوباً ثم اتجه شرقاً الى دجلة واحتل سلوقية وواقع خصمه عندها فانتصر عليه انتصاراً باهراً . واستأنف الزحف على طيسفون عاصمة شابور ، فبلغها وشابور لا يزال بعيداً عنهـا . وكانت طيسفون صعبة المنال فرأى يوليـــانوس ان يتصل ببروكوبيوس والارمن قبل ضرب الحصار عليها . وفيما هو فاعل ضايقه الفرس في السادس والعشرين من حزيران بهجوم متتابـع . وكان هو قد نزع عنه درعه من شدة الحر فاضطر فجأة ان يتقدم الى الصفوف الامامية لرد هجوم على مؤخرة جيشه فأصابه سهم في ذراعـه عقبه نزيف شديد . وعبثاً حاول اطباؤه وقف النزيف فتوفي في منتصف الليل وهو يحدّث صديقيه الفيلسوفين مكسيموس وبريسكوس عن صفات النفس السامية العـالية . وقيل ان فارساً مسيحياً من فرسانه رماه بهذا السهم للقضاء عليه .

الفصل السادس

ثيودوسيوس الكبير

(٣٧٩ - ٣٩٥)

خلفاء يوليانوس : وتشاور رؤساء الجند في من يكون خلفاً ليوليانوس ، فأجمعوا على مدبر برايفكتورة الشرق سلوتيوس سكندوس[١]. ولكنه اعتذر عن القبول بداعي المرض والتقدم في السن . فنادى قسم من الجند بيوفيانوس[٢] امبراطوراً . وكان هذا رئيس الخدم في القصر مسيحياً نيقاوياً من بانونية بين الشرق والغرب ، فأيّده الجنود المسيحيون ، ورضي عنه رؤساؤهم الشرقيون والغربيون معاً . فوقّع صلحاً مع الفرس تنازل فيه عن جميع ما وقع شرقي دجلة ، وعن نصيبين وسنجار ونصف ارمينية. وعاد الى انطاكية فوصل اليها في خريف السنة ٣٦٣ . وكان لا يزال في الثلاثين من عمره ، ضئيل الحظ من الثقافة ، يحب الخمر والنساء . وعلى الرغم من اتصال اثناسيوس الكبير به والحاحه عليه ، فانه لم يخرج في سياسته الدينية عن الخطة التي رسمها قسطنطين الكبير . ولذا نراه يقول لبطريرك الاسكندرية اثناسيوس نفسه : « إني اكره الشقاق واحب من

١ Salutius Secundus .

٢ Jovianus وقد ورد « يونيانوس » في المقريزي وغيره .

يعمل في سبيل الوئام[1] . » وأصدر براءة اوجب فيها عبادة « الكائن الاعلى » ، وحرّم « الخرافات[2] » . ثم ما لبث ان وجد ميتاً بخيمته في آسية الصغرى ، بعد ان قضى ليلة بين الكؤوس والاباريق . وذلك في اوائل السنة ٣٦٤ .

واجتمع رؤساء الجند في نيقية وتداولوا في امر الخلافة وكانوا لا يزالون هم الذين رفعوا يوفيانوس الى منصة الحكم . فطلبوا الى سلوتيوس سكندوس ان يكون ابنه خلفاً ليوفيانوس فأبى نظراً لصغر سنه . فأجمعوا على ولنتنيانوس[3] احد قادة الحرس . وكان هذا ايضاً من بانونية بين الشرق والغرب . وما ان أطل على الجند ليخطب فيهم حتى قاطعه عدد منهم بدق التروس طالبين امبراطوراً آخر يشاركه في الحكم . فاستمهلهم وشاور الرؤساء ، فقال احد هؤلاء : « ان كنت تحب اسرتك فان لك اخاً ، وان كنت تحب الدولة فانتقِ الاليق . » وفي الثامن والعشرين من اذار من السنة ٣٦٤ قدّم اخاه والنس[4] اوغوسطساً وشريكاً له في الحكم . وتشاطر الاثنان الملك فحكم والنس الشرق (٣٦٤ - ٣٧٨) . وتولى ولنتنيانوس الغرب (٣٦٤ - ٣٧٥) . واتفق الاثنان على امور معينة اهمها حرية المعتقد ، ومنع اعفاء احد من الضرائب ، واقامة جباة من الموظفين لجمعها ، واقتسام الملك اقتساماً تاماً كاملاً ، بحيث تصبح الامبراطورية دولتين : شرقية وغربية .

وعبر الهون الفولكة في السنة ٣٧٢ بعد الميلاد او قبلها متدفقين

١ *Socrates, Hist. Ecc., III, 25.*

٢ *Sozomenus, Hist. Ecc., VI, 3.*

٣ *Valentinianus.*

٤ *Valens* وفي تاريخ ابن العميد : ولنطيان ووالنش .

كالسيل الجارف في سهول روسية الجنوبية . فاحتلوا مراعي قبائل الآلاني ثم اراضي القوط الشرقيين حتى نهر الدنيستر . ولم يبق حائلاً بينهم وبين مصب الدانوب سوى القوط الغربيين . وكان قسم كبير منهم قد قبل النصرانية على يد اولفيلاس القبدوقي (٣١٠ - ٣٨١) الذي نقل الانجيل الى لغتهم فهب اثناريكوس[١] ملك هؤلاء القوط الغربيين يستعد للدفاع فانشأ خطاً يصمد وراءه من منبع البروت حتى مصب الدانوب . وعبر الهون الدنيستر وجازوه عند مصبه ففر جماعة من القوط الغربيين وخذلوا قومهم واتجهوا غرباً وجاؤوا يفاوضون والنس في الانتقال الى داخل الحدود الرومانية والاقامة في تراقية . وكان على رأس هؤلاء فريتيغرن وألافيف[٢] . واما اثناريكوس فمضى بجماعته واحتل جبال البنات في المجر . وقد رأى والنس الامبراطور في مَنْ انحاز اليه من القوط عنصراً طيباً واداة فعّالة لتقوية الجيش ولاسيما فرقة الخيالة . فقبل مطلبهم ان يدخلوا الحدود فعبروا الدانوب خمسين الفاً . وما ان فعلوا والقوا سلاحهم حتى شعروا بالفاقة وقلة المأكل . فاستعادوا سلاحهم بالرشوة وجالوا في البلقان ينالون قوتهم بالقوة . ووقعت اصطدامات عنيفة هنا وهنالك . فأضمر الرومان السوء ودعوا الزعيمين القوطيين في مطلع السنة ٣٧٧ الى مأدبة فاخرة في ماركيانوبوليس وحاولوا اغتيالهما . فنجا فريتيغرن بخدعة محكمة واندلعت نيران الحرب بين الفريقين في كل مكان . ولم يقوَ الجيش الروماني المرابط في البلقان على ضبط الموقف فاستقدم والنس نجداتٍ من الشرق القريب وأمده غراتيانوس ابن اخيه ببعض الكتائب ثم قام هو بنفسه على رأس الجيش الغربي لاعانة عمه . ولكن والنس تسرّع فنازل فريتيغرن قبل وصول

١ *Athanaricus.*

٢ *Fritigern, Alaviv.*

غراتيانوس ، وذلك في الثامن من آب سنة ٣٧٨ وعلى مقربة من أدريانوبوليس . فاكتسحت الموقف خيالة القوط . وخرّ والنس في ساحة القتال صريعاً . وقيل انه أحرق حرقاً . وغشي القوط الريف كله ولكنهم لم يتمكنوا من اخضاع المدن المحصنة لنقص في العتاد .

ثيودوسيوس الكبير : وعظم الامر على غراتيانوس وهاله . فاستدعى اليه ثيودوسيوس اشهر القادة وامهرهم في الحرب . وفاوضه في أمر القوط وطلب اليه ان يتناسى ما كان قد لحق به وبوالده قبله من شرّ وضيم . ورفعه الى منصة الحكم ونادى به امبراطوراً على الشرق . وكان ثيودوسيوس حسن القد ، رشيقاً ، اشقر الشعر ، أزرق العينين ، اشرف الانف ، يشبه ترايانوس ويدّعي الانتساب اليه . وكان ايضاً عالي النفس ، رفيع الاهواء ، يكثر من مطالعة التاريخ الروماني ، ويحس الواجب القومي ايما احساس[١] . فتقبل التاج في سرميوم في التاسع عشر من كانون الثاني سنة ٣٧٩ . وهبّ للقتال فاوقع بالقوط ، فيما يظهر ، ضربات اولية متتالية . ثم رأى ان لا بد من الاستيلاء على ثيسالونيكية لتأمين الزاد والعتاد الواردين من مصر والشرق . فاشتق طريقه اليها ووصلها في اوائل حزيران واستقرّ بها . وكان في اثناء هذا كله يشاطر جنوده المشقة كأنه واحد منهم ، ويعنى بتنشيطهم وتشجيعهم ، ويؤمن راحتهم . فأحبوه واندفعوا في سبيله وازدادوا قوة ومناعة . ورأى الامبراطور ايضاً ان يقوم بحملة عسكرية يصل بها الى الدانوب ، فيهوّل على اعدائه ويفاوضهم في الوقت نفسه ، اذا وافقت الظروف . فوصل الى اسكوب في السادس من تموز ، والى فيقوس اوغوسطة في الثاني من آب . ولكنه عاد الى ثيسالونيكية لتمضية فصل الشتاء . وفي شباط السنة ٣٨٠ ، انتابه مرض

١ *Piganiol, A., Emp. Chrétien, 210.*

عضال أشرف به على الموت . فطلب الاعتماد ليغسل جميع ذنوبه قبل ملاقاة ربه . وتعمد على يد أخوليوس اسقف ثيسالونيكية عمادة نيقاوية ارثوذكسية . ثم تماثل وتعافى . فعاد يعالج مشكلة الجيش . فأمر بتجنيد الفلاحين والعمال ، وبملاحقة ابناء الجنود المختبئين في مكاتب الدولة ، وبانزال أشد العقاب بمن يقطع ابهامه للتخلص من خدمة العلم . وأمر كذلك بمن كان قد دخل في الجيش من القوط ان يُنقل من البلقان الى الشرق ، وباستبدال هؤلاء بجنود شرقيين يحلون محلهم في البلقان . وقامت فرقة من الجنود القوط الى الشرق ، فعبرت المضايق ووصلت الى ليدية ، ولكنها اشتبكت فيها مع فرقة شرقية كانت قد قامت من مصر لتحل محل الفرقة القوطية او غيرها في البلقان . وفيما كان ثيودوسيوس يعدّ العدة على هذا النحو تنافر القوط في البلقان وتنازعوا . واشتد الخصام بين جماعة اثناريكوس وجماعة فريتغرن . وتوفي فريتغرن في صيف السنة ٣٨٠ ، فخف القتال في جنوبي البلقان . وجاءَ غراتيانوس امبراطور الغرب في الوقت نفسه الى سرميوم وفاوض القوط في الشمال وهادنهم على ان ينتظم ابناؤهم في خدمة الجيش الروماني في مقابل تقديم الزاد اللازم للعشائر . فهدأت الحال وقام ثيودوسيوس من ثيسالونيكية الى القسطنطينية فدخلها دخول المنتصر في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٨٠ وجعلها مقره الرسمي . وفي الحادي عشر من كانون الثاني ٣٨١ أطل عليه في القسطنطينية اثناريكوس نفسه مقصوص الجناح اشلّ الساعد لما كان قد حل بجماعته من الشقاق والخصام . فرحّب به ثيودوسيوس وبجّله وعظّم قدره ولكنه توفي في الخامس والعشرين من الشهر نفسه ، فأمر الامبراطور بدفنه دفناً ملوكياً . وفي هذه السنة نفسها وصلت طلائع الهون الى الدانوب فردها القوط ببسالة ورباطة جأش . وشعر الطرفان : القوط والرومان ، بخطر الهون فباتا اكثر استعداداً للوصول الى تفاهم دائم بينهما . فأرسل ثيودوسيوس في صيف

السنة ٣٨٢ القائد ساتورنينوس الى القوط في الشمال ليفاوضهم في أمر الصلح. وكان ساتورنينوس من طراز ليبانيوس وغريغوريوس النازيانزي دمث الاخلاق وديعاً معتدلاً رزيناً ، فأقره القوط على مطالبه ووقع الطرفان في الثالث من تشرين الاول معاهدة صلح دائمة . وأهم شروط هذه المعاهدة ان الامبراطور الروماني اذن باقامة دولة قوطية بين الدانوب وجبال البلقان شرط ان تبقى حصون هذه المنطقة رومانية . وتعهد بتقديم معونة مادية في مقابل انخراط القوط في الجيش الروماني . والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان ثيودوسيوس آثر ، بعد هذا ، العنصرَ القوطي الالماني على غيره من العناصر في تعبئة جيشه ، فغدا الجيش المانياً مع مرور الزمن بعد ان كان رومانياً صرفاً في ايام الفتوحات .

المجمع المسكوني الثاني : وكان والنس قد اظهر تحيزاً شديداً لآريوس والآريوسيين فنفى جميع الاساقفة النيقيين وقهر رهبانهم على اللحاق بالجيش وقتل وأحرق . فلما سقط في ادريانوبوليس في السنة ٣٧٨ ورضي ثيودوسيوس ان يتسلم الحكم (٣٧٩) اشتد التنافر بين الآريوسيين وبين النيقيين وعمَّ جميع الاوساط الشعبية رجالاً ونساء . ومن ألطف ما جاء في المراجع في وصف تدخل « العوام في علم الكلام » قول غريغوريوس اسقف نيسة اليونانية : « والجميع في الشوارع والاسواق وفي الساحات وعند مفترق الطرق يتكلمون فيما لا يفقهون . فأذا سألت احداً من الباعة : ماذا ادفع ؟ اجابك : هو مولود او هو غير مولود . واذا انت حاولت ان تعرف ثمن الخبز اجابوك ان الآب اعظم من الابن . وان سألت هل الحمّام جاهز سمعت جواباً ان الابن جاء من العدم[١] . »

ويرى رجال الاختصاص ان ثيودوسيوس عزم منذ ان تسلم أزمة

١ *Patrologia Graeca, XLVI,557.*

الحكم على ان يجعل العقيدة الكاثوليكية الارثوذكسية عقيدة الدولة[1] . فأنه منذ السابع عشر من حزيران سنة ٣٧٩ عندما أصدر براءته الاولى وحدد فيها واجبات كبير الكهنة الوثنيين في انطاكية امتنع عن ان يشير الى نفسه باللقب الوثني : الحبر الاعظم . ولعل السبب في هذا انه ولد من ابوين مسيحيين اسبانيين وان حبر رومة دماسوس الكبير استغلّ نفوذ الحاشية الاسبانية المسيحية لحمل الامبراطور على مراعاة الكنيسة . وعـــاد ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من شهر شباط من السنة ٣٨٠ فأصدر براءة خاصة جعل بها العقيدة النيقاوية عقيدة الدولة . فقال ما معناه : « وعلى جميع شعوبنا ان تجتمع حول العقيدة التي نقلها بطرس الرسول الى الرومان ، العقيدة التي يقول بها اسقف رومة دماسوس واسقف الاسكندرية بطرس ، اي ان يعترفوا بالثالوث الاقدس الآب والابن والروح القدس . وللذين يقولون بهذه العقيدة وحدهم حق التلقب بالمسيحيين الكاثوليكيين[2] . اما الآخرون فانهم هراطقة موصومون بالعار لا يحق لهم ان يدعوا الابنية التي يجتمعون فيها كنائس . وسينتقم الله منهم ونحن ايضاً بعده[3] . » وما كاد الامبراطور يدخل العاصمة القسطنطينية في الرابع والعشرين من تشرين الثاني سنة ٣٨٠ حتى اخرج منها اسقفها الآريوسي وأدخـــل اليها (٢٦ تشرين الثاني سنة ٣٨٠) « بلبل قبدوقية الازرق » غريغوريوس الثاولوغوس النازينزي بجميع مظاهر الابهة والاجلال . وغريغوريوس هذا العظيم ولد بالقرب من نازيانزة في قبدوقيـــة في السنة ٣٣٠ ودرس في الاسكندرية وقيصرية وآثينة كما مرّ بنا ، وكان قد اشتهر بعلمه وفلسفته وفصاحته وسيم

١ *Piganiol, A., Emp. Chrétien, 216.*

٢ *Christiani Catholici.*

٣ *Cod. XVI, 2, 25 .*

اسقفا على ساسيمة فنازيانزة . وأراده ثيودوسيوس اسقفاً على العاصمة . وفي العاشر من كانون الثاني سنة ٣٨١ أردف ثيودوسيوس براءته هذه الاولى ببراءة ثانية فصّل فيها العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كما كان قد أقرها المجمع المسكوني الاول في نيقية . وأبان ان الهرطقة[1] في نظر دولته شملت اقوال فوتيانوس وآريوس وافنوميانوس . وفي الثاني من ايار من السنة نفسها حرم جميع المسيحيين المرتدين الى الوثنية من حق الوصية والوصاية . وفي الثامن منه ضرب المنيكيين ضربة قاضية .

وكان ثيودوسيوس قد أعلن رغبته وهو لايزال في تسالونيكية في عقد مجمع مسكوني عام للنظر في امور الكنيسة جمعاء ، فنفذ امنيته هذه في ربيع السنة ٣٨١ . وأمّ القسطنطينية عدد من اعاظم رجال الكنيسة بينهم ملاتيوس بطريرك انطاكية وغريغوريوس النازيانزي بطريرك القسطنطينية فيما بعد وتيموثاوس بطريرك الاسكندرية وكيرلس اسقف اوروشليم وامفيلوشيوس اسقف ايقونية وبيلاجيوس اسقف اللاذقية وذيذوروس اسقف طرسوس واكاكيوس اسقف حلب وكثيرون غيرهم بلغ مجموعهم مئة وخمسين . وكان دماسوس بابا رومة قد ألح بوجوب انعقاد هذا المجمع المسكوني في رومة نفسها . ولكن ثيودوسيوس الامبراطور أبى وأصر على عقده في القسطنطينية . فلم تشترك رومة في اعمال هذا المجمع ولم يكن هنالك من يمثلها ، ولكنها وافقت على جميع قراراته فيما بعد واعتبرته مجمعاً مسكونياً قانونياً . وكان ملاتيوس البطريرك الانطاكي قد اشتهر بجهاده ضد الآريوسية وبعلمه وفضله وتقواه فأجمع الاعضاء عليه رئيساً . فسام غريغوريوس النازيانزي اسقفاً على القسطنطينية وتوفي في اواخر ايار . فانتخب

١ وكانت قد جرت العادة منذ عهد قسطنطين الكبير ان يفرّق بين الكثلكة النيقية *ecclesia catholica* وبين الهرطقة Haeretici.

المجمع غريغوريوس النازيانزي رئيساً . ولكنه كان عصبي المزاج سريع الغضب فاستعفى . وعندئذٍ انتخب المجمع باشارة من الامبراطور نكتاريوس القاضي رئيساً . وهو الذي اصبح فيما بعد بطريركاً على القسطنطينية بعد غريغوريوس .

ونظر المجمع في بدعة مقدونيوس اسقف القسطنطينية الذي كان يقول بخلق الروح القدس من الله الآب بواسطة الابن . فنبذ المجمع هذا القول وأقرّ مراسيم المجمع النيقاوي ، واضاف الى دستور الايمان النيقاوي بعض ايضاحات وخصوصاً فيما كان يتعلق بامر تجسد ابن الله والوهيـة الروح القدس . فجاءَ في اثني عشر باباً كما يلي ، وهو لا يزال دستور المسيحيين حتى يومنا هذا :

١ – اؤمن بإلهٍ واحدٍ آب ضابط الكل ، صانع السماء والارض ، كل ما يُرى ، وما لا يرى .

٢ – وبربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إلهٍ حق ، مولود غير مخلوق ، مساوٍ للآب في الجوهر ، الذي به كان كل شيء .

٣ – الذي من أجلنا نحن البشر ، ومن اجـل خلاصنا ، نزل من السموات ، وتجسّد من الروح القدس ومن مريم العذراء ، وتأنس .

٤ – وصُلب عنا على عهد بيلاطس البنطي ، وتألم وقبر .

٥ – وقام في اليوم الثالث على ما في الكتب .

٦ – وصعد الى السماوات ، وجلس عن يمين الآب .

٧ – وايضاً يأتي بمجدٍ ، ليدين الاحياء والاموات ، الذي لا فناء لملكه[1] .

١ وكان النص النيقاوي : « نزل من السماء ، وتجسد ، وصار انساناً ، وتألم وقام في اليوم الثالث ، وصعد الى السموات ، وسيأتي ليدين الاحياء والاموات . »

٨ – وبالروح القدس ، الرب المحيي ، المنبثق من الآب[١] ، الذي هو مع الآب والابن ، مسجود له وممجد ، الناطق بالانبياء[٢] .

٩ – وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية .

١٠ – واعترف بعمودية واحدة لمغفرة الخطايا .

١١ – وارتجي قيامة الموتى .

١٢ – والحياة في الدهر العتيد . آمين .

وكان المجمع المسكوني الاول قد شرع في تنظيم الكنيسة على غرار نظام الدولة الرومانية . فأعطى اسقف عاصمة الولاية حق التقدم على اساقفة مدنها الاخرى ، وجعله متروبوليتاً عليها كلها . وكانت الولايات الرومانية المئة والعشرون قد انتظمت ذيقوسيات اثنتي عشرة . فجاءَ المجمع المسكوني الثاني يعطي متروبوليت عاصمة الذيقوسية حق التقدم على جميع المطارنة فيها . وأصبح بموجب هذا الترتيب بطريرك انطاكية عاصمة ذيقوسية الشرق متقدماً على جميع مطارنة هذه الذيقوسية . ومثله بطريرك الاسكندرية في ذيقوسية مصر ، ومتروبوليت قيصرية قبدوقية في ذيقوسية البونط ، ومتروبوليت افسس في ذيقوسية آسية ، ومتروبوليت هرقلية في ذيقوسية تراقية .

ويرجح بعض رجال الاختصاص ان اساقفة هذه الذيقوسيات كانوا يتمتعون بلقب إكسارخوس او الاسقف الاول ، وانه كان لبعضهم ألقاب خاصة احتفظوا بها . فكان اسقف رومة يدعى اسقف المدينة او حبراً او بابا او بطريركاً . وكان اسقف الاسكندرية يدعى بابا وبطريركاً ولا

١ *Lagier, C., Orient Chrétien, II, 282;*
خلاصة تاريخ الكنيسة ، ترجمة الخوري يوسف البستاني ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، الجزء الاول ، ص ٢٢٥ .

٢ وفي النص النيقاوي : « نؤمن بالروح القدس . »

يزال «بابا وبطريرك الاسكندرية» كما كان اسقف انطاكية يدعى بطريركاً ايضاً. واللفظ بابا يوناني في الارجح مأخوذ من الكلمة باباس ومعناها الاب. واللفظ بطريرك يوناني ايضاً. وهو مركب من كلمة باتريا ومعناها العشيرة، وكلمة أرشيس ومعناها الرئيس.

ولما كان بروقنصل القسطنطينية وحاكمها لا يخضع لنائب الذيقوسية التي فيها هذه المدينة، ولما كانت القسطنطينية هي عاصمة الامبراطورية الثانية «رومة الجديدة» فأن المجمع رأى ان يعطي اسقفها حق التقدم على جميع الاساقفة بعد اسقف رومة وان يصار الى تسميته في مجمع خاص يشترك فيه جميع اساقفة الذيقوسيات الشرقية[1].

ودعا دماسوس حبر رومة الاساقفة الى مجمع في رومة في السنة ٣٧٢ ولكن ثيودوسيوس طلب اليهم متابعة العمل في القسطنطينية في الوقت نفسه وسمح بان يسافر وفد منهم الى رومة يراقب اعمال مجمعها ولا يشترك فيها. وتدخل غراتيانوس امبراطور الغرب وحض الآباء المجتمعين في القسطنطينية على الاشتراك في مجمع رومة ولكن على غير جدوى. فاضطرب دماسوس ورأى في هذا اهانة له ونذير انشقاق بين الشرق والغرب[2].

العلاقات الرومانية الفارسية: وتوفي ذو الاكتاف شابور الثاني في السنة ٣٧٩ وتولى العرش الفارسي بعده اردشير الثاني (٣٧٩ – ٣٨٣) ثم شابور الثالث ابن ذي الاكتاف. فارسل هذا في السنة ٣٨٤ وفداً الى القسطنطينية يفاوض في توطيد السلم وتحسين العلاقات. وشفع ذلك بان

١ المجمع الثاني: القانون الثالث. اطلب ايضاً مقال لوران V. Laurent في المجلة Byzantion في سنتها السابعة، ص ٥١٢.

٢ Piganiol, A., Emp. Chrét. 220.

ارسل الهدايا الحرير والحجارة الكريمة والفيلة. ولكن حدث بعد هذا بقليل ان زحفت جيوش شابور الثالث على ارمينية ففر ملكها أرشاك الرابع الى ثيودوسيوس مستجيراً. ولكن ثيودوسيوس كان في امس الحاجة الى السلم نظراً لاضطراب الموقف في الغرب واغتيال غراتيانوس. ففاوض شابور في اقتسام ارمينية بينهما، فتم ذلك في السنة ٣٨٦ بموجب خط فاصل امتد من ديار بكر (آمد) حتى ارضروم (ثيودوسيوبولس). وهكذا ضم ثيودوسيوس ما قارب من خمس ارمينية الى ملكه. وفي بعض المراجع انه جرى مثل هذا الاقتسام في ما بين النهرين ولكنه قول ضعيف[١].

ضجة في انطاكية وبيروت: وتلطخت ادارة ثيودوسيوس بالرشوة. وكتب ليبانيوس الفيلسوف الانطاكي الى الامبراطور يقول: «حكامك الذين تبعثهم الى الولايات ليسوا سوى قتلة.» وتفاقمت ازمة مجالس الشيوخ في المدن. وفر الشيوخ واختبأوا. واضطر الامبراطور ان يحد من نفوذ بعض الشخصيات الاقليمية. ثم جاءت السنة ٣٨٧ فشرعت الحكومة المركزية تتهيأ للاحتفال بمرور عشر سنوات على حكم الامبراطور[٢]. فزادت الضرائب المفروضة. لكنها ما كادت تعلن عزمها على الجباية حتى لجأ الانطاكيون الى العنف، فاقتلعوا تماثيل الاباطرة وجروها في شوارع المدينة، واحرقوا بعض الابنية. وعلى الرغم من اعادة النظام في اليوم نفسه فان عدداً كبيراً من الاغنياء فروا واستتروا. وخشي الناس سطوة ثيودوسيوس وقسوته وظنوا انه سيخرب المدينة. وتحركت بيروت فأعلنت ولاءها لمكسيموس في الغرب. وحذت حذوها الاسكندرية. وانبرى

١ *Procopius, Aed. III, I, 245-246; Chapot, Frontière de l'Euph., 347-361.*
٢ *decennalia.*

يوحنا الذهبي الفم تلميذ ليبانيوس وكان لا يزال كاهناً في مسقط رأسه انطاكية يستغل الذعر لمصلحة الايمان فألّف ميامرَه العشرين وحفظ لنا شيئاً من تفاصيل تلك الحوادث[1]. وأمر ثيودوسيوس بتأليف مجلس عدلي للنظر في هذه الحوادث. واتخذ هذا المجلس مركزه في انطاكية وحكم وفقاً على الرغم من احتجاج الرهبان والاتقياء. ونزع ثيودوسيوس لقب متروبوليت عن انطاكية وانعم به على اللاذقية. ثم أصدر عفواً عاماً قبيل عيد الفصح من السنة نفسها.

توحيد الامبراطورية: وأحب غراتيانوس الامبراطور القبائل الآلانية التي كانت قد فرّت من سواحل بحر ازوف والتجأت الى داخل حدود الامبراطورية خوفاً من الهون البرابرة، فألحق ابناء هذه القبائل في الجيش وعطف عليهم عطفاً مستمراً. فأثار بذلك حسد العناصر الاخرى في الجيش. فتمردت الكتائب الرومانية في بريطانية ونادت في السنة ٣٨٣ بمكسيموس احد النبلاء الاسبان امبراطوراً. وحذت حذوها كتائب الجيش في المانيا. ونزل مكسيموس بجنوده عند مصب الرين. فنهض غراتيانوس اليه وتلاقى الجيشان في منطقة باريز. ولكن عساكر الامبراطور خانت سيدها. ففر غراتيانوس في ثلاث مئة فارس. ولحق به فرسان مكسيموس فأدركوه في ليون وقتلوه في الخامس عشر من آب سنة ٣٨٣. ثم أرسل مكسيموس يستدعي اليه والنتنيانوس الثاني اخا غراتيانوس الاصغر، معترفاً بحقه بالملك مدعياً الحكم بحق الوصاية على الامير القاصر. فاما ثيودوسيوس فحين اتته هذه الانباء اسرع في السنة ٣٨٤ الى ايطالية لينظر في الامر. وظن الناس انه انما قام ليحارب

١ *Goebel, R., De Ioannis Chrysostomi et Libanii Orationibis, Gottingen, 1910.*

مكسيموس وليعيد الحق الى نصابه . ولكنه ابرم مع المغتصب صلحاً اعرج ، فجعل مكسيموس اوغوسطاً ثالثاً مشترطاً عليه ابقاء ايطالية بيد الامبراطور القاصر ووالدته يوستينة . ولكن مكسيموس نكث بالشرط وزحف على ايطالية في السنة ٣٨٧ ، ففرّ والنتنيانوس الثاني الى الشرق واستقرّ في ثيسالونيكية. فزحف ثيودوسيوس في صيف السنة ٣٨٨ بجيشه الى حدود ايطالية وحارب مكسيموس وانتصر عليه . فاستسلم مكسيموس في اكويلية ولكن ثيودوسيوس أحاله الى الجند فقتلوه . وقام هو الى ميلان واقام فيها سنتين . وسيّر والنتنيانوس الثاني الى غالية ليدبر امورها . فلما كانت السنة ٣٩٢ قام والنتنيانوس هذا الى فيينة ليصد هجوماً بربرياً قوياً . فقتل فيها على قول احدى الروايات وانتحر على قول غيرها . فاختار قائد العساكر خطيباً غالياً اسمه اوجانيوس واعلنه امبراطوراً في ليون . وانتقل هذا الامبراطوار في ربيع السنة ٣٩٣ الى ايطالية فاقام فيها . فألحت غلّة زوجة ثيودوسيوس الثانية واخت ولنتنيانوس بوجوب الاقتصاص من اوجانيوس لانها اتهمته بقتل اخيها . فنهض ثيودوسيوس اليه في صيف السنة ٣٩٤ وانتصر عليه في مداخل ايطالية الشمالية وامر بقتله فقتل في جواقيلان . وهكذا أصبح ثيودوسيوس هو الحاكم الفرد في الامبراطورية.

الوثنية تشرف على التلف : وفي الوقت الذي كان فيه ثيودوسيوس يضطهد الهرطقة والخروج على العقيدة الارثوذكسية الكاثوليكية كان يضيّق الخناق على الوثنية ليخمد انفاسها . فابطل زيارة الهياكل وذبح الذبائح والعيافة باكباد الحيوانات واحشائها . وأدى هذا بطبيعة الحال الى اغلاق الكثير من الهياكل والى اقتحام الجماهير بعضها لنهبها وتدميرها . ثم عاد فمنع في السنة ٣٩١ الذبائح وزيارة الهياكل وتكريم التماثيل ، وفرض غرامات ثقيلة على الحكام والموظفين الذين يقترفون مثل هذه الذنوب ، وأمر باخراج مذبح الهة النصر من بهو مجلس الشيوخ في رومة ، وكان

يوليانوس قد اعاده الى هذا البهو بعد اخراجه منه في عهد قسطنطين . فاضطرب الشيوخ الوثنيون ، ورأوا في ذلك تمثيلا وتنكيلا بمجد رومة وعظمتها . واوفدوا سياخوس الخطيب الى ميلان ليلتمس اعادة النظر في هذا التدبير وارجاع المذبح الى مكانه . وعلم امبروسيوس اسقف ميلان بمهمة سياخوس فكتب الى البلاط يرجو المحافظة على حرية المعتقد المسيحي ويبين انه ليس من هذه الحرية في شيء اكراه الشيوخ المسيحيين على الاجتماع والتشاور في قرب من مذبح وثني . ووصل سياخوس الى ميلان وتكلم باسم الشيوخ الوثنيين فطالب باحترام جميع الاديان وقال : يمكن الوصول الى الحقيقة الدينية بطرق متعددة . ثم اشار الى يمين الولاء المفروضة على جميع الاعضاء وأبان انه اذا لم يكن ثمة مذبح في بهو المجلس فعلى اي شيء يقسم الاعضاء اليمين ؟ ولكن ثيودوسيوس كان شديد التمسك بالنصرانية فأحال عريضة الشيوخ الى المجلس الامبراطوري الاعلى مع الايعاز برفضها . وفي السنة ٣٩٢ أصدر الامبراطور امراً خاصاً الى نائبه في مصر يوجب تطهير هذا البلد من ادران الوثنية . فأقفل السيرابيوم في الاسكندرية . واتفق ان اراد ثيوفيلوس اسقف الاسكندرية ان يحوّل هيكلا وثنياً الى كنيسة مسيحية فثارت ثائرة الوثنيين في الاسكندرية والتجأوا الى السيرابيوم واعتصموا فيه . وحضهم الفيلسوف اوليمبيوس الوثني على الاستماتة في سبيل دينهم . فأمر ثيودوسيوس بهدم الهيكل وتدميره . وألح ثيوفيلوس بوجوب تقطيع تمثال سيرابيس بالفؤوس . وكان الناس يعتقدون ان سيرابيس يقابل مثل هذا العمل بالزلزال . لكن ما ان سقط التمثال وهدمت قاعدته حتى خرج منها جيش من الجراذين ! ثم أضرمت النار في امتعة الهيكل الكبير فاحترق معها عدد غير قليل من نفائس المخطوطات اليونانية وضاعت بضياعها صفحة من تاريخ العلم والمدنية .

الوفاة : وكان ثيودوسيوس قد أدمن شرب الخمر وما يتبعها من ملذات ، فأسرف على صحته ، وتوفي في ميلان في السابع عشر من كانون الثاني سنة ٣٩٥ . وأبنه امبروسيوس في الخامس والعشرين من شهر شباط مؤكداً هلاك مكسيموس واوجانيوس وخلاص ثيودوسيوس .

الفصل السابع

ظهور الرهبانية وانتشارها

أصلها : وعاش السيد نفسه عيشة فقر وتيه ومسكنة . وعلّم باقتراب النهاية . وأرسل تلاميذه ليكرزوا بملكوت الله . وأوصاهم الا يحملوا شيئاً للطريق « لا عصا ولا مزوداً ولا خبزاً ولا فضة » والا يكون للواحد منهم ثوبان[١] . وقام يعقوب بعده لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقتني سوى رداء واحد . وحضّ الرسلُ المؤمنين على العفة والبتولية واجازوا الزواج لمن خشي العنت فقط[٢] .

وجاءَ الاضطهاد في القرون الثلاثة الاولى ففر عدد من المؤمنين الى البراري والقفار وعاشوا فيها عيشة البؤس والطهارة والتقوى[٣] . واشتدت وطأة الحكم وكثرت الضرائب وتثاقلت ، فتاه الفلاحون وتركوا القرى والمزارع محتجين على نظام المجتمع طالبين عيشة جديدة ، حتى اذا اطل القرن الرابع وجاء قسطنطين وخلفاؤه وتنفس المؤمنون تنفسة الراحة ، لم يكد يغير ذلك شيئاً من طريقتهم الاولى اذ اصبحوا يقولون بوجوب

١ لوقا ، ٩ : ٣ .
٢ كورونثوس الاول ، ٧ : ٨ - ٩ .
٣ Sozom. I, 12, 11.

الانكفاء والابتعـــاد عن العالم للتأمل والتفكير الجدي بالقيم الروحية والبشرية .

انطونيوس الكبير : (٢٥٠ – ٣٥٦) واشهر الرهبـــان الاولين انطونيوس الفلاح المصري الذي اعتكف على نفسه خمسة عشر عامـــاً ثم انزوى في حصن مهجور عشرين عاماً . وذاع صيته في مصر فالتف حوله عدد من الزّهد ، والحوا عليه بوجوب تنظيمهم . فأسس في السنة ٣٠٥ تعاونية رهبانية اجاز فيها ضروباً من التنسك والواناً متفاوتة من شدة الوحدة والانفراد . هذا وقد قام على حدود الصحراء في منطقة اسيوط عدد كبير من النساك الانطونيانيين جماعات وافراداً . وفي وادي النطرون في صحراء ليبية انعزل آخرون جماعاتٍ وافراداً ايضاً ينسجون الكتّان فيلبسونه ويبتعدون عن كل ما يمت الى الملذات بصلة ، ويتعبدون منفردين في ايام الاسبوع مجتمعين في ايام السبوت والآحاد . واختلفت الطريقة الانطونيانية عن غيرها في انها تركت للناسك الفرد الحرية التامة في انتقاء طريقته في التنسك .

باخوميوس القديس : (٢٩٠ – ٣٤٥) وتقبـــل النصرانية في هذا الوقت نفسه في طيبة مصر ناسك من نساك سيرابيس . فقاده حبه للتنسك والنساك ان يؤسس ما بين السنة ٣١٥ والسنة ٣٢٠ اولى الرهبـــانيات المسيحية ، وذلك في تبينية بالقرب من دندرة . واختلف اتباعه عن اتباع انطونيوس في انهم عـــاشوا مجتمعين تحت سقف واحد وحول مائدة وكنيسة واحدة . وكان عليهم ان يقرأوا الكتاب ويصلّوا ويعملوا عملاً مفيـــداً . وازداد عددهم وكثرت مؤسساتهم وانتشروا في صعيد مصر . وحذت مريم اخت باخوميوس حذو اخيها فأنشأت رهبـــانية للراهبات لم تختلف في نظمها عن رهبانية الرجال[١]

١ *Winlok, H. E. , The Monasteries of the Wadi'n Natrun, 1932; Lefort, L. Th. , La Règle de St. Pachome, (Museon, XL, 1927) .*

باسيليوس الكبير : (٣٢٩ — ٣٧٩) وشاع امر الترهب في فلسطين وسورية ولبنان ثم في آسية الصغرى . واشهر من قال به في هذه الاقطار واشدهم تأثيراً واكثرهم اتباعاً باسيليوس الكبير اسقف قيصرية قبدوقية . وكان قد بدأ الترهب في بلاده فشغف به وزار سورية ولبنان وفلسطين ومصر في السنة ٣٥٧ . وتفقد شؤون الرهبان والنساك فيها فأعجبه نظام باخوميوس . فلما عاد الى آسية الصغرى وكانت السنة ٣٦٠ عزم على الترهب فاختار البونط وانشأ فيه ديراً بالقرب من قيصرية الجديدة . فوضع نظام الرهبانية الباسيلية وأصرّ فيها على الطاعة زيادة على الفقر والعفة . واشتهر اتباعه باعمالهم الزراعية وباهتمامهم بتربية اليتامى وتعليم الصبيان .

وكان باسيليوس الكبير قد تلقى الفلسفة والكتابة والخطابة على يد ليبانيوس الفيلسوف الانطاكي وفي الاسكندرية وآثينة . وجمع الى ذلك ذكاءَ الفؤاد وقوة الحجة وفصاحة الكلام . وكان قد رافق غريغوريوس الثاولوغوس في سني الدراسة وأحبه ، فنشأت بينهما صداقة قوية تعاونا فيها على خدمة الكنيسة . ووافق عصره ان كانت الارثوذكسية مضطهدة فانتصر لها قولاً وكتابة والف رسائل عدة لا يزال معظمها معروفاً . ولا نزال حتى يومنا هذا نردد كلماته وافكاره في خدمة القداس في آحاد الصوم الكبير ويومي الخميس والسبت العظيمين وفي بارامون الميلاد وبارامون الظهور الالهي وفي يوم عيده الخامس من كانون الثاني .

وقد كان لهذا كله اثر كبير في نفوس المؤمنين فكثر الاقبال على الترهب وشاعت طريقة باسيليوس في جميع الاقطار الشرقية وفي اليونان والبلقان وروسية[١] .

١ *Clarke, W. K. L. St. Basil the Great; Murphy, Sister, St. Basil and Monasticism.*

مار مارون : (؟ – ٤١٠) وآثر المؤمنون في سورية ولبنان وفلسطين الترهب الفردي على الجماعي فتركوا المدن والقرى وانتثروا في السهول والوديان وعلى قمم التلال يتأملون ويبتهلون ويعملون . وكان من اشهر هؤلاء في القرن الرابع مار مارون . ولا نعرف بالضبط سنة ولادته ولا المكان الذي ولد فيه ولا محل تنسكه . ولكننا نعلم علم اليقين انه عاش وعمل في سورية الشمالية في النصف الثاني من القرن الرابع . ويرى الاب لامنس اليسوعي ان مار مارون عاش ومات في القورسيّة . وقورس عاصمة منطقة القورسيّة كانت تقع على مسيرة يومين من انطاكية وعلى نحو سبعين كيلومتراً من حلب الى شماليها الغربي . ويميل المطران بطرس ديب الى القول بان مار مارون تنسك على جبل في منطقة ابامية (قلعة المضيق) من سورية الثانية .

واقدم ما نعود اليه في تاريخ مار مارون رسالة وجهها اليه يوحنا الذهبي الفم من منفاه في مدينة كوكيسوس في جبال طوروس في السنة ٤٠٤ او ٤٠٥ . وهي الرسالة السادسة والثلاثون من رسائل هذا القديس[١]، وفيها مودة ومحبة واستفسار عن الصحة والسلامة ورجاء الى مار مارون ان يصلي من اجل الذهبي الفم . فلا شائبة اذاً تشوب عقيدة مار مارون وهو بالتالي ارثوذكسي كاثوليكي نيقاوي .

وأنفع المراجع الاولية ما جاء عن مار مارون في تاريخ التنسك والنساك لثيودوريطس اسقف قورس (٤٢٣ – ٤٥٨) الذي ولد في انطاكية قبل وفاة مار مارون بسبع عشرة سنة (٣٩٣) وعرف يعقوب الناسك اشهر تلاميذ مار مارون[٢] .

١ *Chrysostom, John, Epistolae (Patrologia Graeca, LII, (Paris, 1862); Jeannin, M.A., Oeuvres Complètes de St. Jean Chrysostome, (Paris, 1887).*

٢ *Theodoret, Historia Ecclesiastica, (Paris, 1911).*

ويستدل من كلام ثيودوريطس وغيره ان مار مارون قصد في النصف الثاني من القرن الرابع الى قمة احد المرتفعات في القورسيّة يرتاد الخلوة والطمأنينة ، فكرّس هيكلاً وثنياً كان قد « خصص للابالسة منذ القديم » واستعمله في عبادة الاله الواحد ، وانه كان يقضي ايامه ولياليه تحت قبة السماء متعبداً ، وانه كان يلجأ الى خيمة صغيرة اصطنعها من جلود الماعز ليتقي فيها شرّ العواصف والبرد . ولم يكن مار مارون يكتفي في تقشفه « بالاصوام والصلوات المستطيلة والليالي الساهرة في ذكر الله واطالة الركوع والسجود والتأملات في كمالات الله ومناجاته وحبس الجسد في منطقة محدودة وقهره باللباس الخشن والمسوح الشَعرية وتحريم الجلوس احياناً ومنع النوم ليالي بكاملها والانصراف الى وعظ الزوّار وارشادهم » ، بل كان يزيد عليها ما ابتكرته حكمته فيوازن بين النعمة والاعمال . ويؤكد ثيودوريطس ان الله منح مارون موهبة الشفاء وان الناس تقاطرت اليه افواجاً وانه لم يكتف بشفاء امراض الجسد بل كان يشفي بعضاً من البخل وآخرين من الغضب ويعلّم غيرهم العدل وينهي عن استباحة المحرمات ويوقظ من غفلة التواني .

ومما يجدر ذكره لهذه المناسبة ان مار مارون اجتذب تلامذة عديدين رجالاً ونساءً ، وان هؤلاء التفوا حوله في صوامع قريبة يهتدون بارشاداته في مجاهل حياتهم النسكية . فلما توفاه الله في السنة ٤١٠ نشأت اخوية مارونية تعمل بما علّم به هذا الناسك المجاهد[١] .

١ وافضل ما يرجع اليه من المؤلفات الحديثة في مار مارون بحث الاب لامنس في الشار الموارنة في لبنان في الجزء الثاني من كتاب تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار (بيروت ، ١٩٠٣) ، ولباب البراهين للمطران يوسف دريان (القاهرة ، ١٩١٢) ، والكنيسة المارونية للمطران بطرس ديب (باريس ، ١٩٣٢) ، ومحاضرة الاستاذ فؤاد افرام البستاني عن مار مارون في مجلة الندوة ، ج ٢ ، عدد ٥ و ٦ ، حزيران ١٩٤٨ .

الباب الثالث

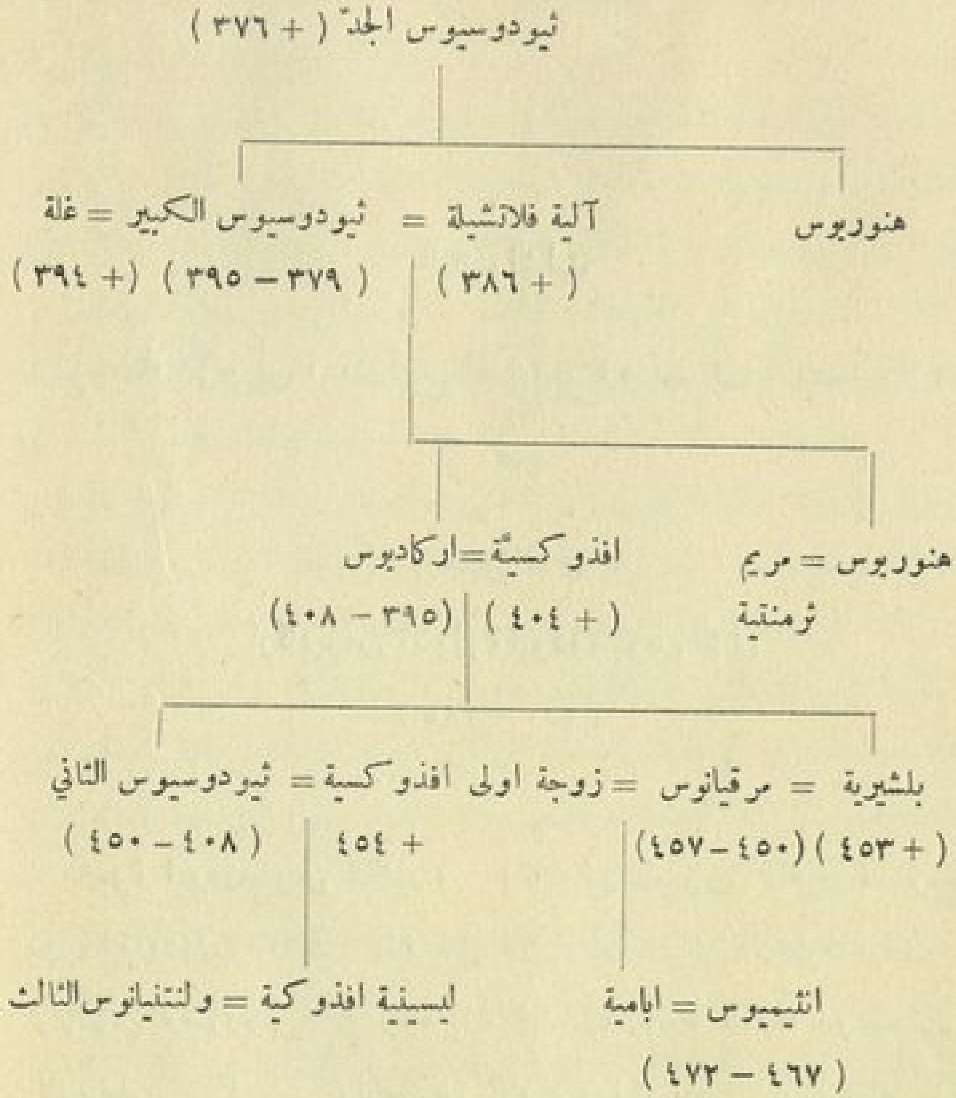
المحنة الاولى : تدفق البرابرة وتفرق النصارى

الفصل الثامن

اركاديوس الاول وثيودوسيوس الثاني

(٣٩٥ - ٤٥٠)

اسرة ثيودوسيوس الكبير : وكان ثيودوسيوس الكبير قد تزوج من آلية فلاتشيلة الاسبانية قبل ان تبوأ عرش الاباطرة فولدت له اركاديوس وهنوريوس . ثم توفاها الله في السنة ٣٨٦ فاقترن ثيودوسيوس الامبراطور بغلّة بنت ولنتنيانوس الاول ورزق منها بنتاً سماها غلّة بلاسيدية . وتزوج اركاديوس من إفدوكسيّة فولدت له ثيودوسيوس الثاني وبلشيرية . اما هنوريوس فانه تزوج من مريم بنت عمّه هنوريوس ومن ثرمنتية ، ولكنه ظلّ عاقراً بلا وارث .



أركاديوس: (٣٩٥ - ٤٠٨) وكان أركاديوس غلاما يافعاً عندما تبوأ العرش، بطيء الحس ضعيف الارادة . فانقاد اولاً لمدبر اموره روفينوس ثم لندمائه وجلسائه . واشهر هؤلاء الخصي إفتروبيوس الذي نال الحظوة بأن قدّم لاركاديوس افذوكسيّة الفتانة بنت ضابط من ضباط الجيش . وكانت افذوكسية هذه شديدة الاعجاب بجمالها وبنفسها متغطرسة منتفخة، فزادت الطين بلة . ولم يكن هنوريوس اوفر حظاً . فانه تبوأ العرش

في الحادية عشرة وخضع لمآرب مدبّر آخر هو استيليكون الوَنْدالي. وعلى الرغم من مظاهر الاخاء والمحبة والتعاون بين الدولتين فان كلاً من استيليكون في الغرب وروفينوس وغيره في الشرق عمل على الشقاق والتنافر والضرر. وكان استيليكون يطمع في ضم جميع إيليرية وتوابعها الى امبراطورية الغرب ويعمل من اجل ذلك بكل دهاء. فهب زملاؤه في الشرق يثيرون الشعب على حكومة سيده في افريقية. واشتد الاحتكاك بين الحكومتين حتى ادى الى تضاؤل التبادل التجاري بين الشرق والغرب بل الى انقطاعه حتى السنة ٤٠٨. ويقول إفنابيوس المؤرخ المعاصر: «ان كلاً من الامبراطورين خضع لمن حوله من الرجال وان هؤلاء اشعلوها حرباً دائمة مكتومة مستترة، وانهم لم يترفعوا عن اللجوء الى جميع انواع المداهنة والمخادعة[١].»

ألاريكوس ملك القوط: ولدى وفاة ثيودوسيوس الكبير اعتبر القوط الغربيون انفسهم في حلٍ من روابط المعاهدة التي كانوا قد وقّعوها معه في السنة ٣٨٢. وظهر بينهم رجل نشيط طموح هو ألاريكوس بلطة[٢] فبايعوه ملكاً عليهم. وادعى ألاريكوس انه لم ينل من حكومة رومة الجديدة ما استحقه من رتبة وتقدير. فنهض بجموعه الى مقدونية وتراقية وهدد العاصمة نفسها. ثم اتجه شطر اليونان، فعبر مضيق ثرموبولي ودخل بلاد اليونان الوسطى ثم جزيرة المورة، ونهب وأحرق وسبى. وكان معظم جيش اركاديوس لا يزال في ايطالية. فكتب اركاديوس الى استيليكون مدبر امور اخيه ان يبعث اليه الجيش وان يعاون في تأديب القوط واعادتهم الى مناطقهم على ضفة الدانوب. وقام استيليكون على رأس قوة

١ *Eunap., Fragm., 62. 63.*

٢ *Alaric Balta.*

الى الشرق ووصل الى تسالية وارسل جيش اركاديوس بقيادة غايناس القوطي الى القسطنطينية . ولم يبادر الى طرد ألاريكوس من بلاد اليونان قبل التخلص من روفينوس مدبّر اركاديوس وخصمه الدود . ونفذت المؤامرة بينه وبين غايناس وقتل روفينوس في تشرين الثاني من السنة ٣٩٦ . وجاء استيليكون ثانية الى اليونان في ربيع السنة ٣٩٧ ، وكان بامكانه ان يطبق بقواته على ألاريكوس ولكنه لم يفعل . فاغتاظ اركاديوس وتقبل رأي وزيره إفتروميبوس الخصي فصالح القوط ليتمكن من معاقبة استيليكون والانتقام منه . فرفع ألاريكوس الى رتبة قائد في الجيش وأقطع القوط الغربيين اراضي جديدة . واختار لهم الجزء الشمالي من ايليرية ليتجهوا بغزواتهم شطر ايطالية بلاد استيليكون .

قوط القسطنطينية : واتجه القوط رجالُ ألاريكوس شطر ايطالية ولم يعودوا الى ازعاج أركاديوس . ولكن مشكلة قوطية اخرى بقيت تنتظر الحل . فان ثيودوسيوس الكبير كان قد أدخل الى صفوف الجيش عدداً كبيراً من هؤلاء القوط ولاسيما في سلاح الخيالة . وكان بعضهم قد خدم الجيش باخلاص وأبلى البلاءَ الحسن في ميادين القتال ، فرقي من رتبة الى رتبة . وكان بين هؤلاء في هذه الفترة التي نحن بصددها غايناس القوطي احد كبار القادة في جيش الامبراطور . وكان غايناس هذا يهتم بشؤون القوط ابناء جنسه ويصغي الى شكاويهم . فالتف حوله عدد لا يستهان به من الجند والمدنيين ، فاذا هو في اوائل عهد اركاديوس احد زعماء السياسة في العاصمة . ولم يكن عدد القوط المدنيين في العاصمة قليلاً . فسيناسيوس المؤرخ المعاصر يقول انه لم يكن بيت من بيوت العاصمة يخلو من خادم قوطي وان البنائين والسقائين والعتالين كانوا قد

اصبحوا جميعاً من القوط[1] .

وكان يتلو غايناس في القوة والنفوذ والاهمية الخصي إفتروبيوس فأنه جمع حواليه كل مغامر ومداهن من اصحاب المصالح الكبرى الذين اتجروا بكل شيء وتملقوا كل صاحب نفوذ اشباعاً لمطامعهم . واصبحت سياسة العاصمة في ايام اركاديوس الاولى تطاحناً مستمراً بين غايناس القوطي وافتروبيوس الخصي للحصول على النفوذ او الوصول الى السلطة او الاحتفاظ بها .

ويستدل من بعض المصادر ان كثيراً من الشيوخ والوزراء ورجال الاكليروس لم يرضوا عن هذا ولا عن ذاك . فتضامنوا في سبيل المحافظة على رومانية الدولة والحيلولة دون وصول الالمان البرابرة الى الحكم . ولم يروا في افتروبيوس ذاك الوطني المخلص . فالتفوا حول المدبّر اوربليانوس[2] . واجمل ما بقي من آثار هذه اليقظة الوطنية الرومانية رسالة وضعها الاسقف سيناسيوس القيروني ووجهها الى الامبراطور وأسماها « قوة الامبراطور » . وكان سيناسيوس قد زار القسطنطينية في السنة ٣٩٩ ولبث فيها ثلاث سنوات فجاءت رسالته خير معين على فهم اوربليانوس وموقفه هو وجماعته من سياسة ذلك العصر . وتلخص هذه الرسالة بوجوب مراقبة الالمان البرابرة والاستعداد لمجابهتهم لانهم سيستغلون اتفه الاعذار لتقلد الاحكام . ولذا يجب على الامبراطور ان يزيح الاجانب عن المناصب الهامة وان ينزع عنهم عضوية مجلس الشيوخ . وعليه ايضاً ان يطهر الجيش وان يزيد عدد الوطنيين فيه ثم يفرض امره على هؤلاء البرابرة[3] .

١ *Synesius, Patrologia Graeca, LXVI, col. 1092 - 1097.*

٢ *Bury, Later Rom. Emp. I, 127 - 129.*

٣ *Fitzgerald, A., Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, (1930) I, 134-139 ; notes, 206 - 209,*

ثورة القوط في فريجية : وكان الامبراطور ثيودوسيوس الكبير قد أسكن جماعات من القوط الشرقيين مقاطعات معينة في فريجية في آسية الصغرى . فلما اشتد الاحتكاك بين غايناس وبين افتروبيوس اوعز القائد القوطي الى هؤلاء بالتعرض للسكان الآمنين واحداث الشغب . ففعلوا . فأنفذ الامبراطور غايناس نفسه لاخماد هذه الحركة . وما ان وصل غايناس الى مناطق الاضطراب حتى تفاهم مع قائد القوط الشرقيين ووجّه بالتضامن معه خطاباً الى الامبراطور يطلب فيه اخراج افتروبيوس من وظيفته وتسليمه اليه . فاضطرب اركاديوس وخشي سوء العاقبة فأبعد افتروبيوس عن العاصمة (٣٩٩) . ولكن الزعيمين القوطيين لم يكتفيا بهذا بل اصرّا على اعادة افتروبيوس الى العاصمة ومحاكمته واعدامه . وبعد ان تمّ لهما هذا طلبا الى الامبراطور ان يكرّس احدى كنائس العاصمة للصلاة بحسب المذهب الآريوسي . فاحتج يوحنا الذهبي الفم اسقف العاصمة احتجاجاً قوياً ، فتراجع غايناس عن هذا الطلب لعلمه ان الجماهير في العاصمة وخارجها تؤيد الذهبي الفم .

سقوط غايناس وانتهاء مشكلة القوط : وخشي الوطنيون الرومانيون مطامع غايناس وراءهم الامر فتأهبوا وتهيأوا ، وعاهدوا قوطياً آخر اسمه فرافيتة وعقدوا معه عقداً لما لمسوا فيه من الاخلاص والمحبة للامبراطور والولاء للامبراطورية . ولدى خروج غايناس من العاصمة في اوائل السنة ٤٠٠ هجم الوطنيون على من تبقى من عساكره في داخل المدينة وقتلوهم . فثارت ثائرة غايناس وجمع جموعه ونهب تراقية وهمّ بالعبور منها الى آسية الصغرى . ولكن فرافيتة انتصر عليه وصده عن اجتياز المضايق . ففر غايناس عبر الدانوب . فوقع اسيراً بيد ملك من ملوك الهون أمر بقتله . فقُتل في كانون الاول من السنة ٤٠٠ ، وكافأ اركاديوس فرافيتة فجعله قنصلاً . وانتهت مشاكل القوط بسقوط غايناس . واعتبر اركاديوس

انتصاره على غايناس عملاً عظيماً فنقشه على العامود التذكاري الذي اقامه في فورم القسطنطينية . وتغنى الشعراء بهذا النصر واعتبروه عظيماً . وخلّد سيناسيوس عمل اوريليانوس وجماعته برواية رمزية دارت حوادثها على صراع بين اوسيريس (اوريليانوس) وتيفون المحرّض على الشر[1] .

يوحنا الذهبي الفم : (٣٤٥ – ٤٠٨) وأنجبت الكنيسة في هذه الفترة من تاريخها يوحنا الذهبي الفم . ولد في انطاكية من ابوين شريفين في السنة ٣٤٥ او ٣٤٧ . وتلقى علومه على ليبانيوس الفيلسوف . وأبدى مواهب فريدة . فرأى فيه الفيلسوف المعلم خير خلف له . وعطف عليه، وعني به عناية فائقة . ولكن والدته انثوزة سطت عليه «فسرقته» ، على حد تعبير ليبانيوس ، وعمّدته مسيحياً ، كما فعلت والدات غريغوريوس الثاولوغوس واوغوسطينوس وثيودوريطس . وتسلّم النعمة على يد ملاتيوس البطريرك الانطاكي رئيس المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٧٠ . فآثر الانفراد واستأنس بالوحشة وانتبذ مكاناً قصياً في برية انطاكية ليحسن التأمل في الخالق وخلقه ويجيد التفكير في القيم الروحية والبشرية . وما فتىء معتزلاً منزوياً حتى انتابه مرض اكرهه على العودة الى انطاكية . فعاد اليها في السنة ٣٨٠ . وفي السنة ٣٨١ سامه البطريرك الانطاكي ملاتيوس شمّاساً . ثم رقي الى رتبة كاهن في السنة ٣٨٦ . واشتهر الكاهن يوحنا بالتقوى ، والتضحية ، والخدمة ، وبالخطابة والفصاحة . فلما توفي نكتاريوس بطريرك القسطنطينية ، وقع عليه اختيار حاجب القصر ، افتروبيوس الخصي . فطلبه اليه وأخرجه خلسة من انطاكية ، خوف ان يتدخل الجمهور الانطاكي ويعترض . وعلى الرغم من تدخل ثيوفيلوس البطريرك

١ راجع ترجمة رسائله واشعاره الى الانكليزية ، وقد اشير اليها آنفاً . والاشارة هنا هي الى *Osiris* والى *Typhon* .

الاسكندري وسعيه بالفساد ، فان يوحنا الذهبي الفم سيم اسقفا على العاصمة ، ورقي الكرسي البطريركي في السنة ٣٩٨ .

وبدأ يوحنا الذهبي الفم عمله البطريركي باهتمام بالغ بشؤون الفقراء والمساكين . فأنفق على المعوزين والجياع والمرضى ما كان بعض اسلافه يبذخون به بذخاً . فأحبه البؤساء وتعلقوا به ، وآثروا الاصغاء الى عظاته البليغة على الذهاب الى دور التسلية ، وميادين الالعاب ، لما كان عليه من طلاقة اللسان ، وسرعة الخاطر ، وحضور الذهن . اذا تكلم تحدّر كالسيل ، وكلما افاض ملك أعنة القلوب . وهذه عظاته لا تزال محفوظة حتى يومنا هذا ، وفيها من الرقة ، والطلاوة ، والتفنن في التشبيه ، والاستعارة ، ما يسبغ على مواضيعها العادية سحراً وجاذبية لا حد لها .

وكان البطريرك الجديد مثالياً يأخذ نفسه وغيره بتطبيق هذه المثالية اخذاً صارماً . فحمل الرهبان على العمل المثمر . وحقق في بعض التهم التي وجهت الى بعض الاساقفة ، فعزل ثلاثة عشر منهم . وكان متحرجاً يستنكر البذخ واللهو ، فندّد برجال البلاط ونسائهم . ولم تنج حتى الامبراطورة افذوكسية من هذا التنديد . وكان ثيوفيلوس بطريرك الاسكندرية قد بدأ يضطهد من قال برأي أوريجانيوس . ففر من وجهه الأخوة الاربعة الطوال ولجأوا الى الذهبي الفم (٤٠١) . فقبلهم متلطفاً ولكنه اعتبرهم محكوماً عليهم . واذا ببعض الرهبان ، وغايتهم اثارة الشعب على الذهبي الفم ، يستشفعون الامبراطورة لدى زوجها ان يأمر ثيوفيلوس بالحضور الى القسطنطينية . فتقدمها ثيوفيلوس على رأس عدد من اساقفة مصر . وهكذا تجمع في القسطنطينية رهط من حسّاد الذهبي الفم وممن نقموا عليه لتشديده عليهم في المحاسبة . فعقد ثيوفيلوس مجمعاً ضد يوحنا بالقرب من خلقدونية (٤٠٣) عرف بمجمع البلوطة . واتهم يوحنا الذهبي الفم باقوال اوريجانيوس وبخيانة المملكة . وطلب هذا المجمع يوحنا الذهبي

الفم اربع مرات للحضور فلم يحضر فقطعه ، وحكم ثيودوسيوس عليه بالنفي. ولكن الشعب لم يسلّم بنفيه فتدخل الجيش . فهدّأ يوحنا الشعب ونصح لهم بالخضوع وخرج منفياً . وكان ان حدثت في اليوم التالي زلزلة عظيمة فاضطرب ضمير افذوكسية وداخلها الشك فطالبت زوجها بان يعاد القديس حالاً الى كرسيه . فدخل القسطنطينية في موكب شعبي عظيم . فخجل ثيوفيلوس وعاد الى الاسكندرية . وما كاد البطريرك القسطنطيني يستقر في كرسيه حتى اثاره التبجيل الذي احيط به شخص الامبراطورة لمناسبة اقامة تمثال لها في جوار كنيسة الحكمة فندّد بها مرة اخرى تنديداً شديداً . وقيل لها انه استهل عظته بالقول : « لقد عادت هيروديّة الى حنقها ، الى رقصها ، وها هي تطلب رأس يوحنا. » فاغتاظت افذوكسية واستدعت ثيوفيلوس . ولفّق هذا ما لفق فقطع المجمع يوحنا مرة ثانية . فنفي الى نيقية (٤٠٤) ثم الى كوكيسوس في ثنايا جبال طوروس لعله يقع طعمة في ايدي الاسّوريين الثائرين . ولكنه بلغها سالماً واقام فيها ثلاث سنوات يكتب ويؤلف . وبقي فيها على اتصال برعيته فكان يعزيهم بقوله « ان الذي لا يظلم نفسه لا يستطيع احد ان يضرّ به » . وناصره بابا رومة اينوشنسيوس . ولكن البلاط قرر ابعاده الى صحراء بثيّوس في حدود البحر الأسود . فرحل اليها . ولدى وصوله الى قومانة في بلاد البونط توفي فيها في السنة ٤٠٨ ونقل جثمانه الى القسطنطينية في السنة ٤٣٨[1] .

وأشهر ما كتبه يوحنا الذهبي الفم ، في اثناء تنسكه ، في السنوات العشر الاولى من حياته الفكرية ، رسالته في الكهنوت . وأحلى ما جاء من آثار يراعه ، في عهد رئاسته ، ميامره القسطنطينية ، وتعليقه على

١ وافضل ما صنف في يوحنا الذهبي الفم كتاب الاب خريسوستموس بوّر البنديكتيني الذي ظهر في مونشن في السنة ١٩٢٩ – ١٩٣٠ :
Baur, Chrysostomus, Der Heilige Johannes Chrysostomus und seine Zeit.
راجع ايضاً ترجمته وترجمة مؤلفاته الى الافرنسية في كتاب : *Jeannin, M., Oeuvres Complètes de Saint Jean Chrysostome.*

رسائل بولس الرسول الى أهل كورونثوس ، والى الرومانيين . وكتب في منفاه رسائل عديدة اشرنا اليها سابقاً . ولا نزال نتمتع بصلواته في خدمة القداس الالهي في معظم ايام السنة .

« لا ينوحنّ احد عن فقر ، لان المملكة العامة قد ظهرت . لا يندبنّ احد على آثام ، لان الصفح قد بدا من القبر . لا يخافنّ احد من الموت ، لان موت المخلّص قد حرّرنا . اين شوكتك يا موت؟ اين ظفرك يا جحيم؟ قام المسيح ، وانت غُلبت . قام المسيح ، والملائكة يفرحون . قام المسيح ، واستقرت الحياة . قام المسيح ، وليس ميت في القبر ، لان المسيح بقيامته من الاموات قد صار مقدمة الراقدين[١] . »

ثيودوسيوس الثاني : (٤٠٨ – ٤٥٠) وكان من حسن حظ الامبراطورية الشرقية ان توفيت افذوكسية الامبراطورة في السنة ٤٠٤ ، على اثر اجهاض شديد ، وان تولى النفوذ في الدولة المدبّر انثيميوس الحكيم . وزاد في حسن الحظ ان توفي استيليكون في الغرب في السنة ٤٠٨ ، وتبعه أركاديوس في السنة نفسها . فانفسح في المجال لانثيميوس ان يعمل بحكمته وان يبقى مسيطراً على شؤون الدولة اربعة عشر عاماً .

وكان ثيودوسيوس عند وفاة ابيه لا يزال في السابعة من عمره . فتهذب بعلوم عصره ، ونشأ محباً للعلم ، ديّناً ، تقياً . وكان يجيد الخط والصيد . ومن ثم كان له هذا اللقب الذي نقرأ احياناً : ثيودوسيوس الخطاط[٢] . وأحبت شقيقته بلشيريه ان يكون لها امرأة أخ مطيعة ، سهلة الانقياد . فانتقت له آثينة ابنة استاذ آثيني وثني ، كانت قد أمت

١ من عظة له يوم عيد الفصح .

٢ *Brehier, L., Les Empereurs Byzantins dans leur Vie Privée, Rev. Hist. (1940), 203 -204.*

القسطنطينية للمطالبة بحقها في إرث والدها . فقدمتها بلشيرية لاخيها فأعجبته . فتنصّرت باسم افذوكية ، وتم عقد قرانها ، فاصبحت الامبراطورة في السنة ٤٢١ .

صداقة فارس : وكان ثيودوسيوس الكبير قد رأى بثاقب نظره ان مشكلة القوط وغيرها من مشاكل جبهته الشمالية الغربية تتطلب سلماً دائماً في الشرق . فاعتدل في مطالبه في ارمينية ، وبين الفرات والدجلة ، وانبثقت صداقة بين الدولتين دامت عهداً طويلاً . ومما « يروى » ، من هذا القبيل ، ان أركاديوس لما حضرته الوفاة قلق على ولده الطفل ثيودوسيوس الثاني من دسائس البلاط فأوصى بان تكون الوصاية على ابنه ليزدجرد الاول ملك الفرس. ويروى ايضاً ان يزدجرد الاول أنفذ الى القسطنطينية ، بعد وفاة أركاديوس ، احد اخصائه لحماية الملك الطفل[1] . والواقع ان يزدجرد الاول (٣٩٩ - ٤٢٠) اخلص في صداقته وترفع عن مضايقة النصارى في بلاده وسمح لهم في السنة ٤٠٩ ان يرمموا كنائسهم وان يتعبدوا احراراً وسمح في السنة ٤١٠ بان ينعقد ، في عاصمته طيسفون ، مجمع مسيحي انتخب اسحق اسقف طيسفون (سلوقية) رئيساً على الكنيسة الفارسية ، ومنحه لقب كاثوليكوس . وصلى المجتمعون من اجل سعادة يزدجرد ونصره وتأييده[2] . ولكن حكومة فارس عادت ، بضغطٍ من كهنة زرادشت وطبقة النبلاء ، الى اضطهاد المسيحيين في السنة ٤٢١ . فانقطعت العلاقات

١ *Bury, Later Rom. Emp. II, 2.* وفي فازيلايف ، ص ٩٦ (ترجمة انكليزية) : ان بعض الثقاة يشكون في اصالة المرجع الاولي الذي يروي هذا الخبر (*Vita Porphyrii*) ، ولكنه هو يرى ان ليس في هذه الرواية ما لا يقبله العقل ، وبالتالي لا يجوز رفضها . وهو قول ضعيف ، من حيث قواعد المصطلح ، اذ الاصل في التأريخ الاتهام لا براءة الذمة .

٢ *Chabot, J. B. Notice Mss. Bibl. Nationale, 1902. 258.*

السياسية بين الدولتين ، ولجأ الرومان الى العنف ، فدحر أردبوروس جيوش ملك الملوك . فسارع بهرام الخامس في السنة ٤٢٢ الى عقد صلح «يدوم مئة سنة» . وتعهد بهرام برفع الاذى عن المسيحيين ، وبان يطلق لهم حرية المعتقد والعبادة . فقابله ثيودوسيوس بمثل هذا فيما يتعلق بالزرادشتية في ارضه[١] . وتعاهد الطرفان ايضاً الا يحضّ احدٌ منهما العرب في ارضه على غزو العرب في ارض جاره . والاشارة هنا الى المناذرة والغساسنة . «وكان المنذر ابن النعمان قد غزا الشام مراراً ، واكثر المصائب في اهلها ، وسبى وغنم . وكان قد جعل معه ملك فارس كتيبتين يقال لاحداهما دوس وهي لتنوخ ، وللاخرى الشهباء وهي لفارس . فكان يغزو بهما الشام ، ومن لم يطعه من العرب[٢] .»

وكانت فارس قد دخلت في دور كثرت فيه مطامع النبلاء والكهنة ، وتشعبت واشتدت فيه هجمات الهون البيض على حدودها الشرقية الشمالية ، وكانت بيزنطة قد اعتدلت في مطالبها ، كما سبق ان اشرنا . فدام السلم بين الدولتين ردحاً طويلاً من الزمن .

تحوط واحتياط في الداخل : وكان من نتائج هذه اليقظة الوطنية الرومانية ، التي سبقت الاشارة اليها ، ان انصرف انثيميوس المدبّر الوصي الى العناية باستحكامات المدن وقلاعها . فرمم عدداً وافراً منها في شمالي البلقان الغربي ، وعلى ضفة الدانوب . وكانت القسطنطينية قد اتسعت الى خارج الاسوار التي انشأها قسطنطين الكبير . فأقام انثيميوس سوراً جديداً في السنة ٤١٣ يدفع عن الاحياء الجديدة شر البرابرة وغيرهم . ثم تصدع هذا السور الجديد بزلزال قوي ، فرممه قسطنطين المدبّر ، وأنشأ

١ *Christensen, A., l'Iran sous les Sassanides, 280 - 281.*

٢ الكامل لابن الاثير ، الطبعة المنيرية ، ج ١ ، ص ٢٣٣ .

حوله سوراً ثالثاً عزّزه بخندق واسع عميق . وجاء عهد قورس المدبّر فأنشأ تحصينات جديدة من جهة البحر . وأصبحت القسطنطينية في عهد ثيودوسيوس الثاني تنعم بثلاثة اسوار منيعة ، ثبتت في وجه كل عـــدو حتى سقوط المدينة في السنة ١٤٥٣ . فصانت مدنية زاهرة في عصور اضطراب وفوضى[١].

وألغت الحكومة المركزية ، في هذا العهد نفسه ، ما كان قد تأخر من الاموال الاميرية . فانتعش الفلاح ، والصانع ، والتـــاجر الصغير ، وقويت معنوياته ، وزاد رضاه . وأعيد النظر في كيفيـة استيراد الحبوب من مصر الى العاصمة وتموينها التموين الكافي .

وفي السنة ٤٢٥ أصدر ثيودوسيوس الثاني براءة بتأسيس معهـد علمي مسيحي عالٍ يضاهي باساتذته وطلابه معهد آثينة الوثني الذي كان لا يزال يدرس الفلسفة الوثنية . وانشأ الامبراطور في هذا المعهـد الجديد واحداً وثلاثين كرسياً للتعليم : عشرة منها للغة اللاتينية ، وعشرة للغراماطيق اليوناني ، وخمسة للفصاحة والخطابة اليونانية ، وثلاثـة للخطـابة والفصاحة اللاتينيـة ، وكرسياً واحداً للفلسفة ، واثنين للحقوق . وتقاطر الطلاب الى هذا المعهد من كل صوب ، ولاسيا ارمينيـة . وخصص الامبراطور صرح الكابيتول لهذه الغـاية . وأنفق عـلى الاساتذة من اموال الخزينـة ، وحرّم عليهم اعطاء دروسٍ خصوصية[٢] . ويلاحظ لهذه المناسبة ان اليونانيـة نالت حظاً اوفر من اللاتينية .

وفي السنة ٤٢٩ التفت المدبّر انطيوخوس الى القانون والقضاء ، فرأى ان ما صدر من القوانين ، منذ عهد قسطنطين الكبير ، أصبح متفرقاً

١ *Chronicon Paschale, I, 588; Meyer - Plath, B., und Schneider, A. M. Die Landmauer von Konstantinopel. Berlin, 1943.*

٢ *Codex Theodosianus, XIV, 9, 3; Fuchs, F., Die Hoheren Schulen von Konstantinopel im Mittelalter, Berlin, 1926.*

مبعثراً، يصعب الوصول اليه والاطلاع عليه، للفصل في الدعاوى. فاقترح تعيين لجنة من كبار القضاة والاساتذة والمحامين لجمع هذه القوانين وتبويبها. ووافق الامبراطور ثيودوسيوس الثاني فأمر بتعيين هذه اللجنة وتابعت اللجنة اعمالها ثماني سنوات متتالية، فأنتجت مجموعة ثيودوسيوس الشهيرة[1]. وظهرت هذه المجموعة في الشرق في السنة ٤٣٨، وفي الغرب في السنة التالية. وقسمت الى ستة عشر كتاباً، بعضها في الادارة المدنية، وبعضها في الشؤون العسكرية، وبعضها في الدين، وبعضها في الحقوق. وقسم كل كتاب الى عدد من الابواب (العناوين[2]). وما صدر من الابواب، بعد ظهور هذه المجموعة، اشير اليه بالعبارة: «القوانين المستجدة[3]». ومجموعة ثيودوسيوس تعتبر من اهم المراجع الاولية لتاريخ القرنين: الرابع والخامس[4].

الهون: وكان قد عظم شأن الهون واتسع سلطانهم، فدوّخوا جنوبي روسية وورومانيا والمجر وغاليسية. وكانوا منذ السنة ٣٩٥ قد بدأوا يتحرشون بالامبراطورية الشرقية. ففي هذه السنة عبروا القوقاس، وتدفقوا الى سهول الجزيرة وسورية. فاسترضاهم ثيودوسيوس بان بذل لهم، في السنة ٤٣٠، عطاءً سنوياً بلغ قدره ثلاث مئة وخمسين ديناراً ذهبياً. ثم توفي روى مليكهم في السنة ٤٣٤، فخلفه في الحكم ابنا اخيه بليدة وأتيلا. وكان أتيلا كثير المراغب، واسع الاطماع، فطلب الى حكومة ثيودوسيوس مضاعفة المال السنوي، ومنحه رتبة قائد[5]، وغير ذلك من

١ *Codex Theodosianus.*
٢ *tituli.*
٣ *leges novellae.*
٤ *Seeck, O., Die Quellen des Codex Theodosianus, Stuttgart, 1919.*
٥ *magister militum.*

المطالب . فما ان ترددت حكومة ثيودوسيوس في القبول ، حتى عبر أتيلا الدانوب بجموعه في السنة ٤٤١ واحتل قسماً كبيراً من شمالي البلقان . فاضطر ثيودوسيوس ان يجيب سؤل أتيلا ، وان يعقد معه صلحاً في السنة ٤٤٣ ، فيدفع اربعة آلاف دينار متأخر ، والفين ومئة دينار مالاً سنوياً. وبقيت تحرّك أتيلا مطامعه ، فقتل اخاه بليدة واستأثر بالسلطة . ثم لم يطل الوقت ، حتى غشيت جموعه البلقان ، ووصلت طلائعهم الى ثرموبولي ، وهددوا القسطنطينية . وعادت حكومة ثيودوسيوس الى المفاوضة . فأرسلت لهذه الغاية وفداً من كبار الرجال ، بينهم المؤرخ بريسكوس . ونجح الوفد فانسحب أتيلا عبر الدانوب في السنة ٤٤٩ . وقد تم الاتفاق بينه وبين حكومة القسطنطينية على مال يؤدى له كل سنة . واتجهت انظار اتيلا شطر الغرب[١] .

انشقاق في الكنيسة : ولما أصبحت النصرانية دين الدولة عظم شأن الاساقفة والبطاركة واشتد التزاحم على الكرامي في الكنيسة فكان يظفر بها في بعض الأحيان من لم تكتمل فيه جميع المؤهلات الروحية . واشتدت المناظرة بين البطاركة ورؤساء الاساقفة والاساقفة فأدت في بعض الاحيان الى التنافر والتخاصم . وظهرت الرهبانية وازداد عدد الرهبان وتدخلوا في هذه المناظرات والمشادات فأدخلوا فيها حماسة عمياء وكيداً عظيماً . وتقلص ظل الوثنية وانتشر ظل النصرانية فاشتركت الغوغاء في هذه المخاصمات وتدخل فيها جمهور السفلة بهياجهم وضجيجهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم .

بطريرك القسطنطينية وبطريرك الاسكندرية : وكان ثيوفيلوس

١ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 14-18.*
وفيه مقتطفات طويلة من كلام المؤرخ المعاصر بريسكوس *Priscos*.

بطريرك الاسكندرية (٣٨٥ - ٤١٢) رجلاً متقفاً وعالمـاً رياضياً سخّر مقدرته في الرياضيات لوضع جداول مضبوطة تنبيء بالازمنة التي يقع فيها عيد الفصح ، فاكتسب بذلك شهرة واحتراماً في زمن اشتد فيه الورع والتقوى . وكان ثيوفيلوس اديباً كبيراً بلغ من شغفه بالادب ورهافة ذوقه فيه مبلغاً كان يستطيع معه ان يستمرىء حلاوة قطعة ادبية يكون هو نفسه قد حرّم مطالعتها . وكان ايضاً سياسياً محنكـاً بالغ القدرة في تسوية اعوص المشاكل واعقدها . ولكنه كان طماعـاً مفتوناً بالمال والمجد يدبُّ اليها بكل ما أوتي من دهـاء وحنكة ومكر . وشعر ثيوفيلوس بالطاقة الكامنة في رهبانيات مصر وكان قد ازداد عدد افرادها حتى بلغ الالوف ، فتقرّب اليهم وتوخى السيطرة عليهم بان عمد الى التظاهر بما ليس فيه ، فقال قول اكثريتهم بالتشبيه اي ان لله شكلاً بشرياً ، وراح يقاوم قول اوريجانيوس بشدة وحماسة . وكان هذا من المُنزهة علّم بان الله لا جسم له فهو لا يُرى ولا يمكن ادراكه . وبلغ من امر ثيوفيلوس ان لجأ الى العنف فهاجم بالقوة المسلحة ديراً كان رهبانه ما برحوا متمسكين بتعاليم اوريجانيوس . ففرّ اربعة من زعماء هؤلاء ، عرفوا فيما بعد بالاخوة الطوال ، الى القسطنطينية والتجأوا الى بطريركها يوحنا الذهبي الفم .

وكان ثيوفيلوس لا يقر المجمع المسكوني الثاني (٣٨١) على تقديم بطريرك القسطنطينية في الكرامة على سائر البطاركة بعد بطريرك رومة . فأضمر السوء ليوحنا الذهبي الفم ودعا الى مجمع في خلقيدونية كما سلف لنا القول واستغل جرأة الذهبي الفم ومواقفه العنيفة من بعض رجال البلاط ونسائهم لاسيما افذوكسية الامبراطورة فتوصل بذلك الى انزال بطريرك القسطنطينية عن عرشه ودفعه الى المنفى .

المجمع المسكوني الثالث في إفسس : (٤٣١) ورقي كرسيَّ القسطنطينية في السنة ٤٢٨ البطريرك نسطوريوس . وكانت الكنيسة قد

علمّت منذ البدء ان المسيح اله كامل وانسان كامل . فلما انكر آريوس عليها الاعتقاد بان للكلمة المتأنس طبيعة لاهوتية ايضاً عقدت المجمع المسكوني الاول وأقرت كمال لاهوت المخلّص وحكمت بضلال آريوس وبطلان تعاليمه . ثم ظهر أبوليناريوس اسقف اللاذقية الذي اشتهر بدفاعه عن النصرانية في ايام يوليانوس الجاحد وبتمسكه بتعاليم المجمع المسكوني الاول فعلّم ان اللاهوت في المسيح قام مقام العقل في الانسان وبالتالي ان المسيح كان الكلمة في جسم انسان وانه لم يكن بامكانه ان يختبر الضعف البشري ولا ان يكون معرضاً للتجربة . فقررت الكنيسة في مجمعها المسكوني الثاني كمال « ناسوت » المخلّص . وكان من الطبيعي جداً ان تهتم انطاكية للامر خصوصاً لان ابوليناريوس كان احد اساقفتها . فأصر رؤساؤها على كمال طبيعة المسيح البشرية . واشتهر بين هؤلاء ديودوروس الطرسوسي وثيودوروس الموبسوستي .

وكان نسطوريوس سوري الموطن انطاكي المذهب فأصر مع اساتذته على كمال طبيعة المسيح البشرية . فما ان تبوأ الكرسي البطريركي في القسطنطينية حتى بدأ يعلم ضد اتحاد الطبيعتين اتحاداً طبيعياً وجوهرياً ونهى عن تسمية العذراء بوالدة الاله «ثيوتوكوس» ويستبدلها بالتسمية «والدة المسيح» مدعياً انها لم تلد الهاً بل انساناً آلة للاهوت وانها « قابلة » الاله لا والدة الاله . وما ان ذهب هذا المذهب حتى هاج الشعب في القسطنطينية وتظاهر ضده في الشوارع وفي الكنائس . فقابل نسطوريوس هذا التظاهر بالشدة . وعقد مجمعاً محلياً في السنة ٤٢٩ وحرم كل من اعتقد غير تعاليمه[١] .

١ *Socrates, Hist. Eccl. 7: 29, 32.*

وذاعت آراء نسطوريوس وبلغت الى الاسكندرية فحاربها حبرها البطريرك كيرلّس (٣٧٦ - ٤٤٤) في بيانه الفصحي الذي اذاعه سنة ٤٢٩ وأيد فيه الاعتقاد بالطبيعتين . ثم كتب الى زميله القسطنطيني موضحاً له ان تسمية البتول بوالدة الاله لا يعني ان مبدأ اللاهوت هو منها بل ان المولود منها هو اله كامل وانسان كامل . وكان نسطوريوس معجباً بنفسه فقابل كيرلّس بالانتفاخ والتحقير . فكتب كيرلّس بهذا الصدد الى حبر رومة وبطريرك انطاكية والى عدد من رؤساء الكهنة في الشرق . فعقد حبر رومة مجمعاً محلياً في السنة ٤٣٠ واعتبر تعليم نسطوريوس غير قويم ، وكتب اليه وهدده بقطع العلاقات . وكتب يوحنا بطريرك انطاكية الى نسطوريوس ان يبرأ مما اعتراه من وهم بشأن تسمية العذراء بوالدة الاله، وذكره ان هذه التسمية وردت لكثيرين من مشاهير المعلمين والآباء . وكتب اكاكيوس رئيس اساقفة حلب وكان شيخاً اناف على المئة سنة الى كيرلّس يرجو منه ان «يجتهد في اطفاء نار الخصومة ضناً براحة الكنيسة» .

وجاهر بعض رهبان القسطنطينية بمعارضة بطريركهم فطردهم البطريرك واضطهدهم . فكتبوا الى ثيودوسيوس الثاني يطلبون عقد مجمع مسكوني. وطلب نسطوريوس نفسه عقد مجمع مسكوني . فقبل الامبراطور ودعا الى مجمع مسكوني في إفسس في السنة ٤٣١ بعد العنصرة . ولبى الدعوة مئتا اسقف بينهم كيرلّس بطريرك الاسكندرية ونسطوريوس بطريرك القسطنطينية ويوبيناليوس اسقف اوروشليم . وتخلف يوحنا بطريرك انطاكية وممثلو بابا رومة . والتأم المجمع برئاسة كيرلّس بطريرك الاسكندرية . ولكن نسطوريوس اضرب عن الاشتراك فحكم المجمع عليه بالقطع . ثم تليت الرسائل التي كان قد وجهها الى نسطوريوس كلٌ من كيرلّس بطريرك الاسكندرية وكليستينوس بابا رومة كما تلي قرار مجمع رومة فصدّقها

المجمع . وبعد خمسة ايام وصل بطريرك انطاكية ومعه اثنان وثلاثون اسقفاً . فانبأه المجمع بقطع نسطوريوس . فتكدّر واعتبر عمل المجمع تسرعاً ونسب الى كيرلّس الاستبداد . ثم عقد مجمعاً مؤلفاً من نحو اربعين اسقفاً وحكم فيه بالقطع على كيرلّس وعلى سائر الاساقفة الذين قبلوا قرار المجمع بلا فحص ولا روية . ثم حضر نواب بابا رومة الاسقفان اركاذيوس وبروياكتوس والقس فيلبس . فاجتمع مجمع كيرلّس مرة ثانية وتليت فيه رسائل البابا وأمضى فيها نوابه الاعمال السابقة . ودُعي بطريرك انطاكية الى الاجتماع . فلم يحضر . فحكم المجمع بالقطع عليه وعلى ثلاثة وثلاثين اسقفاً معه . فتحرك الامبراطور لما رأى من هذه البلبلة فطلب وفداً عن كل فئة . فلما حضر الوفدان وسمع دعوى كل منهما أمر باعادة كل من كيرلّس واسقف إفسس الى منصبه ، ونصّب على كرسي القسطنطينية احد اعضاء وفد كيرلّس واسمه مكسيميانوس . وأمر برجوع الاساقفة الى اوطانهم .

وثبّت المجمع الثالث دستور الايمان الذي كان تثبيته قد سبق في المجمعين الاول والثاني ، وحرّر اسقفية قبرص من الخضوع لبطريرك انطاكية ، فأصبحت كنيسة مستقلة منذ ذلك الحين .

ثم دعا البطريرك مكسيميانوس كلًا من بطريرك الاسكندرية وبطريرك انطاكية الى نيقوميذية وحدهما . فحضرا وتسالما بعد مدة . ونفي نسطوريوس الى مصر فاغتاله احد رهبانها في السنة ٤٥١ .

المجمع المسكوني الرابع في خلقيدونية : (٤٥١) وكما تطرّف نسطوريوس معارضاً تعاليم ابوليناريوس فقال بكمال طبيعة الناسوت اي بكمال طبيعة المسيح البشرية فان اوطيخة Eutyches احد الآباء في القسطنطينية قال بكمال طبيعة اللاهوت معارضاً مذهب آريوس . فعلّم ان المسيح المخلص طبيعة واحدة وان جسده بمحض كونه جسد إله ليس مساوياً لجسدنا في

الجوهر لان الطبيعة البشرية اندثرت باتحادها مع الطبيعة الالهية . فانبرى ثيودوروس اسقف قورش يحمل على اوطيخة . وانبرى ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية يحمل على ثيودوروس ويهيّج رهبان القسطنطينية، وكتب الى ثيودوسيوس الثاني ان الكنيسة في الشرق قد اصبحت كلها نسطورية . فجمع فلابيانوس بطريرك القسطنطينية مجمعاً محلياً ودعا اليه اوطيخة فلم يمتثل . وكان يحركه الخصي خريسافيوس الذي كان قد حقد على البطريرك فلابيانوس لان خريسافيوس طلب منه مالاً فارسل البطريرك اليه آنية الكنيسة . وعقد المجمع جلسة سابعة ودعا اوطيخة ، فحضر هذه المرة ومعه خريسافيوس الخصي وبعض الرهبان وزمرة من الحرس الامبراطوري. فسئل اوطيخة : هل تعترف بان المسيح مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت ومساوٍ لامه في جوهر الناسوت ؟ فأجاب : ان المسيح من طبيعتين قبل الاتحاد وانه طبيعة واحدة بعد الاتحاد . فحكم المجمع المحلي عليه وقطعه من كل رتبة كهنوتية ومن الشركة ومن رئاسة ديره . وكتب اوطيخة للبابا في رومة يتظلم . فكتب البابا لاوون الكبير الى بطريرك القسطنطينية يستوضحه عما جرى . فارسل فلابيانوس بطريرك القسطنطينية نص اعمال المجمع الذي حكم على اوطيخة . فعقد البابا مجمعاً في رومة وفحص الاوراق التي ارسلها اليه فلابيانوس البطريرك فوافق عليها واعلن ذلك للامبراطور. ثم كتب خريسافيوس لخصي الى ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية يستنهضه لمساعدة اوطيخة . فعقد ديوسقوروس مجمعاً محلياً وحلّ اوطيخة من القطع، وطلب الى الامبراطور عقد مجمع مسكوني . ففعل الامبراطور والتأم مجمع مسكوني في إفسس في السنة ٤٤٩ برئاسة ديوسقوروس بطريرك الاسكندرية. فتليت رسالة الامبراطور . ثم طلب وفد رومة ان تتلى رسالة البابا الى البطريرك فلابيانوس . فرفض ديوسقوروس . واشتد الجدل . ففر بعض الاساقفة ومنهم نواب البابا . واستولى الرعب على الباقين فامضوا على بياض،

ولذا سمي هذا المجمع فيما بعد المجمع اللصوصي .

ووقع الخلاف بين ثيودوسيوس الثاني وزوجته افذوكية فعادت شقيقته بلشيرية الى القصر ، وطُرد خريسافيوس الخصي من القصر ثم أعدم . وكان البطريرك فلابيانوس قد نفي وتوفي في منفـــاه فحصل عنه الرضى ونقلت جثته الى القسطنطينية بكل اكرام . وسقط ثيودوسيوس عن جواده وتوفي في السنة ٤٥٠ وخلفه مرقيانوس . وكتب بابا رومة وبطريركها لاوون الكبير الى مرقيانوس بوجوب عقد مجمع مسكوني جديد . فوافق مرقيانوس وامر بذلك فاجتمع الاساقفة في مدينة نيقية في السنة ٤٥١ . ومرض بعضهم واضطر للمعالجة . ولم يستطع مرقيانوس نفسه ان يبارح العاصمة ، فأمر بنقل المجمع الى خلقيدونية في جوار من القسطنطينية .

وعقد المجمع جلسته الاولى في الثامن من تشرين الاول سنة ٤٥١ في كنيسة القديسة إفيمية في خلقيدونية . وقد اشترك في اعماله ٦٣٠ اسقفاً بينهم نواب رومة اسقفان وقس والبطريرك القسطنطيني اناطوليوس والبطريرك الاسكندري ديوسقوروس والبطريرك الانطـــاكي مكسيموس واسقف اوروشليم يوبيناليوس . ووضع الانجيل في منتصف حلقة المجمع . وتصدّر وجهاء الدولة واعيانها . وفي هذه الجلسة الاولى اقرّ المجمع ان كل ما قد جرى في إفسس انما كان جبراً وظلماً وان ديوسقوروس ومن ذهب مذهبه مستحق القطع . وفي الجلسة الثانية تليت رسالة كيرلس البطريرك الاسكندري الى نسطوريوس ورسالة البابا الى فلابيـــانوس بطريرك القسطنطينية . وفي الجلسة الثالثة قرأ رئيس وفد رومة الاسقف باسكاسينوس Paschasinus نص الحرم الذي كان قد أصدره البابا ضد ديوسقوروس . فوافق عليه المجمع . وفي الجلستين الرابعة والخـــامسة دار البحث حول العقيدة . وبعد جدال طويل وافق المجمع على النص التالي : « اننا نعلّم جميعنـــا تعليماً واحداً تابعين الآباء القديسين . ونعترف بابن واحد هو هو

نفسه ربنا يسوع المسيح . وهو نفسه كامل بحسب الناسوت . اله حقيقي وانسان حقيقي . وهو نفسه من نفس واحدة وجسد مساوٍ للآب في جوهر اللاهوت . وهو نفسه مساوٍ لنا في جوهر الناسوت ، مماثل لنا في كل شيء ما عدا الخطيئة ، مولود من الآب قبل الدهور بحسب اللاهوت. وهو نفسه في آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لاجلنا ولاجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحاً وابناً ورباً ووحيداً واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال. من غير ان ينفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد بل ان خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة تؤلفان كلتاهما شخصاً واحداً واقنوماً واحداً لا مقسوماً ولا مجزءاً الى شخصين بل هو ابن ووحيد واحد هو نفسه الله الكلمة الرب يسوع المسيح كما تنبأ عنه الانبياء منذ البدء وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه وكما سلمنا دستور الآباء . »

وفي هذا المجمع نفسه رفع اسقف صور المتروبوليت فوتيوس شكوى على اسقف بيروت المتروبوليت افسطاثيوس الذي كان من انصار ديوسقوروس . مفاد هذه الشكوى انه بعد ما اقدم ثيودوسيوس على ترقية افسطاثيوس من اسقف خاضع لمتروبوليت صور الى رتبة متروبوليت مستقل قد وهب بطريرك القسطنطينية اناطوليوس لافسطاثيوس هذا اسقفيات ببلوس (جبيل) وبوتريس (البترون) وطرابلس واورثوسياس وعكار واندارادوس وجميعها اسقفيات خاضعة لمتروبوليت صور . فلام المجمع البطريرك القسطنطيني على هذا التعدي . وحكم باعادة تلك الاسقفيات الى متروبوليت صور .

وفي الجلسة السادسة حضر مرقيانوس وخطب محرضاً على السلام واستقامة الرأي . ثم تلي التحديد فأمضاه الآباء وصدّقه الامبراطور . وفي الجلسة السابعة سلخت فلسطين الأولى والثانية والثالثة عن انطاكية وضمت الى

اوروشليم . وتصالح البطريركان الانطاكي والاوروشليمي واعيدت فينيقية وبلاد العرب الى البطريركية الانطاكية . وعرف اسقف اوروشليم بطريركاً لاول مرة . وفي الجلسة الخامسة عشرة سنّ المجمع ثلاثين قانوناً وقررت رتب الأسقفيات الرئيسة ومن يقدم ويؤخر من البطاركة . واثبت في قوانين المجمع ان تكون لاسقف القسطنطينية « رومة الجديدة » المنزلة نفسها التي لاسقف رومة القديمة . ولكن نواب البابا اعترضوا على هذا القرار واظهروا عدم الرضى .

الباب الرابع

تطور النظم وتمشرق الفكر والفن والدولة

•

الفصل التاسع

اباطرة النصف الثاني من القرن الخامس

(٤٥٠ – ٥١٨)

مرقيانوس: (٤٥٠ – ٤٥٧) وتوفي ثيودوسيوس في الثامن والعشرين من تموز سنة ٤٥٠ ولم يترك ولداً ذكراً. فانتهى بوفـاته حكم الاسرة الثيودوسيّة. وأوصى قبل وفاته بان يخلفه مرقيـانوس احد قادة جيشه. وتزوجت بلشيرية اخت ثيودوسيوس من مرقيانوس هذا ولكن زواجاً سمياً، فقد اشترطت ان تبقى عذراء وان تقتصر زيجتها على المشاركة في ادارة الامبراطورية. وهكذا اصبح الامبراطور الجديد صهر الاسرة المالكة، وكان رجلا حازماً عادلاً يتمتع بتأييد الجيش، فوفقت فيه رومة الجديدة الى حاكم مناسب.

وأعلن مرقيانوس انتهاء الظلم والفوضى باعدام خريسافيوس الخصي. ثم منع بيع المناصب وتنازل عن الاموال المتأخرة للدولة وحوّل المبالغ التي

كانت تنفق على الالعاب السنوية الى ترميم الاقنية وجر المياه . واسعفه الحظ بان توفي زينون زعيم الآسوريين . وكان هؤلاء قد عاثوا في البلاد فساداً منذ السنة ٤٤١ فسكنوا بموت زعيمهم واستتب الامن في آسية الصغرى . وضرب مرقيانوس مناذرة الحيرة احلاف الساسانيين ضربة قاضية ، فنعمت سورية بالراحة والطمأنينة . وسار هذه السيرة في مصر فوقف هجمات اهل النوبة ودفع شرهم . وفي فلسطين وسورية ولبنان اعتنق عدد من الرهبان بدعة ديوسقوروس وهاجوا وماجوا احتجاجاً على مقررات مجمع خلقيدونية فعمد مرقيانوس الى اخضاعهم بالقوة المسلحة . وكذلك وافقه الحظ بان توفي اتيلا زعيم الهون فتمكن مرقيانوس من استبقاء المال الذي كان يدفع سنوياً لهؤلاء .

لاوون الاول : (٤٥٧ - ٤٧٤) وتوفيت بلشيرية في السنة ٤٥٣ وتبعها مرقيانوس في السنة ٤٥٧ ولم يكن لهما وارث . فاتجهت الانظار الى قائد الجيش الاعلى أسبار . على انه لم يكن باستطاعته ان يتبوأ العرش لانه كان آلانياً آريوسياً . فوقع الاختيار على وكيل خرجه لاوون فتربع على عرش القسطنطينية . وكان لاوون ادارياً قديراً وسياسياً محنكاً ، فاصطنع منافساً ينافس أسبار هو زينون الآسوري وذلك بان انشأ حرساً امبراطورياً من الاسوريين الجبليين الاشداء . واتى بزعيمهم وازوجه من بنته ارياذنة (٤٦٧) . وبطش زينون ورجاله البلاء بأسبار وحرسه (٤٧١) . فنجت بذلك رومة الجديدة من حكم البرابرة .

ونشب خلاف بين لاوون وبين فيروز ملك الفرس حول مصير دويلة مسيحية على شاطىء البحر الاسود بين الامبراطورية الرومانية وبين القوقاس هي امارة « لازقة » خلقيس القديمة . ولكنه خلاف لم يؤد الى حرب او قتال . وكان أهم منه تدفق القوط الشرقيين على إيليرية واحتلالهم ديراتو .

فعاد لاوون يدفع الاعانة المالية السنوية الى القوط وهدأت الحال (٤٥٩) وجعل ملك القوط ابنه ثيودوريك رهينة في القسطنطينية . غير ان هؤلاء القوط الشرقيين ما عتموا ان استأنفوا الغزو في السنة ٤٦٧ متعاونين هذه المرة مع الهون . ثم اسرع الشقاق الى صفوفهم فأعلنوها فيما بينهم حرباً شعواء ادت الى اضعاف الطرفين .

زينون : (٤٧٤ - ٤٩١) وتوفي لاوون الاول في السنة ٤٧٤ فتولى العرش بعده حفيده لاوون الثاني ابن بنته اريادنة . وكان لا يزال في السادسة من عمره . فأشرك الولد والده زينون الاسوري في الحكم ، وتوفي بعد بضعة اشهر . فعظم امر الاسوريين في الدولة وتسنموا اعلى الوظائف واكبرها . وما برحوا كذلك حتى انتهاء عهد زينون .

وفي ايطالية كانت السلطة كلها قد اصبحت محصورة بالقواد العسكريين البرابرة ، فكانوا ينصبون الاباطرة ويعزلونهم حسب اهوائهم . ومن غرائب الاتفاق ان آخر الاباطرة في الغرب دعي روملوس اوغوسطولوس . وهكذا وافق اسمه اسم المؤسس الخرافي لرومة نفسها . وقد خلعه العسكر البرابرة في السنة ٤٧٦ ونصبوا مكانه احدهم اودواكر . ثم ابلغ القادة البرابرة زينون في القسطنطينية انهم يعترفون بسيادته . فصدر امره الى اودوواكر ان يتولى زمام الحكم وان يتمتع بلقب « نبيل » .

ولكن اودوواكر استقل بالحكم ولم يكترث لسيده الشرعي في القسطنطينية . ورأى زينون ان ليس بوسعه ان يكرهه على الطاعة . وخاف مغبة امره . فالتفت زينون شطر القوط الشرقيين في شمالي البلقان الغربي . وكان هؤلاء يستوجبون اهتمامه اهتماماً كلياً . فعمل زينون على توجيههم شطر ايطالية ووفق الى ما اراد . فكان ان زحف ثيودوريكوس ملك القوط الشرقيين الى ايطالية قبيل وفاة زينون واستولى على راڤينة ثم بعد وفاة زينون (٤٩٣) خلع اودوواكر وجلس مكانه ملكاً على

مملكة قوطية شرقية ذات حول وطول . وامتدت سلطته على ايطالية وصقلية وجزء من غالية واسبانية .

الاينوتيكون : (٤٨٢) ولم يخضع الجميع لمقررات المجمع المسكوني الرابع فظل السواد الاعظم من النصارى في مصر وسورية وفلسطين يقول بالطبيعة الواحدة . ولم يثمر حزم مرقيانوس ولاوون الاول . وشعر زعماء الكنيسة بخطورة الموقف . وأراد اكاكيوس بطريرك القسطنطينية (٤٧٢ – ٤٨٨) وبطرس بطريرك الاسكندرية (٤٧٧ – ٤٩٠) ان ينقذا الموقف وان يعيدا الى الكنيسة وحدتها المفقودة . فاقترحا على زينون ان يصار الى التراخي بانتهاج سبيل وسط . فأصدر زينون في السنة ٤٨٢ الاينوتيكون «كتاب الاتحاد» فشجب تعاليم نسطوريوس واوطيخة معاً واقرّ رأي كيرلس الاسكندري واجتنب الكلام في الطبيعة الواحدة والطبيعتين . وهكذا رفض رفضاً لبقاً ما كان اقرّه المجمع الخلقيدوني الاخير . ولكن الاينوتيكون بدلاً من ان يؤلف القلوب ويوحد الصفوف سعّر نار الشقاق والتفرقة لانه لم يرضِ الارثوذكسيين ولا اصحاب الطبيعة الواحدة . وانشق في مصر عن البطريرك بطرس قسمٌ من جماعته فألفوا طائفة سموها الآكيفلي اي العادمة الرأس . وكتب الارثوذكسيون الى اكاكيوس بطريرك القسطنطينية يلومونه على مماشاته بطرس الاسكندري . فلم يكترث البطريرك بل أجبر الكثيرين منهم على القول بكتاب الاتحاد . فكتبوا الى بابا رومة فيلكس الثالث (٤٨٣) . ولكن هذا بدل ان يراسل اكاكيوس مستوضحاً حسب العادة القديمة عقد مجمعاً محلياً وحرم بطرس واكاكيوس . فلما علم اكاكيوس بهذا محا اسم البابا من ذيبتيخا الاساقفة . وهكذا نشب شقاق استمر اكثر من خمس وثلاثين سنة (٤٨٤ - ٥١٩) . وتوفي اكاكيوس في السنة ٤٩١

فخلفه في كرسي القسطنطينية افراويطاس[١] (٤٨٨ – ٤٨٩) وكان مداهناً متلاعباً . ولكن سرعان ما انقضت مدته . فخلفه اوفيميوس[٢] العاقل (٤٨٩ – ٤٩٥) فاظهر استقامة رأيه في ما بعث به من رسائل التحية الاخوية لمناسبة تبوئه السدة البطريركية . واوشك ان يعود الاتحاد بين الشرق والغرب لو لم يطلب البابا محو اسم اكاكيوس من الذيبتيخا .

واما في انطاكية فان راهباً من رهبان القسطنطينية بطرس القصار[٣] ألف حزباً ضد البطريرك مرتيريوس (٤٥٩ – ٤٦٩) واحدث قلاقل . فاستقال مرتيريوس . وحلّ القصار محله بطريركاً وأيد اوطيخة واحدث زيادة في التسبيح وعلّم هكذا : قدوس الله ، قدوس القوي ، قدوس الذي لا يموت ، « الذي صُلب من اجلنا » ، ارحمنا . ومن السنة (٤٨١ – ٤٨٥) تولى كلنذيون الكرسي البطريركي في انطاكية وجمع مجمعاً محلياً رجع فيه الى تأييد قرارات خلقيدونية .

وهكذا دخلت الكنيسة في دور من الفوضى كثرت فيه سيامة الاساقفة زوجاً زوجاً ارثوذكسيين ومونوفيسيين في وقت واحد . ومدت الايدي الى الكراسي لخلع هذا وتنصيب ذاك . وكان من اهم اسباب هذه الفوضى سعي الاباطرة لاسترضاء المونوفيسيين في مصر وسورية لكثرة عددهم ولضعف هيبة السلطة المركزية اذ احرجتها مشاغل اخرى . وظلت الحال على هذا المنوال حتى ظهرت كنيسة مونوفيسية مستقلة في مصر ، وكنيسة مثلها في سورية ، واخرى في ارمينية .

انسطاسيوس الاول : (٤٩١ – ٥١٨) وكان زينون قد سعى سعياً

١ *Fravitas.*
٢ *Euphemios.*
٣ *Pierre le Foulon.*

حثيثاً لاجلاس اخيه لونجينوس على العرش بعده . ولكن زوجته ارياذنة الامبراطورة لم ترَ في لونجينوس الكفاءَة اللازمة فانتقت انسطاسيوس الورع ورفعته الى منصة الحكم وكان انسطاسيوس في الحادية والستين من العمر ، قد قضى شطراً وافراً من حياته في القصر معاوناً في التشريفات[1] ، وله شهرة في الورع والتقوى ودماثة الخلق . وعلى الرغم من ميله الى القول بالطبيعة الواحدة فان الشعب قابل ارتقاءَه بالهتاف : « ليكن عهدك في الحكم كعهد مرقيانوس وكسيرتك في حياتك الشخصية . » واشترط البطريرك اوفيميوس العاقل الا يحيد الامبراطور عن العقيدة الارثوذكسية وان يكتب قبل التتويج تعهداً بذلك . ففعل وتقبل تاجه من يد البطريرك .

وتبين له فوراً ، بعد جلوسه على العرش ، ان الشعب لم يكن راضياً عن سلوك الآسوريين رجال زينون في العاصمة ، وان هؤلاء كانوا ينسجون مؤامرة عليه . فعزلهم عن مراكزهم العالية وصادر املاكهم ، واقصاهم في خارج العاصمة . فثـار ثائرهم في بلادهم في غربي آسية الصغرى . واضطر انسطاسيوس ان يلجأ الى القوة فحاربهم ست سنوات متواصلة الى ان اخضعهم . ثم نقلهم الى تراقية(٤٩٨) .

وكانت قد ظهرت طلائع القبائل البلغارية تتبعها قبائل الصقالبة . وبعض هؤلاء كان قد دخل في خدمـة الدولة ، فلم يكن بد من الاصطدام واستعمال القوة . واندفع الصقالبة فبلغوا الى تسالية في السنة ٥١٧ . فرأى انسطاسيوس ان يوسع النطاق العسكري حول العـاصمة . فأنشأ سوراً جديداً امتد من بحر مرمرة حتى البحر الاسود مسافة ثمـانية وسبعين كيلومتراً . فسمي السور الطويل كما سمي سور انسطاسيوس .

ولم يرضَ انسطاسيوس عن ثيودوريكوس . ولم يعترف بحكمـه على

[1] Silentiarius.

ايطالية قبل السنة ٤٩٧ . وفي السنة ٥٠٥ تدخل ثيودوريكوس في شؤون البلقان وعاون فريقاً من البرابرة على فريق . فارسل انسطاسيوس في السنة ٥٠٨ اسطولاً الى مياه ايطاليا للمشاغبة والتخريب . ورأى ان كلوفيس ملك الافرنج هو عدو ثيودوريكوس فانعم عليه بلقب قنصل . فوجد ثيودوريكوس ان ليس من الحكمة ان يمضي في تحدي الامبراطور فأظهر ليناً وتم بينهما اتفاق ولكن على مضض وقلب عكر .

الحرب الفارسية : (٥٠٢ – ٥٠٦) وكان قد اعتلى عرش ساسان قباذ الاول ابن فيروز . وأحب ان يوطد سلطته في بلاده . فراقه مذهب المزادكة من اتباع ماني ، ولاسيا مطالبتهم بالعدل الاجتماعي وبالمساواة بين القوي والضعيف ، والغني والفقير . فرأى قباذ ان في ذلك وسيلة للتخلص من تصلب الزعماء وتصلفهم . ولكن هؤلاء تيقظوا للامر فتألبوا عليه وعاونهم في ذلك رجال الدين القومي القويم دين زرادشت . ثم تغلبوا عليه وابعدوه عن الحكم وجاؤوا باخيه بيلاش . واستطاع قباذ ان يفر من السجن ويلوذ بالهون البيض في شمالي ايران والى شرقيها ، وكانت بينه وبينهم مودة . ووعدهم بزيادة الاتاوة التي كانت تدفعها اليهم حكومة فارس اذا هم امدوه فلبوه ، فتمكن بعد سنتين (٤٩٩) من ان يستعيد زمام الحكم .

وطلب قباذ الاول الى زميله انسطاسيوس الاول ان يُمده بقرض مالي يدفع به ما ضمنه للهون . ولكن انسطاسيوس كان بطبيعته مقتصداً ، ورأى الا يدفع شيئاً الى قباذ كي لا تتمكن اواصر التعاون بينه وبين الهون . فغضب قباذ ولجأ الى الحرب مستعيناً بالهون ، وبالنعمان الثاني ملك الحيرة وقومه العرب[١] . وخان قومس ارمينية الرومية سيده فاستولى قباذ على

١ وهو في الارجح النعمان ابن الاسود . قضى مدة حكمه خارج الحيرة يحارب الروم في سورية والجزيرة . وتوفي في السنة ٥٠٤ في اثناء حصار الرها .

ارضروم (ثيودوسيوبوليس) دون مقاومة (٥٠٢). ثم حاصر آمد (ديار بكر) فدافع اهلها عنها دفاعاً مجيداً. ولكن ذهول فئة من الرهبان، كانوا قد وُظفوا على حراسة قطاع معين من الاسوار فناموا نوم السكارى، مكّن قباذمن الاستيلاء على آمد والفتك باهلها (٥٠٣).

ثم فوجىء قباذ بموجة جديدة من الهون تدفقت عبر القوقاس وبانضمام زعيم ارمني وامير عربي الى قوّات انسطاسيوس فاستطاعت قوات الروم ان تعبر حدود فارس (٥٠٤) وان تتوغل في اراضيها، فطلب قباذ السلم في السنة ٥٠٦. وحصّن انسطاسيوس دارا واقامها قلعةً في وجه نصيبين الفارسية، كما زاد في تحصينات البيرة والصالحية على حدود الفرات[١].

المالية : واشتهر انسطاسيوس بشفقته ورأفته، فأدخل اصلاحاً مالياً لا يزال غامضاً، لان احداً من المؤرخين المدققين لم يعنَ به بعد. وانما يستدل من بعض النصوص الاولية ان انسطاسيوس ألغى في السنة ٤٩٨ ضريبة كانت تجبى ذهباً وفضة من جميع اصحاب الحرف والمهن ومن الخدمة والشحاذين والنساء العموميات، وهي ضريبة الخريسارغيريون[٢]، كما انه ألغى في السنة نفسها مسؤولية الكوربالس (النقابات) عن مجموع الضرائب المفروضة على بلدتهم وانشأ نظاماً للجباية المباشرة. واستعاض عن النقود البرونزية الصغيرة باربعة انواع اكبر منها سهلت التعامل التجاري واعانت على الانعاش الاقتصادي. وانشأ انسطاسيوس ضريبة على الاراضي[٣]

١ *Christensen, A., L'Iran sous les Sassanides, 335, 347-353.*

٢ *Chrysargyrion.*

٣ *Chrysoteleia.*

لدفع مرتبات الجند في اوقاتها[1].

الطبيعة الواحدة : وكان انسطاسيوس كلما زاد سناً ازداد تعلقاً بالطبيعة الواحدة . فأدى تشبثه بها الى اضطرابات متتالية في العاصمة وفي الاسكندرية وانطاكية . وحاول ان يسترجع التعهد الذي كان قد كتبه قبيل تتويجه وسلمه الى البطريرك اوفيميوس فلم يستطع . فجمع مجمعاً محلياً سنة ٤٩٦ وقطع البطريرك ونفاه . فتولى البطريركية بعده مقدونيوس الثاني . وكان هذا نقي السيرة مستقيم العقيدة محبوباً ، فعني عناية خاصة بمصالحة بعض رهبان القسطنطينية الذين تباعدوا عن الكنيسة منذ ظهور الاينوتيكون فلم يستطع . فعقد مجمعاً محلياً ثبت فيه قرارات المجمع المسكوني الرابع . ونوى ان يكتب بذلك الى كنيسة رومة . فمنعه الامبراطور وحاول اقناعه بوجوب شجب قرارات المجمع المسكوني الرابع . فلم يجب البطريرك طلبه . فلجأ انسطاسيوس الى المشاغبة وشجع البعض على الدخول الى الكنيسة في اوقات الصلاة لاضافة العبارة « المصلوب من اجلنا » في التسبيح الثلاثي وذلك فيما المرتلون يرتلون . وفي السنة ٥١١ نفى البطريرك مقدونيوس واوعز بتنصيب تيموثاوس الاول (٥١١ – ٥١٨) . وكان هذا رجلاً متقلباً فحرّم قرارات المجمع الرابع وعقد اتفاقاً مع يوحنا النيقاوي بطريرك الاسكندرية وسويروس بطريرك انطاكية وكانا من اضداد المجمع الرابع . واضطر متروبوليت سلانيك ان يوافق تيموثاوس خوفاً من الامبراطور فتظاهر الشعب ضد الامبراطور والبطريرك معاً . وعقد اربعون اسقفاً من البلقان وبلاد اليونان مجمعاً

١ وافضل ما يرجع اليه في هذا الموضوع عموماً ما يلي :

Wright, W., The Chronicle of Joshua the Stylite, Brooks, E. W., The Eastern Provinces from Arcadius to Anastasius, Stein, E., Studien zur Geschichte des Byzantinichen Reiches.

وقطعوا علاقاتهم مع تيموثاوس ودخلوا في شركة البابا بطريرك رومة .

ثورة فيتاليانوس : (٥١٢ - ٥١٨) وتتابع ضغط الامبراطور على الارثوذكسيين فثار فيتاليانوس قائد فرقة بلغارية في الجيش واحتل وارنة على البحر الاسود ثم تقدم نحو العاصمة مطالباً بالغاء التسبيح المونوفيسيتي وباعادة البطاركة الارثوذكسيين من منفاهم وهاجم العاصمة براً وبحراً . فصُدّ ولكنه لم يُغلب . فعاد برجاله الى بورغاس وبقي فيها ثائراً غاضباً حتى وفاة الامبراطور في التاسع من تموز سنة ٥١٨ .

الفصل العاشر

تمشرق الفكر والفن والدولة

الدولة تتطور فتتحول الى دولة شرقية : وانتهى أمر الامبراطورية الغربية بسقوط رومة في السنة ٤٧٦ . واستقر البرابرة في غالية واسبانية وافريقية وايطالية وفي جزء من إيليرية . فأصبح ما بقي من الدولة الرومانية شرقياً صرفاً . واشتمل على شبه جزيرة البلقان ما عدا اطرافها الشمالية وعلى آسية الصغرى حتى جبال ارمينية وعلى سورية حتى الفرات وعلى مصر والقيروان . وقلّ اهتمام الاباطرة بالغرب وشؤونه فنودي بمرقيانوس امبراطوراً في السنة ٤٥٠ دون استشارة الامبراطور الغربي في رابينة . وجرى مثل هذا في السنة ٤٥٧ عندما تبوأ لاوون الاول عرش القسطنطينية . ولم تعبأ حكومة القسطنطينية بما حل برومة من كوارث . فلم يحاول مرقيانوس بذل اي مساعدة عندما دخل الوندال الى رومة في السنة ٤٥٥ . واختط لاوون الاول لنفسه سياسة سلم ومسالمة في علاقاته مع البرابرة في الغرب . وزاده تمسكاً بهذه السياسة فشله في حملته على افريقية في السنة ٤٦٨ . ولم تكن محاولة التوحيد بين الشرق والغرب، تلك المحاولة التي قام بها زينون في السنة ٤٨٨ ، سوى حلم طارىء لا قيمة له .

وتطور في هذه الآونة نفسها نظام الحكم في الداخل فأصبح شرقياً

اكثر من ذي قبل . فتسلّم مرقيانوس في السنة ٤٥٠ تاجه من يد بطريرك القسطنطينية لاول مرة في تاريخ الدولة . وحذا حذوه لاوون الاول في السنة ٤٥٧ . فاتخذ التتويج صفة دينية . وأصبح الحق في الحكم إلهياً شرقياً . واستعاضت العامة عن اللقب امبراطور باللقب فسيلفس . وبدأت اللغـــة اليونانية تنتشر في الدوائر الرسمية . وظهر الفسيلفس وبلاطه وعماله بمظاهر الابهة والجـــلال الشرقيين ، إن في الملابس ، او في الاثاث ، او في العربات . يؤيد ذلك مـــا رواه صاحب سيرة بورفيريوس اسقف غزة . ذكر عن هذا الاسقف انه عندما دخـــل الى القصر واشترك في حفلة عماد الطفل ثيودوسيوس الثاني في السنة ٤٠١ خال انه في الجنة لا على الارض[١]. واسترعى هذا التزيـد الشرقي في البـذخ والترف انظار يوحنا الذهبي الفم وسيناسيوس فحملا عليه بشدة .

وتشرقت الكنيسة ايضاً وأصبح الشرق هو الحيّز الذي تدور فيه حوادثها الكبرى ، وتنطلق منه حركاتها الفكرية . فاعظم المشاكل التي اعترضت تاريخ الكنيسة قد حدثت في الشرق ، وكذلك مجامعها المسكونية كلها انعقدت في الشرق . وهذا ما خوّل بطريرك القسطنطينية ، وهو يناظر زميله بابا رومة ، بعـــد خضوع الغرب لملوك من الآريوسيين البرابرة ، ان يقول : « لم يبقَ سوى امبراطورية مسيحية واحدة هي امبراطورية الشرق . ولم يبقَ سوى كنيسة مسيحية واحدة هي كنيسة الشرق[٢] . »

الفكر والفن والثقافة : وكانت حضارة الامبراطورية الرومانية قد تأثرت منذ زمان بعيد بنفوذ المدنية اليونانية الهلينية . ولكن هذه الحضارة في القرنين الرابع والخامس ألقت مقاليدها الى الشرق واتخذتـه اماماً تأتم

١ *Vie de Porphyre de Gaza (éd. Grégoire), 47-48; Bury, Later Rom. Emp. I,142-147; Puech, Saint Jean Chrysostome et les moeurs de son Temps, (Paris),1891.*

٢ *Duchesne, Hist. Anc. de L'Eglise, III, Ch. XIII.*

به في الفكر والثقافة . ومع ان اللغة اللاتينية بقيت اللغة الرسمية في الشرق. فان اللغة اليونانية أصبحت دون ريب هي اللغة السائدة .

وأصبح النتاج الفكري والفني في الشرق آسيوياً افريقياً اكثر منه اوروبياً . ويذهب الاستاذ كرومباخر الاختصاصي الالماني الى ان مبلغ النتاج الفكري الذي كانت تنتجه الولايات الاوروبية في الدولة الرومانية الشرقية لم يكن يتجاوز العشرة في المئة من مجموع النتاج[1]. وكانت اهم مراكز هذا النتاج الاسكندرية وانطاكية وبيروت وقيصرية فلسطين وقبدوقية والرها .

الاسكندرية : ولا يخفى ان اساتذة المتحف الاسكندري العظيم كانوا قد حُرموا المخصصات اللازمة لاعمالهم منذ اوائل عهد كركلا (٢١١) وان هذا الامبراطور الغاشم كان قد طرد من الاسكندرية العلماء الغرباء عنها . ولا يخفى ايضاً ان جنود زينب الزباء عندما دخلوا الى الاسكندرية ظافرين (٢٧٠) نهبوا واحرقوا المباني العمومية التي كانت تحيط بقبر الاسكندر . واتسع هذا التخريب حتى لم ينجُ منه المتحف العظيم . ومع ان هذه المؤسسة بقيت تعمل بعد القرن الثالث فان نتاجها بات نزراً ضعيفاً . فلم يشتهر من اساتذتها شهرة واسعة سوى إباتية الفيلسوفة (٣٧٠ - ٤١٥) بنت ثيون الرياضي . وكانت جميلة الخلق والخلق ترتدي زي الفلاسفة وتلقي الدروس في الافلاطونية الجديدة في بعض مدارس الاسكندرية ، وفي باحاتها العمومية . وعرف من تلامذتها سيناسيوس القيروني واورستيوس الحاكم وهو الذي كان سبباً في هلاكها . فقد زجر اورستيوس الجماهير المسيحية عندما صخبت على اليهود في السنة ٤١٥ وقبض على احد الرهبان المتهورين وشدد عليه في التعذيب فتوفي بين يديه . فثار عليه سخط الجماهير . ولما كانت إباتية معلمة وصديقة لاورستيوس فقد

[1] *Die Griechesche Literatur des Mittelalters, 330.*

هاجمها الجمهور اذ صادفها خارجة من بيتها وانهال عليها حتى ماتت تحت الضرب[١].

وأدى الصراع بين الوثنية والنصرانية الى الاجتهاد في التاريخ والمنطق والفلسفة . وكان من الطبيعي جداً ان يحتدم الجدل في امهات المدن ولاسيا الاسكندرية ، وان تعنى الكنيسة فيها بهذه العلوم العالية في سبيل الدفاع عن الايمان . ولا نعلم بالضبط متى نشأت مدرستها اللاهوتية الفلسفية التي عرفت بالاسم اليوناني الديذاسقاليون . والديذاسقالية عند اليونان طريقة الشعراء في تدريب الممثلين . ويقول يوسيبيوس المؤرخ : « اشتهرت كنيسة الاسكندرية منذ عهد قديم بمدرسة للعلوم المقدسة ، كان يتولى امرها رجال عرفوا بقوة العارضة وتميزوا بالاجتهاد في الصلاح والحث على التقوى . وكان اطولهم باعاً بنطينس النابغة في ادب الحكمة[٢] . » وخلف بنطينس هذا في رئاسة ديذاسقاليون الاسكندرية في السنة ٢٠٠ تلميذه اقليمس الاسكندري[٣] (١٤٥ - ٢٢٠) . ولد وثنياً ايضاً في آثينة وتميّز في الفلسفة وطاف بلاداً كثيرة حتى « ألقى عصاه في الاسكندرية » . وكان يجتمع حول منبره طبقات الناس من علماء واغنياء وغيرهم . وكان هو يحرّض الوثنيين على هجر خرافاتهم ، ساخراً من آلهتهم ، ويعلّم المهتدين مبادىء الرسالة المسيحية . وافضل ما اشتهر به في تاريخ الفكر

١ وقد خلّد الروائي الانكليزي تشارلس كنزلي قصة اباتية ببراعة الساحر ونقل روايته الى العربية العالم اللبناني الدكتور خليل سعادة .

٢ عن الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة للعلامة البطريرك اغناطيوس افرام برصوم ، ج١، ص٢٢٧ . وبنطينس هو Pantaenus الشهير . كان وثنياً من اتباع زينون الفيلسوف فتنصر واجتهد في تفسير الاسفار المقدسة . وبشر بالايمان في اليمن ويقال في الهند ايضاً . وهو الذي يقال عنه انه وجد في اليمن او في الهند نسخة من انجيل متى بالآرامية .

٣ *Titus Flavius Clemens.*

قوله: «ان الفلسفة تقود الى الكمال من يلبي دعوة المسيح»، وقوله: «ان الفلسفة في نظري ليست الرواقية، ولا الافلاطونية، ولا الابيقورية، ولا الارسطوطالية، وانما هي كل ما تعلّمه هذه المذاهب للوصول الى العدل والحقيقة[1].» وكان هدفه الاساسي فيما يظهر ان يبرهن للملأ ان العقيدة المسيحية لم تكن لتقل شأناً عن اي فلسفة زمنية. وهكذا يكون اقليمس الاسكندري اول من حاول ان يعطي العقيدة المسيحية المرتبة اللائقة بها، ويكون ايضاً في مقدمة الآباء الذين حاولوا التوفيق بين النصرانية والفلسفة. وأشهر مؤلفاته كتاب ارشاد اليونانيين، وكتاب المعلم، وكتاب الاسترومات او «الوشاء» كما اقترح غبطة البطريرك اغناطيوس افرام، وهو مجموعة آداب وتأملات وتفسير وتأويل لبعض ما جاء في التوراة[2]. ولما اغلقت مدرسة الاسكندرية، لما حلّ بالنصارى من الاضطهاد في السنة ٢٠٢، لجأ اقليمس الى قبدوقية وأقام عند تلميذه الكسندروس اسقف قيصرية. ثم انتقل الى انطاكية في السنة ٢١١. وكانت وفاته في السنة ٢١٥ او ٢٢٠.

على ان اشهر من علّم في ديذاسقاليون الاسكندرية اوريجانيوس العظيم. ولد في مصر في بيت مسيحي في السنة ١٨٥ او ١٨٦، وتلقى مبادىء علومه عن ابيه ليونيذاس وأخذ عن اقليمس ايضاً. وأستشهد والده في السنة ٢٠٢ وصودرت أمواله واوريجانيوس لا يزال في السابعة عشرة. فشملته سيدة مسيحية بعطفها. فتابع دروسه في الفلسفة والدين. وأنجز علومه الفلسفية وهو في الخامسة والعشرين في مدرسة امونيوس صقاس[3]

١ *Patrologia Graeca. VIII, 717 - 720.*

٢ الدرر النفيسة في تاريخ الكنيسة، ج ١، ص ٢٣١.

٣ *Ammonius Saccas.*

الافلاطوني الجديد. ودرس العبرية ليستعين بها على فهم التوراة. ودرّس في الديذاسقاليون وأدخل اليه العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية. وعلّم الشبان والشابات معاً. ودفعاً للريبة وزيادةً في التعبد والتقشف عمل بمنطوق الآية الثانية عشرة من الفصل التاسع عشر من انجيل متى. ولم يؤثر عمله هـذا في تعلق طلابه به واحترامهم له. وفي السنة ٢١٢ ذهب الى رومة لزيارة الكنيسة «العريقة في القدم». وفي السنة ٢١٥ لجأ الى فلسطين من شدة الاضطهاد الذي أنزله كركلا بالمسيحيين في مصر. وأقـام في قيصرية. فوكل اليه استقفها واسقف اوروشليم شرح الاسفار المقدسة. ثم عاد الى الاسكندرية واستأنف التدريس حتى السنة ٢٣٠. وفي اثناء هذه الحقبة عاد فمرّ بقيصرية فلسطين فاحتفى به اسقفا قيصرية واوروشليم وساماه قساً. فاغتاظ اسقف الاسكندرية واسقطه من وظيفـة التعليم وحرمه. ولكن ذلك لم ينل من سمعته. وبقيت الكنيسة تحترمه لسيرتـه النقية وعلومه الجمة. فخرج من الاسكندرية الى فلسطين وأقام في قيصرية وأسس فيها مدرستها اللاهوتية. وفي السنة ٢٤٠ زار آثينـة. وزار في السنة ٢٤٤ بلاد العرب. وتوفي في السجن في صور ضحيـة اضطهاد الامبراطور داقيوس.

ويقول ابيفانيوس القبرصي ان اوريجانيوس ألف ستة آلاف كتاب. وأثبت يوسيبيوس المؤرخ الفين منها او ما يناهز هذا العدد. ومن مؤلفاته المكسبلا[١]، اي ذو الاعمدة الستة. وهو مؤلف كبير اشتمل علـى ست ترجمات للتوراة في ستة اعمدة. وخص المزامير بثماني ترجمات في اعمـدة ثمانية، فعرف مؤلفه هذا بالأوكتابلا[٢]. وشرح اسفار التوراة والانجيـل

١ *Hexapla.*
٢ *Octapla.*

بوسائل عديدة ، فعمد الى الاستعانة بالمعاني الرمزية والتأويل. ورد على قلسوس الفيلسوف الوثني مدافعاً عن النصرانية[1] . وكتب في المبادىء[2] في اللاهوت وفي القيامة وفي الصلاة وفي التحريض على الاستشهاد وما الى ذلك .

ويرى الاستاذ بركت ان ما ذهب اليه اوريجانيوس من تأويل في كتاب المبادىء لم يثر ضجة كبيرة عند ظهوره وان قطع اوريجانيوس فيما بعد انما نشأ عن عوامل شخصية اهمها الحسد[3] . ومما أحتج به عليه فيما بعد قوله بخلق النفوس خلقاً سابقاً على الاجساد وقوله بان العذاب في الآخرة منتهٍ الى نهاية وبان العفو سيشمل حتى الشياطين ، ثم قوله بالتناسخ وتقمص النفوس وبالتطهير بالنار في الآخرة وبالتفاوت بين الاقانيم الثلاثة ، عدا ارتيابه في حقيقة جسد المسيح ودمه[4] . ومكانة اوريجانيوس في تاريخ الفكر تستند الى انه سبق غيره من الآباء في تأسيس علم اللاهوت علماً قائماً بذاته . وجل ما فعله غيره من الآباء الذين سبقوه كاقليمس ويوستينوس هو انهم حاولوا ان ينقلوا المبادىء المسيحية الى الاوساط العلمية بثوب فلسفي يوناني . اما اوريجانيوس فانه سخّر الفلسفة اليونانية ولاسيما الافلاطونية الجديدة لتشييد بناء فلسفي نصراني على دعائم من الاسفار المقدسة[5] .

وبما ان معظم كتب اوريجانيوس مفقودة فليس من الميسور بحث

١ *Contra Celsum.*

٢ *De Principiis.*

٣ *Burkitt, C. F. , Christian Church in the East (Cambridge Anc. Hist. Vol. XII, Ch. XIV), p. 484.*

٤ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٢٩٢ .

٥ ويجدر بكل راغب ان يقرأ الفصل السابع بكامله من كتاب دانيال رويس : « كنيسة الرسل والشهداء » .

آرائه لمن شاء ذلك . ويزيد في الطين بلة ما تعرضت له مصنفاته من تحريف وما نسب اليه من اضاليل لم يكن هو صاحبها . « وصفوة القول ان هذا العلامة أحب الحقيقة المسيحية حباً صادقاً ووقف عليها حياته وقريحته وقواه باسرها . فصحة دينه ورسوخ تقواه تعدلان سمو علمه بالرغم عما هفا فيه من السقطات التعليمية[1] . »

وخلف اوريجانيوس في رئاسة مدرسة الاسكندرية هيرقليوس ثم ديونيسيوس البطريرك (١٩٠ — ٢٦٥) . ولد ديونيسيوس في مصر من اسرة وثنية . وتنصر ، وقرأ على اوريجانيوس ، وعلت منزلته فسيم بطريركاً على الاسكندرية وتوابعها في السنة ٢٤٨ . وله مؤلفات منها كتاب في الطبيعة نقض فيه نظرية آتومبستيك في خلق العالم ، وكتاب في المحن والاضطهادات ، وآخر في المواعيد الالهية نقض فيه الاعتقاد بالملك الف سنة وغير ذلك .

وليس لنا ان نذكر هنا جميع من لمع من رجال هذه المدرسة في القرن الثالث ، ولكن لا بد من القول انها قد عظم شأنها منذ ايام اوريجانيوس وأصبح رئيسها هو الثاني بعد البطريرك في كنيسة الاسكندرية. وقد رقي أغلب رؤساء هذه المدرسة السدّة البطريركية .

فاما في القرن الرابع فكان اشهر رجالها القديس اثناسيوس البطريرك الاسكندري . ولد وثنياً حوالى السنة ٢٩٥ في الاسكندرية . وقرأ ودرس في مدرستها . وسامه البطريرك الاسكندري الكسندروس شماساً في السنة ٣١٨ واستصحبه الى مجمع نيقية المسكوني الاول سنة ٣٢٥ فأظهر من الذكاء والعلم والمعرفة ما جذب اليه القلوب . وخلف معلمه في بطريركية الاسكندرية في السنة ٣٢٨ فناضل في سبيل « المساوي في الجوهر » نضالاً طويلاً ونفي خمس مرات . ولم يكن ذلك الكاتب الاديب

[1] العلامة البطريرك اغناطيوس فرام برصوم في : الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

الكامل ولا ذلك الفيلسوف الدقيق العميق . ولكنه كان محامياً واضح التفكير قوي الحجة واسع الاطلاع . كتب في تجسد الكلمة وفي لاهوت الابن وفي الاربوسية . واشهر مؤلفاته واكثرها انتشاراً واقواها اثراً كتابه في سيرة الاب انطونيوس مؤسس الرهبانية في مصر . فقد ظل هذا الكتاب مدة طويلة افعل الكتب في تحبيب الترهب في الشرق والغرب معـــاً . وتوفي البطريرك آثناسيوس في السابع عشر نيسان سنة ٣٧٣ .

وولّى اثناسيوسُ ذيذيمسَ الاعمى رئاسة المدرسة حـــوالى السنة ٣٥٠ وما زال ذيذيمس رئيساً عليها حتى وفاتـه في السنة ٣٩٨ . وكان اوريجانياً معتدلاً . على ان تآليفه لم يبق منها سوى كتابيه في الروح القدس والثالوث الاقدس .

ومن اشهرُ تلاميـذ مدرسة الاسكندرية في هذه الحقبة الاخيرة من القرن الرابع سيناسيوس القيروني . ولد وثنيـاً ودرس في الاسكندرية على ابانية الفيلسوفة وغيرها فتقبل الافلاطونية الجديدة ومارس اسرارهـا المصرية . ثم استبدل افلاطون بالمسيح وتزوج من مسيحية . وفي اواخر حياته سيم اسقفـاً على بتوليايوس . وكان شديد الاهتمام بالسياسة كما تدل على ذلك رحلته الى القسطنطينية (٣٩٩ – ٤٠٢) وقد سبقت الاشارة اليها . ولم يكن سيناسيوس مؤرخاً . ولكن رسائله المئة والست والخمسين تشتمل على معلومات تاريخية هامة وتظهر درجة تقدمه في الفلسفة وعلوم اللسان . واصبحت هذه الرسائل فيما بعد نموذجاً مثالياً يقتدي به كل اديب خطيب . اما تراتيمه فأنها مزيج غريب من الفلسفة والنصرانية[١] .

وتضعضعت مدرسة الاسكندرية بعد وفاة ذيذيمس الاعمى . ونقلهـــا

١ *Fitzgerald, A., Letters of Synesius of Cyrene, London, 1926; Essays and Hymns of Synesius of Cyrene, Oxford, 1930.*

رودون الى سيدة في بامفيلية . ثم انقرضت حوالى السنة ٤١٠ . وجاء ذلك موافقاً لما حدث في مصر من عدول الاكثرية الى القول بالطبيعة الواحدة ، ما ادى الى انفصال الكنيسة المصرية عن الكنيسة الام بعد المجمع الرابع (٤٥١) انفصالاً صرفها الى الاهتمام بالقبطية والابتعاد عن اليونانية لغة الفكر والبحث .

انطاكية : وأخطب خطباء هذا العصر وأفصحهم انطاكيان احدهما وثني ليبانيوس والآخر مسيحي يوحنا الذهبي الفم . وقد يكون ليبانيوس لبنانياً وقد لا يكون . ولد في انطاكية في السنة ٣١٤ بعد الميلاد وتوفي فيها في السنة ٣٩٣ . وتعلم في انطاكية ثم في آثينة . وعلم في نيقية ونيقوميذية والقسطنطينية . وعاد الى بلده في الاربعين من عمره . وما فتىء فيها يعلّم ويخطب ويكتب حتى قضى نحبه بعد اربعين عاماً . ولا يزال قسم كبير من خطبه ورسائله محفوظاً حتى يومنا هذا . وفيها صور رائعة لحياة ذلك العصر. وكان ليبانيوس يعتز باليونانية ويزدري اللاتينية فلا يتنازل لتعلمها . واحتقر النصرانية واعتبرها عدوة الحضارة وحزن لموت يوليانوس الجاحد فقال قوله المأثور : « اني ذاهب الى الحقول لاتحدث الى الحجارة » . ولما شُرع في هدم الهياكل الوثنية قال : « ان هدم الهيكل كتقلع العين فالهياكل روح المناطق وأعرق المباني فيها[1] » . واما يوحنا الذهبي الفم فقد سبق لنا عنه الحديث . ولعل افضل ما يعبر عن اثره في النفوس ومنزلته في التاريخ ما قاله نيقوفوروس كاليستوس في القرن الرابع عشر : « لقد قرأت اكثر من الف عظة له تتدفق حلاوة . ولقد احببته منذ حداثتي

١ Monnier, E., *Hist. de Libanius*, Paris, 1866; Sievers, *Das Leben des Libanius*, Berlin, 1868; Seeck, O., *Die Briefe des Libanius etc.* Leipzig, 1906; Pack, R. A., *Studies in Libanius*, Michigan, 1935.

واصغيت الى صوته كأنه صوت الله . واني مدين له بجميع ما اعرفه وبنفسي ايضاً[1] . »

واشتهرت انطاكية ايضاً بأميانوس مرسلوس (٣٣٠ - ٤٠١) . ولد في انطاكية من ابوين يونانيين عريقين في الشرف . والتحق بالجيش وتولى القيادة العامة . ولمع في غالية وفي ما بين النهرين . ثم تقاعد فعني بالتأريخ فكتب تكملة لتاريخ تاسيتوس وذلك بعبارة لاتينية متينة فصيحة[2] . ولم يكن يرى فضلاً في النصرانية ولكنه كان اقل تعصباً من ليبانيوس. واحب انطاكية وسورية ولبنان وفاخر بها : « انطاكية لا مثيل لها ، وفينيقية عند قدم لبنان فتاة جميلة[3] » .

وكان طبيعياً جداً ان تهتم الاوساط النصرانية في انطاكية في القرون الاولى اهتمام الاسكندرية للدفاع عن النصرانية وان تنشأ فيها مدرسة من طراز ذيذاسقاليون الاسكندرية . فنحن نقرأ انه في السنة ٢٦٩ اتخذ مجمع انطاكية المحلي قراراً بقطع بولس السميساطي اسقف انطاكية وصديق زينب التدمرية . ونقرأ ان الذي تولى امر تفنيد اضاليل هذا الاسقف كان الاب ملكيون « رئيس مدرسة العلوم اليونانية » في انطاكية . ثم نقرأ انه في السنة ٢٩٠ اتفق الفنان لوقيانوس ودوروثاوس وجماعة من الاساقفة والقسوس على جعل دارهم مدرسة لتدريس الاسفار المقدسة وشرحها .

وكان لوقيانوس (٢٣٥ - ٣١٢) سميساطي الاصل درس على الاسقف بولس السميساطي الذي علّم ان الآب والابن والروح القدس ليسوا سوى اقنوم واحد وان المسيح لم يكن ابن الله على الحقيقة وانما كان انساناً

١ *Patrologia Graeca, CXLVI, 933.*

٢ *Res Gestae.*

٣ الفصل الثامن من الكتاب الرابع عشر .

حلّ فيه اللاهوت وتشرّب لوقيانوس شيئاً من تعاليم معلمه فأصابه حكم المجمع الذي قطع استاذه . وبقي مبعداً عن الكنيسة حتى نكل عن بعض ما قاله فرده البطريرك كيرلّس (٢٧٧ – ٢٩٩) الى درجته في الكهنوت. وعني لوقيانوس بتحري نص التوراة السبعينية ونص الانجيل . فضبط لهذين السفرين الترجمة التي عمّ استعمالها الكنائس الشرقية . وتوفي لوقيانوس وزميله دوروثاوس شهيدين في نيقوميذية (ازميد) في السنة ٣١٢ .

واشهر الآباء الانطاكيين في تاريخ الفكر الديني العقائدي ديودوروس الطرسوسي (+ ٣٩٤) ويوحنا الذهبي الفم (+ ٤٠٧) وثيودوروس المبسوستي (+ ٤٢٩) وثيودوريطس القورشي (+ ٤٥٧) . ولد ديودوروس في انطاكية في بيت عريق في الشرف والنفوذ . ودرس في آثينة ثم في انطاكية . وقام باعباء الخدمة في انطاكية في اثناء المحنة التي ادت الى نفي سيده البطريرك ملاتيوس الشهير (٣٦٠ – ٣٧٨) . وسيم اسقفاً على طرسوس في السنة ٣٧٨ . وبوصفه اسقفاً اشترك في اعمال المجمع المسكوني الثاني في القسطنطينية سنة ٣٨١ . وكتب في الفلسفة واللاهوت وفي تفسير الاسفار . واما ثيودوروس المبسوستي او الانطاكي ، فانه ابصر النور في انطاكية في السنة ٣٥٠ او ما يقاربها في بيت وفرٍ ويسار ونفوذٍ واقتدار. ودرس على ليبانيوس . ثم اجتذبه يوحنا الذهبي الفم الى الدين المسيحي . فتقبل النعمة وتنسك وجاور ديودوروس الطرسوسي وكان هذا لا يزال في انطاكية . ولم يقدر على متابعة الزهد فعاد الى انطاكية ليتزوج . فوجه اليه يوحنا الذهبي الفم رسالته Ad Theodorum Lapsum فعاد الى الرهبانية والزهد . وما فتىء يدرس العلوم الدينية على ديودوروس حتى السنة ٣٧٨ سنة سيامة استاذه اسقفاً على طرسوس . فأما ثيودوروس فأنه سيم كاهناً في السنة ٣٨٣ ورحل بعدها الى طرسوس والتحق بمعلمه . وما زال فيها حتى سيم اسقفاً على مبسوستي في جوار طرسوس . وتوفي في السنة ٤٢٨ .

وهو اكبر من صنف في اللاهوت من رجال انطاكية . ولم يبقَ من تآليفه الا نزر يسير نظراً لموقف المجمع المسكوني الخامس من تعاليمه . وهو استاذ نسطوريوس . ويروى ان نسطوريوس زاره في مبسوستي وهو في طريقة الى القسطنطينية ليتبوأ كرسيها البطريركي فرحب به ثيودوروس واوصاه بالاعتدال[١] . اما ثيودوريطس القورشي فأنه انطاكي ايضاً . ولد في انطاكية سنة ٣٩٣ . وبشّر بولادته مقدونيوس الناسك معلناً استعداد المولود الجديد لتكريس نفسه لخدمة المسيح . فنشأ ثيودوريطس راهباً . واخذ كثيراً عن يوحنا الذهبي الفم وعن ثيودوروس المبسوستي . ورافق في عهد التلمذة نسطوريوس ويوحنا الانطاكي . وقد سيم اسقفاً على قورش في السنة ٤٢٣ وكانت وفاته في السنة ٤٥٧ . وكتب كثيراً . وانفع ما صنف تكملة تاريخ يوسيبيوس[٢] .

وكانت مبادىء مدرسة انطاكية توجب في كل موضوع بساطة في المنهج وكمالاً في الايضاح وادراكاً في تعليم الايمان . وكانت تؤثر الأخذ بظاهر النصوص المقدسة فتبتعد كل الابتعاد عن التأويل . وكانت تعتمد ارسطو اكثر من افلاطون . ومن ثم كانت هذه الفروق بينها وبين مدرسة الاسكندرية .

« ولهذا السبب كانت تميز مدرسة انطاكية بين اللاهوت و الناسوت في شخص المسيح الواحد . ومع انها كانت تعتقد بان المسيح واحد وليس اثنين فأنها كانت ترفض التعليم بالاتحاد الطبيعي وبالمزج بين الطبيعتين . وكانت تعتبر اتحادهما اضافياً بمعنى السكنى والارتباط حفظاً لكمال الطبيعة

١ *Amann, E., Théodore de Mopsueste, (Dict. de Théologie Catholique); Sweete, H. B., Theodor von Mopsuestia,(Dict.of Christian Biography).*

٢ *Hist. Ecclesiastica; Bardy, G., Theodoret, Evêque de Cyr, (Dict. de Theol. Cath.)*

البشرية التي زعم ابوليناريوس انها كانت ناقصة وشهد بذلك يوحنا الانجيلي بقوله ان الكلمة «سكن فيها»، وبقول بولس الرسول ان الكلمة «ظهر بها». وكانت تنكر على الناسوت خواصَ اللاهوت كالحضور في كل مكان والقدرة على كل شيء، وعلى اللاهوت اهواءَ الناسوت وآلامه كالولادة والتألم والموت. ولهذا السبب كان معلموها يتجنبون كل تعبير يؤدي الى مثل ذلك المعنى كتسمية العذراء بوالدة الاله. ومع اعتقادهم بكمال الطبيعة الالهية كانوا يعتقدون بوجوب كمال الطبيعة البشرية ايضاً، لان لوقا الانجيلي يقول في الاصحاح الثاني ان يسوع «كان يتقدم بالحكمة والقامة» وهذا لا يقال الا في طبيعة بشرية. وكانوا يعلمون «بوجوب السجود للناسوت بمعنى انه إناء الكلمة فيقولون اننا نسجد للارجوان من اجل المتردي به، والهيكل من اجل الساكن فيه، ولصورة العبد من اجل صورة الله، وللحمل من اجل رئيس الكهنة، وللمتخذ من اجل الذي اتخذه، وللمكوَّن في بطن البتول من اجل خالق الكل.» على انهم ما كانوا يعلمون باقنومين بل باقنوم واحد ذي طبيعتين متحدتين بلا امتزاج ولا اختلاط ولا تشويش. ولهذه الاسباب كانوا يقدمون للمخلّص سجوداً واحداً من الجهة الواحدة، ويرفضون من الجهة الاخرى الاعتراف بالاتحاد الطبيعي او الجوهري حذراً من حصر اللاهوت او من تأليه الناسوت.

«فينتج مما تقدم ان معلمي انطاكية والاسكندرية كانوا يعلمون التعليم المستقيم على مناهج مختلفة مع محاذرة استعمال عبارات مستقيمة او مع استعمال عبارات اشدّ من المستقيمة تحصيناً للتعليم القويم بحسب اقتضاء مراكزهم. فكان المصريون يشدّون العبارات المتعلقة بايضاح كمال طبيعة اللاهوت حذراً من بدعة آريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال اللاهوت. وكان الانطاكيون يطلبون ايضاح كمال طبيعة الناسوت حذراً من بدعة ابوليناريوس التي ظهرت في اقليمهم ضد التعليم بكمال طبيعة

الناسوت . ولكنه قام في المدرستين اناس تطرفوا في التعليم فسقطوا في الضلال . فقام في مدرسة انطاكية من تطرف في التعليم بالطبيعتين الى التعليم بشخصين او اقنومين حتى انكر الاتحاد الحقيقي . وهذا هو نسطوريوس واتباعه . وقام في الاسكندرية من تطرف من التعليم باتحاد الطبيعتين الى التعليم باختلاطهما طبيعة واحدة ، ولم يعد يميز بين اللاهوت والناسوت . وهذا هو افتيشيس او اوطيخة وانصاره[1] . »

قيصرية فلسطين : واشمأز اوريجانيوس ونفر من ديمتريوس بطريرك الاسكندرية . فخرج منها في السنة ٢٣٢ وأمّ قيصرية فلسطين المدينة التي رحبت به من قبل وأصغت اليه وسامته كاهناً مسيحياً . فأقام فيها وأسس مدرسة جديدة . وقرأ عليه فيها غريغوريوس العجائبي واخوه اثينادوروس ويوسيبيوس المؤرخ وغيرهم . وفيها جمع مكتبته الشهيرة وصنف المكسبلة في شرح الاسفار المقدسة . ومنها خرج لزيارة آثينة سنة ٢٤٠ وبلاد العرب سنة ٢٤٤ . وفيها اذاقه داقيوس الامبراطور مر الاضطهاد (٢٥٠) فخرج منها رغم انفه وسيق الى صور حيث سجن وتوفي في السنة ٢٥٤ او ٢٥٥ .

وبعد اوريجانيوس امّ قيصرية بمفيليوس البيروتي . وكان هذا قد وزّع امواله على الفقراء والمساكين ورحل الى الاسكندرية فدرس فيها على خلف اوريجانيوس ثم استوطن قيصرية فلسطين وانشأ فيها مدرسة لتدريس العلوم الدينية . وجمع ما كان قد تبعثر من كتب اوريجانيوس ونسخ ما لم يتمكن من ابتياعه منها بخط يده . وكان يستنسخ الكتب الالهية مستنداً الى ما اورثه اياه اوريجانيوس فينثرها في البلاد نثراً . وكان

[1] الكلام لرئيس اساقفة بيروت جراسيموس في كتابه : تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٠١ -٢٠٣ ، بيروت ، ١٩٣١ .

يوسيبيوس تلميذه يعاونه في عمله هذا على ما تشهد به بعض النسخ .

ومن اشتهرت بهم قيصرية فلسطين يوسيبيوس المؤرخ . ولد يوسيبيوس في قيصرية او في مكان قريب منها في حدود السنة ٢٦٥ . وقرأ العلم على بمفيليوس البيروتي وعلى دوروثاوس الانطاكي . واتخذ بمفيليوس خديناً له وتسمّى باسمه وتقلّد الكهنوت من يد سلفه الاسقف اغابيوس . وسيم اسقفاً على قيصرية في حدود السنة ٣١٣ . ووعى علوم زمانه فبرع بحسب مقياس ذلك العصر في تاريخ الاسفار المقدسة وفي تاريخ الوثنية وتاريخ الشرق القديم وفي الجغرافية والفلسفة والفلك وحساب التقويم . فشرح اشعيا والمزامير وغيرها . وحسب لعيد الفصح مع ما في ذلك من عقد ومشاكل . وعرف جغرافية فلسطين وتاريخها معرفة جيدة فتمكن من ارشاد الحجاج الذين بدأوا منذ عهده يزورون الأماكن المقدسة . وكان خطيباً حسن اللفظ انيق اللهجة فصيحاً بليغاً . ومن مواقفه الخطابية المأثورة خطبته في مجمع نيقية . وذاع صيته فحظي عند قسطنطين بمكانة سَنيّة وأعد لهذا الامبراطور خمسين نسخة من الكتاب المقدس بناء على طلبه .

« وكان يوسيبيوس من المنتصرين لاوريجانيوس . وقد وافق آريوس في اسلوبه دون نظرياته . ومما يستدعي الاسف انه بعد ما وقّع اعمال المجمع النيقاوي واطأ خصوم هذا المجمع على مقاومة اصوله فشارك الآريوسيين في مجامعهم وعدّه بعضهم من انصاف الآريوسية مع انك لا تجد في تاريخه البيعي وكتابه الظهور الالهي الأ اجهاراً صريحاً بلاهوت السيد المسيح[1] . »

وتعددت مصنفات يوسيبيوس لانه ظل يكتب حتى الثمانين . ومصنفاته

١ واللفظ لغبطة البطريرك اغناطيوس برصوم في كتابه : الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٤٥٩ – ٤٦٠ .

تشكل محاولة جبارة لاحـــلال النصرانية المنزلة اللائقة بها وللرد على من استخف بها وطعن فيها امثال بورفيريوس الفيلسوف . فالنصرانية في نظر يوسيبيوس قُدِّر لها منذ الازل ان ترث الأرض وما نشأ عليهـــا من حضارة . ومـــا تمّ السلم الروماني في عهد اوغوسطوس الأ ليمهّد السبيل للرسل في عملهم التبشيري . وبورفيريوس لم يضع ضد النصرانية تصانيفه ال Historia وال Philosophos الأ ليفسح في المجال ليوسيبيوس ان يعد مؤلفه الكبير Historia Ecclesiastica وكذلـك خرونيقون بورفيريوس افسح المجال ايضاً لخرونيقون اوسع واكبر لتمجيد النصرانية .

وقد بدأ يوسيبيوس خرونيقونه بسيرة ابراهيم ولم يتجاوزها الى الخليقة كما فعـل يوليوس افريقانوس . وخص القسم الاول منه باهم الحوادث في تاريـــخ الشعوب بالغـــاً في ذلك الى سنة ٣٢٥ . ثم جعـل من القسم الثاني جداول متوازية تشتمل على أهم الحوادث مرتبة حسب سني وقوعها. وما قصده من وراء ذلك الا ان يورد حوادث معينة وقعت في اماكن مختلفة في وقت واحد ثم يستعملها لتأييد نظريته في ان هذه الحوادث انما تلازمت في الزمن واختلفت في المكان لتتم بها غاية الخالق . وأهم ما حدث من هذا القبيل في نظره وقوع احصاء كويرينيوس في عـين الوقت الذي ولد فيه المسيح . ومما اثلج صدر يوسيبيوس ان موسى سبق هوميروس وان حوادث التوراة جاءت اساساً سابقاً لغيرها من حوادث العالم القديم. ولا يزال خرونيقون يوسيبيوس مرجعاً حتى يومنا هـــذا لتعيين تواريخ قسم كبير من حوادث الرومان واليونان .

ووضع يوسيبيوس ال Praeparatio ليظهر اباطيـــل الوثنية واضرارها وليبين تفوق التوحيد العبري عليها . ثم صنف ال Demonstratio Evangelica ليردّ التهمة التي وجهها اليهود الى النصارى في قولهم ان هؤلاء انما تهودوا ليخرجوا على اليهودية . فهو يرى في ال Demonstratio ان شرائع موسى

انما انزلت لتكون حلقة وصل بين عهد البطاركة الاولين وعهـد المسيح . ولم يكن التثليث في نظره وما يتبعه من خلاص سوى تتمة طبيعية لعقيدة اليهود ونبوات الانبياء مع ايضاح كامل لبعض ما جاء غامضاً ناقصاً في الفلسفة الافلاطونية .

وبعد ان طهّر يوسيبيوس عقول قرائه من ادران الوثنية وأبان قدم عهد النصرانية ومكانتها في تاريخ العالم وسمو منزلتها في منهاج الخالق ، وضع تاريخاً خاصاً للكنيسة Historia Ecclesiastica منذ ظهور السيد ليبين امانتها لتعاليمه وانها واسطة لخلاص الانفس من الخطيئة . وما عذاب اليهود في نظره وتشردهم بعد ظهور السيد سوى برهان ساطع على تخلي الخالق عنهم . ولم تحبط مساعي الاباطرة مضطهدي النصرانية في نظر هذا المؤرخ الا بقوة الايمان وعظمته . وما انتصار قسطنطين على مكسنتيوس اولاً وعلى ليكينيوس ثانياً سوى اتمام ساطع باهر لوعود الله عزّ وجل[١] .

وفي هذا القرن اشتهر عدد من المؤرخين غير يوسيبيوس فكان ستراط القسطنطيني الذي اكمل عمل يوسيبيوس بـ Historia Ecclesiastica اخرى اوصل فيها تاريخ الكنيسة الى السنة ٤٣٩ . وكان ايضاً صوزومانيوس الغزّي فألف كتاباً مماثلاً وقف فيه عند السنة ٤٣٩ . وثيودوريطس القورشي الذي سبقت اليه الاشارة والى تاريخه . وهو يعنى بالمدة بين السنة ٣٢٥ والسنة ٤٢٩ .

بيروت : وكانت بيروت قد اصبحت منذ اوائل القرن الثالث مركزاً لتعميم القوانين ونشرها . وكانت تجارتها واسعة ودخلها كبيراً فاستهوت دعاويها القائمة امام محاكمها اكبر المحامين واشهر الاساتذة . وبالطبع

١ *Patrologia Graeca, CXLVI ; Laquer, R ,Eusebius als Historiker seinre Zeit ; Baynes, N. H., Eusebius and the Christian Empire, (Ann. de l'Inst. de Phil. et D'Hist. Orient. II, 1934.)*

استتبع ذلك نشوء مدرسة الحقوق وازدهارها فيها ونبوغ طائفة من اساتذة القانون اشتهر منهم على تعاقب العصور اولبيانوس الصوري (١٧٠ - ٢٢٨) وبابنيانوس (+ ٢١٢) ثم غايوس ومرقيانوس وتريفونيوس في القرن الثالث ودومنيونوس في القرن الرابع وهو الذي راسله ليبانيوس فأوصاه ببعض طلاب انطاكية . ولمع في القرن الخامس افذكسيوس وابنه لاونطيوس (+ ٥٣٠) الذي تولى برايفاكتورة الشرق في عهد انسطاسيوس. وبمبليخوس وكيرلّس صاحب كتاب « التعريفات » وباتريقيوس الاستاذ الكبير . واستحق هولاء لقب « اساتذة العالم » وشهروا بيروت حتى رفعها الامبراطوران ثيودوسيوس الثاني وفالنتنيانوس الثالث الى شرف الحواضر « متروبوليس » فأصبح اسقفها متروبوليتاً ولا يزال . وتوالت عليها الالقاب فأصبحت « ام العلوم » و « موطن العلماء » و « ظئر الشرائع » . وكان لاساتذة يعيّنون في اول الامر بموافقة مجلس شيوخ المدينة . ثم اشترط ابوليانوس الجاحد (٣٦٢) ان يكون التعيين بموجب صك يوقعه القائد المحلي ويوافق عليه مجلس شيوخ المدينة. ثم فرض ثيودوسيوس ان يعرض عليه قرار القائد والشيوخ قبل التنفيذ . وكانت السلطة منذ السنة ٤٢٥ تقوم بجميع نفقات الاساتذة . وتقاطر الطلاب الى هذه المدرسة من كل صوب . فحفل معهدها بابناء غزّة وعسقلان وانطاكية والرها وسميساط وغيرها من مدن الشام وفلسطين. وأمها غيرهم من مصر واسبانية وايطالية والبلقان وبر الاناضول . وكان لا بد لهؤلاء الطلاب من دروس تمهيدية في اليونانية واللاتينية وفي الخطابة والفصاحة يتهيأون بها لدرس القانون . فكانوا يحصلونها إما في مدنهم او في بيروت نفسها بطرق خاصة . وكان نظام المدرسة يحدد سن الطلاب ، فلا يجيزهم الا بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين . ولم يستثنَ من هذا الا الطلاب العرب الذين كانوا يصلون متأخرين في ثقافتهم . وكان الطلاب في اول عهد الكلية من الطبقة الوسطى

في المجتمع لانصراف ابناء العائلات الكبيرة الى درس اللغة والخطابة. ثم تحول هؤلاء ايضاً الى درس الحقوق. فأبدى ليبانيوس اسفه لان العدد الغفير من ابناء الاعيان في انطاكية اصبحوا يهجرون الخطابة. وبقيت اللاتينية لغة التعليم حتى اواخر القرن الرابع، ثم حلت محلها اللغة اليونانية. وكان الاستاذ يفتتح درسه بتلاوة بعض النصوص ثم يفسرها معلقاً عليها ثم يفسح في المجال للسؤال والجواب. وكانت مدة التدريس اربع سنوات ثم اضيف اليها سنة خامسة للتخصص[1].

واشتهر في اواخر القرن الخامس واوائل القرن السادس شماس بيروت رومانوس المرتل وهو اول ناظم للقنادق. وأشهر ما نظم ورتل القنداق: «اليوم تلد العذراء الفائق الجوهر. فتقدم الارض المغارة للذي لا يُدنى منه. والملائكة يمجدونه مع الرعاة. والمجوس يسيرون اليه مع النجم. فانه ولد من اجلنا صبيٌ جديد. هو الاله الذي قبل الدهور.» وقد أجاد لفظاً ومعنى واستعارة وتشبيهاً فأصبح «بيندار» الروم على ممر العصور، وموضع اعجاب رجال الاختصاص في عصرنا هذا.

قبدوقية: ولمع في سماء آسية الصغرى في قبدوقية في القرن الرابع اقمار ثلاثة اكسبوا قبدوقية شهرة واسعة وعظمة ليس بعدها عظمة. والاشارة هنا الى غريغوريوس الثاولوغوس وباسيليوس الكبير واخيه غريغوريوس النيساوي.

ولد غريغوريوس الثاولوغوس (اللاهوتي) في قرية اريانزوس بالقرب من نزينزوس في السنة ٣٢٨ وكان ابوه قد تنصر بتأثير زوجته نونة ثم سقّف على نزينزوس او نازيانزة. وقد ترعرع غريغوريوس على المبادئ

١ راجع محاضرة الاستاذ فؤاد البستاني، عن التعليم في لبنان، في مجلة الندوة، السنة الرابعة، ص ١٦٣ – ١٦٨، ثم كتاب الاستاذ كولينه في تاريخ مدرسة بيروت: *Collinet, P., Hist. Ecole de Droit de Beyrouth, Paris, 1925.*

الصالحة . وتلقى مبادىء علومه في قيصرية قبدوقية ثم في قيصرية فلسطين فالاسكندرية فآثينة . وفي آثينة انعقدت اواصر الصداقة بينـــه وبين باسيليوس الكبير . وتلقى المعمودية حوالى السنة ٣٦٠ . ثم أعرض عن الدنيا ومال الى النسك ، فترهب مع باسيليوس الكبير في البونط . وعاد الى بلده فشرطنه والده كاهناً لكنيسة نازيانزة في السنة ٣٦٢ . فأقام في خدمتها حتى السنة ٣٧١ او ٣٧٢ فسامه باسيليوس الكبير اسقفاً عـــلى ساسيمة او زاسيمة . ولكنه لازم خدمة والده حتى وفاته في السنة ٣٧٤ . وفي اوائل السنة ٣٧٩ استقدمه ارثوذكس القسطنطينيـــة لمساعدتهم ضد الآريوسية . فسار اليهم وجمعهم في دار رجل من اصدقائه جعلهـا كنيسة صغيرة واسماها انسطاسية . « وفيها ألقى خطبه الرنانة في الثالوث الاقدس ومنها تدفقت سيول الفصاحة على اسماع المؤمنين[١] . » فنما عددهم على حساب الآريوسيين . وفي السنة ٣٨٠ أقر الامبراطور ثيودوسيوس الاول رئاسته على القسطنطينية ، وأيد ذلك المجمع المسكوني الثاني في السنة ٣٨١ فرعاها حتى السنة ٣٨٢ . وكان حساساً جداً فلم يوافق جو القسطنطينية مزاجه فقال قوله المأثور : « ردوني الى الانفراد ! ردوني الى الله ! » فكان له ذلك ، وعاد راجعاً الى نازيانزة حيث قضى فيها باقي عمره ، وتوفي في السنة ٣٩١ . وأشهر مصنفاته خطبه في العقائد والاعياد والقديسين ، وتآبينه واشعاره اللاهوتية ، وقصيدته الطويلة في تاريخ حياته . واهتدى في دقائق اللاهوت الى عبارات لطيفة موفقة . وتجلت في خطبه ومواعظـــه مقدرة فائقة في التعبير والاقنـــاع ، فلقب بالثاولوغوس (اللاهوتي) ، واحيـاناً بالثاولوغوس الثالوثي ، لانه تكلم كثيراً في الثالوث وفي وحدانية جوهره وطبيعته[٢] .

١ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ص ٥٥٢ .
٢ *Fleury, E., Saint Grégoire de Naziance et Son Temps, (Paris, 1930)* .

واما باسيليوس الكبير[1] فقد سبق عنه الحديث . ويجدر بنا هنا ان نضيف ان جدته لابيه القديسة مقرينة تتلمذت لغريغوريوس العجائبي ، وان جده لامه حاز شرف الشهادة ، وان اخته الكبرى مقرينة ترهبت ، وان والدته اميلية قضت اعوامها الاخيرة في العبادة ، وان اخويه بطرس وغريغوريوس كانا في مصاف الاساقفة . وأشهر الاثنين غريغوريوس . ويعرف بالنيسي . وقد فاق اخاه باسيليوس الكبير وصديق اخيه غريغوريوس الثاولوغوس في الدقة والتعمق . ولد في قيصرية قبدوقية حوالى السنة ٣٣٥ ، وتأدب فيها وعلّم الخطابة مدة من الزمن . ثم أثر الثاولوغوس في نفسه فتنسك . ثم سامه اخوه باسيليوس اسقفاً على نيسة سنة ٣٧١ . وعزله الآريوسيون سنة ٣٧٦ ، ولكنه عاد اليها بعد سنتين . واشترك في اعمال المجمع المسكوني الثاني ، فأحرز احتراماً عظيماً لتفوقه في جودة التفكير ووضوح التعبير . وصنف كثيراً . وأشهر مؤلفاته رده على انوميوس وابوليناريوس . وكانت وفاته في السنة ٣٩٤ في الارجح .

وتضلع جميع هؤلاء الاحبار الثلاثة من العلوم الكلاسيكية . واجتهدوا اجتهاداً صالحاً في اللاهوت . وتوافقوا فشكلوا ما عرف فيما بعد بالمذهب الاسكندري الجديد . استعانوا بالفلسفة وأصروا على تحكيم العقل في العقيدة ولكنهم لم يتطرفوا في التأويل تطرف اساطين الاسكندرية ولم يتخلوا عن تقاليد الكنيسة الموروثة . واضافوا الى تصانيفهم الكثيرة في العقيدة مجموعات من الخطب والرسائل تشكل في حد ذاتها مواد اولية هامة لتفهم الفكر والثقافة في هذه الفترة موضوع هذا الفصل . ولم يقم بعدهم في قبدوقية من حافظ على هذه المكانة العالية التي اوصلها اليها في تاريخ الفكر هؤلاء الافاضل الاماثل .

[1] *Fialon, E., Etude hist. et lit. sur Saint Basile, (1869)* .

واختلف الآباء فيا بعد في التفاضل بين باسيليوس الكبير وغريغوريوس الثاولوغوس ويوحنا الذهبي الفم . ثم اتفقوا نحو السنة ١١٠٠ فأقروا عيداً تذكارياً للثلاثة معاً عرف بعيد الاقمار الثلاثة . ورتب يوحنا اسقف افخاطية خدمة كنائسية خاصة لهذا العيد .

« هلموا نلتئم جميعاً ونكرم الثلاثة الكواكب العظيمة للاهوت المثلث الشموس التي انارت المسكونة باشعة العقائد الالهية وأنهار الحكمة الجارية بالعسل التي روّت الخليقة كلها بسواقي معرفة الله باسيليوس العظيم وغريغوريوس اللاهوتي ويوحنا الشهير الذهبي اللسان ولنمتدحهم بالاناشيد يا عاشقي مواعظهم فأنهم يتشفعون الى الثالوث فينا دائماً . » (٣٠ كانون الثاني) .

الرها : وروى برحذبشابا العربي اسقف حلوان في النصف الثاني من القرن السادس اخذاً عن التقليد الشائع ان أدّى البشير انشأ مدرسة في الرها لتدريس العلوم الدينية[١] . وهي رواية ضعيفة نظراً لطريقة نقلها ولبعد برحذبشابا عن عصر الرسل . واول من ورد ذكره من طلاب الرها لوقيانس ثم يوسيبيوس الرهاوي اسقف حمص (+ ٣٥٩) . ولما احتل الفرس نصيبين سنة ٣٦٣ في عهد يوفيانوس الامبراطور جلا عنها افرام الكبير واساتذة مدرستها وبعض الاشراف وساروا الى آمد فالرها . وارتاح افرام الى السكنى في الرها فأقام فيها وزملاءه وانضموا الى مدرستها فاطلق عليها اسم مدرسة الفرس نسبة الى طلابها والاساتذة النازحين اليها . والقديس افرام السرياني هو نفسه الذي قال عنه الذهبي الفم : « افرام كنارة الروح القدس ومخزن الفضائل معزي الحزانى ومرشد الشبان وهادي الضالين كان على الهراطقة كسيف ذي حدين . » واشهر ما

١ الدرر النفيسة ، ج ١ ، ٥٧٢ .

صنف ميامره الشعرية في الاسرار والبتولية والتوبة والايمان والكهنوت والرهبانية . وقد نقل جانب وافر من هذه الميامر الى اليونانية وناظمها لا يزال في قيد الحياة . اما وفاته فكانت في السنة ٣٧٩[١] .

الفن البيزنطي : وتشرفت الدولة بفنها ايضاً . وعلماء القرن العشرين ينقضون ما ذهب اليه زملاؤهم في القرن التاسع عشر من ان الفن الروماني كان قد طغى على الفن الهليني في الشرق في القرنين الاولين بعد المسيح . ويثبت أينالوف في كتابه الاصول الهلينية للفن البيزطي[٢] ، واشتراجيكوفسكي في كتابه « الشرق او رومة[٣] » ان الشرق لا الغرب هو الذي لعب الدور الرئيسي في انشاء الفن البيزطي وان هذا الشرق شمل ، بالاضافة الى آسية الصغرى وسورية ومصر ، بلاد فارس واواسط آسية . ويذهب اشتراجيكوفسكي الى ابعد من هذا فيجعل منزلة ايران في التأثير على الفن البيزنطي كمنزلة بلاد اليونان الام في التأثير على الفن الكلاسيكي[٤] . ويرى بعض رجال الاختصاص تطرفاً ملموساً في نظريات اشتراجيكوفسكي ولكنهم لا ينكرون عليه ان الشرق لا الغرب قد لعب الدور الرئيسي في تكوين خصائص الفن البيزنطي[٥] . والواقع الذي لا المفر منه هو ان روائع الفن البيزنطي جاءت ثمرة لامتزاج وتفاعل موفق بين عوامل ثلاثة : الدين المسيحي والحضارة الهلينية واوضاع الشرق.

واشهر الآيات الفنية التي تعود الى هذه الحقبة من تاريخ الروم كنائس قدس وبيت لحم والناصرة وجميعها اقيمت في عهد قسطنطين الكبير . ومن

١ اللؤلؤ المنثور ، لبطريرك اغناطيوس افرام برصوم ، ص ١٩٦ – ٢٠٢ .
٢ *Ainalov, D. V. Hellenistic Origin of Byzantine Art., (Petrograd, 1917.)*
٣ *Strzygowski, J., Orient or Rome.*
٤ *Strzygowski, J., Origen of Christian Church Art.*
٥ *Diehl, C., Manuel d'art Byzantin, I, 16 - 21 .*

أشهر ما انشىء في آخر القرن الخامس دير مار سمعان العمودي – قلعة سمعان – بين حلب وانطاكية[1]. وتعود آثار قصر المشتّى في شرقي الاردن الى هذه الحقبة نفسها ايضاً. وقد اثبت العالم الاثري كاوفمان الالماني ان آثار كنيسة القديس ميناس في مصر تعود الى عهد الامبراطور ارقاذيوس[2]. وفي القسطنطينية أقام قسطنطين الكبير كنيسة الرسل وكنيسة القديسة ايرينة، كما شيّد كنيسة الحكمة التي أعاد بناءَها يوستنيانوس كما سنرى. ولا تزال اسوار ثيودوسيوس ماثلة لليوم بما فيها الباب الذهبي الرائع Porta Aurea الذي كان يلجه الاباطرة في المواكب الرسمية.

١ راجع ديل في كتابه المشار اليه انفا، ولاسيا المخططات والصور، المجلد الاول، ص ٣٦ – ٣٧ و ٤٥ – ٤٧.

٢ *Kaufmann, C. M., Die Menasstadt, (Leipzig, 1910.)*

الباب الخامس

كرامة ومجد وعظمة

•

الفصل الحادي عشر

يوستينوس ويوستنيانوس

(٥١٨ – ٥٦٨)

اصل هذه الاسرة: وقد كان السائد حتى اواخر القرن الماضي ان هذه الاسرة تحدرت من أصل صقلبي. والذي حمل على هذا الاعتقاد ما ورد من اسماء صقلبية دُعي بها يوستنيانوس وانسباؤه، في ترجمة لهذا الامبراطور نسبت الى معلمه ثيوفيلوس. ولكن المؤرخ الانكليزي جايمس برايس اثبت في اواخر القرن الماضي ان هذه الترجمة هي من نتاج القرن السابع عشر وانها بالتالي لا تستحق عناية المؤرخ واعتماده[١]. والذي يراه رجال الاختصاص اليوم ان يوستينوس ويوستنيانوس تحدرا من أصل ايليري او ألباني، وان يوستنيانوس ولد في احدى قرى مقدونية العليا في جوار

[١] Bryce, J., *Life of Justinian by Theophilus, Eng. Hist. Rev. II*, 1887, 657 - 684.

اسكوب على حدود البانية . اما يريشيك فيرى انهما من أصل روماني[1]. ومما لا شك فيه انهما تكلما اللغة اللاتينية .

يوستينوس الاول — فيجيلانتية = سباتيوس
(٥١٨ – ٥٢٧)

يوستنيانوس = ثيودورة — فيجيلانتية = دولسيسيموس
(٥٢٧ – ٥٦٥) (٥٢٧ – ٥٤٨)

يوستينوس الثاني (٥٦٥ – ٥٧٨) = صوفية

طيباريوس الثاني (بالتبني)
(٥٧٨ – ٥٨٢)

قسطنطينة = موريقيوس
(٥٨٢ – ٦٠٢)

يوستينوس الاول : (٥١٨ – ٥٢٧) وتوفي انسطاسيوس في التاسع من تموز سنة ٥١٨ بدون عَقِب . فتولى العرش بعده يوستينوس أحد قادة الحرس الامبراطوري[2] بتدبير لا يزال غامضاً . وكان يوستينوس هذا وضيع الاصل ، مغمور الذكر ، جاءَ العاصمة مغامراً يمشي على القدمين من مقدونية . الا انه كان جندياً باسلاً فألحق بالحرس الامبراطوري .

١ *Jirecek, C., Geschichte der Serben, I, 36.*
٢ *comes excubitorum.*

وظلّ يتقدم حتى أصبح قومس احدى فرق الحرس . على انه في الواقع لم يكن شيئاً غير جندي باسل . وقد رأى فيه المؤرخون المعاصرون له امياً لا يقرأ ولا يكتب ، متطفلاً على السياسة واهلها ، جاهلاً علم اللاهوت. ويقولون انه لولا مساندة ابن اخته يوستنيانوس له لناءَ بحمله وضاع في متاهات الادارة والسياسة . وكان يوستينوس قد استقدم يوستنيانوس اليه في حداثته ، وعني بتثقيفه وتهذيبه ، فأصاب يوستينيانوس شطراً وافراً من العلم في مدارس العاصمة . فلما تبوأ خاله عرش القسطنطينية كان يوستنيانوس قد أنهى علومه وخبر الحياة السياسية وتحلى بالنضج والاتزان .

وكان الاثنان كاثوليكيين ارثوذكسيين يقولان بقرارات المجامع المسكونية الاربعة فأنهيا ما كان قد وقع من شقاق بين القسطنطينية ورومة من جراء اينوتيكون (٤٨٢) زينون ، وأقصيا اصحاب الطبيعة الواحدة عن المراكز الهامة ، وربما أنزلا ببعضهم شيئاً من العذاب . وكان هؤلاء كثراً في ارمينية وسورية ولبنان وفلسطين ومصر . فنفرت هذه الاقطـــار من سياسة الامرة الجديدة . وشعر يوستنيانوس بهذا النفور ، وخشي سوء العاقبة في حقل السياستين الداخلية والخارجية في الشرق . فكتب رسالته الشهيرة الى البابا هورميزداس في السنة ٥٢٠ مقترحاً استعمال اللطف مع اصحاب الطبيعة الواحدة «كي يتم الشفاء بدون تفتح جروح جديدة[١] » .

يوستينوس وكالب : وكانت قد تسربت النصرانية الى بلاد اليمن بعد انتشار اليهودية فيها . وكان آخر ملوك حمير ذو نواس يهودياً فيما يظهر . واشتدت المنافسة بين النصارى العرب واليهود العرب ، وانقلبت عداء مريراً . وكان ذو نواس يرى في النصرانية ما يذكره بالاحباش واحتلالهم . فأوقع بالنصارى في السنة ٥٢٣ مذبحة نجران

١ *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, XXXV, 655-656, (1895.)

الشهيرة . ثم جمع من نجا منهم وخيّرهم بين القتل واليهودية . فاختاروا القتل . فخدّ لهم الخدود النار ذات الوقود[1]. وجاءَ في الطبري[2] ان دوس ذا ثعلبان أفلت ولجأ الى امبراطور الروم يستنصره على ذي نواس ، وان يوستينوس قال له : « نأت بلادك عنا فلا نقدر ان نتناولها بالجنود ولكني ساكتب الى نجاشي الحبشة وهو اقرب ملوك النصرانية الى بلادك .» ومما يروى ايضاً ان النجاشي انتصر على ذي نواس مرتين متواليتين في السنة ٥٢٣ وفي السنة ٥٢٥ . وهنا ربّ معترض يقول : كيف اضطهد يوستينوس اصحاب الطبيعه الواحدة في بلاده ثم تعاون مع النجاشي كالب الذي كان يقول هو ايضاً بالطبيعة الواحدة ؟ والجواب ان صاحب القسطنطينية كان يعتبر نفسه حامي ذمار النصرانية في كل المسكونة .

وتحدث الاحباش طويلاً بهذا التعاون بين يوستينوس وكالب وتناقلوا الخبر جيلاً بعد جيل ودونوه في القرن الرابع عشر في تاريخهم القومي الكبير : « كبرى نجشت » ، ومعناه فخر الملوك . فقالوا ان اسرتهم المالكة تحدرت من سليمان وبلقيس وان دولتهم أشرف من دولة الروم وانه كان ليوستينوس ولكالب ان يلتقيا في اوروشليم ليقتسما الارض باجمعها[3].

يوستنيانوس وثيودورة : وتحفظ لنا فسيفساءُ سان فيتالي في رابينة قسمات وجه يوستنيانوس كما رسمها رسام في السنة ٥٤٧ . ويقول معاصروه انه كان يميل الى البساطة في العيش ، والتودد في معاملة الناس ، وانه كان يواصل العمل ليل نهار حتى لقبه احد رجال بلاطه بـ « الامبراطور الساهر » اذ كان يحرص ان يعلم كل شيء ، وان يدقق في كل شيء ، وان

١ سورة البروج ، الآية الرابعة .
٢ ج ١ ، ص ٩٢٧ – ٩٢٨ .
٣ *Vasiliev, A.A., Justin I and Abyssinia, (Byzantinische Zeitschrift, XXXII, 1933, 67-77.)*

يقرّ كل شيء. والواقع ان يوستنيانوس كان شديد الاعجـــاب بمواهبه ومؤهلاته لا يسمح لاحد من رجاله ان يعارضه في أمر، ولا يثق باحد منهم، حتى ولا بقائده الامين بليساريوس العظيم. وعلى الرغم من تظاهره بالعزم والحزم والثبات فانه كان في قرارة نفسه متردداً شديد التأثر بآراء الحاشية ولاسيا زوجته ثيودورة[1].

ويقول بروكوبيوس المؤرخ في كتابه عن اسرار هـذه الحقبة ان ثيودورة هذه تلطخت منذ حداثتها بفساد المحيط حولها. فانها نشأت ابنة لمروض الدببة في مسارح القسطنطينية وشبت على شيء من الاباحية. وما طال الامر حتى احتقرها سكان العاصمة، فكانوا اذا التقوهـــا في شوارع المدينة ابتعدوا عنها خوفاً من ملامستها والتلوث بها[2]. ويقول شارل ديل الافرنسي ان ثيودورة شغلت العاصمة فألهتها لا بل فتنتها ثم جرّت الخزي عليها[3]. ولكن يجب الا يغيب عن البـال ان بروكوبيوس انما كتب ما كتب ليحطم به يوستنيانوس وزوجته. وهو والحالة هـذه راوٍ مغرض لا تقبل شهادته بدون تبصر وروية وجرح وتعديل. ويجب الا ننسى ان ثيودورة ترصنت بعد طيشها وذهبت الى افريقية فبقيت فيها بضع سنوات عادت بعدها الى القسطنطينية متعقلةً متزنةً مهتمةً بالقضايا العـامة ولاسيا الدينية منها، منهمكةً بغزل الصوف في ساعات الفراغ، وان يوستنيانوس لم يعرفها قبل دخولها في هذا الدور من حياتها. وأعجب يوستنيـانوس بجمالها فنقلها الى القصر وجعل منها بِطْريقةً ثم تزوج منهـــا. وشعرت ثيودورة بالمسؤولية الملقاة على عاتقها، فتعاونت وزوجها في سبيل العرش والدولة، وأخرجته في كثير من الاحيان من مآزق حرجة كما سيمر بنا.

١ *Diehl, Ch., Justinian, Cambridge Med. Hist. II, 2.*

٢ *Historia Arcana, 9, 25.*

٣ *Byzantine Portraits, 54 ; Théodora.*

سياسة يوستنيانوس الداخلية : وجوبه يوستنيانوس في اول عهده بثورة داخلية كادت تدك عرشه دكاً . وهي التي عرفت بثورة النصر « نيكا » باليونانية . ولا بأس في تفصيل نبأ هذه الثورة من التوقف والرجوع قليلاً الى الوراء ، ذلك انه كان يقوم في قلب العاصمة ملعب فسيح لسباق الخيل يدعى الـ Hippodrome . وارتاحت نفوس سكان العاصمة الى سباق الخيل في الهيبودروم ونشِطوا لمراقبة هذه السباقات وتحمسوا لها . وكان على سائقي عربات السباق ان يتزيّوا بواحد من اربعة الوان إما الاخضر او الازرق او الابيض او الاحمر . فانقسم النظارة من سكان العاصمة الى احزاب رياضية اربعة : الخضر والزرق والبيض والحمر . وأنتظمت هذه الاحزاب ، وتكتل افرادها وتكاتفوا ، فانشأوا لكل منها صندوقاً خاصاً لتشجيع السائقين وشراء الجياد السبّاقة والعناية بها . ولا نعلم بالضبط كيف وقع الاختيار على هذه الالوان التي تسمت بها هذه الاحزاب ، ولكننا نعلم انها قديمة جداً وان رومة الجديدة ورثتها عن رومة القديمة . ويرى بعض رجال الاختصاص انها ربما اشارت في الاصل الى العناصر الاربعة : الارض والماء والهواء والنار ، الارض الخضراء ، والماء الازرق ، والهواء الابيض ، والنار الحمراء[١] . ثم نتج عن هذا التضامن في حقل الرياضة تضامن في السياسة والاجتماع . وانضم البيض الى الخضر والحمر الى الزرق فأصبح في العاصمة حزبان سياسيان اجتماعيان ، حزب الخضر وحزب الزرق . وأيّد الزرق الارثوذكسية فأيّد الخضر القول بالطبيعة الواحدة . وكان قد سبق في عهد انسطاسيوس ان حلّ بالزرق اضطهاد شديد لان هذا الامبراطور كان يميل الى القول بالطبيعة

١ *Guerdan, R., Vie, Grandeur et Misères de Byzance, (Paris, 1954),* 45-58.

الواحدة فهرع الزرق الى الهيبودروم ونادوا بسقوط انسطاسيوس . وكاد يتم ذلك لولا اتزان الامبراطور واستعطافه الرأي العام . فلما رقي يوستينوس ويوستنيانوس العرش دبّ الى عروق الزرق النشاط ولكن ثيودورة عطفت على الخضر ، فانقسم البلاط نفسه الى ازرق واخضر[١] . ويجوز القول ايضاً ان الزرق كانوا في الغالب من طبقات الشعب العليا ، وان الخضر جاؤوا من الطبقات السفلى بحيث أصبح الصراع بينهما في بعض الاحيان صراعاً طبقياً[٢] .

وقد تعددت اسباب ثورة النصر التي نشبت في السنة ٥٣٢ ، فبعضها كان دينياً عقائدياً نشأ عن اضطهاد من قال بالطبيعة الواحدة . وبعضها كان مرده الى تنافس الاسر على العرش وحرمان اقارب انسطاسيوس من الملك . وبعض هذه الاسباب كان عمومياً وهو الاقوى . وتفصيل الامر ان يوستنيانوس اعتمد في اول عهده على تريبونيانوس في القضاء وعلى يوحنا القبدوقي في الادارة . وطغى الاثنان وتجاوزا الحد في ابتزاز المال وفي القسوة . فهبّ الزرق والخضر معاً وهرعوا جميعاً الى الهيبودروم ثم انطلقوا منه يخربون ويحرقون . وسادت كلمة النصر على افواههم « نيكا » فسميت بها حركتهم هذه . وفاوضهم يوستنيانوس فلم يرضوا ونادوا باحد انسباء انسطاسيوس امبراطوراً . فخشي يوستنيانوس العاقبة وجمع اخصاءه وشاورهم في الفرار من العاصمة . وكادوا يجمعون على ذلك ولكن ثيودورة انتصبت بينهم وقالت كلمتها التاريخية : « يستحيل على امرىء يجيء هذا العالم ألاّ يموت ولكن من يمارس السلطة لا يطيق النفي . وان تشأ ايها الامبراطور ان تنقذ نفسك فلن تجد صعوبة والبحر

١ Uspensky, Th., Hist. of Byz. Emp., I, 506.

٢ Manojlovic, M., le Peuple de Constantinople, (Byzantion, 1936), 617-716.

قريب ، والمراكب مجهزة ، والمال موفور . ولكن تريث قليلاً وسل نفسك : ألن تندم بعد فرارك ووصولك الى ملجأ امين فتود لو كنت آثرت الموت على الامان ؟ أما انا فأرى ان الارجوان لا بأس به كفناً[١] . » فانتعش يوستنيانوس وأمر بليساريوس ان يخضع الثائرين بالقوة بعد ان مضت على ثورتهم ستة ايام . فأحاط بهم بليساريوس بجنوده ولزّهم حتى أكرههم على اللجوء الى الهيبودروم . ثم فتك بهم فتكاً فقتل ثلاثين او اربعين الفاً بينهم انسباءُ انسطاسيوس وثبّت هيبة السلطة[٢].

وكان قد ظهر في آسية الصغرى ومصر وغيرهما من اجزاء الامبراطورية عدد من أصحاب العقارات الكبيرة الذين استغلوا الظروف السياسية والادارية ففرضوا ملكيتهم فرضاً ، واغتصبوا املاك الدولة ، وعبثوا بالسلطة المركزية فاحاطوا انفسهم بالحراس ، وجرّوا وراءهم الجماهير ، وسدوا افواه الولاة بالذهب[٣]. وأشهر من اشتهر من هؤلاء في مصر اسرة الابيون . فكان الواحد منهم يملك القرية بعد القرية ، ويفرض ضرائبه الخاصة ويجبيها على يد جباته ويعيش عيشة الملوك[٤]. واتسعت كذلك املاك الاديرة والكنائس وتمتع اصحابها بسلطة واسعة .

ورأت الحكومة في هذا كله تحدياً لا مبرر له فقاومته مقاومة طويلة الامد ، تذرعت في اثنائها بشتى الوسائل ، كأن تتدخل في حق الارث احياناً ، او ان تكره احياناً اخرى بعض الكبار على وقف املاكهم على الامبراطور ، او ان تصادر بعض الاملاك بداعي عدم الدليل على الملكية ، او ان تتهم ديراً من الاديار بالزندقة فتحوّل ارزاقه الى الدولة . ولكن برغم

١ *De bello persico, I, 24,35-37 ; éd. Haury, I, 130 ; éd. Dewing, I, 230-233.*

٢ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 156-157.*

٣ *Novelle, 30, (44), 5, éd. Zacharia von Lingenthal, I, 268.*

٤ *Bell, H., Byz. Servile State in Eg., Journal of Eg. Arch. IV, 101-102.*

هذا كله لم يتمكن يوستنيانوس من القضاء على هذه الطبقة .

ولمس يوستنيانوس عيوب الادارة ومواطن الخلل فيها كبيع الوظائف وتبديد الاموال والسرقة والبلص . وعلم حق العلم ان هذه النقائص تؤدي حتماً الى الفقر والخراب والى اثارة الفتن والمشاكل . ورغب كل الرغبة في ازالة الضرر واصلاح الحال . وشعر بالمسؤولية الملقاة على عاتقه . وكان يقول بالحكم المطلق . فرأى ان افضل الوسائل لمداواة الحال هي السعي لتقوية الحكومة المركزية وانتداب رجال اكفاء للقيام بمهام الحكم . وعني بادىء ذي بدء بمالية الدولة فذكّر بنفقات الحرب وطلب الى الرعايا ان يؤدوا ما وجب دفعه باخلاص وعلى الوجه الاكمل . وأمر الموظفين ان يعاملوا الرعايا بعطف ابوي وان يرفعوا عنهم الظلم ويمتنعوا من الرشوة ويعدلوا[1] . ثم عاد فذكّر الموظفين بوجوب السعي لتغذية الخزينة[2] . واجتهد يوستنيانوس اجتهاداً حثيثاً في سبيل الاصلاح على اساس هاتين القاعدتين : امانة الموظف واخلاص المكلف . ولكنه رأى بعد وقت ان ذلك لم يكف لتغذية الخزينة فلجأ الى انقاص النفقات بانقاص الجيش وابتياع رضى الخصم على الحدود . ولم يفطن الى ان مثل هذه الخطة يؤدي الى الاضطراب في الداخل وضعف الهيبة في الخارج فضلاً عن نقص الموارد وازدياد النفقات .

ومما زاد في الطين بلة انتشار الاوبئة في عهده وحلول الزلازل . واشهر الاوبئة طاعون السنة ٥٤٢ . فأنه ظهر في مصر وانتقل الى سورية ولبنان فالقسطنطينية فبر الاناضول فما بين النهرين ففارس ثم عبر البحر الى صقلية وايطالية . ودام انتشاره في العاصمة اربعة اشهر . وتزايد فتكه

١ Novel'a, 8, (16), 8, 10 ; éd. von Lingenthal, I, 102, 104.
٢ Novella, 28, (31), 5 ; von Lingenthal, I, 197.

فهجر السكان المدن والقرى ووقف الحرث والزرع وعمّ الجوع فاضطربت الدولة باسرها[١] .

وتعددت الزلازل . واشهرها زلزال السنة ٥٥١ وفيها اهتز الساحل اللبناني من ارواد حتى صور وعمّ الخراب . واصاب بيروت السهم الاوفر ، وقيل ان البحر فيها ارتد ميلاً ثم عاد بطغيان هائل فأغرق سفناً عديدة والوف الناس . ويقول اغاثيوس المؤرخ « ان بيروت زهرة فينيقية ذوت بعد هذه الزلزلة العظيمة وتقلص ظل جمالها ودكت ابنيتها الشامخة البديعة فتقوضت ولم يبقَ منها الا ردم وخراب . وهلك تحت انقاضها جم غفير من الاهلين والاجانب . واختطف الموت نخبة الشبان الاشراف الذين كانوا قد قدموا بيروت لدرس الحقوق الرومانية في مدرستها الشهيرة التي كانت فخراً لها وتاجاً على مفرقها تباهي بها اخواتها من المدن العظمى[٢] . »

واتخذ يوستنيانوس الفيلسوف ما بين السنة ٥٣٥ والسنة ٥٣٦ طائفة من الاجراءات لتعزيز السلطة المحلية مع تثبيت نفوذ السلطة المركزية . وكان قسطنطين الكبير ، كما سبق ان اشرنا ، قد جزّأ الولايات الكبيرة الى ولايتين او اكثر وفصل السلطة الادارية في الولايات عن السلطة العسكرية ليأمن شر التمرد والعصيان . ولكن يوستنيانوس اراد ان يبسّط الامور ليسهّل عمل الادارة فقلّل عدد الولايات وأنقص عدد الموظفين وزاد في رواتبهم

١ *Zinsser, H., Rats, Lice, and History, 144-149.*

٢ *Patrologia Graeca, éd. Migne, 88: 1359.*

وعلى اثر هذه الزلزلة انتقل الاساتذة الى صيدا ريثما يتجدد بناء بيروت ثم عادوا اليها بعد سنين قليلة. ولكن ناراً شبت بها في السنة ٥٦٠ فالتهمت معاهدها وعدداً كبيراً من دور السكن فيها .

ووضع السلطتين العسكرية والادارية في يـد واحدة[1] . وأنعم باللقب « يوستنياني » على الحكام فزادهم فخراً ووقاراً .

وعني يوستنيانوس عناية خاصة بادارة العاصمة فعين عـدداً من الحكام « برايتوريوس الشعب » في السنة ٥٣٥ للنظر في السرقات والاغتيـالات وحوادث الزنى . وفي السنة ٥٣٩ انشأ وظيفة الكوايسيتور Kuaesitor لمراقبة الذين كانوا يفدون على العاصمة من ابناء الولايات بلا موجب فيعقدون احياناً مشاكلها بتصرفهم . ونزولاً عند رغبة ثيودورة اعاد تنظيم وظيفة المحافظين على الآداب العامة وأمرهم بالتشديد على المقامرين والمجدفين وعلى « اولئك السفلة الذين لم ينتظروا سدول الليل ليستروا بها معاصيهم » . واهتمت ثيودورة لامر الزانيات فجعلت من قصر قديم على ضفة البوسفور الآسيوية ديراً للتائبات منهن اسمته دير التوبة . ومنع يوستنيانوس سباق الخيل في الهيبودروم وأمر بمراقبـة الاحزاب الرياضية السياسية مراقبة شديدة[2] .

وحضّ يوستنيانوس الحكام والزمهم ان يحافظوا عـلى الطرقات والجسور واقنية الميـاه والاسوار وامدّهم بالمال . فنشطوا لتحقيق هذا الواجب وانشأوا طرقات جديدة وشيدوا لهـا الجسور وحفروا الآبار والاحواض على جوانبها ليؤمنوا المياه للقوافل وابناء السبيل . وجرّوا المياه الى المدن وبنوا الحمامات . وعملاً برغبة يوستنيانوس قامت مدن جديدة في بعض الانحاء تحمل لقب يوستنيانة اعترافاً بفضـل الامبراطور . وبذل يوستنيانوس بذلاً سخيـاً لاغاثة انطاكية بعد الكارثة التي حلت بها

١ ألغي وظيفة النواب Vicarii ورفع حكام بعض الولايات ومنها سورية وارمينية الى رتبة برايتوريوس praetorius.

٢ *Diehl. Ch., Justinian's Govt. in the East, Cambridge Med. Hist., II, 39.*

في السنة ٥٤٠ . فجدد الاقنية والمجاري وانشأ الحمامات ودور اللهو والساحات العامة . ولم يقصر في البذل عندما حلّت الكارثة في السنة ٥٥١ ببيروت وغيرها من مدن لبنان وسورية . وفي السنة ٥٣٢ بدأ بتشييد كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية باشراف اسيدور الملطي وانثيميوس الترلّي. واستمر العمل فيها خمس سنوات حتى تم بناؤها في السنة ٥٣٧ . فجاءت آية من بدائع الآيات أتحف بها يوستنيانوس عالم الفن . وهي ما زالت قائمة راسخة موطدة بارزة جريئة واضحة نقية . وانشأ في السنة ٥٣٨ القصر المقدس بمدخله الفخم وقاعة عرشه العظيمة Consistorium التي بهرت العيون بالوان معادنها الثمينة ودقائق فنها الخالص . وعنيت ثيودورة بكنيسة الرسل وبعدد كبير من المستشفيات للمرضى والانزال للمسافرين . ولا تزال احواض يره بتان سراي « القصر الغائر » وبيك بر ديرك « الف عمود وعمود » تنطق بالعمل الجبار والجهود المتواصلة التي بذلها يوستنيانوس لتوفير المياه على العاصمة .

يوستنيانوس والاقتصاد : وأراد يوستنيانوس ان يحرر تجار الامبراطورية ورجال الصناعة فيها من تحكّم الفرس في مقدراتهم . فانه لم يكن بامكان الروم في القرن السادس ان يبتاعوا مباشرة من الصين والهند بعض المواد اللازمة للبذخ والتعظم والتعظيم ، كالحرير والحجارة الكريمة والاطايب والافاويه . ذلك ان هذه المواد كان محتوماً لها ان تمر عبر فارس اذ كان الفرس يبتاعونها في اسواق بخارى وعند تخوم الصين وفي جزيرة سيلان ثم ينقلونها الى حدود الروم عند الفرات ولا يرضون بيعها الا باغلى الاسعار او لا يسمحون بتصديرها الا بكميات محددة . فسعى يوستنيانوس للوصول الى بخارى عن طريق البحر الاسود فلزيقة فبحر قزوين متحاشياً الدخول في حدود فارس . وكذلك سعى لتشجيع الروس الجنوبيين على الاتصال بتخوم الصين للغاية نفسها . ثم دفع تجار بيروت

وصيدا والاسكندرية الى استيراد هذه البضائع عن طريق البحر الاحمر ومرافىء حمير الجنوبية . وجعل من مرفأ آيلة بالقرب من العقبة ومرفأ قلزم بالقرب من السويس قاعدتين تجاريتين ، كما انشأ على جزيرة تيران في خليج العقبة جمركاً امبراطورياً لهذه الغاية نفسها[1]. وكانت مراكب الاحباش وعرب الجنوب تجوب بحر العرب والمحيط الهندي حتى سيلان. فاتصل يوستنيانوس في السنة ٥٣٠ او ٥٣١ بالنجاشي «ملك ملوك» الاحباش وحسَّن له نقل سلع الهند والصين من سيلان الى مرافىء البحر الاحمر. فاقتنع النجاشي بالامر وحضّ عليه تجّاره. ولكن الفرس كانوا في مرافىء الهند اوسع نفوذاً من الاحباش فقاوموا تجار الاحباش مقاومة شديدة. وفي السنة ٥٣٢ جاء السلم بين الفرس والروم فعادت الامور الى مجاريها الطبيعية وعاد الروم الى الاستيراد عن طريق فارس. غير ان العلاقات عادت فتأزمت في السنة ٥٤٠ كما سنرى فلجأ يوستنيانوس الى تحديد سعر الحرير واكره التجار على قبول تعرفة حكومية. فشلّ بذلك نشاط التاجر الفرد ولحق بالتجار اللبنانيين خسارة فادحة كادت تقضي على صناعاتهم. ثم افلت سرُّ تربية دود الحرير من الصين ، نقله قسيسان مسيحيان بين السنة ٥٥٢ والسنة ٥٥٤ الى الروم. فتلقاه اللبنانيون بالتهليل واقبلوا على تربية دود الحرير في لبنان. وفعل مثلهم يونان المورة وبعض الجزر. فأصبح لدى الروم انتاج محلي من الحرير استعاضوا به عما كان قد لحق بهم من خسارة وباتوا بمأمن من تحكم الفرس في مقدراتهم. واستطاعوا هم بدورهم ان يحافظوا على سرّ تربية دود الحرير زمناً طويلاً. واتسع نطاق عمل اللبنانيين بنوع خاص فراجت بضائعهم الحريرية في جميع اسواق البحر المتوسط وفي فرنسة والمانية وبريطانية. ونشطوا في تصديرها الى

[1] Abel, F. M., l'Isle de Jotable, *Rev. Bib.* 1930, 520-424.

الشرق الاقصى فكثر طلابها في الصين نفسها . وعظمت تجارة القسطنطينية فتقاطرت اليها المراكب من كل حدب وصوب من مرافىء المتوسط والبحر الاسود لتحمل اليها المواد الخام على انواعها وتنقل منها انتاجها الصناعي . واصبحت بفضل هذه التجارة واهتمامها بالفضة المركز الاعظم للتحاويل المالية وللصرافة ايضاً . والاسكندرية بفضل موقعها وعظم مرفأها ظلت تنعم بدخل موفور . وكان اهم ما تتجر به حبوب مصر ومعادن افريقية ونفائس الشرق الاقصى . وقامت فيها جالية لبنانية هامة تستغل سوقها العظيمة .

وسُرّ يوستنيانوس بازدهار التجارة وهنأ نفسه انه استطاع بسعيه وحسن تدبيره ان يقدم «زهرة اخرى» الى الدولة التي احب والتي وكل الله اليه امرها . وليس في كلامه هذا ما لا يتفق والحقيقة فأعمال الحفر والتنقيب في السبعين السنة الاخيرة قد دلت على هذا الازدهار دلالة واضحة[١] .

يوستنيانوس والقضاء : وأحب يوستنيانوس النظام . ورغب رغبة اكيدة صادقة في تأمين «العباد الذين وكل الله امورهم اليه» وفي نشر لواء العدل بينهم . وتاقت نفسه الى المجد الروماني السابق . واراد ان يعيد الى الامبراطورية الرومانية سابق وحدتها . وعلم العلم اليقين ان هذا يتطلب اموالاً لا حصر لها . فرأى بنظره الاداري الثاقب ان افضل الوسائل لجمع المال من الرعايا هو حمايتهم من ظلم الحكام وتصلفهم . وهكذا عني منذ بداية عهده بجمع القوانين المتراكمة وتنسيقها وتعديلها وفوّض امرها الى مدبّره الكبير تريبونيانوس . فدعا تريبونيانوس هذا لجنة من كبار

١ *Diehl, Ch., Justinian's Govt. in the East, Camb. Med. Hist., II, 40-42.*

رجال القانون في الامبراطورية وذلــك في ١٣ شباط سنة ٥٢٨ ووكل اليهم العمل . وكان اهم هؤلاء بطبيعة الحـــال اساتذة مدرسة بيروت الشهيرة : اناطوليوس ابن لاونطيوس وتلالاوس واسطفانوس ويوليانوس ودوروتاوس واذوكسيوس . وتمّ الجمع والتنسيق والحذف وما الى ذلك على يد هذه اللجنة . فظهرت مجموعة القوانين الـ Code في السابع من نيسان سنة ٥٢٩ . وفي الخامس عشر من كانون الاول سنة ٥٣٠ عنيت لجنة ثانية باستخلاص قوانين الاحوال الشخصية Pandectae وكان ألمع اعضاء هذه اللجنة واكثرهم نشاطاً الاستاذ البيروتي اذوكسيوس . فتمّ العمل في ١٥ كانون الاول سنة ٥٣٣ وظهر الديجسته Digesta الى حيز الوجود . ووضعت هذه اللجنة كتاب الانظمة Institutes لتسهيل درس الحقوق فظهر في الحادي والعشرين من تشرين الثاني من السنة نفسها ٥٣٣ . وفي السنة ٥٣٤ ظهرت مجموعة القوانين بحلة جديدة وهي المجموعة التي لا يزال يتداولها رجال القانون حتى يومنا هذا . فأما مجموعة السنة ٥٢٩ فلم يبقَ منها اي اثر[١] .

يوستنيانوس والكنيسة : وكان يوستنيانوس يرى ان واجبه يقضي بالمحافظة على حرمة الكنيسة والدفاع عنها ضد المعتدين . وكان يقول ان انتظام الكنيسة هو دعامـــة الملك . وكان يرى في نفسه رئيساً للدولة والكنيسة في آن واحد فيتدخل في المناظرات والمشاحنات اللاهوتية ويبدي رأيه فيها ويقطع الاساقفة ويعين غيرهم في مناصبهم ويدعو الى المجامع ويدير اعمالها ويوافق على قراراتها او يعدلها او يلغيها . ومن هنا هذه الفصول

١ واهم اخبار هذه المؤلفات ورد في مقدماتها فلتراجع في علاتها . راجع ايضاً :
Roby, H. J., Roman Law, Cam. Med. Hist., II, 53-108; Vasiliev, A. A., Byz Empire, 142-147; Justinian's Digest, Studi Bizantini e Neoellenici, 1939, 711-734.

في مجموعة قوانينه الكبرى وفي قوانينه المستجدة في نظام الاكليروس وفي ادارة الاديرة والاوقاف وغير ذلك مما كان يلحق بشؤون الكنيسة .

وكان يوستنيانوس في مقابل هذا ابداً مستعداً للدفاع عن الكنيسة ورفع الضيم والاذى عنها تأييداً لها بالمال والنفوذ كيما تقضي على الهرطقة في صفوفها . وكان ايضاً يبذل بسخاء لتشييد الكنائس والاديرة والمقامات في طول الامبراطورية وعرضها .

وكان يوستنيانوس ارثوذكسي العقيدة كما سبق ان اشرنا فأصدر في السنة ٥٢٧ وفي السنة ٥٢٨ قوانين صارمة ضد الهرطقة . فأبعد الهراطقة عن الوظائف والمهن الحرة ومنع اجتماعاتهم واغلق كنائسهم . ثم حرمهم حقوقهم المدنية قائلاً : يكفي هؤلاء ان يؤذن لهم بالعيش. واضطهد الوثنيين وحملهم على التنصر جماعات جماعات . ورأى ضرورياً ان يقضي على عقائدهم وفلسفاتهم فأمر في السنة ٥٢٩ باقفال جامعة آثينة . ودمّر هياكل ايسيس وعمّون في مصر . ولم يكن اقل شدة في موقفه من اليهود . فنشبت ثورة السامرة في السنة ٥٢٩ وجرّت عليهم ضيقاً وخوفاً فوق ما كانوا يكابدون . ولم ينج من الاضطهاد سوى اصحاب الطبيعة الواحدة لانهم كانوا اقوى الهراطقة واكثرهم عدداً . فرهبانهم في مصر كانوا يؤلفون جيشاً متراصاً مستعداً لتنفيذ اوامر بطريركهم واعيانهم . وكانوا في سورية وفلسطين ولبنان والرها وارمينية لا يزالون يتربعون في اعلى المراكز ويتمتعون بعطف وتأييد في قلب العاصمة نفسها .

وكان يوستنيانوس شديد الايمان بكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . فما ان تبوأ خاله عرش الامبراطورية حتى عمد الى ازالة الانشقاق بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة رومة . على انه لبث يواجه مشكلة اخرى . ذلك ان ولاياته الشرقية كانت تشتمل على عدد كبير من القائلين بالطبيعة الواحدة . فوجد نفسه بين شرّين : شرّ الابتعاد عن رومة وعن الكنيسة

الارثوذكسية ، وشرّ انفصال الولايات الشرقية عنه او شرّ القلاقل فيها واستعداد اهلها لمناوأته في كل فرصة تنتهز . فأحب بملء الاخلاص ان يضع حلاً وسطاً يرضي به اصحاب الطبيعة الواحدة ولا يحيد به عن ارثوذكسيته. وهكذا نراه في السنة ٥٢٩ يلغي قرار النفي عن بعض الرهبان من اصحاب الطبيعة الواحدة . ونراه يستقدم الى القسطنطينية سويروس بطريرك انطاكية المقطوع عن وظيفته ليتداول معه في طريقة الوصول الى حلٍ وسط . ونراه كذلك يطلق لاصحاب الطبيعة الواحدة حرية الوعظ والارشاد . ولما توفي ابيفانيوس بطريرك القسطنطينية في السنة ٥٣٥ اقنعت ثيودورة زوجها الامبراطور باقامة انثيميوس متروبوليت طرابزون وصديق سويروس بطريركاً في العاصمة . وكان انثيميوس يقول بالطبيعة الواحدة سراً . ولكن ما لبث ان قدم العاصمة البابا اغابيتوس في السنة ٥٣٦ فعلم بما في الزوايا من خبايا . فدعا اساقفة القسطنطينية ومقدمي الكهنة فيها الى مجمع محلي برئاسته قطع فيه انثيميوس ومن شاركه رأيه. ثم انتخب الاكليروس والامبراطور والشعب ميناس بطريركاً على القسطنطينية . وفي هذه الآونة وصل الى العاصمة رهبان من فلسطين وسورية ولبنان ليشكوا سويروس وغيره من اصحاب الطبيعة الواحدة . ورفعوا بذلك لوائح الى يوستنيانوس والبابا . على ان البابا اغابيتوس سرعان ما توفي في القسطنطينية . ومع ذلك فقد انعقد مجمع برئاسة البطريرك ميناس وعضوية اساقفة القسطنطينية والاساقفة الذين كانوا صحبة البابا اغابيتوس ووكلاء البطاركة الشرقيين المقيمين في العاصمة وشجبوا الهرطقة شجباً .

وبعد وفاة البابا اغابيتوس انبرى في رومة ايبوذياكون اسمه سيلباريوس، وطمع في منصب البابوية فرشا الملك ثاواذاتوس . فأكره ثاواذاتوس المجمع على قبول سيلباريوس مهدداً كل معارض بالقتل. وكتبت ثيودورة الى هذا

البابا ان يساعد انثيميوس على ميناس فرفض . فاتفقت ثيودورة مع فيجيليوس Vigilius وكيل البابا في القسطنطينية ووعدته بالكرسي البابوي وزودته بتحارير الى بليساريوس القائد شرط ان يطعن فيجيليوس بالمجمع الرابع ويساعد سويروس وانثيميوس على ميناس . فقبل ذلك وسافر الى رومة . فخلع بليساريوس المنتبة والاوموفوريون عن البابا سيلباريوس وألبسه ثوب الرهبنة ونفاه . واقام فيجيليوس محله بابا على رومة . فثبّت فيجيليوس المعتقد بالطبيعة الواحدة وفنّد قرارات مجمع خلقيدونية ورسالة لاوون الكبير وحرم كل من يقول ان في المسيح المخلص طبيعتين وكل من يقول انه صلب من حيث هو انسان ولا يعترف ان ابن الله هو نفسه الذي صلب . ثم ندم فيجيليوس على ما قال وفعل . فأخذت ثيودورة ترتقب فرصة تستدرجه فيها الى القسطنطينية لتنتقم منه . فتمّ لها ذلك في السنة ٥٤٧ بمناسبة البحث في الفصول الثلاثة[١] .

الفصول الثلاثة : وكان لا يزال اوريجانيوس الاسكندري ومؤلفاته موضوع جدل ونزاع بين علماء الكنيسة واساقفتها ، فريق منهم يحترمه لعلمه واجتهاده وطهارته وفريق آخر يكرهه لان بعض آرائه كانت قد اصبحت حجة لمن قال بالطبيعة الواحدة. وبرغم ان احد المجامع كان قد اصدر حكماً على اوريجانيوس ومؤلفاته ، فان عدداً كبيراً كان لا يزال يحترمه فيدعي ان الهراطقة عبثوا بمؤلفاته ليستندوا عليها . ولكن في السنة ٥٣٩ أصدر افرام بطريرك انطاكية حكماً جديداً بتحريم اوريجانيوس ومؤلفاته . فطلب بعض رهبان فلسطين الى بطرس بطريرك اوروشليم قطع البطريرك افرام . فلم يعرهم سمعاً . الا انه ارسل وفداً الى القسطنطينية يبين واقع

١ Diehl, Ch., Justinian's Govt. in The East, Cam. Med. Hist., II, 45-46.
جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٢٨٨ – ٢٩٣ .

الحال ويرجو اتخاذ موقف واضح من اوريجانيوس ومؤلفاته . فكان من بطريرك القسطنطينية ميناس ان عقد مجمعاً محلياً بموافقة الامبراطور حكم فيه على اوريجانيوس وتعاليمه . واتفق ان كان في البلاط ثيوذوروس اسكيضاس اسقف قيصرية . وكان هذا يحترم اوريجانيوس وتعاليمه ويقول بالطبيعة الواحدة ويتقرب الى ثيودورة . ومثله كان دوميتيانوس كاتم اسرار الامبراطور . فتقدم الثلاثة ثيودورة وثيوذوروس ودوميتيانوس من يوستنيانوس واقنعوه بان انضمام اصحاب الطبيعة الواحدة الى الكنيسة يسهل جداً متى حرمت الفصول الثلاثة . وهذه الفصول هي مؤلفات ثيوذوروس الموبسوستي ورسائل ثيودوريطس ضد كيرلس والرسالة المنسوبة الى الاسقف إيبا . ورأى هؤلاء في ذلك كله وسيلة لتجريح قرارات المجمع المسكوني الرابع ولارضاء اتباع اوريجانيوس بالحكم على من كتب ضده ولاغضاب الارثوذكسيين . فوافق يوستنيانوس وأصدر في السنة ٥٤٤ تحريماً للفصول الثلاثة وطلب الى الاساقفة ان يوافقوه عليه ، وهدد المعارضين بالعزل . فلم يخضع اساقفة الغرب لامر الامبراطور وجاراهم في ذلك البابا فيجيليوس . وكتب اسقف قرطاجة الى الامبراطور انه لا يجوز ايقاع الحرم بشخص بعد موته . فاستدعى يوستنيانوس البابا فيجيليوس الى القسطنطينية . فحضر اليها وانتهى بالنزول عند ارادة الامبراطور فأنشأ رسالته المعروفة بالجوديكاتوم Judicatum وفيها شجب الفصول الثلاثة . ولكن اساقفته انتقضوا عليه وعينوا له وقتاً للندامة . فلبث فيجيليوس في القسطنطينية ورجع عن قوله في الجوديكاتوم . ثم أصدر يوستنيانوس امراً ثانياً بشجب الفصول الثلاثة وطلب الموافقة عليه مرة اخرى . فأبى البابا فيجيليوس ودخل كنيسة واحتمى بها وربط نفسه بعمود المائدة . فسحبه

الجنود بالقوة فانسحب العمود معه وسقطت المائدة[١] . ومما يجدر ذكره ان الاصل في تسمية الفصول الثلاثة بهذا الاسم هو ان الامر الذي أصدره الامبراطور بالشجب حوى فقرات ثلاثاً تتعلق بمؤلفات ثيودوروس وثيودوريطس وإيبا . ثم تنومي ذلك فأصبحت الفصول الثلاثة تدل على اشخاص ثيودوروس وثيودوريطس وإيبا انفسهم .

المجمع المسكوني الخامس في القسطنطينية : ولكي يضع الفسيلفس حداً لهذا النزاع الجديد دعا الى مجمع مسكوني ينعقد في السنة ٥٥٣ في القسطنطينية . وقد اشترك في اعمال هذا المجمع مئة وخمسة وستون اسقفاً، بينهم افتيشيوس بطريرك القسطنطينية وابوليناريوس بطريرك الاسكندرية وذمنوس بطريرك انطاكية ونائبان عن بطريرك اوروشليم . وكان البابا فيجيليوس لا يزال في القسطنطينية مع عدد من اساقفة الغرب . فدعي للاشتراك في المجمع وترؤس الجلسات ولكنه امتنع . فترأس المجمع بطريرك القسطنطينية وأقر جميع قرارات المجامع المسكونية السابقة ثم دقق في الفصول الثلاثة فحكم برفضها ورفض كل من يدافع عنها ad defensionem eorum[٢] . وفي جلسته الثامنة والاخيرة وجه المجمع لوماً شديداً لبابا رومة لانه امتنع عن الاشتراك في جلساته . واعتبر يوستنيانوس قرارات هذا المجمع ملزمة واكره الاساقفة على قبولها ونفى من عارضها . وفي طليعة هؤلاء البابا فيجيليوس فقد أكره على الاقامة في احدى جزر مرمرا . ثم وافق فيجيليوس على قرار المجمع فأذن له بالعودة الى رومة . ولكنه توفي في سرقوصة قبل ان يصل . وأصر اساقفة الغرب على موقفهم المؤيد للفصول

١ في موقف الاساقفة الغربيين راجع :
Fulgentii Ferrandi Epistola, VI,7; Patrologia Latina LXVII, 926.

٢ *Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, IX, 376.*

الثلاثة وامتنعوا عن الخضوع لقرار المجمع الخامس. وظلوا متمسكين بذلك حتى عهد البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤). فانه اعلن في احدى رسائله ان ليس في قرارات المجمع الخامس مما يتعلق بالفصول الثلاثة اي تغيير في الدين او خروج عنه[١].

ولكن رغم هذا كله اصرّ اصحاب الطبيعة الواحدة على متابعة الانفصال. غير ان يوستنيانوس لم يكن يتغير عليهم حتى يعود الى التقرب منهم والعطف عليهم الى ان ادركته المنية في السنة ٥٦٨. واذا كان يوستنيانوس قد اخفق آخر الامر في تحقيق وحدة الكنيسة فمن الواجب ان يُعترف له باهتمامه البالغ لنشر النصرانية وراءَ حدود الامبراطورية. فقد نصّر قبائل الهرولي على الدانوب وقبائل القوقاس وافريقية الشمالية والنيل الاوسط[٢].

سياسة يوستنيانوس الخارجية: وأحب يوستنيانوس منذ بدء عهده ان يعيد الى الدولة الرومانية مجدها الغابر وان يحقق فعلاً ما كان له من سيادة اسمية على ايطالية وافريقية واسبانية وفرنسة ولو أدى به ذلك الى الحرب والفتح. ولكن لم يتسن له شيء من ذلك قبل منتصف السنة ٥٣٣ لاشتغاله بجارته الكبيرة فارس الساسانية.

الحرب الفارسية الاولى: (٥٢٧ – ٥٣٢) وناهز قباذ الثمانين وأحب ان يضمن الملك من بعده لابنه الاصغر كسرى انو شروان، ففاوض يوستينوس في ذلك وطلب اليه ان يتبنّى كسرى وان يدافع عن حقه في الملك. ونظر يوستينوس في الامر وشاور فيه رجاله ثم أجاب قباذ انه مستعد للقيام بتلك المهمة شرط ان يكون التبني على الطريقة العشائرية

١ *Epistolae Gregorii Magni, II, 36.*

٢ *Maspero, Patriarches d'Alexandrie, 135.*
وفي هذا المؤلف بحث جيل في مشكلة الطبيعة الواحدة في عهد يوستنيانوس.

الالمانية . ولا نعلم بالضبط شروط هذا النوع من التبني . ولكن يلوح لنا انه كان أيسر مما اراده قباذ . وكان الوفد الفارسي في الوقت نفسه يفاوض للوصول الى تفاهم بين الدولتين حول قضية لازيقة « لازستان » . فلما عاد الوفد الى عاصمة فارس وأطلع قباذ على اقتراح زميله يوستينوس حقد قباذ وأضمر السوء . وكان يفتش عن ظرف يستعين به للظهور بمظهر المدافع عن الدين الفارسي القديم ، فأمر جرجان ملك إيبيرية في القوقاس ان يمتنع هو وشعبه المسيحي عن دفن الموتى وان يتبعوا في ذلك الطريقة الفارسية القديمة فيعرضوا الجثث لطيور السماء . ولكن جرجان ابى واستنصر يوستينوس فنصره . وهكذا دخلت الدولتان دولة الروم ودولة الفرس في حالة حرب منذ السنة ٥٢٧[١] .

وصمد بليساريوس قائد الروم في وجه الفرس عند دارا في السنة ٥٣٠ . وفي السنة ٥٣١ اقبل المنذر اللخمي من الحيرة وأغار على خلقيس (قِنّسرين) ثم سار الى انطاكية وعاث في ضواحيها وغنم مالاً وافراً واسر كثيرين وعاد الى الفرات . ثم عاود الكرة والفرس من ورائه واغار على اليهود . فهب بليساريوس لصده وانتصر عليه وعلى اسياده عند الفرات في كلينيكوم Callinicum فردهم بذلك عن غزو سورية الشمالية . وتوفي قباذ في السنة ٥٣٢ . فعرض خلفه كسرى أنو شروان صلحاً دائماً قبله يوستنيانوس دونما تردد بالنظر لما كان يفكر فيه من انصراف الى العمل في الغرب لاعادة وحدة الامبراطورية . وقبل ان يتجه نحو الغرب انشأ حلفين شرقيين : حلفاً مع امراء القوقاس في الشمال والآخر مع نجاشي الحبشة في الجنوب ليأمن بهما شر حرب ثانية مع الفرس[٢] .

١ *Christensen, A., l'Iran sous les Sassanides, 355, 356-357.*

٢ *Diehl, Ch., Justinien et la Civ. Byz., 381-385, 394-398.*

وعني يوستنيانوس في هذه الآونة نفسها بتوطيد علاقاته مع القبائل العربية الضاربة في بادية الشام ليوازن بنفوذها نفوذ شقيقاتها في بادية العراق وهنَّ عمّال كسرى . وكان بنو غسّان قد وفدوا الى سهول حوران من اليمن او ما يليها في فترة من الفترات التي تصدع فيها سد مأرب ، وحلوا بين عشائر قضاعة وسُليح . ثم سيطروا عليها وجمعوها في كيان سياسي . فاستعان بهم الروم في القرن الخامس لمراقبة غيرهم من القبائل العربية التي كانت تجوب اطراف الجزيرة المتاخمة لبادية الشام واستعملوهم لصد هذه القبائل اذا هي حاولت الانصباب على اراضي الامبراطورية . ووجد الروم في الغساسنة ايضاً خير معوان لهم على عرب الحيرة انصار فارس وبلغ الغساسنة الاوج في اوائل القرن السادس فانضوى تحت لوائهم جميع شيوخ العشائر العربية من لبنان شمالاً حتى الحجاز جنوباً . ورأى يوستنيانوس ان يزيدهم هيبة فرفع اميرهم الحارث بن جبلة الى رتبة فيلارخوس وبطريق ، وبذلك جعله يوازن في اللقب امراء الحيرة عمّال فارس[١] .

الحرب في افريقية وايطالية : (٥٣٣ - ٥٤٠) وثار غلمار على هيلدريخوس الوندالي في شمالي افريقية . وكان غلمار آريوسياً . فاستغل يوستنيانوس المناسبة وتدخل باسم الدين القويم ، كما كان قد استغل اقدام ثيوداتيوس على خنق ابنة عمه وربيبة ثيودوريخوس في ايطالية .

وفي حزيران من السنة ٥٣٣ اقلع بليساريوس القائد على رأس قوة مؤلفة من خمسة عشر الف رجل ومن اثنتين وتسعين ذرومونة الى جوار قرطاجة فوصلها في ايلول من السنة نفسها وتغلب في غير مشقة على غلمار

١ *Diehl, Ch., op. cit., 387-396 ; Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 91-92.*
راجع ايضاً كتاب الامويين والبزنطيين للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٨-١٢ .

ودخل قرطاجة منتصراً فصادف فيها استقبالاً حاراً . وعيّن يوستنيانوس احد القادة ، سليان ، حاكماً على افريقية الشمالية وأشار على بليساريوس بالانتقال حالاً الى صقلية فايطالية . ولكن سليان لاقى مقاومة شديدة من البربر الذين لم يسبق لهم ان خضعوا للوندال . فاضطر بليساريوس ان يعود الى قرطاجة لينتصر على هؤلاء . ولم تهدأ الاحوال في افريقية الشمالية قبل السنة ٥٣٩ . وجعل يوستنيانوس من افريقية برايفتورة جديدة وانشأ في وجه البربر ليموساً جديداً .

وتمّ الاستيلاء على ايطالية بالسياسة والحرب معاً . فبعد ان استمال يوستنيانوس بعض العشائر القوطية انفذ الى ايطالية حملتين احداهما عن طريق ايليرية بقيادة مندوس والاخرى الى صقلية فايطالية بقيادة بليساريوس نفسه . وأجلى بليساريوس القوط عن صقلية في يسر وسهولة ، ثم اجتاز مضيق مسينة في ربيع السنة ٥٣٦ فحاصر نابولي عشرين يوماً واخذها عنوة . وفرّ منها ثيوداتيوس والتجأ الى رومة فاغتاله احد رجاله . ثم انتخب القوط ملكاً عليهم جندياً نكرة لم يقوَ على صد بليساريوس عن رومة . ودخل الروم رومة في العاشر من كانون الاول سنة ٥٣٦ فأحاط بهم القوط وحصروهم فيها سنة كاملة ثم ارتدوا عنها . فخرج بليساريوس الى شمالي ايطالية وتابع فيها الحرب. ولكن مناظرة نرسه الخصي له عوقت سير الحرب اشهراً . ولم يدخل بليساريوس رابينة قبل ايار السنة ٥٤٠ . وأعاد الامبراطور برايفتورة ايطالية واتخذ لنفسه لقب قاهر القوط Gothicus .

الحرب الفارسية الثانية : (٥٤٠ - ٥٦٢) وأقضت هذه الانتصارات مضجع كسرى انوشروان وجاءه رسل القوط يحثونه على القتال[١]. فجهز جيشاً كثيفاً وأغار فجأة على سورية واحتل ثغورها على الفرات وأباح

١ *Procopius, Bellum Gothicum, I, 1 - 4.*

لعساكره النهب والسبي ففعلوا . ثم تقدم نحو منبج Hierapolis فاشترى اهلها الامان بالفي دينار فضة . ونهض كسرى الى انطاكية . وكان جرمانوس احد انسباء يوستنيانوس قد رابط فيها بثلاث مئة جندي واقام ينتظر وصول بقية الجيش الامبراطوري . وكان منذ ان دخلها قد باشر تحصينها وترميم اسوارها وقلاعها . وكان موقع انطاكية عند العاصي ، بما يحيط بها من صخور وحواجز طبيعية اخرى فضلاً عن الحصون الصناعية، معقلاً منيعاً . ولم يكن في جهاز الدفاع عنها الا ثغرة واحدة عرفها جرمانوس واراد تلافيها ، غير ان الضباط الذين كانوا حوله اشتد بهم الخوف لدى وصول كسرى فهربوا الى قيليقية . وهبّ الاهلون لجمع المال يشترون به الامان من العدو ، ولكن وفداً امبراطورياً وصل الى المدينة وقال : لا يليق بالحاضرة الثانية في الامبراطورية ان تشتري اماناً من غزاتها. فعزمت المدينة على المقاومة. فضرب كسرى عليها الحصار، ولم يلبث ان اهتدى الى الثغرة في السور فدخل منها . فدافع الانطاكيون ما وسعهم الامر ثم فرّوا الى دفنة يحتمون بها . فسيطر كسرى على انطاكية واباحها للنهب والحريق . ثم انحدر الى سلوقية وذبح عند شاطئها ضحية للشمس . ومنها سار الى افامية فدخلها وسلب كنيستها ونهب الدور والمباني . وكان الوفد الامبراطوري قد فاوضه بالكف عن القتال لقاء قدر من المال يدفع اليه في كل سنة . فقبل كسرى وارتد عبر الفرات بالوف الاسرى الى عاصمته طيسفون . وبنى لاولئك الاسرى مدينة خاصة سماها انطاكية كسرى[١] .

وفي السنة ٥٤١ هجم كسرى على لازيقة (لازستان) وايبيرية في القوقاس . وفي السنة ٥٤٢ دخل قوموجينية وأخرب وأحرق وسبى .

١ *Procopius, Bell. Persicum, II, 8-11 ; Diehl, Ch., op. cit., 213-215.*

وظهر في السنة التالية على حدود ارمينية البيزنطية ، ثم عاد في السنة ٥٤٤ الى حدود الفرات وحاصر اورفة حصاراً شديداً . وكان قادة الروم مشغولين عنه بمشاغل داخلية شخصية . فغضبت ثيودورة على بليساريوس وخذلته . الا ان يوستنيانوس انفذ في السنة ٥٤٣ ثلاثين الفاً الى ارمينية الفارسية . غير ان حملته ردت ومنيت بالفشل . وما لبث الطرفان المتحاربان ان شعرا بصعوبة القتال في القوقاس نظراً لطبيعة البلاد الجبلية ووعورة مسالكها وكثرة احراجها . فتهادنا في السنة ٥٤٤ وجددا الهدنة مرتين ثم جعلاها معاهدة دائمة في السنة ٥٦١ . وقضت شروط هذه المعاهدة ان يفصل السلم بين الطرفين خمسين سنة على ان تجلو قوات الفرس عن اللازستان ويدفع يوستنيانوس الى كسرى ثلاثين الف اوري في السنة ويمتنع عن التبشير بالنصرانية في الاراضي الفارسية ، وفي مقابل ذلك يحترم كسرى حقوق النصارى من رعاياه فيرفع عنهم الاضطهاد[1].

توتيلة : وعاد القوط الى المقاومة في ايطالية وبايعوا توتيلة احد زعمائهم . ووافق ذلك ان دبّ الشقاق الى صفوف زعماء الروم في ايطالية . فانطلق توتيلة برجاله من الشمال بالغاً الى اقصى الجنوب . واحتل في السنة ٥٤٣ نابولي . فهرع بليساريوس لقتاله ولكنه لم يتمكن من صده لقلة العُدد والعَدد . وهكذا دخل توتيلة رومة في السابع عشر من كانون الاول سنة ٥٤٦ . ثم انشأ اسطولاً وغزا صقلية فاستولى عليها في السنة ٥٤٩ - ٥٥٠ . فثارت ثائرة يوستنيانوس فجهز قوة كبيرة وأمّر عليها نرسيس ودفع بها الى ايطالية عن طريق الشمال . فتمكن نرسيس في السنة ٥٥٢ من القضاء على توتيلة في موقعة بوستة في اومبرية[2] Busta Gallarum.

[1] *Guterbock, Byzanz und Persien, 57.*

[2] *Burg, J. B., Later Rom. Emp., II, 261-269.*

الدانوب : والمشاكل التي عاناها يوستنيانوس في الغرب والشرق معاً قضت عليه بسحب جنوده من ضفة الدانوب واستعمالهم في جبهات اخرى واضطرته الى الاستعاضة عنهم بسلسلة كبيرة من الحصون والقلاع . فأنشأ ورمم وحصّن اكثر من اربع مئة مدينة في البلقان . ثم تذرع بسياسة « فرّق تسد » فحالف اللومبارديين ضد الغبيد Gepides في المجر وصادق الهون الاوتيغور Outigours في شرقي ازوف ضد الهـون الكوتريغور Koutrigours بين الدون والدنيستر واستعان بالافار Avars ضد عشائر الدانوب . ولكن هذا كله لم يمنع البوابرة من التسرب خلال حصون البلقان نظراً لصغر الحاميات . فكان في السنة ٥٣٩ — ٥٤٠ ان انتشر مئات من الصقالبة والبلغار والهون في قرى عديدة من الادرياتيك حتى القسطنطينية ينهبون ويخربون ويحرقون ويذبحون . وفي السنة ٥٥٨ تحرك سبعة آلاف كوتريغور من الدانوب فاتجهوا جنوباً وعبروا سور انسطاسيوس والقوا الرعب في اوساط القسطنطينية نفسها . وظل ذلك دأبهم حتى جمع بليساريوس بضع مئات من الابطال المجربين من سكان العاصمة وانقض بهم على العدو فولوا الادبار .

الفرات وسائر الحدود الشرقية : ولم يحصر يوستنيانوس اعماله التحصينية في منطقة البلقان . فأنه انشأ في افريقية كما سبق أن اشرنا ليموساً جديداً . وانفق اموالاً طائلة للغاية نفسها في آسية الصغرى وسورية وشرق الاردن .

وكانت حدود الامبراطورية في الشرق تنبسط من البحر الاسود حتى البحر الاحمر فتؤلف خطاً طوله الفا كيلومتر . ولم يسبق لرومة في الشرق ان شيّدت في عصر من عصورها ليموساً متصلاً على نحو ما فعلت في الشمال بين الرين والدانوب او في الجنوب في افريقيا الشمالية . ذلك بأن جبال آسية الصغرى الشرقية وبادية الشام شكلت حاجزاً طبيعياً

موافقاً يمكن الانتفاع به في الحرب والدفاع . ومن هنا اكتفت رومة في هذه المناطق بانشاء قلاع موزعة في مواقع معينة تحمي بها الطرق الرئيسية والجسور والممرات الطبيعية وما الى ذلك ، فأصبح حدها الشرقي « منطقة مراقبة » على حد تعبير ليون هومو اكثر منه ليموساً او اطاراً مانعاً[١] .

وكانت هذه المنطقة ذات الحصون تبدأ عند طرابزون فتتجه جنوباً حتى مجرى الفرات الاعلى فمصب الخابور فحدود البادية حتى العقبة . وكان خط الدفاع الممتد نحواً من ثمانمائة كيلومتر بين قرقيسية Circesium عند مصب الخابور وبين العقبة يتألف من طريق معبدة موازية للحدود محمية الجانبين ولا سيا عند مفارق الطرق بعدد كبير من الابراج . وكانت تدمر ودمشق والبتراء تدخل بقلاعها وحصونها والطرق الموصلة اليها في هـــذا الخط من الدفاع . وتدل اعمال التنقيب التي أجريت في شرق الاردن بعد الحرب العالميـــة الاولى ان الطريق العسكري الروماني الذي كان يمر بشرق الاردن كان يصل بصرى بمادبا والبتراء فالعقبة ، وان رومة قـــد اقامت على جانبي هذا الطريق ابراجاً محصنة يبعد الواحد منها عن الآخر ثلاثين كيلومتراً ، وانها انشأت قـــلاعاً لحماية موارد المياه الى شرقي هذا الطريق في القسطل واللجون وغيرهما[٢] .

وجاءَ يوستنيانوس يؤمّن « سلماً وطمأنينة » لشعبه و « يزيل كل مـــا كان يشجع البرابرة على الغزو والنهب » فاهتم بحصون ارضروم وكيثاريزون ومرتيروبوليس وآمـــد وقسطنطينة ودارا . وكانت دارا هذه تقع بين نصيبين وماردين وتدعى « حصن الامبراطورية الرومـــانية » . واظهر يوستنيانوس اهتماماً مماثلاً بخط من الحصون جاءَ وراء هذه الحصون الامامية :

١ Home, L., *Emp. Romain*, 203 .

٢ Abel, F. M. , *Hist. de la Palestine*, II, 55-57 .

ستالة وكولونية ونيكوبوليس وسبسطية وملاطية Miletene ثم اورفة وحرّان وكلينيكوم ثم سورية على الفرات وهيرابوليس (منبج) وزقمة فانطاكية[1].

يوستنيانوس في دوره الاخير : وليس يختلف اثنان فيما نعلم ان مشاريع يوستنيانوس العظيمة لم تتناسب وطاقته المالية . فالعظمة والبذخ واسترضاء زعماء البرابرة وحروب الفتح والانشاء والتعمير في طول البلاد وعرضها كلها تتطلّب انفاقاً كبيراً لم يكن آنئذٍ بوسع الدولة . وكان انستاسيوس قد خلّف وفراً قدره ٣٢٠,٠٠٠ ليرة ذهباً او ما تعادل قيمته اربعة عشر مليوناً من الليرات الاسترلينية . فأنفقه يوستنيانوس في بضع سنوات وبات يشكو قلة النقد . وقلة نقده أطالت حروبه وزعزعت معنويات جيشه واوقفت اصلاحه الاداري او عرقلته ثم أدت الى زيادة الضرائب واثقال كاهل الاهلين بها .

وفي السنة ٥٤٨ توفيت ثيودورة بداء السرطان ففقد يوستنيانوس بوفاتها مستشارة نشيطة امينة . فانكشفت نقائصه واهمها التردد والهوس باللاهوت فأهمل واجباته الادارية وكرّس معظم لياليه للجدل الديني . فصح فيه قول كوريبوس « انه بات لا يبالي شيئاً وان روحه كانت كالتي انتقلت الى السماء . »

وتضاءل جيشه فتناقص من ٦٤٥,٠٠٠ مقاتل الى ١٥٠,٠٠٠ وخلت حصونه من الرجال حتى قـال اغاثيوس : انها اصبحت خالية خاوية لا يسمع فيها نباح كلب واحد . وباتت العاصمة نفسها مهددة بالخطر لان سور انستـاسيوس كان قد تثلم في الف موضع وموضع ولأن الحرس الامبراطوري كان قد قلّ وضعف ولان الفسيلفس كان لجأ الى البلص والمصادرة للحصول على المال المطلوب . وعاد الخضر والزرق الى المناظرة

١ Diehl, Ch , Just. Govt. in the East, Cam. Med. Hist., II, 32 - 34.

والمشاحنة والمخاصمة ونزلوا بذلك كله الى شوارع العاصمة فهاجوا وماجوا مراراً ما بين السنة ٥٥٣ و ٥٦٤ . وادى تردد يوستنيانوس في تعيين ولي عهده الى التخاصم والتآمر ولاسيّما بين انسبائه .

ولكن ليس من العدل في شيء ان نحكم على عهد يوستنيانوس كانّه حكماً مبنياً على ما آلت اليه الامور في آخر سنواته . فالواقع الذي لا مندوحة عن الاعتراف به ان اهداف الرجل كانت نبيلة ، وان سعيه لاعادة الامبراطورية الى ما كانت عليه من الاتساع والمجد كان عظيماً في حد ذاته لائقاً بالامبراطور ، وان محاولته لتوحيد الكلمة في الكنيسة كانت في مصلحة الدولة والكنيسة معاً ، وان انشاآته العسكرية على حدود الدولة كانت في مصلحة الشعب ، وان اهتمامه بالادارة والقضاء والتشريع انما نجم عن رغبة اكيدة في ضمان الامن ونشر لواء العدل . ولئن كان ثمن هذا كله باهظــاً فالعمل في حد ذاته كان كبيراً . وهل أكبر من مجموعة القوانين وكنيسة الحكمة الالهية !

الفصل الثاني عشر

خلفاء يوستنيانوس

(٥٦٥ – ٦٠٢)

يوستينوس الثاني: (٥٦٥ – ٥٧٨) ولم يخلّف يوستنيانوس عقباً، ولم يشرك احداً معه في الارجوان. ولكنه كان يثق بابن اخته يوستينوس ويستشيره في امور الدولة. ولمس اعضاء مجلس الشيوخ هذه الثقة وأحبوا يوستينوس فعولوا على انتخابه فور وفاة الامبراطور الشيخ. وقد أدرك يوستنيانوس الثالثة والثمانين ومرض مرضه الاخير ولم يفه بكلمة واحدة تنبىء عمن يريده خلفاً له في الحكم. وكاد يلفظ انفاسه في ليلة من ليالي الخريف، فجلس يوستينوس وزوجته صوفية في احدى نوافذ قصرهما التي تطل على البوسفور وباتا ينتظران. وعند الفجر أبلغهما الرسول وفاة الامبراطور ورجاءَ مجلس الشيوخ ان يتوليا العرش. وقضت التقاليد بان يرفض يوستينوس الرجاء ففعل. ثم قبل وذهب تواً الى القصر (١٤ تشرين الثاني سنة ٥٦٥) وخرج منه متردّياً الارجوان الملكي، متزيناً بالجواهر التي اقتنصها بليساريوس من القوط، فرفعه الجند حسب التقليد على الترس معلنين بذلك موافقتهم على ارتقائه العرش. ثم أيدته الكنيسة الارثوذكسية فباركه البطريرك ووضع التاج على رأسه. وكان لا يزال جثمان يوستنيانوس مسجى في قصره محنطاً، فنقل الى كنيسة الرسل بجنازة

مهيبة مشى فيها المصلون من رجال الاكليروس والعذارى رافعين الشموع . وهناك دفن الجثمان في قبرٍ مذهب . وما ان تم الدفن حتى أزيح ستار الحزن وارتفعت الاصوات مهللة بارتقاء الفسيلفس الجديد .

وكان يوستينوس الثاني نشيطاً مجتهداً شجاعاً جريئاً . فانه منذ ان تبوأ العرش أظهر من العزم والأنفة في علاقاته مع البرابرة ما يليق بمقامه الجليل . فامتنع عن ان يؤدي لهم المنح السنوية ، وكانت قد بلغت في اواخر عهد خاله يوستنيانوس ثلاث مئة الف ليرة ذهباً ، وأعاد العناية بالجيش واهتم بالمالية وحاول محاولة صادقة في ازالة الهم والعناء عن جميع الرعايا . وأعلن انه « سيحيي الليل بطوله للمحافظة على مصالح الدولة ولاصلاح كل ما ينبغي اصلاحه ، كما أعلن ان همه الوحيد هو ان يقدم للولايات افضل الشرائع كي يضمن لاهلها الامن والعدل[١] . » ولكن الحوادث تتالت قوية عنيفة فجاءَت بما لم يشتهِ وكعمته كعماً . وكان يوستينوس ، على مزاياه ، شامخاً متغطرساً تعوزه الحيلة فلم يتسنّ له الوصول الى رغائبه . وفي اواخر السنة ٥٧٣ أصيب في عقله اصابة ظاهرة ، فتصدت زوجته صوفية للقيام باعباء الحكم مستعينة بقومس الحرس طيباريوس الامين . ثم ان يوستينوس تبنى طيباريوس . وفي السابع من كانون الاول سنة ٥٧٤ اعلنه قيصراً . فصرّف طيباريوس الامور باسم سيده اربع سنوات متتاليات الى ان قضى يوستينوس فانفرد بالحكم .

طيباريوس الثاني : (٥٧٨ – ٥٨٢) ورغب طيباريوس رغبة اكيدة في تخفيف الضرائب فتعلق الشعب به واحبه كثيراً . وكان يوم وفاته يوم حزن وحداد في جميع انحاء الامبراطورية ، فرثاه كثيرون ، وقال

١ *Stein, Studien zur Gesch. des Byzant. Reiches, 3-4; Lingenthal, Z., Jus Graeco - Romanum, III, 3. Nov. 149.*

فيه يوحنا النيقاوي : « ان البشرية ، فيما يظهر ، لا تستحق اميراً طيباً كهذا الامير . » ولكن طيباريوس لم يبلغ الى هذه المرتبة من تقدير الشعب له وتعلقه به الا على حساب مالية الدولة . ففي وقت قصير جداً بدد ما كان قد جمعه سلفه بحكمته وتقتيره . وحسبنا شاهداً ما قد جاء في احد المراجع انه لما تبوأ العرش وأراد توزيع الدوناتيوم التقليدية أعطى كل شخص خمس صلدات ، فبلغ مجموع ما أنفق لهذه الغاية واحداً وعشرين الف ليرة ذهبية[1].

موريقيوس : (٥٨٢ – ٦٠٢) وأشهر خلفاء يوستنيانوس وأذكاهم واقدرهم موريقيوس اليوناني[2]. ولد في ارابيوسوس في آسية الصغرى في السنة ٥٣٩ وفيها تلقى علومه ثم تركها شاباً وأمّ القسطنطينية فالتحق بالادارة المدنية وأصبح في وقتٍ ما كاتب عدل . ثم دخل في خدمة الجيش وترقى حتى أصبح في السنة ٥٧٣ قائد الحرس الامبراطوري وقائد المتطوعة من البرابرة[3]. واشتهر بشجاعته ورزانته وتبصره ، فاحترمه الشعب وأكرمه . وكان حازماً عادلاً ، لا يتبذل في مخالطة ضباطه وجنوده ، فوقعت في قلوبهم هيبته فأكبروه وأجلّوه[4]. وأحبه طيباريوس ووثق به وأعاره سمعه ، فزوجه من ابنته قسطنطينة في السنة ٥٨٢ ورفعه الى رتبة قيصر . ثم بعد ايام توفي طيباريوس فعلا موريقيوس اريكة الملك .

ولا يختلف اثنان فيما نعلم ان موريقيوس كان خبيراً في شؤون الدولة واسع الباع في تناولها ومعالجتها قوي الاهتمام بها ، ولاسيما العسكرية والادارية

١ *Stein, op. cit., 57-58; Jean de Nikiou, éd. Zotenperg, 522.*

٢ ويرى بعض انه كان ارمنياً ولكنه قول ضعيف . اطلب :
Goubert, P., Byzance avant l'Islam. (Paris, 1951), 36-41.

٣ *Goubert, P., op. cit., 42-48.*

٤ *Stein, op. cit., 70-71.*

والمالية منها . فحارب التبذير واوجب الاقتصاد وتلقى بصدر رحب سهام الانتقاد المرّة التي وجهت اليه من جراء هذا الاصلاح .

سياسة خلفاء يوستنيانوس : ومما يستوعي النظر في هذا الموضوع ان اثنين من خلفاء يوستنيانوس الثلاثة كانا عسكريين ، وان الخلفاء الثلاثة جميعاً كانوا اقل طموحاً من يوستنيانوس واكثر وضوحاً في سياستهم وتحديداً لعلاقاتهم الخارجية .

فلا بدع ، في مثل هذه الحالة ، ان يرفض يوستينوس دفع شيء لقبائل الهون او للعرب ، مما كان يدفعه سلفه استرضاءً . ويقول يوحنا الايفاني ان يوستينوس صمم منذ اللحظة الاولى ان لا يترك الدولة خاضعة للفرس وانه تربص ريثما تسنح له الفرص حتى يقضي على سلم السنة ٥٦١[١]. وكان طيباريوس يقول ان السلم الذي يشرى لا يدوم ، وانه لا بد من ان تقدم الحرب ضد الفرس على سائر مصالح الدولة . وكان موريقيوس ايضاً يقول بهذا كله وقد زاد عناية فائقة بالجيش . ولعل ابرز ما فعله من هذا القبيل هو ايثاره العناصر الوطنية على العناصر البربرية في التعبئة . ومن الدلائل الواضحة على هذا الاهتمام بالجيش واعادة النظر في تنظيمه رسالته في فنون الحرب Strategikon تعود الى اواخر القرن السادس . وبعض الباحثين يرى انها من وضع موريقيوس نفسه[٢].

ولم يهمل خلفاء يوستنيانوس الغرب وواجبهم تلقاءه . ففي عهدهم كانت حملة بادواريوس على ايطالية في السنة ٥٧٤ – ٥٧٥ ، وانتصارات جناديوس في افريقية في السنة ٥٧٨ . وفي عهدهم (عهد طيباريوس خاصةً) جرى

١ *Corippus, Just., III, 151; Fragmenta Historicorum Graecorum, IV, 274.*

٢ *Aussaresses, l'Armée byzantine à la fin de VIe Siècle, (1909); Stein, op. cit., 123-127.*

بذر اموال كثيرة في الاوساط اللومباردية العالية في السنتين ٥٧٧ و٥٧٩ . وتم ايضاً استدراج الافرنج الى غزو ايطالية لمصلحة الامبراطورية . وان ننسَ فلا ننسَ ظهور نظام الاكسرخوسية في ايطالية وافريقية لتقوية الدفاع عن هاتين الولايتين .

الحرب الفارسية : (٥٧٢ – ٥٩١) وكانت قد قضت معاهدة السنة ٥٦١ على الروم بدفع مال جزية للفرس عن سبع سنوات تسبيقاً . وقد دفع هذا المال في حينه . فلم يكن من موجب ، اذاً ، لبدء الحرب قبل السنة ٥٦٩ . على ان هذا لم يمسك يوستينوس الثاني عن الاستعداد للحرب في حقلي السياسة والتنظيم . وهكذا نراه في السنة ٥٦٨ يستقبل وفداً مفاوضاً من اواسط آسية مما وراء فارس ، فيكرمه ويصغي اليه ، ويثبّت بواسطته علاقات ودية مع اعداء فارس في الشرق . وكان هذا الوفد المفاوض ، من قبل الخاقان إستامي خاقان الاتراك الذين سبق لهم ان قضوا على الهون البيض في ما وراء فارس ، قد أمّ القسطنطينية في السنة ٥٦٨ ليحالف الروم ضد الفرس ، وليعرض استعداد الاتراك للقيام بنقل الحرير الصيني من حدود الصين الى مياه البحر الاسود مباشرة ، دون المرور بفارس .

وفي السنة ٥٧٠ نرى يوستينوس يتدخل في امور ارمينية الفارسية وفي مشاكل ايبيرية فيرد عليه كسرى في السنة ٥٧١ بتدخل مماثل في حمير في جنوبي الجزيرة العربية محرّضاً ابناءَ هذه المنطقة على التحرر من نير النجاشي صديق يوستينوس وحليفه . وفي السنة ٥٧٢ ثار الارمن على الفرس وقتلوا المرزبان . والتجأ زعماء الثورة الى القسطنطينية فقوبلوا فيها بحفاوة وحرارة . وجاءَ وفد فارسي يطالب بالجزية المالية وكانت قد استحقت مجدداً ، فرفض يوستينوس دفعها وأكد لاعضاء الوفد انه لن يرضى ابداً عن اضطهاد الارمن ابناء ملته المسيحيين . فوجه اليه كسرى انذاراً

بوجوب الدفع فقابله يوستينوس باعلان الحرب .

وحالف النصر الفرس في بادىء الامر . ذلك ان الروم هجموا بمعظم قواتهم على ارمينية الفارسية تاركين حدودهم في سورية وليس عليها الا قوة صغيرة من الجيش يدعمها حلفاؤهم الغساسنة ومن شد ازرهم من القبائل العربية المتاخمة . على ان هذه القبائل خانت والتوت فعبر الفرس الفرات واكتسحوا الموقف وحاصروا دارا « حصن الامبراطورية الحصين » فسقطت في ايديهم . وأدى خبر سقوطها الى انهيـــار عقل الامبراطور . ففاوضت زوجته صوفية لهدنة في مطلع السنة ٥٧٤ تدوم عامـــاً ودفعت في هذا السبيل غرامة حربية كبيرة . وعند انتهاء الهدنة في السنة ٥٧٥ قام كسرى بجيش عظيم وعدد كبير من الفيلة الى ارمينية فحـــاصر ثيودوسيوبوليس (ارضروم) وهاجم اماسية ثم دخل قبدوقية وأحرق سبسطية (سيواس). غير انه ما لبث ان فوجىء بقوة كبيرة من الروم بقيادة يوستنيانوس ابن جرمانوس اكرهته على التراجع بعد موقعة كبيرة دارت رحاها في ضواحي ملاطية وهلك فيهـا كثيرون من الفرس . ففاوض كسرى في الصلح ثم عاد فعدل عن المفاوضة بعد انتصـارين صغيرين . فعاد الروم الى الحرب بقيادة موريقيوس في السنة ٥٧٨ وقاموا بهجوم خاطف باتجاه ارزنين بين بتلس وبين الدجلة وبلغوا الى الدجلة . وتوفي كسرى في السنة ٥٧٩ فعاد الطرفان الى المفاوضة . ولكن هرمز الرابع ابن كسرى اساءَ استقبال الوفد الرومي فاستؤنف القتال . وزحف موريقيوس في السنة ٥٨٠ يحاول قطع الفرات عند قرقيسية قـاصداً طيسفون عاصمة الفرس . الا أنه ارتدّ على اعقابه بسبب مناورة ناجحة قام بها الفرس في ما بين النهرين وبسبب معاكسات لقيها من المنذر الغساني كما سيجيء في حينه . على ان موريقيوس عاد في السنة ٥٨٢ فانتصر انتصاراً كبيراً عند قسطنطينة تبعته انتصارات. وفي السنة ٥٨٦ استطـاع قائد الروم فيليبيقوس ان يضرب الفرس ضربة

قاسية في سولاخان في ارمينية[1] .

ورغب الاتراك في استغلال هـذا الظرف واوجبوا زيادة باهظة في الاتاوة السنوية التي كان يدفعها الفرس لهم . فغضب هرمز واخذه الالم ورفض ان يدفع الزيادة المفروضة . فقام خاقـان الاتراك من دلـغ عاصمته بعشائره وجموعه وقصد فـارس غازياً . فأنفذ هرمز بهرام بوشين[2] بجيش كبير لصدهم سنة ٥٨٨ . فكسرهم وقتل الخاقان في المعركة . ثم اسر ابن الخاقان في معركة ثانية ودخل دلغ عاصمة الاتراك واستولى على ما وجده فيها من الذهب وكان كثيراً . ولم تأت السنة ٥٨٩ حتى كان بهرام قد عاد الى فارس ظافراً غانماً . فـأكرمه الشاهنشاه وأمّره على كل جيوشه ومنحه لقب بهلوان وعلا قدره بين الفرس وتعلقوا به . فأنفذه هرمز الى منطقة سوانية الخاضعة للروم في القوقاس . فدخلها فنهب وسبى . وارسل الغنائم الى هرمز في طيسفون . وتحرّك الروم للدفاع في شتاء السنة ٥٨٩ فتوجه رومانوس بجيش مجرب الى سوانية فكسر بهرام وشتت شمل رجاله . ولم يكتفِ هرمز بما أرسله اليه بهرام من غنائم فسخط عليه . فأدى ذلك الى ثورة داخلية اسقطت هرمز عن عرشه وأحلت بهرام محله وذلـك في السنة ٥٩٠[3] .

١ *Goubert, P., op. cit., 68-117 ; Stein, op. cit., 40-97 ; Bury, Hist. of Later Rom. Emp., II, 95-113.*

٢ « بهرام خشنش ويعرف بجوبين . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

٣ « ثم خاف بهرام ومن معه هرمز فخلعوه وساروا نحو المدائن واظهروا ان ابنه ابرويز اصلح للملك منه . وساعدهم على ذلك بعض من كان بحضرة هرمز . وكان غرض بهرام ان يستوحش هرمز من ابنه ابرويز ويستوحش ابنه منه . وكان يحدث نفسه بالاستقلال بالملك . فلما علم ابرويز ذلك خاف اباه فهرب الى اذربيجان . فاجتمع عليه عدة من المرازبة والاصبهذين . ووثب العظماء بالمدائن ، وفيهم بندويه وبسطام خالا ابرويز ، فخلعوا هرمز وسملوا عينيه . » ابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

وفرّ ابرويز بعياله وثلاثين من اخصائه الى قرقيسية عند مصب الخابور في الفرات . فكتب محافظها بذلك الى الامبراطور وكتب اليه ابرويز ايضاً لاجئاً مستغيثاً . ووعد بان يعيد دارا ومرتيروبوليس (ميافارقين) وقسماً من ارمينية اليه وان يبقى في سلم دائم معه والا يطالبه بمال البتة . فدعا موريقيوس اليه اعضاء مجلس الشيوخ وشاورهم في الامر . فاجابوا بعدم القبول وابانوا ان الفرس لا دين لهم ولا قانون ، يعدون في الضيق وينكثون عند الفرج ، وانهم الحقوا ضرراً كبيراً بالروم فليقتتلوا وليمحق بعضهم بعضاً وليدعوا الروم هادئين مطمئنين[1] . ولكن موريقيوس رأى مع ذلك ان الشرف والشهامة والمصلحة تقضي بتقديم المساعدة المطلوبة الى ابرويز فوعده بها وتابع الحرب ضد بهرام . وقام ابرويز الى اذربيجان فوافاه اليها بندويه وغيره من المقدمين والاساورة في جيش كبير من اصبهان وفارس وخراسان . ونهض الروم بقيادة نرسيس لمعونة ابرويز . والتقى الجيشان بعدوهما في سهول تبريز[2] في خريف السنة ٥٩١ . فدارت الدائرة على بهرام وفرّ لاجئاً الى بلاد الاتراك .

وبرّ ابرويز بوعده فأعاد دارا ومرتيروبوليس الى الروم وتنازل عن قسم هام من ارمينية الفارسية ولم يطالب بعد ذلك بالاتاوة السنوية . فوصلت حدود الروم الى بحيرة وان ومداخل تفليس . ووقع ابرويز وصديقه موريقيوس سلماً دائماً .

خلفاءُ يوستنيانوس والعرب : وأراد يوستنيانوس ان يستعين بالعرب الضاربين في جوار حدوده على العرب عند حدود خصمه الفارسي فجعل من الحارث ابن جبلة الغساني في السنة ٥٣١ فيلرخوساً وأمده

١ *Sebeos, Hist. d'Heraclius, éd. Macler, 15.*

٢ راجع *Ganzaca; Diehl, Ch., Monde Oriental, 130.*

بالمال له ولشيوخ العرب في بادية الشام . ثم رقّاه في مراتب الدولة فجعله بطريقاً من البطارقة هو واحفاده من بعده . وقـال الحارث وربعه بالنصرانية وبالطبيعة الواحدة فنـال من عطف ثيودورة الشيء الكثير وأصبح حامياً لزمار اصحاب الطبيعة الواحدة في جميع الاقطار الشامية . وبين هؤلاء كان يعقوب البرادعي الشهير مؤسس الكنيسة السورية اليعقوبية . ودامت سيادة هذا البطريق مدة طويلة حتى وفاته في السنة ٥٦٩ . وقد احتل فيما بعد مركزاً سامياً في مخيلة العرب . فهو الحارث الذي يشيد بذكره الشاعر عمرو ابن كلثوم وهو ايضاً الحارث الذي قهر المنذر ملك الحيرة[١] .

وجاءَ بعد الحارث الغسّاني ابنه المنذر (٥٦٩ - ٥٨٢) . فهب لمحاربة عرب الحيرة وقد كانوا اغاروا على سورية بعد وفاة والده الحـارث . فقاتلهم وانتصر عليهم عند عين أباغ . فأكثر شعراء العرب من ذكر هذا النصر وتغنوا بجرأة الحارث لإبعاده في الغزو الى عين أباغ . واهتم المنذر ابن الحارث لمشاكل النصرانية آنئذٍ فعقد مجمعاً محلياً تحت رعايته للنظر في بعض البدع المحلية . ولم يرضَ يوستينوس عن المنذر فقطع عنه المال السنوي واوعز بقتله . فشقّ المنذر عصا الطاعة ثلاث سنوات متتـالية . فانتهز عرب الحيرة هذا الظرف واغـاروا على سورية الشمالية « وعاثوا فيها ما شاؤوا[٢] . » ثم اجتمع المنذر بالبطريق يوستنيانوس في الرصـافة وتفاهما فعادت المياه الى مجاريها[٣] .

وتوفي يوستينوس في السادس من تشرين الاول سنة ٥٧٨ . فتـولى العرش بعده طيباريوس . وأحب هذا ان يسعى لتوحيد الكنيسة ، فرأى

١ ابن قتيبة ، ٣٠٤ ، الحماسة ، ٤٠٢ .
٢ نولدكه : امراء غسان ، ص ٢٥ .
٣ يوحنا الافسي ، ٦ : ٤ ، ص ٣٥١ .

ان يوحد كلمة اصحاب الطبيعة الواحدة اولاً ليسهل عليه التوفيق بينهم وبين الكنيسة الارثوذكسية الام . فاستدعى المنذر الغسّاني الى القسطنطينية. فأمّها هذا البطريق مع ولديه ووصل اليها في الثامن من شباط سنة ٥٨٠. فاستقبله الامبراطور بكل احترام وتبجيل . وانعم عليه بلقب ملك الشرقيين[١] . وسمح له بان يستبدل الاكليل البطريقي بتاج ملكي[٢] . ثم طلب اليه ان يوفق بين صفوف اصحاب الطبيعة الواحدة . ووقّف الامبراطور الاضطهاد الذي كان قد حلّ بهؤلاء منذ عشر سنوات او اكثر تسهيلاً لعمل الملك الجديد ، اي المنذر . وعاد المنذر الى سورية وعقد مجمعاً برعايته في الثامن من اذار سنة ٥٨٠ ، واتصل بغريغوريوس بطريرك انطاكية الارثوذكسي وفاوضه في المهمة الموكولة اليه . وأصبح المنذر الغسّاني ملكاً محلياً وحكماً في اعوص مشاكل ذلك العصر واشدّها تعقيداً .

ولم يرضَ البطريرك افتيخيوس عن هذا التسامح والتساهل مع اصحاب الطبيعة الواحدة . وشاركه في رأيه هذا عدد من كبار رجال الجيش والسياسة وبينهم موريقيوس القائد . وفي السنة ٥٨٠ اراد هذا القائد ان يفاجيء الفرس بهجوم خاطف عن طريق الفرات متعاوناً مع المنذر وقبائله . فلما وصل الى الفرات وجد الجسر الكبير مهدوماً . فتراجع خائباً وعزا خيبته الى خيانة المنذر وتواطؤه مع الفرس وشكاه الى الامبراطور . وبرغم ان المنذر عاد فاغار وحده على اراضي عدوه امير الحيرة واعمل في عاصمته النار وقفل من غزوته بغنائم عظيمة[٣] ، فأن موريقيوس تشبث برأيه وأصرّ

١ *Aramundarus Saracenorum Rex.*

٢ راجع نولدكه : امراء غسان ، ص ٢٦ . *Michel le Syrien, X, 344.*

٣ وقد ذكر هذه الحادثة الشاعر الحيري المعاصر عدي ابن زيد ، الاغاني ٢ : ٢٧ ، الطبري ، ١ : ١٠٢١ ، ياقوت ٣ : ٦١٢ .

عليه . وسافر بنفسه الى القسطنطينية ليثبت رأيه امام الامبراطور[1] . ويرى الاب غوبير اليسوعي ان موريقيوس كان محقاً في شكواه وان هنالك ما يدعو الى الشك في امانة المنذر والى الظن بانه كان يتوخى الاستقلال بدافع الطموح الشخصي والسعي لرفع الضيم عن اخوانه اصحاب الطبيعة الواحدة[2] .

وأصدر طيباريوس أمره في ربيع السنة ٥٨١ بالقبض على المنذر . فأرسل ماغنوس Magnus حاكم سورية الى المنذر يدعوه الى حوّارين بين تدمر ودمشق للاشتراك في حفلة تدشين الكنيسة التي اقامها فيها . فلبى المنذر الدعوة . فما كاد يبلغ حوّارين حتى القى عليه الحاكم القبض وارسله مخفوراً الى القسطنطينية . ولم يقتصر طيباريوس على نفي المنذر وانما عمد ايضاً الى قطع الاعانة السنوية عنه . فقام ابناءُ المنذر الاربعة وشقوا عصا الطاعة واوغلوا في البادية واخذوا يشنون منها الغارات على اراضي الدولة. ودخلوا بصرى واضطروا حاميتها ان تتخلى لهم عن الذخائر والاموال التي صادرتها منهم وبينها تاج المنذر . فجرد طيباريوس حملة ضدهم وانفذ معها اخاً آخر للمنذر ليخلفه في وظيفته ولكنه توفي بعد عشرة ايام . اما القائد البيزنطي فأنه تمكن بالمكر والخداع من القاء القبض على النعمان اكبر ابناء المنذر . وتوفي طيباريوس في السنة ٥٨٢ فتولى العرش بعده موريقيوس عدو المنذر فأمر بابعاد الملك العربي ومن معه الى صقلية[3] . وطالت الحرب الفارسية وحمي وطيسها وشعر موريقيوس بالحاجة الى من يوحد

١ *Jean d'Epiphanie, III, 40, 129 et VI, 16, 231.*

٢ *Goubert, P., op. cit. 252-254; Devresse, Mgr., Patriarcat d'Antioche, 276, 281, n. 3.*

٣ نولدكه : امراء غسان، ص ٣٠ - ٣٤ .

كلمة القبائل العربية في سورية ويقودها الى الحرب ضد الفرس . فاستحضر النعمان في السنة ٥٨٤ ووعده بارجاع والده من المنفى ثم طلب اليه ان يحارب الفرس معه وان يعتنق الارثوذكسية . فأجابه النعمان ان جميع قبائل طي يعاقبة وانهم يذبحونه ذبحاً ان هو تقبل قرار « المجامع » . فغضب موريقيوس وأمر بسجنه ثم ألحقه بوالده[1] .

ويرى نولدكه في رسالته امراء غسان ان احوال العرب في سورية اضطربت بعد اعتقال المنذر وابنه النعمان وان عرى وحدتهم تفككت فاختارت كل قبيلة منهم اميراً لها ، فتطاحنت وتنازعت فيما بينها وان هذه المنازعات لم تنحصر بالبادية وانما تعدتها الى البلدان العامرة وان القبائل اخذت تسطو بلا خوف ولا وجل على اموال الفلاحين المتحضرين فتنهب مواشيهم وتحصد دون ان تزرع . ويزيد نولدكه ان هذا كله حمل الروم على التفكير في تنصيب عامل لهم رئيسي جديد يقوم مقام المنذر وانهم رأوا ان يكون هذا العامل من آل جفنة ايضاً لما كان لهؤلاء في الماضي من الهيبة في القلوب[2] .

وقضت ظروف العداء بين الغساسنة وعرب الحيرة ان يشتد كره عرب الحيرة لكل من قال بالطبيعة الواحدة وان يتقربوا من الكنيسة الارثوذكسية الأم . وانتهت الحرب بين فارس والروم في مصلحة الروم ، فطلب النعمان ملك الحيرة ان يتلقى المعمودية على يد كاهن ارثوذكسي في الرصافة وقبلها معه رجاله . وكان خالص النيّة فيما فعل ، فلما عاد الى الحيرة رمى بتمثال الزهرة الذهبي في النار ، وجمع ذهبه بعد انصهاره ووزعه على الفقراء . ولعل الكاهن الارثوذكسي الذي عمّد النعمان

١ *Jean d'Epiphanie, III, 56, 135.*

٢ امراء غسان ، ص ٣٤ – ٤١ ، و ٥٧ – ٦٦ .

ورجاله هو البطريرك الانطاكي غريغوريوس نفسه . فانه هو الذي كرّس تقدمات ابرويز وزوجته المسيحية سيرين علـى اسم القديس سرجيوس في الرصافة (سيرجيوبوليس) . وانطلق البطريرك من الرصافة الى البادية يرد «الضالين في القرى والاديرة الى الدين المستقيم[1] » ، وعاد الى احضان الكنيسة الام بعد هذا النصر كثيرون في سورية والعربية وارمينية وبلاد الكرج ممن سبق لهم ان قالوا بالطبيعة الواحـدة . وتعددت البنايات والانشاءات الدينيـة الارثوذكسية في الاردن والبثنية وحوران في مادبا ومعين وجرش والجولان والجيزة بين بصرى ودرعة وفي الطيّبة وغـاريا الغربية وفي قسّم وفي حياة بالقرب من الشهباء[2] .

الآفار والصقالبة : (٥٥٠ — ٦٠٢) ولم ينتظر الآفار والصقالبة نهاية الحرب الفارسية ليقوموا بغاراتهم في البلقان . ولكن خلفاء يوستنيانوس آثروا قبل التصدّي لهم ان يفرغوا من المشكلة الفارسية . وذلك لاسباب اهمها ان المناطق موضوع النزاع بينهم وبين فارس كانت آهلة بشعوب قوية شديدة يمكن الاعتماد عليها لتغذية الجيش بالرجال . ثم ان التغلب على فارس كان ضرورياً لاضعاف معنويات من قال بالطبيعة الواحدة من سكان ارمينية وسورية ولارجاعهم الى احضان الكنيسة الام وتوحيد الكلمة في داخل الامبراطورية . وهكذا نرى يوستينوس الثاني يبتاع سكوت الآفـار في السنة ٥٧١ ونرى طيباريوس طلباً للغاية نفسها يدفع في السنة ٥٧٤-٥٧٥ قدراً كبيراً من المال ثمانين الف صلدة ذهبية . وفي السنة ٥٨٠ هبّ عدد كبير من الصقالبة قدّره ميناندر من مؤرخي ذلك العصر بمئة الف رجل

١ *Evagre, Hist. Ecc., éd. Bidez, VI,22, 238 ; Charles, H., le Christianisme des Arabes Nomades sur le Limes et dans le Désert aux Alentours de l'Héjire, (Paris, 1936.)*

٢ *Goubert, P., op. cit., 265, 266-268.*

فعبروا الدانوب وغمروا البلقان غمراً مخربين محرقين ناهبين[1] . ويرى أهل الاختصاص ان هذه الموجة الكبرى كانت اشد اثراً من اي موجة اخرى في تطور تاريخ الروم لانها ابقت في البلقان عدداً كبيراً من الصقالبة فصقلبته منذ ذلك الحين[2] .

وحلت المشكلة الفارسية في السنة ٥٩١ حلاً نهائياً . وعاد جيش الروم منتصراً قوياً . فتغير الموقف في البلقان تغيراً اساسياً . وشن موريقيوس على الآفار والصقالبة حرباً متواصلة عنيفة . ورغب في ان يتسلم القيادة بنفسه . وكاد يفعل لولا تدخل الحاشية . فعهد بالامر الى بريسقوس القائد . وكتب النجاح لبريسقوس فأبعد البرابرة حتى ضفة الدانوب . ثم عبره وحاربهم في ذاقية . وعاد خاقان الآفار فدفع بمئة الف اخرى من الصقالبة عبر الدانوب . فتدفقوا جنوباً حتى تسالونيكية والقسطنطينية . ولم تنجُ الاولى منهما الا باعجوبة[3] . وهرع موريقيوس للدفاع عن العاصمة بنفسه . فجمع المتطوعة من سكانها والحق بهم الحرس الامبراطوري ودفع بهم جميعاً الى السور الطويل . وقُدّر لبريسقوس ان ينتصر في بلغراد في السنة ٥٩٨ وفي طولي في السنة ٥٩٩ . فتهادن الطرفان سنة ٦٠٠ جاعلين الدانوب حداً فاصلاً بينهما[4] . ثم نشبت الحرب مجدداً في السنة ٦٠١ ورجحت كفة بريسقوس فعبر الدانوب غازيا وما برح حتى وصل الى نهر التيس . وعوّل الامبراطور على ابقاء جنوده وراء الدانوب طوال فصل الشتاء . ولكنه فوجىء بان تمرّد بعضهم عليه في السنة ٦٠٢ .

١ *Menandre, 404-406.*

٢ *Vasiliev, A. A., Les Slaves en Grèce, Viz. Vrem., V, 1898.*

٣ *Acta S. Dimitrii, 107-121.*

٤ *Theophylactus, VII, 289-298.*

ثورة السنة ٦٠٢: تمرّد الجند في خريف هذه السنة وعبروا الدانوب بامرة فوقاس احد ضباطهم واتجهوا نحو القسطنطينية. وكانت العاصمة خالية من الجند. فحشد موريقيوس متطوعة من سكان العاصمة ودفع بهم الى سور ثيودوسيوس. وليته لم يفعل لان قسماً كبيراً من السكان كان قد سئم كبرياء الامبراطور واساليبه الارستقراطية. وشعر موريقيوس بهذا وخشي ممالأة ابنه ثيودوسيوس ونسيبه جرمانوس للجند فأمر بالقاء القبض على جرمانوس. ولكن جرمانوس التجأ الى كنيسة الحكمة الالهية فاضطر الامبراطور ان ينتهك حرمة هذا المعبد ليقبض فيه على خصمه. وأيد الشعب جرمانوس واخلى المتطوعة مراكزهم على السور وانحازوا الى الجماهير المتظاهرة. ففرّ الامبراطور بعائلته عبر البوسفور الى نيقوميذية. وفي الثالث والعشرين من تشرين الثاني سنة ٦٠٢ نادى الشيوخ والشعب بفوقاس امبراطوراً. ودخل فوقاس في اليوم التالي «ممطراً الذهب على الشعب امطاراً.» ثم وجه الى نيقوميذية بمن ذبح موريقيوس وعائلته ذبحاً[١].

ويرى لفتشنكو الاستاذ في جامعة لنينغراد[٢] ان ثورة السنة ٦٠٢ كانت في حد ذاتها نزاعاً طبقياً بين الفلاحين والصناع والجند من جهة، وبين الذين عززتهم حكومة موريقيوس من اصحاب الاملاك الكبيرة والاموال الوافرة من جهة اخرى. ويرى الاستاذ نفسه في هذه الثورة التي عمّت آسية الصغرى وسورية ولبنان ومصر ثورة اجتماعية دينية بين النصارى واليهود وبين من كان من النصارى يقول بالطبيعة الواحدة ومن كان

١ *Theophylactus, VIII, 7-15; Kraitschex, Der Sturz des Kaiser Mauricius, 1896.*

٢ *Levtchenko, M. V., Byzance, 116-121.*

يستمسك بقرارات المجامع المسكونية وبين الخضر والزرق . وهو يرى ايضاً ان فوقاس لم يتبنَّ مطالب هذه الطبقات الوضيعة وانما سعى لتوطيد عرشه فقط .

فوقاس : (٦٠٢ – ٦١٠) وعلم ابرويز ملك الفرس بما حلّ بموريقيوس وبامبراطورية الروم وكان موريقيوس نفسه قد كتب اليه يستنجده . وسمع ابرويز ايضاً بالثورة التي اعلنها نرسيس القائد على فوقاس في اورفة في السنة ٦٠٣ ، فرأى ان يستغلّ فرصة مناسبة فزحف بنفسه الى اورفة وحاصرها . ثم تغلب على الروم بين اورفة ونصيبين في السنة ٦٠٤ . وفي السنة ٦٠٥ سقطت دارا بيده فاتجه ابرويز نحو سورية وارمينية وانتشرت جيوشه في السنة ٦٠٧ في سورية وفلسطين تنهب وتحرق وتدمّر . وفي السنة ٦٠٨ توغل الفرس في آسية الصغرى وبلغوا في السنة التالية الى خلقيدونية حيال القسطنطينية .

وكان فوقاس منهمكاً في توطيد دعائم عرشه فقضى في السنة ٦٠٧ على قسطنطينة ارملة موريقيوس وعلى بناتها وعلى جرمانوس . وحاول استمالة كبار الضباط فجعل بريسقوس قائد الحرس وزوّجه من ابنته ولكنه عاد فظن به سوءاً واتهمه بالمؤامرة عليه . ولم يعطِ فوقاس الخضر شيئاً فقاموا عليه واهانوه علانية في الهيبودروم . ثم نشبت ثورة في انطاكية تلتها مؤامرة في القسطنطينية . وهكذا دواليك حتى عمت الفوضى واصبحت الدولة في امسّ الحاجة الى شخصية كبيرة تتولّى إنقاذها[١] .

١ *Spintler, R., De Phoca Imperatore Romanorum, (Jena, 1905.)*

الفصل الثالث عشر

الفكر والفن في القرن السادس

التاريخ والمؤرخون: وكما كان الأمر في القرون السابقة، كذلك كانت كتابة تاريخ في القرن السادس هي السجل الرئيسي للفكر البيزنطي ومجلى تطوّره. وابرز المؤرخين في هذه الحقبة واكثرهم غناءً بروكوبيوس القيصري. درس الحقوق والمحاماة ثم أصبح مستشار بليساريوس القائد وكاتم اسراره، وقد صحبه في حروبه ضد الوندال والقوط والفرس واطلع على مخابراته وخفايا اموره فجمع لمؤلفاته ما لم يتسن لغيره ادراكه. وبرغم تقعره في اليونانية واخذه باساليب هيرودوتوس وثوقيذيذس فأنه ظل سلساً في انشائه نشيط الخيال ضليعاً شديداً يقظاً. ومؤلفاته ثلاثة: الحروب والملح والابنية[1]. ويقع كتابه في الحروب في ثمانية اجزاء وصف فيها حروب يوستنيانوس في افريقية وايطالية والشرق. وأفرد كتابه الملح لقصص وروايات اظهر بها خفايا الحياة السياسية في العاصمة ولاسيا القصر المقدس وحياة عاهليه يوستنيانوس وثيودورة. وضمّن كتابه الابنية

[1] *De bellis, Historia arcana, De aedeficiis, (Bibliotheca Scriptorum Graecarum, Vols. I-III), Eng. Trans. Dewing, 7 Vols., London and New-york, 1914-1940.*

اخبار يوستنيانوس في حقل البنـــاء ، فذكر فيه جميع الابنية التي امر بتشييدها[1].

وقد عاصر يوستنيانوس وبروكوبيوس مؤرخ آخر هو بطرس البطريق. كان محامياً لامعاً وسياسياً مفاوضاً فمثل الروم مراراً لدى الفرس والقوط الشرقيين . وكتب في تاريخ الامبراطورية منذ عهد اوغوسطوس . ووضع سفراً خاصاً في التشريفات . وقد ضاع الشطر الاكبر من هذين المؤلفين ولم يبقَ منهما سوى شذرات منثورة .

وقام بعد بروكوبيوس اغاثيوس المحامي فأرخ لعهد يوستنيانوس منذ السنة ٥٥٢ حتى السنة ٥٥٨ . وجاءَ ميناندر في ايام موريقيوس فأرخ للسنوات ٥٥٨ – ٥٨٢ . ولكن ضـــاع هذا المؤلف ولم يسلم منه سوى بعض نتف مفيدة جداً من جهة المعلومـات الجغرافية والمعرفة بالعناصر البشرية الطارئة على الامبراطوريّة . وظهر ثيوفيلاقتوس السيموقاطي القبطي فسجّل تاريخ الحوادث في عهد موريقيوس (٥٨٢ - ٦٠٢) وكان كاتماً لاسرار هرقل الفسيلفس . وبرغم خياله المشتط وصوره الرمزية وحكمه المقتضبة واساطيره وخرافـــاته فانه لا يزال المرجع الرئيسي لتاريخ موريقيوس ان في حروبه الفارسية او في البلقان[2] . وفي اواخر القرن سادس كان المؤرخ ثيوفـانس وقد ذكره البطريك فوتيوس في مؤلفاته ونقل عنه نبذاً منها نبذة في ادخال دود الحرير الى حوض البحر المتوسط. واما تاريخ الكنيسة في القرنين الخامس والسادس فأفضل من عالجه من المؤرخين ايفاغريوس السوري . وتتضمن كتبه الستة تاريخ الكنيسة منذ

١ *Dahn, F., Procopius von Caesarea, Berlin, 1865 ; Haury, Zur Beurteilung des Geschichtscheibers Procopius von Caesarea, 1897.*

٢ *Krumbacher, K., Gesch. der byz. Litt., 249.*

بجمع إفسس في السنة ٤٣١ حتى السنة ٥٩٣[١] .

الجغرافية والجغرافيون : ومما يلفت النظر في تاريخ الفكر في القرن السادس كتاب قوزمة البحري[٢] « الكوسموغرافية المسيحية » ، وضعه في منتصف هذا القرن . ولد الرحالة قوزمة البحري في مصر ، وتعاطى التجارة في حداثته . ثم أعرض عنها لكساد سوقها . فغادر مصر متنقلاً في سيناء ، والحبشة ، وحوض البحر الاحمر ، والشاطىء الجنوبي من الجزيرة العربية ، وسيلان . ثم انقلب الى مصر زاهداً فتنسك وترهب . وقد كتب كتابه هذا ليبيّن للمسيحيين ان الارض صندوق مربع مستطيل بشكل تابوت العهد ، وان شكل الكون هو شكل مظلة اسرائيل ، وان قول بطليميوس الجغرافي بكروية الارض قول مردود . واهم من هذا وذاك هو ان قوزمة دوّن في مصنفه هذا ما شاهده في اثناء تجواله ، وما سمعه . وفرّق بوضوح تام بين سماعه وعيانه ، بحيث صار مؤلفه مرجعاً هاماً لتاريخ هذا العصر[٣].

ومن كتب في الجغرافية في القرن السادس هيروكليس اللغوي . فانه وصف الامبراطورية وصفاً سياسياً جغرافياً على حالتها قبيل السنة ٥٣٥ متناولاً ولاياتها الاربع والستين ، ومدنها التسع مئة والاثنتي عشرة[٤].

التأريخ بالحوليات : وأشهر من دوّن الحوادث في القرن السادس مرتبةً بحسب تاريخ وقوعها ، يوحنا ملالاس الانطاكي . فإنه وضع خرونيقوناً لتاريخ العالم منذ اقدم الازمنة حتى نهاية عهد يوستنيانوس .

١ *Fragmenta Historicorum Graecorum, Patrologia Greaca.*

٢ بحري بحر الهند *Cosmas Indicopleustes*.

٣ *Cosmas Indicopleustes, Topographia Christiana, XI, éd. Migne.*

٤ *Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 417.*

وبرغم انه لم يفرّق بين الغث والسمين ، والاساطير والوقائع الراهنة ، فان كتابه مفيد في بعض ما يروي ، عدا انه استعمل فيه اليونانية الدارجة في عصره ، مستعيناً ، بين آن وآخر ، ببعض الاصطلاحات اللاتينية الشائعة في زمنه[1].

وبين هؤلاء ايضاً يوحنا الافسسي . ولد في آكل من ولاية آمد في السنة ٥٠٧ ، ونشأ ناسكاً في دير ارعازبنا . وأجاد السريانية واليونانية ، ورحل في طلب العلم الى انطاكية والاسكندرية والقسطنطينية . وفي السنة ٥٤٢ اختاره يوستنيانوس لتبشير الوثنيين في بعض نواحي آسية الصغرى . وحوالى السنة ٥٥٨ رسمه يعقوب البرادعي مطراناً على من قال بالطبيعة الواحدة في افسس . فأقام على رعاية هؤلاء تسعاً وعشرين سنة . وفي السنة ٥٦٦ ، بعد وفاة ثيودوسيوس الاسكندري ، أصبح يوحنا الافسسي رئيساً لجميع من قال بالطبيعة الواحدة في القسطنطينية وسائر بلاد الروم . وفي السنة ٥٧١ اضطهد يوستينوس الثاني من لم يقل قول الكنيسة الام ، فشمل هذا الاضطهاد يوحنا المترجم له ، فسجن ثم نفي ، ثم اعتقل مرة ثانية في عهد طيباريوس وأبعد عن العاصمة في اواخر السنة ٥٧٨ . وكانت وفاته في السنة ٥٨٦ او ٥٨٧ .

وأرّخ يوحنا الافسسي للكنيسة في ثلاثة مجلدات . تناول بالمجلدين الاول والثاني حوادث التاريخ منذ عهد قيصر حتى السنة ٥٧١ . وجعل في المجلد الثالث اخبار الكنيسة والعالم من السنة ٥٧١ حتى السنة ٥٨٥ . وله ايضاً سير النساك الشرقيين ، وهو يشتمل على ثمانٍ وخمسين ترجمة . «وفيه فوائد عن السيرة النسكية ، والعادات الرهبانية ، وسير الديارات في ذلك

[1] Olmstead, A. T., *Chicago Theol. Seminary Register*, 1942, 22.

العصر[1]. » واهمية هذه المؤلفات هي انها تحفظ لنا بالدرجة الاولى شيئاً من ثقافة القائلين بالطبيعة الواحدة واتجاهاتهم القومية ، وتلقي ضوءاً على آخر مراحل النزاع بين النصرانية والوثنية[2].

أخبار القديسين : وأهم من عني باخبار الرهبان والنساك والقديسين يوحنا كليماكوس الذي اعتزل في طور سينا ووضع كتابه الشهير السلّم الروحية[3] في ثلاثين فصلاً . وقد استعار التسمية من الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين : « ورأى يعقوب حلماً واذا سلّم منصوبة على الارض ورأسها يمس السماء وهوذا ملائكة الله صاعدة ونازلة عليها . » وحاول يوحنا كليماكوس ، في كتابه هذا ، ان يبيّن مراحل التقدم في الحياة الروحية للوصول الى الكمال . فراج كتابه هذا بين جمهرة رهبان الروم وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والايطالية والاسبانية والفرنسية والسلافية . وفي نسخه المخطوطة تصاوير جميلة للحياة الدينية والرهبانية[4] .

واما كيرلس البيساني الذي قضى آخر دور من حياته في دير مار سابا في فلسطين فقد رغب في تدوين سير القديسين في كتاب ضخم ولكنه توفي قبل ان ينجز عمله . امتاز كيرلس بتفهمه الحياة الرهبانية وبضبطه وتدقيقه وبساطة اسلوبه . فهو والحالة هذه من افضل المراجع لتاريخ الثقافة عند الروم[5] .

ومن اشهر المؤرخين في اخبار القديسين يوحنا موسخوس الفلسطيني .

١ اللؤلؤ المنثور لبطريرك اغناطيوس برصوم ، ص ٢٦٤ – ٢٦٨ .

٢ *Dyakonov, John of Ephesus, 359.*

٣ *Scala Paradisi.*

٤ *Dalton, O. M., East Christian Art. 316.*

٥ *Schwartz, Ed. Kyrillos von Skythopolis. Leipzig, 1939.*

وهو من الاعيان الذين وصلت حياتهم بين القرنين السادس والسابع، وضع المروج الروحية[1] بعد ما زار اديرة فلسطين وسينا ومصر وسورية وآسية الصغرى وتجول في جزر المتوسط وايجه، فتسنّى له ان يدوّن اشياءً كثيرة عن الرهبان والاديرة في عصره. ومصنفه هذا مفيد لتاريخ الحضارة.

الشعراء: وأشهرهم رومانوس المرتل وقد سبقت الاشارة اليه. وهو افضل من نظم في عهد يوستنيانوس. وقد وقف شاعريته على الابتهالات الدينية. ومن شعراء هذا العصر بولس الصامت الذي خص كنيسة الحكمة الالهية بقصيدتين وصف بهما هذه التحفة النفيسة فخدم تاريخ الفن خدمة كبيرة وأحرز تقدير معاصريه وبينهم اغاثيوس المؤرخ[2]. وامّ القسطنطينية في هذا العصر نفسه الشاعر كوريبوس الافريقي ولبث فيها ينشد باللاتينية اماديح يوحنا القائد الذي اخمد ثورة البربر في افريقية. وبرغم ركاكة نظمه فان شعره يتضمن بعض الفوائد الجغرافية والتاريخية الضرورية لتاريخ افريقية الشمالية في القرن السادس. ونظم كوريبوس ايضاً شعراً في يوستينوس الثاني وتسنمه العرش فأفاد به المؤرخ اكثر كثيراً مما افاد الادب. وممن قرض الشعر في هذا القرن ذيوسقوروس القبطي. ولد في صعيد مصر في قرية صغيرة وتعلم علوم زمانه ثم درس الحقوق وتعاطى الادب، ولكنه لم يكن مجيداً في نظمه. وما بقي من ابياته على وريقات البردي لا يزيد الادب الهليني فخراً. يضاف الى هذا انه لم يحسن قواعد اللغة فجاءت ابياته ركيكة ضعيفة. واهتمام المؤرخين بآثاره يعود الى ما

١ *Pratum Spirituale.*

٢ *Friedlander, P., Johannes von Gaza und Paulos Silentiarus, Berlin, 1912.*

تركه من وثائق شرعية واخبار اجتماعية لا الى تفوقه في الفكر او الشعر[1].

الفن : ومؤرخو الفن يعتبرون عصر يوستنيانوس العصر الذهبي الاول في تاريخ الفن عند الروم. ويعدّون كنيسة الحكمة الالهية آية من آيات فن البناء في العالم بامره. وافضل الكتب التي صفنت في هذا الموضوع هي تقارير الاستاذ هويتمور عن اعماله الترميمية التي بدأت في السنة ١٩٣٣، يضاف اليها كتاب الاستاذ سويفت آجيا صوفيا[2]. واعجب ما في هـــذه الكنيسة قبتها العظيمة. فانها تشمخ ضمن محيط قدره واحد وثلاثون متراً على علو خمسين متراً فوق سطح الارض. وهو عمل لا يزال يعتبر حتى ساعتنا هذه من معجزات فن البناء. وشكل الكنيسة مربع مستطيـــل عظيم يقسمه صفان من الاعمدة الى ثلاثة أبهاء. والارض والاعمدة والاقسام السفلى من الجدران جميعها من رخام ملون. وما تبقى من الجدران والسقف جميعه مغشى بالفسيفساء المذهبة. ويطل النور على المصلين من اربعين نافذة عند اسفل القبة الكبرى فتعكسه الفسيفساء المذهبة المـــلونة اشعةً متنوعة رائعة. اما الفِناء امام هذا المعبد فانه كان فيما مضى واسعاً كبيراً تتناسب مساحته وحجم الكنيسة وراءَه. وكانت تحيط بـــه من جهاته الاربع اروقة ذات أعمدة متقنة الصنع. وتقوم في وسطه نافورة مزخرفة جذابة.

وهدم يوستنيانوس كنيسة الرسل التي كان قد شيدها إما قسطنطين الكبير او قسطنديوس. واعاد يوستنيانوس بنيانها بشكل صليب مربع

١ Bell, H., Byz. Servile State, Journal of Eg. Arch. IV, (1917), 104-105 ; Greek Papyri in the Brit. Mus., Journal of Eg. Arch., V, III-IV.
٢ Swift, E. H., Hagia Sophia, New - york, 1940.

الاجنحة . وعهد العمل الى انثميوس الترالي واسيدور الاصغر . وبقيت هذه الكنيسة البديعة مدفناً لاباطرة الروم حتى القرن الحادي عشر . ولما استولى الاتراك على القسطنطينية امروا بهدمها لينشئوا في موضعها جامع السلطان محمد الفاتح . وباستطاعتنا ان نستعيد صورة شكلها قياساً الى كنيسة القديس مرقس في البندقية او كنيسة القديس يوحنا في افسس او كنيسة سان فرون في بريغو[1] في فرنسة ، فان هذه الكنائس جميعاً قد شيدت على طراز كنيسة الرسل في القسطنطينية[2] .

وربما تعذّر علينا اليوم ان نتلذذ تلذذاً تاماً بوجوه الاتقان والبداعة في الفسيفساء على جدران كنيسة الحكمة الالهية لان الاتراك قد حولوها عند الفتح الى جامع وطمسوا هذه الآثار بطلاء من الطين وغيره ولان اعمال التنظيف والترميم التي أمر اتاتورك باجرائها في هذه الكنيسة لم تتم بعد، ولكن بامكاننا ان نلمس لطائف هذا الفن وروعته على جدران كنيسة القديس الشهيد فيتال في رابينة . ورابينة هذه كانت في القرن الخامس بعد الميلاد ملجأ لاباطرة الغرب ثم اصبحت في اوائل القرن السادس عاصمة القوط الشرقيين . ولما تغلب يوستنيانوس على هؤلاء وفرض سلطته على ايطالية ، اصبحت رابينة مركز حكم الروم في ايطالية ومقر الاكسرخوس فيها وذلك طوال قرنين منذ منتصف السادس حتى منتصف الثامن . وآثار رابينة الفنية تعود الى عهد غالية بلاسيدية بنت ثيودوسيوس الكبير والى عهد ثيودوريخوس ويوستنيانوس . وشمل يوستنيانوس رابينة بعنايته فأكمل بناء كنيستين فيها ورصعهما بالفسيفساء . ولا تزال هذه الفسيفساء محفوظة

١ *Saint Front de Périgueux.*

٢ *Heisenberg, A , Die Apostelkirche in Constantinopel, Leipzig, 1908.*

بكاملها في كنيسة القديس فيتال حتى يومنا هـذا . واشهر ما فيها صورة الامبراطور على جدار الحنية وراء المذبح يحيط بها اسقف رابينة ورجال الحاشية ، وصورة ثيودورة ووصيفاتها[1] .

[1] *Diehl, Ch., Ravenne, Raris, 1907.*

الباب السادس

تطور وتغيير في عناصر الشعب وفي حدود الملك وانظمته

•

الفصل الرابع عشر

هرقل والفرس والصقالبة والآفار

(٦١٠ - ٦٣٤)

سقوط فوقاس وقيام هرقل : وطغى فوقاس وجاوز الحد في الظلم والقسوة . قتل قسطنطينة ارملة موريقيوس وبناتها الثلاث . ونقض العهد الذي قطعه لنرسيس القائد وأحرقه حياً . فكان ان كثرت المؤامرات ضده ولكنه استطاع ان يقضي عليها جميعها وان يعذب المتآمرين ويذبحهم. وتوغل الفرس في آسية الصغرى في قبدوقية وغلاطية حتى وصلوا الى ابواب خلقيدونية وأحرقوا القرى والمزارع على الشاطىء الآسيوي قبالة العاصمة . واكتسح الصقالبة إيليرية وتراقية . ولم يبقَ جزء من اجزاء الامبراطورية لم يلحق به اذى الا افريقية . وكان يحكمها آنئذٍ اكسرخوسٌ مُسنٌ

صالح يدعى هرقل . أحبه الشعب في افريقية حباً جماً . فلم يجسر فوقاس ان يمسّه بسوء . فاتصلت احزاب العاصمة بهذا الاكسرخوس اكثر من مرة وحرّضته على القيام بواجب لا يستطيع القيام به غيره . فاستجاب وأعد اسطولاً وجيشاً . واتصل بكبار الملاكين في مصر وحرّضهم على الثورة فلبوه وشاركهم الشعب في ثورتهم ، فمنعوا تصدير الحبوب الى العاصمة فانتشر فيها الجوع . وجبه هرقل فوقاس بما لم يكن مهيئاً له[1] . ثم دعا هرقل ولده الذي سماه هرقل ايضاً وأمّره على الاسطول وأنفذ ابن اخيه نيقيطاس على رأس فرقة كبيرة من الفرسان الى مصر وما وراءها .

ووصل هرقل الابن باسطوله الى الدردنيل . والتجأ اليه زعماء المعارضة. وظهر اسطول هرقل على اسطول فوقاس . وتمرّدت عناصر هامة في جيش فوقاس . ففتحت المدينة ابوابها لهرقل . واعتقل فوقاسَ في قصره موظفٌ كان الامبراطور قد اساء اليه اساءةً بالغة . وأحضر فوقاس بين يدي هرقل صاغراً . فقال له هرقل : « أهكذا حكمت الامبراطورية ؟ » فأجاب فوقاس : « وهل تحكمها انت خيراً مما حكمتها ؟ » فركله هرقل بقدمه وقطّعه البحارة ارباً ارباً[2] . واعتذر هرقل وأراد ان يتولى العرش بريسقوس ، ولكن الشيوخ ابوا ان يتولاه احد غير الذي انقذهم . فنادوا بهرقل فسيلفساً في اليوم نفسه وتقدموا به من البطريرك سرجيوس فتوّجه هذا الى كنيسة الحكمة الالهية . وتزوج هرقل من افذوكية في اليوم نفسه ايضاً فنودي بها فسيلبسة . وبعد ثلاثة ايام أحرق تمثال فوقاس في الهيبودروم ومعه علم الزرق[3] .

١ بشهادة ثيوفانس . .Levichenko, M. V., Byzance, 119-120

٢ اومان : الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٠٢ .

٣ Baynes, N. H., Successors of Justinian, Cam. Med. Hist., II, 288.

أسرة هرقل: وقد جاء في تاريخ الامبراطور هرقل لسيبوس المؤرخ الارمني الذي شهد ذلك العصر ان هرقل متحدر من اصل ارمني وانه يمت بصلة الى الاسرة الارمنية الملكية اسرة الاراشكة[1] . ويؤيد هذا القول اليوم عدد من الباحثين وفي طليعتهم الاستاذ غريغوار[2] . ويشك

هرقل
٦١٠ – ٦٤١

هرقليون
٦٤١

قسطنطين الثاني
٦٤١

قسطنطين الثالث (قسطنس)
٦٤١ – ٦٦٨

قسطنطين الرابع (الألحى)
٦٦٨ – ٦٨٥

يوستنيانوس الثاني (الاشرم)
٦٨٥ – ٦٩٥ و ٧٠٥ – ٧١١

من لا علاقة له بالاسرة :
لاونديوس ٦٩٥ – ٦٩٨
طيباريوس ٦٩٧ – ٧٠٥
فيليبيكوس ٧١١ – ٧١٣
انسطاسيوس ٧١٣ – ٧١٦
ثيودوسيوس ٧١٦ – ٧١٧

١ *Sebeos, The Hist. of Emp. Heraclius, French Trans.108.*

٢ *Grégoire, H., An Arm. Dyn. on the Byz. Throne, Armenian Quart. I, (1946), 4-21.*

فيه عدد مقابل من رجال البحث فـــلا يرون في ادلة زملائهم ما يضمن السلامة لما استنتجوه[1] .

الحرب الفارسية : (٦١٠ – ٦٢٨) وكانت الامبراطورية في حالة من الفوضى والاضطراب تدعو الى القلق الشديـــد . فكتب هرقل الى ابرويز يعلمه بالقصاص الذي انزله بفوقاس ويؤكد له ان اعادة السلم بين الدولتين اصبـــح ميسوراً . ولكن ابرويز لم يجب . وكانت جيوشه قد قطعت الفرات واحتلت قرقيسية عند مصب الخابور وكلينيكم الى شماليها . فأنفذ هرقل بريسقوس القـــائد الى قيصرية قبذوقية ليطرد الفرس منها . فطردهم بعد حصار دام سنة كاملة . ولكنهم خرجوا منها مفتتحين لهم طريقاً بالقوة وانزلوا بالروم خسارة كبيرة . ثم اتجهوا شطر ارمينية لتمضية فصل الشتاء . واستطاعوا ان ينتصروا على الروم في سورية فأخذوا حمص عنوة في السنة ٦١١ . فما أطلّت السنة ٦١٢ حتى سافر هرقل من القسطنطينية الى آسية الصغرى ليدرس الموقف مـــع بريسقوس عن كثب . فتباطأ القائد في استقبال القسيلفس متذرعاً بالمرض . وفي النهاية أفهم هرقل انه لن يرضى عن تدخله في امور الجيش . فسكت هرقل على هذه الوقاحة لانه لم يكن بامكانه آنئذٍ ان يقاوم قوة بريسقوس بقوة مماثلة . وفي خريف السنة ٦١٢ أمّ العاصمة نيقيطاس ليفاوض القسيلفس في شؤون مصر . وقدمها بريسقوس ايضاً ليشترك في استقبال هذا الضيف الملكي . وكان قد ولد لهرقل ولد ذكر فأعلم القسيلفس بريسقوس بوجوب بقائه في العاصمة لحضور حفلة عماد الطفل في الخامس من كانون الاول . فصدع بريسقوس بالأمر ، ولم يبرح العـــاصمة . وانتهز القسيلفس هذه السانحة فأتهم القائد بالخيانة العظمى وأمر بالقاء القبض عليه وايداعه احد الاديرة . ثم أطلّ على جنود

[1] *Pernice, A., L'Imperatore Eraclio, 44.*

العاصمة فحيّوه قائداً اعلى . ثم جعل نيقيطاس قائداً على الحرس واخرج فيليبيقوس من الدير الذي كان قد التجأ اليه وسلمه القيادة . واشرك اخاه ثيودوروس فيها ايضاً .

ورأى هرقل ان يواجه الفرس في الجبهتين في آن واحد ، فأنفذ فيليبيقوس بجيش الى ارمينية وقام هو واخوه ثيودوروس الى سورية الشمالية ليصدّا ابرويز عن احتلال سواحل لبنان وفلسطين ومصر . وكان ابرويز قد لمس ضعف الروم لمس اليد فأحب ان يستغل الموقف . فالتقى الجيشان واشتبكا حول اسوار انطاكية في السنة ٦١٣ ، فدحر الروم وتراجعوا الى مداخل قيليقية فغلبوا فيها ايضاً ، واحتل الفرس طرسوس وقيليقية باكملها . ومثل هذا وقع لفيليبيقوس في ارمينية . وفي السنة ٦١٤ تابع الفرس زحفهم الى الجنوب بقيادة شهربراز وزحفوا من قيصرية فلسطين الى اوروشليم وهي البلد المقدس عند اعدائهم . فحصروها عشرين يوماً ثم دخلوها عنوة . فقتلوا جوعاً غفيرة من النصارى سبعة وخمسين الفاً واسروا خمسة وثلاثين الفاً وأحرقوا الكنائس والقوا القبض على البطريرك زخريا واستولوا على عود الصليب وارسلوه الى فارس . وكان شهربراز قد حالف اليهود على النصارى . فلما تم له ما أراد نفى من المدينة المقدسة جميع اليهود ثم اذن بترميم الكنائس . وهرع نيقيطاس الى المدينة المقدسة فلم ينقذ من آثارها سوى الحربة المقدسة والاسفنجة[١] . وفي السنة ٦١٥ حاول شاهين قائد الفرس ان يكمل احتلال آسية الصغرى ولكنه لم يفلح فتراجع . وفي ربيع السنة ٦١٩ عاد شهربراز الى الفتح فزحف على مصر واحتل بلبسيوم وممفيس وبابل . ثم

١ *Antiochus Strategus, Capture of Jerusalem by the Persians, Trans. by N. Marr; Peeters, P., La Prise de Jérusalem par les Perses, Mel. Univ. St. Joseph, IX.*

عرّج على الاسكندرية فحاصرها واستولى عليها .

وهكذا خسر هرقل ارمينية وما وراءَها وهي أخصب البقاع بالرجال لتعبئة الجيش ، وخسر مصر وهي مركز تموين العاصمة ، وأضاع المدينة المقدسة وعود الصليب وهو ذخر النصارى . وكانت البلقان كما سنرى مسرحاً كبيراً لطغيان الآفار والصقالبة . فلم يبقَ والحالة هذه من جميع اقطار الامبراطورية قطر يمكن اللجوء اليه والاعتصام به سوى افريقية . فاراد هرقل ان يقلع اليها ليغزو منها مصر ويجلي الفرس عنها . وعلم الشعب في القسطنطينية بما نواه الفسيلفس فهبوا يردعونه ، وألح عليه البطريرك بوجوب البقاء في القسطنطينية ، ولم يكفّ عنه حتى أقسم بانه لن يبرح العاصمة . وفي اثناء هذا كله – ولسنا ندري متى كان ذلك بالضبط – هاجم الفرس القسطنطينية باسطول بحري ، ولعلهم قصدوا بذلك الى معاونة الآفار كما سيمر بنا . على انهم لم يصادفوا التوفيق . فان الاسطول الرومي قضى على قوتهم البحرية وبدّد شملها ، فغرق في بحر مرمرا اربعة آلاف فارسي مع مراكبهم . وتنبهت الكنيسة فأمدت الفسيلفس بجميع ما لديها من الذهب والفضة ، شرط ان يعاد اليها ما يقابله بعد الحرب .

وكان هرقل قد استشفع الى العذراء في السنة ٦٠٩ عندما بدأ يستعد للحملة على القسطنطينية . فعاد اليها مستشفعاً في شتاء السنة ٦٢١ . واعتزل للرياضة الروحية تأهباً للقيام بواجب مقدس : واجب الدفاع عن الدولة والكنيسة والدين . وفي الرابع من نيسان من السنة ٦٢٢ تقدم من المائدة المقدسة متناولاً القربان الطاهر . وفي الخامس من الشهر نفسه دعا اليه كلًا من البطريرك سرجيوس والحاكم بونوس والشيوخ وكبار الموظفين والوجهاء والاعيان . والتفت الى البطريرك وقال : « اني اعهد الى الله والى والدته واليك بهذه المدينة وبابني من بعدي . » وبعد الصلاة في كنيسة الحكمة الالهية والابتهال والتوسل تسلم ايقونة السيد المخلص . ثم أقلع

بجنوده الى خليج نيقوميذية . وسار الى غلاطية وقبدوقية لاكمال التعبئة والتموين والتنظيم . ومن هنا القول ان هرقل اول الصليبيين .

وأراد هرقل ان يقصي الفرس عن مراكزهم في قلب آسية الصغرى ، فقام بحركة التفاف واسعة النطاق ، واتجه بجيشه شرقاً مهدداً مواصلات العدو وطرق تموينه . وحاول شهربراز ان يصرف هرقل عن خطته فغزا قيليقية . ولكن هرقل لم يعره انتباهاً . فاضطر القائد الفارسي ان ينقلب الى الشرق ليحول بين هرقل وهدفه . وتواقع الخصمان في أرمينية في السنة ٦٢٢ فدارت الدائرة على الفرس وسجل هرقل نصراً مبيناً . وانسحب الفرس من قبدوقية والبونط . وعاد هرقل الى القسطنطينية لينظر في أمر الآفار . وفي ربيع السنة ٦٢٣ استأنف الهجوم في الشرق فقطع ارمينية واحتل دوخان ونشقفان ، ثم توغل في اذربيجان واتجه نحو تبريز كنزاكة ليفاجىء ابرويز في قصره فيها . ففرّ ابرويز من المدينة . ودخلها الروم فأحرقوا معبدها الكبير وتعقبوا الفرس الهاربين وهم ينهبون ويدمرون . ثم رجع هرقل خوفاً من حركة التفافية خشي ان يقوم بها شهربراز او شاهين او الاثنان معاً[1] .

وبانتصاراته هذه تسنى لهرقل ان يستمدّ من شعوب القوقاس المسيحية ما عبأ به الصفوف . وكرّ كرة اخرى الى الميدان في السنتين ٦٢٤ و٦٢٥ فضرب شهربراز عند بحيرة وان ، ثم ضربه في قليقية عند نهر ساروس . فاضطر القائد الفارسي ان يتراجع الى الشرق ، وعدل هرقل الى البونط

١ وجاء في الكامل لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٨٣ ، وفي غيره : « ووصل خبر عودة ملك الروم الى شهربراز ، فأراد ان يستدرك ما فرط منه ، فعارض الروم فقتل منهم قتلاً ذريعاً ، وكتب الى كسرى وانفذ من رؤوسهم شيئاً كثيراً . وفي هذه الحادثة انزل الله تعالى : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون » . يعني بادنى الارض اذرعات ، وكانت الروم قد هزمت بها في بعض حروبها . »

لتمضية فصل الشتاء . ثم نوى ان يتحرك من البونط بجيش عظيم في السنة ٦٢٦ ليستأنف انتصاره على الفرس ، ولكن تقدم الآفار في البلقان وحصارهم القسطنطينية اضطراه ان يؤجل قصده هذا حتى السنة ٦٢٧ .

وفي صيف السنة ٦٢٧ قام الخزر حلفاء هرقل بحصار تفليس ، وهبَّ هو الى محاربة ابرويز ، فعبر نهر الآراس عند اتشميازن ، ثم دخل منطقة ارارات فاذربيجان ، وانحدر بعد ذلك الى وادي الزاب . وفي الثاني عشر من كانون الاول نازل ابرويز عند أطلال نينوى فأوقع به هزيمة شنعاء . ثم عبر الزاب متجهاً شطر طيسفون عاصمة الفرس ، فاحتل المقر الملوكي في دستجرد وانتزع منه ثلاث مئة لواءٍ رومي كان الفرس قد استحوذوا عليها في انتصارات سابقة ، واطلق سراح الوف من الاسرى . ولما كان جيش شهربراز لا يزال كاملاً سالماً ، وكانت خطوط الدفاع عن طيسفون قوية منيعة ، آثر هرقل التربص لعدوه في تبريز . فقطع جبال الزاغروس في ابان الشتاء وبلغ الى تبريز سالماً في الحادي عشر من آذار سنة ٦٢٨ .

وكان شيرويه ابن ابرويز قد تمرد على والده وتسنم العرش في الثامن والعشرين من شباط من السنة ٦٢٨ ، فكتب الى هرقل يطلب الصلح . فصالحه الفسيلفس على شروط اهمها : العودة الى الحدود القديمة ، واطلاق الاسرى ، وارجاع الصليب المقدس . وقبل شيرويه هذه الشروط . فاتصل هرقل بشهربراز لتنفيذها ، وكان هذا القائد لا يزال مستولياً على شطر وافر من املاك الروم في آسية . وبعد مفاوضات طويلة أجتمع هرقل وشهربراز في ارابيسوس في آسية الصغرى في حزيران من السنة ٦٢٩ . وعرف هرقل كيف يحدث شهربراز بما كان يراود نفس القائد الفارسي . وكان شهربراز يطمع بعرش الفرس . فعلّله هرقل بالامل ، فأسرع القائد الفارسي الى تنفيذ المعاهدة ، وأجلى جيوشه عما كان يحتله من اراضي الروم .

وفي اذار السنة ٦٣٠ تسلّم هرقل عود الصليب في منبج في سورية الشمالية ، فانتقل به الى المدينة المقدسة وأحله محله في الثالث والعشرين من الشهر نفسه[١]. وكان هرقل قد امتنع هو وأسلافه في المنصب الامبراطوري عن اتخاذ لقب فسيلفس برغم ان رعاياهم كانوا يطلقون هذا اللقب عليهم رداً على ما كان يتلقب به ملوك الفرس. فلما انتصر هرقل على الفرس ذلك النصر الباهر غيّر لقبه الرسمي من اوتوقراتور الى فسيلفس[٢].

الآفار والصقالبة : وفي السنة ٦١٧ عبر الدانوب جمع غفير من الصقالبة ناقلين معهم عيالهم وامتعتهم ، فانتشروا في ايليرية وابيروس وثسالية وآخية وتراقية ، وفي جزر بحر ايجه وشواطىء آسية ، وعاثوا في البلاد فساداً . وطوّقوا ثيسالونيكية وحصروها شهراً كاملاً . ولم تكد تنجلي المحنة وينقضي عامان حتى كرّ الصقالبة كرة اخرى جارّين وراءهم الآفار ، وما زالوا حتى بلغوا الى ضواحي القسطنطينية ، فنهبوا ودمروا وأحرقوا وسبوا . ولم يتراجعوا الا بعد ان زاد لهم هرقل الاتاوة .

وقضت الحرب الفارسية بتغيب الامبراطور عن العاصمة ثلاث سنوات متتالية . فعاد الآفار الى سابق سيرتهم ، وارادوا هذه المرة اقتحام العاصمة نفسها في السنة ٦٢٦ . وتقدم الفرس في الحرب حتى خلقيدونية ، فنكث خاقان الآفار بعهده السابق ، واندفع بجموعه الى اسوار القسطنطينية . وكان الامبراطور قد أقام ابنه نائباً عنه في الحكم ، وأقام البطريرك سرجيوس وصياً عليه . فهبّ البطريرك بفصاحته وشجاعته يثير الهمم ، ويشدد العزائم ، فيطوف العاصمة بالشعائر الدينية ، ويعلو بنفسه الاسوار

١ Throphanes, Chronographia. ed. de Boor ; Sebeos, Emp. Heraclius; Minorski, V., Roman and Byz. Campaigns in the Atropatene.

٢ Bury, J. B., Selected Essays, 109.

ومعه ايقونة المخلص وايقونة العذراء . فأصبح على تعبير احد المعاصرين : « خوذة العاصمة ودرعها وسيفها » . ويقول معاصر آخر : « ان البطريرك ما فتىء يواجه قوات الظلمة والفساد بايقونتي المخلص والعذراء شفيعة العاصمة حتى أدبّ في قلوبهم الرعب والخوف . فكانوا كلما عرض البطريرك من الأسوار ايقونة الشفيعة أعرضوا هم عن النظر اليها[1] . » وجمع الفرس اسطولاً وحاولوا الوصول الى الشاطىء الاوروبي بحراً ، ولكنهم أخفقوا لان مراكب الروم بددت شملهم عند القرن الذهبي « فصبغت المياه بدمهم وغصّت البحر بجثثهم » . وانقضّ خاقان الآفار بجموعه على الاسوار لآخر مرة في العاشر من تموز فارتد خائباً وهو يقول : « اني رأيت امرأة متوشحة باثمن الاثواب تطوف الاسوار من اولها الى آخرها ! » وهكذا نجت العاصمة من هذا الخطر المداهم ، فعزا سكانها انتصارهم على الآفار والفرس في آن واحد ، الى السيدة العذراء حامية المدينة . ونظم البطريرك سرجيوس تسبيحته الشهيرة الاكافيستون التي لا تزال نرددها ونرنمها باللحن الرابع حتى يومنا هذا مساءَ كل جمعة من الاسابيع الخمسة الاولى من الصوم الكبير :

اني انا مدينتك يا والدة الاله .
ارفع لك رايات الغلبة ايتها القائدة المحامية .
واقدم لك الشكر لنجاتي من الشدائد .
ولما كنتِ ذات العزة التي لا تحارب ،
فاعتقيني من انواع الشدائد ،
حتى أصرخ اليك قائلاً :

١ *Pisides, Georges, Bellum Acaricum, V, 371.*

السلام عليك يا عروسة لا عروس لها[1].

وكان هرقل يرى ان الخطر الفارسي اشد كثيراً من خطر هؤلاء البرابرة فأهمل الدفاع عن الغرب وخسر كل ما كان قد احرزه يوستنيانوس في اسبانية . وطمع الاكسرخوس إلفثاريوس بعرش ايطالية في السنة ٦١٩ ودخل رومة واعلن نفسه امبراطوراً عليها . وكانت قبائل الصقالبة طوال الحرب الفارسية تتسرب الى البلقان فاحتلت جميع مناطق البلقان الشمالية الغربية ، وثبّتت اقدامها في بانونية وميسية ودلماتية . ويبن الصقالبة الذين دخلوا البلقان في هذه الآونة واحتلوا ايليرية الصرب والكروات[2]. وقد أبقت هذه الموجات الطامية رواسب كبيرة من الصقالبة في مقدونية وبلاد اليونان نفسها . واذا صدّقنا اسيدور اسقف سيبليّة فتكون موجة الصقالبة هذه قد غمرت بلاد اليونان باسرها[3]. وبقيت احوال البلقان الشمالي والغربي مضطربة ، وظل الصقالبة الضيوف في هرج ومرج طوال عهد هرقل. ولم تتمكن حكومة الروم من فرض سلطتها وهيبتها عليهم حتى اواخر القرن السابع .

القول بالمشيئة الواحدة : وكان من الطبيعي جداً ان يؤدي دخول الفرس الى سورية ولبنان وفلسطين ومصر ، وبقاؤهم فيها خمس عشرة سنة ، الى اضطهاد ابناء الكنيسة الأم لعلاقتهم بالقسطنطينية وتمسكهم بعقائدها ، كما كان طبيعياً ان يؤدي ذلك الى تنشيط اليعاقبة وكل من قال بالطبيعة الواحدة . والوقع انه لما عاد الروم الى هذه الاقطار وجدوا ان جميع بطاركتها هم من اتباع الطبيعة الواحدة . فعادوا الى معالجة هذا الانشقاق

١ *Krumbacher, Gesch. der Byz. Litt., 671-673 .*

٢ *Bury, J. B., op. cit., II, 275 ff ; Jirecek, C., Gesch der Serben, (1911 and 1918)*

٣ *Isidori, Hispalensis Episcopi, Patrologia Latina, LXXXIII, 1056 .*

في الكنيسة لتوحيد الكلمة وجمع الصفوف خصوصاً لأن الاخطار كانت لا تزال تحيط بالامبراطورية وتهدد كيانها .

وكان طبيعياً ايضاً ان يشعر البطريرك سرجيوس صديق هرقل الامين بالضعف الذي نجم عن هذا الاختلاف في العقيدة . ذلك بان البطريرك كان يمارس الحكم ويطلع على خفايا الامور في اثناء تغيب هرقل عن القسطنطينية في الحرب الفارسية . ويرى بعض الباحثين ان سرجيوس بدأ منذ السنة ٦١٦ يعرض على بعض الاساقفة القول بطبيعتين في السيد مع فعل واحد ، وان هرقل رأى في هذا القول مخرجاً من الازمة اللاهوتية المستحكمة ، ووسيلة لتوحيد الصفوف . فلما كانت السنة ٦٢٢ فاوض هرقل جملة من الاساقفة في قبرص وارمينية . ثم في السنة ٦٢٣ فاوض كيروس اسقف فاسيس في بلاد الاكراد ونصح له ان يكتب الى سرجيوس في هذا الموضوع . فقبل كيروس وكتب الى سرجيوس ، فأجابه هذا بانه قد وجد بين رسائل احد اسلافه ميناس رسالة وجهها الى فيجيليوس بابا رومة اشار فيها الى فعل واحد ومشيئة واحدة . وأضاف انه لا يعرف احداً من الآباء يؤيد القول بالمشيئتين . وهكذا قال كيروس بالمشيئة الواحدة . وسرّ به هرقل وازداد شجاعة على المضي في هذه التسوية . ففاوض في السنة ٦٢٩ اثناسيوس بطريرك انطاكية ، وكان هذا ممن يقول بالطبيعة الواحدة ، فقبل . ثم التأم في السنة ٦٣٠ مجمع ثيودوسيوبوليس فقبل كاثوليكوس الارمن إسز واساقفته اعتناق القول الجديد . وثبّت هرقل اثناسيوس على الكرسي الانطاكي ، وجعل كيروس بطريركاً ووالياً على مصر . وأصبح أمله بالاتحاد وطيداً بعد ان قبل اربعة بطاركة بالحل الجديد . وعندئذٍ كتب سرجيوس بطريرك القسطنطينية الى اونوريوس بابا رومة مبيناً ما تمّ من توحيد الكلمة راجياً منه ابداء الرأي . فجاءَ جواب البابا مبهماً غامضاً ولكنه لم يكن سلبياً . فانه اشار الى عبارة بولس الرسول

في رسالته الاولى الى اهل كورنثوس في الفصل الثاني عن « صلب ربّ المجد » كما اقتبس من كلام يوحنا الحبيب في الفصل الثالث من انجيله أنه « ليس احد صعد الى السماء الا الذي نزل من السماء ابن الانسان الذي هو في السماء » ، مبيناً انه يجوز القول ان الله قد تألم . وفي الوقت نفسه استدرك اونوريوس ان ليس من رأيه ان يصار الى الكلام في الفعل الواحد والفعلين بعد ان تمّ هذا الاتحاد في الكنيسة[١].

وفي السنة ٦٣٤ تبوأ العرش البطريركي في المدينة المقدسة راهب شديد الشكيمة قوي القلب ، صفرونيوس الشهير . وكان قد سبق له ان أمّ القسطنطينية وهو لا يزال راهباً ، واحتج على القول بالمشيئة الواحدة . فلما أصبح بطريركاً عقد مجمعاً محلياً في المدينة المقدسة وحرّم التعليم بالمشيئة الواحدة ، وكتب الى اخوانه البطاركة الآخرين كتابة صارمة ضد التعليم الجديد . فاضطرب البابا اونوريوس وكتب الى صفرونيوس وغيره كتابة بمعنى رسالته المشار اليها آنفاً . فلم ينتج عنها اي اتفاق لغموضها وقلة صراحتها . ولم يوفق كيروس كل التوفيق في مصر . فان الساويريين وافقوه على القول بالمشيئة الواحدة ، ولكن اليوليانيين والشيع الاخرى اعترضوا . فضايقهم كيروس بما أعطي من صلاحيات مدنية وسجنهم وعذّبهم وقتل منهم فريقاً . ففرّ رؤساؤهم الى البراري ليعودوا الى مصر مع العرب الفاتحين . وتوفي صفرونيوس في السنة ٦٣٧ ، سنة دخول العرب الى المدينة المقدسة . فأصدر الامبراطور دستور ايمان جديد سنة ٦٣٨ عرف بالاكثيسيس Ecthesis وحتّم فيه القول بالمشيئة الواحدة . وعقد سرجيوس مجمعاً في اواخر هذه السنة نفسها وصدق على الاكثيسيس . ثم ادركته الوفاة

١ Duchesne, L., *Hist. Anc. de l'Eglise*, 407 ; Zananiri, G., *Hist. de l'Eglise Byz.*, 144-145.

٢ Zananiri, G., *op. cit.*, 147.

فخلفه بيرُّس ووافق على ما كان قد أقره سلفه . وفي هذه السنة نفسها توفي البابا اونوريوس فخلفه سويرينوس (٦٣٨ – ٦٤٠) ومات دون ان يحرّم القول بالمشيئة الواحدة[1] . اما البابا يوحنا الرابع (٦٤٠ – ٦٤٢) فأنه حرّم المشيئة الواحدة . وفي السنة ٦٣٩ تم للعرب فتح الشام فدخلوا انطاكية فصعبت الصلة وأوشكت تنقطع بين هذا المركز الديني والقسطنطينية. وفي السنة ٦٤١ توفي هرقل والحالة على ما وصفنا .

وهنا يحسن التذكير بموقف الكنيستين الرئيستين من القول بالمشيئة الواحدة . فهذا القول بحسب موقف الكنيستين مردود لأنه يناقض كمال اللاهوت والناسوت في السيد المسيح . فالطبيعة لا يمكن ان تكون كاملة وهي ناقصة الارادة والفعل . والاعتقاد بالطبيعتين يلزمه الاعتقاد بالمشيئتين والفعلين باتحاد وبلا انفصال . والمسيح لم يُرد ولم يفعل شيئاً من حيث هو انسان فقط بل من حيث هو اله وانسان معاً بلا اختلاط ولا انقسام[2].

١ *Zananiri. G., op. cit. 147.*

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ ، هامش .

الفصل الخامس عشر

هرقل والعرب

(٦٣٠-٦٤١)

النبي العربي والروم : ولما اشتدت الحرب بين الفرس والروم وبلغت انباؤها الى العرب كان النبي والمسلمون منحازين بعاطفتهم الى الروم لانهم كانوا في نظرهم اهل كتاب مثلهم . فاما كفـــار العرب فكانوا يميلون بعاطفتهم الى الفرس لانهم مثلهم أميون . ولا ادل على ذلك من ان ابا بكر الصديق ، وهو طليعة المسلمين ، قد راهن أُبيّ ابن خلف وهو من وجوه الكفار على مئة بعير ان الروم سينتصرون .

وكان الرسول قد استطاع ان يجمع حول رسالته عدداً من اهم قبائل العرب . وكان قد استقرّ في يثرب واتخذهـا قاعدة عمله . ولكنه كان يسعى سعياً حثيثاً لفتح مكة قـــاعدة العرب الدينية . وكان اليهود قد ناصبوه العداء واظهروا له الشرّ وقاتلوه فانهزموا وخرجوا من يثرب شمالاً الى حدود الروم ، وبعضهم وصل الى اذرعات (درعة) في حوران . وكانوا يتصلون بالمشركين العرب فيحرّضونهم على المسلمين . فعاد النبي الى قتـال اليهود فضربهم ضربة شديدة في خيبر . ولمـا طلبوا الصلح فيها بعث الى اهل فدك يخيّرهم بين ان يُسلموا او يسلّموا اموالهم فصالحوه على نصف اموالهم من غير قتـــال . وتجهّز الرسول للعودة الى المدينة عن طريق

وادي القرى . فتجهز يهودها لقتال المسلمين وقاتلوهم . ولكنهم اضطروا للصلح ففعلوا . وقبل يهود تياء دفع الجزية بدون حرب . اما يهود واحات الجرباء ومَقْنا واذرح فأنهم كانوا ابعد الى الشمال . وكان النبي لا يزال يستعد لفتح مكة وفرض سلطته عليها . فرأى فيما يظهر ان لا بد من جولة ثانية في الشمال يُرهب بها اليهود هناك ويؤمّن مؤخرته قبل الزحف على مكة مطمح انظاره . ويؤخذ من بعض النصوص ان النبي أرسل بعد صلح الحديبية خمسة عشر رجلاً الى ذات الطَّلْح على حدود الشام يدعون الى الاسلام في منطقة هؤلاء اليهود الشماليين ، فكان جزاؤهم القتل ولم ينجُ منهم الا رئيسهم[١] .

وجاءَ في بعض المراجع العربية أيضاً ان الرسول أوفد بعد الحديبية الى هرقل وكسرى والنجاشي ، والى المقوقس ، والحارث الغساني ، والحارث الحميري ، رسلاً ورسائل يدعوهم بها الى الاسلام . وانه صنع لنفسه خاتماً من فضة نقش عليه : « محمد رسول الله » وختم به رسائله ، وانه كتب في رسالته الى هرقل ما يلي : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبدالله الى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . اما بعد فاني ادعوك بدعاية الاسلام . أسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين . فان توليت فانما عليك اثم الاريسيين . » وتذكر هذه المراجع نفسها ان النبي دفع برسالته هذه الى دِحْيَةَ ابن خليفة الكلبي ، وان دحية هـذا سافر الى هرقل ، فالتقاه في حمص في طريقه الى المدينة المقدسة ، وان هرقـل لم يغضب ولم تثر ثائرته ، وانه ردّ على الرسالة رداً حسناً . وجـاءَ في هذه المصادر العربية ايضاً : « ان الحـارث الغساني بعث الى هرقل يخبره ان رسولاً جاءَه من محمد بكتاب يدعوه فيه الى الاسلام ، وان الحارث

١ الكامل لابن الاثير ، ج ١ ، ص ٢٨٣ .

استاذن سيده بان يقوم على رأس جيش لمحاربة صاحب هذه الدعوة ، وان هرقل أجاب الحارث بان يوافيه الى المدينـــة المقدسة . » ومما جاءَ في المصادر العربية ايضاً ان شرحبيل ابن عمرو الغساني قتل الحارث ابن عمير الازدي رسول النبي الى صاحب بصرى في حوران ، وان النبي أنفذ حملة الى حدود الروم ليقتص ممن جروءَ على قتل رسوله .

ومما تشتمل عليـه المصادر العربية ايضاً ان المقوقس حاكم مصر بعث الى النبي في الرد على رسالته يقول : انه يعتقد ان نبياً سيظهر ، ولكنه سيظهر في الشام . وتضيف هذه المصادر ان المقوقس بعث الى النبي جاريتين وبغلة وحماراً وكمية من المال وبعض خيرات مصر ، وان النبي قبل هذه الهدية وتزوج من احدى الجاريتين ماريا فولدت له ابراهيم ، وانه اهدى شيرين الجارية الثانية الى شاعره حسان ابن ثابت ، وانه اسمى البغلة الفريدة في بياضها دلدل ، والحمار عُفيراً او يعفوراً .

ويختلف علماء الفرنجة من رجـال الاختصاص في تاريخ الروم والعرب في أمر هذه الرسائل . ففريق يراها صحيحة وآخر يشك في صحتها . وفي طليعة الفريق الاول بتلر صاحب كتاب فتح مصر ، وبيوري صاحب التآليف العديدة في تاريخ الروم[١]. وبين الفريق الآخر كايتـاني وديل[٢]. والحجة الرئيسة لمن يعترض على صحة هذه الرسائل ان ابن اسحق اقدم من كتب في السيرة لا يذكرها[٣]. ولكن لا يخفى ان سكوت المصادر لا يتخذ حجة الا بشروط معينة ابناها في كتابنا المصطلح[٤]. والبحث في صحة

١ *Butler, M., Arab Conquest of Egypt, 139 ff ; Bury, J. B., Const. of Later Roman Empire, II, 261 .*

٢ *Caetani, L., Annali d'ell Islam, I, 731-734 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 174.*

٣ *Becker, K., Cam. Med. Hist., II, 337.*

٤ مصطلح التاريخ ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

هذه الرسائل يستوجب الرجوع الى القرآن نفسه لنرى اذا كان المراد به رسالة للعالمين او رسالة خاصة بالعرب. وهو في نظرنا رسالة للعالمين دونما ريب. والنبي الذي حمل هذه الرسالة بادىء ذي بدء الى افراد قلائل من اقربائه ارادها في النهاية قوة تسيطر على العالم اجمع[1].

اما قول غريمه وكايتاني في ان القرآن أريد رسالة للعرب دون سواهم فانه قول ضعيف لا يركن اليه[2].

ومهما يكن من أمر هذه الرسائل التي صدرت عن النبي الى هرقل وغيره، فان المراجع الاولية العربية واليونانية تجمع على ان النبي قد أنفذ في السنة ٦٢٩ حملة مؤلفة من ثلاثة آلاف مقاتل الى حدود الروم الى قرية المشارف، وان المسلمين وصلوا اليها ثم انحازوا عنها الى قرية مؤته ليتحصنوا بها، وان معركة حامية دارت رحاها في مؤته وأسفرت عن مقتل عدد كبير من المسلمين، بينهم قائد الحملة زيد ابن حارثة ربيب النبي، وجعفر ابن ابي طالب، وان خالد ابن الوليد « دافع بالقوم وحاشى ثم انحاز وتحيز حتى انصرف بالناس[3]. »

وايّا كانت الخاتمة التي لقيتها هذه الحملة فأن نتائجها وآثارها كانت بعيدة المدى. فبينما رأى الروم فيها غارة كتلك التي اعتاد البدو ان يشنوها للسلب والنهب كانت حملة ربيب النبي من نوع جديد ولم يقدّر الروم اهميتها. فهي غارة منظمة قامت لتؤدي مهمة خاصة، وغدا انهزامها

١ اطلب تفصيل هذا في بحث شائق للمستشرق المتعرب غولدزيهر :
Goldziher, I., Die Religion des Islam-Die Religionen des Orients, III, 106.

٢ *Grimme, H., Mohammed, I, 123 ; Caetani, L., Studi di Storia Orientale, III, 236, 257.*

٣ الطبري، ج ١، ص ١٦١٠، وما يليها. ابن هشام (الطبعة الاوروبية)، ص ٧٩١ وما يليها. الطبقات لابن سعد، ج ٢، ص ٩٢.
Theophanes, Chronographia, 333-335

وقتل قائدها باعثاً جعل المسلمين يتطلعون باعين واسعة الى الشام . كذلك اضحى تحرّق المسلمين للأخذ بثأرهم قوة دفعت الاداة الحربية الاسلامية في انطلاقها السريع تطوي تلك البلاد[1] .

« ولما أصيب جعفر ذهب محمد الى منزله ودخل على زوجه اسماء بنت عميس ، وكانت قد عجنت عجينها وغسلت بنيها ودهنتهم ونظفتهم ، فقال لها : ائتيني ببني جعفر . فلما اتته بهم تشمهم وذرفت عيناه الدمع . ورأى ابنة مولاه زيد قادمة فربّت على كتفيها وبكى[2] . »

فلما كان العام التالي ، أي السنة ٦٣٠ ، قام الرسول بنفسه الى حدود الروم في ظروف قاسية حرجة « في زمن عسرة من الناس وجدب من البلاد وحين طابت الثمار وأحبّت الظلال[3] . » فوصل بجمعه الى تبوك . ولم تشتبك رجـــاله مع اي قوة رومية . ولكنه صالح اهل جرباء واذرح ومقنا . وصالح يوحنا ابن رؤبة صاحب ايلة في خليج العقبة : « بسم الله الرحمن الرحيم . هذه أمنة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنة بن رؤبة واهل ايلة سفنهم وسياراتهم في البرّ والبحر لهم ذمة الله ومحمد النبي ومن كان معهم من اهـــل الشام واهل اليمن واهل البحر . فمن احـدث منهم حدثاً فـــأنه لا يحول ماله دون نفسه . وانه طيّبٌ لمحمد اخـذه من الناس . وانه لا يحل ان يمنعوا مـاءً يردونه ولا طريقاً يردونه من بر او بحر . » ودفع يوحنا مقابل هذا ثلاث مئة دينار جزية في كل عام . وصالح النبي اكيدر ابن عبد الملك ملك دومة – وكان نصرانياً ايضاً – وذلك على جزية يدفعها كل عـام[4] . واكتفى النبي بهذا وعاد الى المدينة

١ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ٣٧ .
٢ حياة محمد للدكتور حسين هيكل ، ص ٣٧٨ .
٣ الطبري ج ١ ، ص ١٦٩٣ .
٤ فتوح البلدان للبلاذري ، ص ٥٩ . راجع ايضاً السيرة لابن هشام ، ص ٩٠٢ وما يليها .

بعد ان اقام في تبوك اسبوعين من الزمن .

الروم والنبي العربي : ولم يفقه الروم فيما يظهر كنه الرسالة العربية. فان ما تبقى من آثار جدلهم الديني يظهر انهم اعتبروا الاسلام خروجاً آخر عن الكنيسة الام من نوع خروج الذين قالوا بالطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة والآريوسيين وغيرهم . وظل شيء من هذا عالقاً باذهان بعض المفكرين الاوروبيين طوال العصور الوسطى . ومن هنا قول دنتي ان محمداً خرج على النصرانية وبذر الشقاق فيها[1] . ونهج مؤرخو الروم نهجاً مماثلاً فلم يكترثوا لظهور النبي العربي ولم يكتبوا شيئاً في الاسلام من ناحيته السياسية . وظنوا باديء ذي بدء ان هذه القوات العربية ليست سوى عصابات صغيرة تبغي السلب والنهب كسائر عصابات البدو آنئذ[2] .

ابو بكر الصديق والروم : وبقيت ذكرى هزيمة مؤته تستفز المسلمين فتوجه انظارهم شطر الشام . فلما كانت السنة ٦٣٢ أعد النبي جيشاً جديداً لمهاجمة الروم ، وأمّر عليه اسامة ابن ربيبه زيد ابن حارثة الذي سقط في ميدان مؤته . على ان الوفاة عاجلت النبي في الثامن من حزيران من السنة نفسها قبل ان يتحرك الجيش . وتولى الخلافة بعده ابو بكر . وحدث ارتداد في القبائل العربية . ونصح الناصحون للخليفة الا يفرّق عنه جماعة المسلمين ولكن الخليفة قال : « والذي نفس ابي بكر بيده لو ظننت ان السباع تخطفني لانفذت بعث اسامة كما امر به رسول الله[3] . » وغزا اسامة يبنة بين عسقلان ويافة وسلم وغنم

١ *Dante, Inferno, XXVIII, 31-36.*

٢ *Guterbock, K., Der Islam im Lichte der Byz. Polemik, 6, 7, 11, 67-68.*

٣ الطبري ، ج ١ ، ص ١٨٤٨ — ١٨٤٩ .

وعاد في اربعين يوماً[1]. ونهض في هذه السنة نفسها خالد ابن سعيد الى بلاد الروم واوغل في بلاد الشام حتى اقترب من دمشق فانهزم وعاد الى المدينة.

وبعد انتهاء حرب الردة أعد ابو بكر جيوشاً اربعة وسيّرها على الشام وعقد الويتها لابي عبيدة ابن الجرّاح ولعمرو ابن العاص وليزيد ابن ابي سفيان ولشرحبيل ابن حسنة. وأمر ابا عبيدة ان يتجه نحو حمص وامر عمراً ان يقوم الى فلسطين وأمر يزيد ان يصل الى دمشق وأمر شرحبيل ان يأتي الاردن[2]. فانتصر يزيد ابن ابي سفيان في اوائل السنة ٦٣٤ على سرجيوس بطريق فلسطين في وادي عربة المنخفض العظيم جنوبي البحر الميت. وكان حامل اللواء الاسلامي معاوية مؤسس الدولة الاموية فيما بعد. وارتد الروم على غزة فاقتتل الطرفان مرة ثانية في داثن في الرابع من شباط من السنة نفسها واندحر الروم مرة اخرى. امّا الجيوش الثلاثة الاخرى فقد اوقع بها الروم ووقفوا تيار زحفها.

ويرى المستشرق المستعرب كارل بكّر ان نجاح ابي بكر بحروب الردة في قلب الجزيرة العربية قد اكسبه مهابة وعظمة في نفوس عشائر بكر ابن وائل الضاربة عند حدود العراق الغازية في اطرافه وان هذه المهابة جعلت تلك العشائر تصادق من وراءها من العشائر والقبائل الاخرى التي كانت قد اعتنقت الاسلام. ويزيد بكّر ان المثنى ابن حارثة كبير بني شيبان الوائلي الذي اشتهر بانتصاره على الفرس في موقعة ذي قار (٦٠٤ او ٦٠٦) هو الذي استدعى خالداً ابن الوليد وجماعته الى حدود العراق لمحاربة الفرس. ومن الناحية الثانية يرى بكّر ان ابا بكر ومن

١ الطبري، ج ١، ص ١٨٥١.

٢ الطبري، ج ١، ص ٢٠٨٤ — ٢٠٩٠.

حوله اضطروا اضطراراً ان يُلهّوا من اسلم من القبائل العربية بغزو العراق كي لا تعود هذه القبائل الى غزو بعضها كما جرت عادتها من قبل فتنتهك بذلك حرمة الاسلام، والمسلم اخو المسلم. ويرى أيضاً ان خروج العرب المسلمين الى العراق سبق خروجهم الى الشام[1].

«وشجا جموع المسلمين في الشام واشجوا». فكتب ابو بكر الى خالد ابن الوليد ان يؤمّر على العراق المثنى وان يسير الى الشام. فهبّ خالد على رأس جماعته وكانت حروب الردة والعراق قد صهرت جنوده واورثتهم مناعة وقوة. بدأ بالزحف من الحيرة الى صندوداء فلقيه اعرابها فظفر بهم، ثم لقيه جمع بالمصيخ والحصيد عليهم ربيعة ابن بجير التغلبي فهزمهم. ثم سار من قراقر الى سوّى فاغار على اهل سوّى واكتسح اموالهم وقتل حرقرص ابن النعمان البهراني. ثم اتى أرك فصالحوه. وأتى تدمر فتحصنوا ثم صالحوه. ثم اتى القريتين فقاتلهم فظفر بهم. واتى حوّارين فقاتلهم فهزمهم. واتى قصم فصالحه بنو مشجعة من قضاعة. واتى مرج راهط من مضارب الغساسنة قرب عذراء وعلى بعد عشرين كيلومتراً من دمشق فاغار على غسان في يوم فصحهم وقتل وسبى ووجه بعض رجاله الى الغوطة فأتوا كنيسة فسبوا الرجال والنساء وساقوا العيال الى خالد. ونزل على قناة بصرى وعليها ابو عبيدة وشرحبيل ويزيد، فاجتمعوا عليها فرابطوها حتى صالحت على الجزية في اذار من السنة ٦٣٤[2].

وكان عمرو ابن العاص قد سلك طريق أيلة (العقبة) فأغار على جنوبي فلسطين حتى غزة وقيصرية، فقطع المواصلات بين المدينة المقدسة وبين

[1] *Becker, K., Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 337-338.*

[2] الطبري، ج ١، ص ٢١٠٨ – ٢١٠٩ و ٢١٢٥.

الساحل . فجيَّش هرقل جيشاً كبيراً في نقطة وقعت الى جنوبي دمشق وعقد لواءَ هذا الجيش الى اخيه التبقلار ثيودوروس[1]. وصعب على ثيودوروس ان يستجلي خطة خصمه في الحرب . ولعل سبب ذلك ان هذه القبائل المغيرة لم تكن لها خطة عسكرية واضحة . وتقدم ثيودوروس ببطءٍ واتجه جنوباً للدفاع عن المدينة المقدسة ، فرابط في اجنادين بين القدس وغزة . وخشي خالد سوء العاقبة على اخوانه في الجنوب ، وكان مترفعاً نبيلاً ، فلم يَحفِل بامكانات السلب والنهب بل أسرع الى الجنوب عبر شرقي الاردن ، وجمع الجموع في وادي عربة ، ثم دفع بها الى فلسطين لمجابهة ثيودوروس . وفي الثلاثين من تموز سنة ٦٣٤ نشبت معركة حامية بين الروم والعرب المسلمين في اجنادين . وكتب النصر للعرب ، فجلا الروم عن ارياف فلسطين كلها ولم يبقَ لهم فيها سوى مدنها المحصنة[2] . ويستدل من العظة التي القاها صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة يوم عيد الميلاد من هذه السنة ان العرب غشوا فلسطين كلها بعد اجنادين وان الفوضى عمّت الارياف باسرها وانهم تقدموا شمالاً حتى حدود حمص[3] .

عمر الكبير والروم : وتوفي ابو بكر بعد أجنادين وتولى الخلافة عمر ابن الخطاب . وكانت قبائل اليمن وما يليها من الجنوب قد بدأت تسمع بانتصارات خالد وغيره فهبت تلبي النداء بمجموعها رجالاً ونساء واطفالاً . فرأى الخليفة الكبير بثاقب بصره ان لا بد من التنظيم . فوحّد

١ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ . ولعل الاشارة هنا الى اللقب الرومي Curopalates ومعناه قائد قوات القصر جميعا . وظل هذا اللقب مستعملاً عند الروم طوال اربعة قرون من السادس حتى العاشر .

٢ الطبري ، ج ١ ، ص ٢١٢٥ – ٢١٢٦ : « لليلتين بقيتا من جمادى الاولى سنة ١٣ هـ. »

٣ *Becker, K., op. cit., 341-342*

الجيوش ووحّد القيادة وعقد لواءها الى خالد ابن الوليد . وجمع هرقل البقية الباقية من جنوده في دمشق واستدعى اخاه ثيودوروس الى القسطنطينية وأمّر على الجيش في سورية القائد بانس . ورأى هذا القائد ان يصمد في وجه العرب في فِحْل التي كانت تسيطر آنئذٍ على مجاز الاردن في جنوب بحيرة طبريا وتحمي الطريق المؤدية الى دمشق . وهدم بانس سدود المياه ليعرقل سبل الفاتحين . ولكن هؤلاء استولوا على فِحْل بالقوة في الثالث والعشرين من كانون الثاني سنة ٦٣٥ وتابعوا السير الى دمشق . وفي الخامس والعشرين من شباط سجلوا نصراً آخر على جيش الروم في مرج الصُفّر على بعد ثلاثين كيلومتراً من دمشق الى جنوبيها . وفي ظرف اسبوعين من الزمن ظهروا امام اسوار دمشق وضربوا الحصار عليها وشددوه . فتضايق السكان فتآمروا على الجند المدافع فاتصلوا بالعرب . فكتب اليهم خالد يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اعطى خالد ابن الوليد اهل دمشق اذا دخلها اعطاهم اماناً على انفسهم واموالهم وكنائسهم . وسور مدينتهم لا يهدم . ولا يسكن شيئاً من دورهم . لهم بذلك عهد الله وذمة رسوله صلعم والخلفاء والمؤمنين . لا يعرض لهم الا بالخير اذا اعطوا الجزية[١] . »

وفتح الباب الشرقي في آب او ايلول من السنة ٦٣٥ ودخل العرب المسلمون الى دمشق واستولوا عليها وجعلوا الجزية ديناراً وجريباً وهو مكيال من الحنطة على الرجل الواحد . « ثم تساقطت بعد ذلك حمص وبعلبك وحماه وسواها من المدن كتساقط اوراق الخريف[٢] » ، وذلك في

١ البلاذري ، ص ١٢١ .
٢ تاريخ العرب للدكتور فيليب حتي ، ج ١ ، ص ٢٠٤ .

اواخر السنة ٦٣٥ . وخرج اهل شيزر يكفّرون ومعهم المقلّسون فاذعنوا[١] .

وكان هرقل في اثناء هذا كله يسعى بنشاط بين انطاكية والرها لتجييش قوة كبيرة يتمكن بها من صد العرب ، وانقاذ سورية الجنوبية وفلسطين والعربية . وبرغم خسارته الكبيرة في الرجال ابان الحرب الفارسية ، وبرغم قلة المـــال في الخزينة ، فانه حشد في خريف السنة ٦٣٥ من الروم والارمن والعرب حوالى خمسين الفاً . وأمّر عليهم ثيودوروس تريثوريوس وأنفذهم في ربيع السنة ٦٣٦ الى سورية . وكان خالد آنئذٍ في حمص يتفقد الجبهة . فلما علم بقدوم هذا الجيش الكبير جلا عن حمص ودمشق وسائر المدن المجاورة ، وجمع ما لديه من الرجال خمسة وعشرين الفاً ، وانتقى وادي اليرموق ، احد روافد الاردن الشرقية ، فصمد فيه . وقام الروم من حمص عبر البقاع الى جلّين واتخذوها قاعدة لهم . وتنـــاوش الفريقان وتناول بعضهم بعضاً في معارك صغيرة ردحاً من الزمن . وفيما خالد ينتظر وصول المدد ، كان الروم يتخاصمون فيما بينهم بدافع الحسد وقلة الانضباط . فانهزم ثيودوروس في عدد من تلك المناوشات ، فنادى الجند بباانس فسيلفساً . وامتنع حلفاء الروم من العرب عن القتال وانسحبوا من الميدان . فجاءت هذه الفوضى وجاء هذا الانسحاب في مصلحة العرب المسلمين . واغتنم خالد هذه الفرصة السانحة ، فقام بحركة التفاف حول الروم من الشرق فقطع خط اتصالهم بدمشق . ثم احتـــل الجسر فوق وادي الرقاد فحرمهم امكان التراجع غرباً . وفي الثاني والعشرين من آب سنة ٦٣٦ انقضّ عليهم بفرسانه المجربين فقتـــل من قتل وشرّد من شرّد .

١ البلاذري ، ص ١٣١ .

وبذلك انقطع كل امكان للروم بان يصمدوا في سورية . وفي خريف هذه السنة نفسها عاد العرب الى دمشق فدخلوها آمنين . وكان الخليفة أعلم الناس بخالد يقدر مواهبه ويعرف مواضع ضعفه . وكانت الحرب قد تطورت تطوراً كبيراً في مصلحة العرب الفاتحين ولكن ادارة البلدان المفتوحة كانت لا تزال ضعيفة تفتقر الى التنظيم . وكانت ثمة مشاكل ادارية وسياسية . ولم يكن خالد رجل ادارة وسياسة . فرأى عمر ان لابد من وجود والٍ اعلى يمثل الخليفة في الشام ويدير سياستها بحكمة ولباقة. فانتقى لهذا المنصب ابا عبيدة وأرسله الى الشام حاكماً مفوضاً . ووصل ابو عبيدة قبيل موقعة اليرموق ولكنه ابقى القيادة بيد خالد لانه كان اعلم منه بتفاصيل الحرب واقدر عليها . فلما انتهت المعركة تسلم ابو عبيدة مقاليد الامور فوزّع السلطات العسكرية بحكمة ودراية واحتفظ بخالدٍ ملحقاً به . واتجه شمالاً ولم يلقَ مقاومة تذكر قبل قنسرين (خلقيس) ، فدخل بعلبك وحمص وحلب وانطاكية بسهولة[1] .

عودة الروم الى الميدان : وقضى هرقل سنة مستجماً بعيداً عن ميدان القتال . وكانت الجزيرة بين العراق والشام لا تزال خاضعة للروم. فراسلت قبائلها العربية النصرانية هرقل تطلب منه العون على مهاجمة العرب المسلمين . فراسلها بدوره وحضّها على التجمع ريثما تتلقى مدداً يأتيها بحراً من مصر . واقبل هرقل يعد الجيوش مرة اخرى . وجدد الامل بنوع خاص لان معظم ثغور الشام على البحر كانت لا تزال خاضعة له وطريق البحر لا يزال مفتوحاً امامه . وفي السنة ٦٣٨ ابحرت جيوش الروم من الاسكندرية بقيادة قسطنطين ابن هرقل . والقت الحملة مرساها في اللاذقية

١ الطبري ، ج ١ ، ص ٢٣٤٧ وما يليها .

او السويدية وزحفت على انطاكية فاستولت عليها وانضمت الى القبائل العربية النصرانية في الجزيرة[1] . وألفى ابو عبيدة نفسه محصوراً في حمص على حين يسير اعداؤه لمحاربته براً وبحراً . فكتب الى الخليفة في الحجاز يستنجده كما عقد مؤتمراً عسكرياً للتشاور في الوضع الحربي . فاستقر الرأي على التزام التريث والدفاع . ولكن خالداً قال بالمبادرة الى مهاجمة العدو . وأمر الخليفة في الوقت نفسه القعقاع احد قادة المسلمين في العراق ان يتوجه باسرع ما يمكن لامداد ابي عبيدة . وجمع الخليفة النجدات من الجزيرة العربية وسار بنفسه على رأسها متجهاً نحو الشام . وكانت خطة المسلمين فيما يظهر ترمي الى اخراج القبائل العربية النصرانية في الجزيرة من دائرة الدفاع البيزنطي وبذلك يتيسر للعرب المسلمين ان يلاقوا الجيش البيزنطي وحده معزولاً ، فانطلق سهيل ابن علي وعبدالله ابن عتبان للقيام بحركة التفاف حول اراضي الجزيرة بين العراق والشام ومهاجمة قبائلها . وكان لتعجيل المسلمين في ارسال النجدات وسرعة حركاتهم اثر في القاء الرعب في نفوس القبائل في الجزيرة . فتخلت هذه القبائل عن الروم وقفلت راجعة الى مضاربها مؤثرة السلامة[2] . وبادر العرب المسلمون بالهجوم على الروم . فأظهر هؤلاء بأساً كان كفيلاً بصد المسلمين العرب لو ظلت القبائل النصرانية على تعضيدهم ومساعدتهم . ولكن مقاومة الروم انهارت وانسحبوا بحراً الى الاسكندرية والقسطنطينية[3] .

عرب الشام والعرب الفاتحون : وتحفظ لنا المراجع العربية اسماء

١ *Caussin de Parceval, Essai sur l'Hist. des Arabes, III, 512.*

٢ الكامل لابن الاثير ، ج ٢ ، ص ٢٢٤ .

٣ مأخوذ بتصرف عن كتاب الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية للدكتور احمد العدوي ، ص ٤٢ – ٤٤ .

بعض القبائل العربية التي كانت ضاربة في بادية الشام وفي الارياف عند فجر الاسلام. وليس في هذه المصادر ما ينبىء بتأييد هذه القبائل لاخوانهم العرب الفاتحين[1]. وقبائل البادية لم تذعن لخالد ابن الوليد الا مكرهة. والغساسنة اعتدوا على رسول الرسول. وغسان وقضاعة وقفوا الى جانب الروم في اليرموق. وهرقل «نزل انطاكية ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلى وعاملة»، وبعض هذه القبائل «مضى مع هرقل الى بلاد الروم بعد ان استتب الامر للمسلمين في الشام[2].»

نصارى الشام والعرب: ويرى عدد من المستشرقين المستعربين ومن رجال الاختصاص في تاريخ الروم ان اختلاف النصارى حول الطبيعة الواحدة والمشيئة الواحدة وضغط الروم على من لم يشاركهم قولهم في العقيدة قد حمل قسماً كبيراً من نصارى الشام على الترحيب بالعرب الفاتحين. ويغيب عن بال هؤلاء ان هذه القبائل العربية التي وقفت الى جانب هرقل في وجه العرب الفاتحين كانت درع من قال بالطبيعة الواحدة وان هرقل كان قد ثبّت في رئاسة الكنيسة الانطاكية بطريركاً قال بالطبيعة الواحدة هو اثناسيوس المشار اليه في الفصل السابق وان بابا رومة اونوريوس وجميع البطاركة ما عدا صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة كانوا قد وافقوا هرقل على القول بالمشيئة الواحدة او سكتوا عن ذلك. فلا يجوز بازاء هذه الحقائق الناصعة ان نتقبل قول افتيخيوس ان ابناء حمص رأوا في هرقل امبراطوراً «مارونياً» عدواً للدين القويم لانه قال بالمشيئة الواحدة[3]. ولا ان نتبنى قول البلاذري بان نصارى الشام آثروا عدل

١ حركة الفتح الاسلامي للدكتور شكري فيصل، ص ٢٦ – ٢٩.

٢ الطبري، ج ١، ص ٢٣٤٧.

٣ *Corpus Script. Christ. Orientalem, Scriptorum Arabici, II, 5, I, 4: Patrologia Graeca, CIX, 1088.*

المسلمين العرب على استبداد الروم واهانتهم[1] لان الشهادتين بحاجة الى الجرح والتعديل. فالشاهد الاول دوّن في القرن العاشر، والثاني في القرن التاسع، والحوادث المروية جرت في القرن السابع. وكذلك فان القولين صدرا في وقت كان النصارى فيه بحاجة الى الملاطفة والمداهنة والتملق. ونرى ايضاً ان المستشرق المستعرب ده غويه يَضِل[2] فيعدل عن الحق عندما يرى في حروب الفتح محاولة لتحرير عرب الشام من ظلم الروم واضطهادهم[3].

لماذا خسر الروم: ونحن نرى ان حروب الفتح في الشام كانت في نظر الروم وعرب الشام حروباً دينية سياسية قبل كل شيء، وان نصارى الشام من الروم والعرب والسريان وقفوا الى جانب الروم قدر المستطاع، وان الروم لم يتمكنوا من صد الهجوم العربي الاسلامي لان الحرب الفارسية كانت قد استنفدت قواهم في المال وفي الرجال. ومن هنا اهمال الحصون، وابطال الجراية التي كانت توزع على قبائل الحدود، ومن هنا ايضاً قلة الانضباط وكثرة التمرد والفوضى.

عمرو وفتح مصر: وجاءت حركة هرقل الاخيرة في انطاكية وشمالي سورية حافزاً قوياً حمل قادة العرب المسلمين على اعادة النظر في الموقف الحربي. فعقد الخليفة مؤتمراً في الجابية درس فيه الموقف مع قادة جيوشه، وكانت مصر هي القاعدة التي انسحب اليها الارطبون Areteon. «وكان الارطبون ادهى الروم وابعدهم غدراً.» ولعله رأى ان التجمع في منطقة آمنة

١ *Liber Expugnationum Regionum*, ed. De Goeje, 137 ; Barthold, *Transactions of the Oriental College*, I, (1925), 468.

٢ De Goeje, *Mémoire sur la Conquête de la Syrie*, I.

٣ Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 208-209.

يشنُّ منها هجوما جديداً على العرب المسلمين اجدى من البقاء في الشام. ولذا تراجع عن فلسطين وذهب الى مصر. وكانت مصر ايضاً القاعدة التي انطلقت منها حملة قسطنطين ابن هرقل على انطاكية. وكان البحر لا يزال في ايدي الروم يمدون منه قيصرية فلسطين بالمؤن والذخائر والرجال. وكانت قيصرية لا تزال صامدة في وجه عمرو ابن العاص[1]. فهي لم تسقط في ايدي العرب المسلمين قبل السنة ٦٤٠. وكانت مصر تُطل على الحجاز، على مكة والمدينة. وقد ينطلق الروم منها الى الحجاز مباشرة فيصيبون الحركة الاسلامية في منابعها الرئيسة. وكانت مصر ايضاً لا تزال اهراءَ القسطنطينية ومركز تموينها. وجاءَ في كتاب فتح مصر لابن عبد الحكم ان عمرو ابن العاص كتب الى عمر يقول: «إنّ فتحنها كانت قوة للمسلمين وعوناً لهم، وهي اكثر الارض اموالاً[2].» ولا بد من ان يكون قد شارك عمرو في رأيه هذا رجال الثروة والمال في مكة. فطبيعي ان يكون هؤلاء قد لمسوا عظمة التجارة بين الشرق والغرب، تلك التجارة التي كانت تمر عبر مصر ولبنان وسورية، وبعضها كان يمر بين ايدي الاثرياء المكيين قادماً من الجنوب ليبلغ الى ساحل مصر وفلسطين. وليس من المستبعد ان يكون عمرو ابن العاص، وعثمان ابن عفان، والمغيرة ابن شعبة، وغيرهم من تجار مكة قد زاروا مصر قبل الاسلام، وشاهدوا بأم العين اتساع الحركة التجارية فيها كما جاءَ في اخبار ابن عبد الحكم واخبار السيوطي[3]. ويرى المستشرق المستعرب فيات Wiet ان مدينة قفط في الصعيد كانت قد اصبحت نصف عربية

١ *De Goeje, Mémoire, op. cit., 167.*
٢ ص ٤٩ – ٥١.
٣ حسن المحاضرة، ج ١، ص ٩٢ و ٩٩.

قبل الاسلام[١].

وهكذا فان الدوافع التي حملت الخليفة عمر في مؤتمر الجابية ان يمنح عمراً سلطة فتح مصر كانت دوافع جوهرية . ولم يكن هذا الخليفة الكبير مغامراً . فانه عرف بحبه للتأني ، وحرصه على ان لا يعرّض قواته للخطر. ولهذا يجب اعادة النظر في الكتاب الذي قيل انه ارسله الى عمرو ، وعمرو في طريقه الى مصر ، يأمره فيه بالعودة ان لم يكن قد وصل الى مصر او بالسير قدماً في وجهته ان كان قد دخل الارض المصرية عند تسلمه الكتاب . فهذا قول لا تشجع الحوادث على قبوله ولا يتفق وما عرف من كياسة عمر الخليفة الكبير[٢] .

وسار عمرو ابن العاص من قيصرية فلسطين الى مصر في كانون الاول من السنة ٦٣٩ على رأس بضعة آلاف مقاتل . فلقي مقاومة في الفرما Pelusium شرقيّ بور سعيد اوقفته شهراً كاملاً . ثم تغلب عليها في اوائل السنة ٦٤٠ ، وتقدم منها الى بلبيس فأمّ دنين Tendounya . فتحصن الروم في حصن بابيلون على رأس الدلتا . وعسكر العرب في عين الشمس Heliopolis. واشتدت مقاومة الروم برئاسة البطريرك كيروس (المقوقس) وقيادة ثيودوروس اخي الفسيلفس . واستنجد عمرو الخليفة فأمده ببضعة آلاف رجل بقيادة الزبير ابن العوّام . وبرغم تضاعف القوة فان العرب المسلمين لم يقدروا على مهاجمة الحصن لانه كان منيعاً ، ولانهم كانوا في فقر الى ادوات الحصار . فاكتفوا بسد المنافذ على الحصن . وطال الحصار بضعة

١ الموسوعة الاسلامية ، المقال « قبط » .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٤٧ — ٤٨ . راجع ايضاً حركة الفتح الاسلامي ، للدكتور شكري فيصل ، ص ٨٥ — ٨٦ ، ومصر في فجر الاسلام ، للسيدة اسماعيل كاشف ، ص ٨ — ١٠ .

اشهر، وكانت مفـــاوضات بين كيروس وعمرو . وسافر كيروس الى القسطنطينية ليعرض نتيجة هذه المفاوضات على الفسيلفس . فاتهمه هـــذا بالخيانة ونفاه . وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ ، فانبعثت اختلافات داخلية قديمة حالت دون ارسال المدد الى حصن بابيلون ، فدخله العرب في السادس من نيسان من هذه السنة نفسها[١].

وبسقوط حصن بابيلون مفتاح مصر السفلى والعليـــا انتشر العرب في ريف مصر السفلى . وتجمعت حاميـات الروم بالاسكندرية . فسار عمرو ابن العاص لمحاصرتها . وكانت حصونها منيعة تحميها غياض وبحيرات . وكان البحر لا يزال بيد الروم فكان يأتيها منه المدد ، فطـــال امر حصارها . وخلف هرقل ابنه قسطنطين الثالث ، وكان لا يزال حدثاً وشاركته والدته مرتينة في الحكم . وكثرت القلاقل في عاصمة الروم ، واستفحـــل امر اللومباردين في ايطـالية . فأعادت مرتينـــة البطريرك كيروس الى الاسكندرية ليفاوض العرب في الصلح . فلما بلغها سار تواً الى بابيلون وفاوض عمرو ابن العـاص ، فانتهى الامر بينهما الى صلح الاسكندرية في الثامن من تشرين الثاني سنة ٦٤١ . وابرز شروط هذا الصلح الجزية لمن بقي في مصر ، والامن لمن رحل عنها ، والهدنة احد عشر شهراً ليتسنى للجيش ولغيره من المدنيين الرحيل[٢] .

موقف الاقباط من العرب الفاتحين : ويختلف المؤرخون المحدثون

---

١ *Nikiou, Jean, Chronique, 557.*
البلاذري ، ص ٢١٣ - ٢١٥ . وابن عبد الحكم ، ص ٥٦ وما يليها . والاسقف حنا النقيوسي اقرب الرواة للحوادث ، فانه من اعيان القرن السابع للميلاد .

٢ حولية النقيوسي ، ص ٥٧٥ .

في هذا . فبتلر صاحب كتاب فتح العرب لمصر[1] يرى ان الاسلام لم يدخل مصر من غير حرب وان القبط لم يرحبوا بالفتح العربي . وينبري للرد عليه نفر من المؤرخين نذكر منهم الدكتور شكري فيصل الاستاذ في الجامعة السورية . فهو يرى ان المتقدمين من مؤرخي الاسلام يذكرون في مواقف كثيرة ان الاقباط كانوا عوناً للمسلمين في فتوحهم وان من يتتبع هذه النصوص الاولية يخرج بفكرة ان ميول القبط لم تكن على الاقل معادية لحركة الاسلامية وان الاضطهاد الذي حل بالاقباط في السنوات العشر التي قضاها المقوقس (البطريرك كيروس) على رأس الادارة المدنية والدينية في مصر قد دفع الأقباط ان يستشرفوا في حركة الفتح العربي نوعاً من الانقاذ[2] . وقد فات حضرة الزميل المؤرخ انه لما وصل كيروس الى الاسكندرية وتبوأ العرش البطريركي فيها كتب اعترافاً بايمانه بالمشيئة الواحدة ودعا من قال بالطبيعة الواحدة من الاقباط في مصر للموافقة عليه فقبله الساويريون فوراً فلاينهم البطريرك ، ورفضه اليوليانيون فضيّق عليهم[3] . وفاته ايضاً ان شهادة الاسقف يوحنا النقيوسي اقرب في الزمن الى الحوادث المروية من شهادات المراجع الاسلامية العربية[4] . وقد تكون الحقيقة التاريخية المنشودة وسطاً بين القولين ، اي ان معظم الاقباط وقفوا الى جانب النصرانية والروم وان بعضهم اي اليوليانيين رحبوا

١ *Butler, A. J., Arab Conquest of Eg.*
وقد نقله الى العربية الاستاذ محمد فريد ابو حديد بعنوان فتح العرب لمصر ، القاهرة ١٩٣٣ .

٢ حركة الفتح الاسلامي ، ص ١٠٣ – ١٠٨ .

٣ جراسيموس ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٣٢ .

٤ حركة الفتح الاسلامي ايضاً ، ص ١٠٩ ، هامش .

بالعرب المسلمين . هذا وقواعد المصطلح تقضي بالابتعاد عن التعميم في امور تشمل الالوف ومئات الالوف من الناس[1] .

١ كتابنا المصطلح : الاجتهاد ، ١٨٩ - ١٩٦ .

الفصل السادس عشر

خلفاء هرقل

(٦٤١ - ٧١٧)

مرتينة : وتوفي هرقل في الحادي عشر من شباط سنة ٦٤١ وتولى العرش بعده في آن واحد كلٌ من ولديه قسطنطين الثاني وهرقلون على ان يحكما باشراف القسيلسة مرتينة زوجة هرقل الثانية ووالدة هرقلون . ولكن الشعب لم يرضَ ان تتولى اموره امرأة فأضطرت مرتينة ان تحتجب شكلاً وان تدير دفة الحكم بالتعاون مع البطريرك بيرُوس[١] . وتوفي قسطنطين الثاني في اواخر ايار من السنة ٦٤١ مسموماً ، فاتهمت مرتينة بقتل ابن ضرّتها لكي يستأثر ابنها هرقلون وحده بالحكم . وتمرد الجند في آسية الصغرى بزعامة احد اخصاء قسطنطين في تشرين الاول من السنة نفسها وزحفوا على خلقيدونية واكرهوا مرتينة على اشراك قسطنطين الثالث ابن قسطنطين الثاني في الحكم . واستقال البطريرك بيرُوس . ونشبت ثورة في العاصمة في مطلع السنة ٦٤٢ لا تزال اسبابها مجهولة ، فقُطع لسان مرتينة وجُدع انف هرقلون ونُفيا الى رودوس ، وتولى الحكم قسطنطين الثالث وهو بعدُ في الحادية عشرة من عمره .

١ *Nicephorus, Bib. Script. Graec. et Latin., 31-32.*

قسطنطين الثالث : (٦٤١ – ٦٦٨) ويدعى قسطنس الثاني ايضاً . وقد عمل على استرداد مصر والشام . وانفذ في اواخر السنة ٦٤٥ حملة على مصر بقيادة مانويل . فجاءَت مفاجأة للعرب المسلمين . وسقطت الاسكندرية في يد الروم واتخذها مانويل قاعدة للتوغل في وادي النيل . وتغلغل في الدلتا وكاد يكتسح الموقف . ولكن الخليفة عثمان ابن عفان أعاد عمرو ابن العاص الى قيادة الجيش العربي الاسلامي في مصر . فانزل عمرو بخصمه مانويل هزيمةً شنعاء عند نيقيوس . فتقهقر مانويل الى الاسكندرية واعتصم بها . وتبعه عمرو ابن العاص لحصارها وتمكن من الدخول اليها بخيانة احد حراسها فافتتحها في اوائل السنة ٦٤٦ . وجاءَ في المواعظ للمقريزي ان عمراً اقسم ان هو استولى عليها ان يهدم اسوارها ويجعلها كبيت الزانية يؤتى من كل مكان[١] . وكان قسطنطين الثالث قد أنفذ في الوقت نفسه حملة ثانية لمهاجمة الشام . فمنيت بدورها بالفشل. وكان الذي صدّها معاوية[٢]. ورأى عثمان ابن عفان وحكومته ان لا بد بعد هذا من انشاء اسطول لرد هجمات الروم في البحر . وكانت احواض الروم في الاسكندرية وعكة قد وقعت سالمة في يد العرب الفاتحين . فأنشأ عثمان فيها اول اسطول عربي . ولعله استعان باخشاب لبنان ولاسيما حرج بيروت وبحارة الساحل اللبناني وساحل مصر[٣] . واستهل نشاطه البحري بهجوم على قبرص في السنة ٦٤٩ وباحتلال جزيرة ارواد في السنة ٦٥٠ . ويرى الزميل الدكتور ابراهيم احمد العدوي بحقٍ ان احتلال العرب لقبرص لم

١ ج ١ ، ص ١٦٧ . راجع ايضاً ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، تحت اخبار السنة ٢٥ .

٢ الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، للدكتور ابراهيم العدوي ، ص ٥٢ – ٥٣ .

Bury, J. B., op. cit., II, 288.

٣ *Becker, K., Expansion of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 352-353*

يكن دائماً وانما توالى الاخذ والرد على هذه الجزيرة بينهم وبين الروم[1]. وجهّز قسطنطين الثالث عمارة بحرية كبيرة وقادها بنفسه في السنة ٦٥٥ للقضاء على استعدادات العرب البحرية. فكانت موقعة بحرية كبيرة عند فونكس قرب شاطىء ليقية في آسية الصغرى دعاها العرب معركة ذات الصواري لكثرة السفن ذوات الصواري فيها، وقد وفق فيها العرب الى نصر حاسم[2]. ثم كانت الفتنة التي قتل فيها عثمان سنة ٦٥٦، ونشبت حرب اهلية في صفوف العرب المسلمين، فقُدّر لرمال الصحراء الافريقية ولجبال طوروس ان تقف سنوات حداً فاصلاً بين العرب والروم.

وانتهز قسطنطين الثالث هذه الفترة من الهدوء في الخارج لاعادة النظر في ادارة الدولة، فادخل بعض التعديلات التي سينظر فيها في فصل لاحق. وفي هذه الفترة ايضاً عالج مشكلة المشيئة الواحدة. وكان جده هرقل، كما تقدم معنا، قد بدأ منذ السنة ٦٢٢ يفاوض في امر المشيئة الواحدة. وكان قد اجمع على القول بها منذ السنة ٦٢٩ جميع البطاركة وبينهم البابا اونوريوس. وكان هرقل قد أصدر في السنة ٦٣٨ دستور ايمان رسمي عرف بالاكثيسيس أوجب به قبول المشيئة الواحدة. وكان البطريرك بيرّوس قد استعفى على اثر هياج الشعب في العاصمة ضد الفسيلسة مرتينة وربيبته وهاجر الى افريقية. وكان قد قام بينه وبين مكسيموس جدال حول المشيئة الواحدة انتهى باقتناع بيروس سنة ٦٤٥ ورجوعه عن هذه البدعة.

وكان بيروس قد كتب الى بولس الثاني خليفته على عرش كنيسة القسطنطينية يهدده بالقطع ان لم يرجع عن الهرطقة ويرفع الاكثيسيس عن ابواب

١ الكامل لابن الاثير، ج ٣، ص ٤٠.
٢ ابن عبد الحكم، ص ١٩٠ و١٩١.

الكنائس . وكان بيروس ومكسيموس قد رحلا معاً الى رومة فايدهما البابا ثيودوروس الاول (٦٤٢ – ٦٤٩) . فألغى قسطنطين الثالث الاكثيسيس واصدر التيبوس Typon محظراً به كل تعليم بالمشيئة الواحدة او المشيئتين . ثم كان ان تبوأ عرش كنيسة رومة في السنة ٦٤٩ البابا مرتينوس الاول (٦٤٩ – ٦٥٥) فعقد مجمعاً حرّم فيه الاكثيسيس والتيبوس ، وطلب الى الفسيلفس ان يعزل البطريرك بولس الثاني ويقيم غيره ارثوذكسياً . فاستعظم قسطنطين الثالث هذا الطلب وقبض على البابا وقيده بالسلاسل هو ومكسيموس وحكم عليهما بالعصيان . وتوفي البابا في المنفى بعد شدائد قاسية . وحاول قسطنطين الثالث ان يكره مكسيموس على القول بالتيبوس فلم يفعل . فغضب عليه وأمر بجلده ثم بقطع لسانه ويمينه ، فمات في السنة ٦٦٢ . اما بيروس فانه بعد ان رفض بدعته عاد الى القول بها . ثم رجع الى القسطنطينية فنصب بطريركاً للمرة الثانية بعد وفاة بولس الثاني ، ولكنه ما لبث ان توفي بعد خمسة اشهر سنة ٦٥٢ .

وأساءَ قسطنطين الثالث الظن باخيه ثيودوسيوس فألبسه ثوب الرهبنة ثم قتله . فثار به ضميره وأصبح اخوه يتراءى له حاملاً كأساً من دمه ويقول له : « يا اخي اشرب » . فكره الاقامة في المدينة التي ارتكب فيها اثمه ونزح عنها . وفي السنة ٦٦٢ ذهب الى رومة فاستقبله فيها البابا ويتاليانوس بالحفاوة والاكرام . واغتاظ الشعب في القسطنطينية لسفره وتغيبه ولم يرضَ ان يتبعه في السفر زوجته واولاده . ثم بعد ست سنوات ضربه خادم حمامه في سرقوصة بصندوق من الصابون على رأسه فتوفي في السنة ٦٦٨ .

قسطنطين الرابع : (٦٦٨ – ٦٨٥) وفي اثناء غياب قسطنطين الثالث في ايطالية وصقلية كان ابنه قسطنطين الرابع يسوس الملك وهو

بَعدُ فتى . فلما علم بقتل والده ونشوب الثورة في صقلية نهض اليها فاخذ بالثأر وعاد والشعر قد نبت في وجهه فلقب بالالحى Pogonatus .

ولما كانت الغاية التي من اجلها صدر الاينيتكون « كتاب الاتحاد » في عهد زينون (٤٧٤ – ٤٩١) وتبعته الفصول الثلاثة في عهد يوستنيانوس (٥٢٧ – ٥٦٥) ، ثم صدر الاكتيسيس في عهد هرقل (٦١٠ - ٦٤١) ، والتيبوس في عهد قسطنطين الثالث (٦٤١ – ٦٦٨) - لما كانت الغاية من هذه النشرات كلها قد زالت بدخول الولايات السورية والمصرية والارمنية في حكم العرب المسلمين ، ولم يبقَ ثمة موجب سياسي للتساهل في أمر العقيدة ، فان قسطنطين الرابع اخذ يسعى لاستمالة اساطين الكنيسة الأم الكاثوليكية الارثوذكسية . فمنح بادىء ذي بدء بابا رومة سلطة على متروبوليت رابينة . وعزل في السنة ٦٧٨ البطريرك ثيودوروس عن عرش كنيسة القسطنطينية وأقام جاورجيوس بطريركاً محله . وأعلن عزمه على عقد مجمع لملافاة الانشقاق . وكتب الى بابا رومة والى سائر الاساقفة يدعوهم اليه . فلما تلقى البابا اغاثون كتاب الفيلفس عقد مجمعاً محلياً سنة ٦٧٩ أيد فيه قرار البابا مرتينوس وانتخب القسين ثيودوروس وجاورجيوس والشماس يوحنا نواباً عنه وارسلهم الى القسطنطينية حاملين الوثائق اللازمة .

المجمع المسكوني السادس : وفي السنة ٦٨٠ عقد في القسطنطينية المجمع المسكوني السادس ، وكان موضع انعقاده قاعة البلاط المقدس ، وهي القاعة التي تدعى اطرولّوس Trollus ، اي قاعة القبة . واشترك في اعمال المجمع ١٧٠ اسقفاً في طليعتهم البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ، والمتروبوليت اسطفانوس رئيس اساقفة هرقلية ، والمتروبوليت يوحنا رئيس اساقفة آثينة ، وثلاثتهم من علماء عصرهم المشاهير . وجلس الفيلفس في صدر المجمع يحيط به مجلس قضاة الدولة ، والى يمينه البطريرك القسطنطيني جاورجيوس ، فالبطريرك الانطاكي مكاريوس ، فنائب بطريرك الاسكندرية .

والى يساره نواب بابا رومة فنائب بطريرك المدينة المقدسة ، ووضع الانجيل المقدس في الوسط . وقام نواب البابا فقالوا : « اننا بحسب المرسوم الصادر عن دولتكم التي اقامها الله الى بابانا الجزيل القداسة قد جئنا من قبل البابا ومعنا منه معروض ومعروض آخر مجمعي من الاساقفة الخاضعين له . وقد سلمنا المعروضين الى دولتكم ذات المقام السامي . » ثم شكوا الهرطقة ومخترعيها والبطاركة سرجيوس وبيروس وبطرس وكيروس وغيرهم وقالوا: « نناشد رجال كنيسة القسطنطينية الجزيلة القداسة ونسألهم متى واين وجد هذا التعليم الجديد ؟ » فأجابهم مكاريوس بطريرك انطاكية نصير القول بالمشيئة الواحدة : « انه موجود في مجامع اشهر الآباء وبطاركة القسطنطينية . » فطلب الفيلفس البيّنة فأحضرت اعمال المجامع وقرئت في الجلسات الخمس التالية . فوجدت رسالة مزورة عن لسان البطريرك ميناس الى البابا فيجيليوس استند اليها مكاريوس . فقاومه نواب رومة ، فثبت فسادها وفساد عبارات كثيرة نسبت الى الآباء مبتورة محرّفة . وفي الجلسة السابعة تقدم الرومانيون ببيّناتهم . وفي الثامنة اعترف بصحة هذه البينات جاورجيوس بطريرك القسطنطينية . ثم طلب الى مكاريوس البطريرك الانطاكي واساقفته ان يوافقوا . فوافق الاساقفة ولكن مكاريوس اعترف بمشيئتين وانكر الفعلين « مفضلاً الموت متقطّعاً او غريقاً على الموافقة . » فقطع من درجته في الجلسة التاسعة ونفي . وفي الثالثة عشرة حكم بالحرم على سرجيوس وبيروس وبطرس وبولس بطاركة القسطنطينية وعلى كيروس بطريرك الاسكندرية وعلى اونوريوس بابا رومة . وفي السابعة عشرة صدّق على اعمال المجامع المسكونية السابقة . وفي الثامنة عشرة في ١٦ ايلول سنة ٦٨١ تليت شهادة اقرها المجمع : « بمسيح وابن ورب ووحيد واحد هو نفسه بطبيعتين واقنوم وشخص واحد وبمشيئتين وطبيعتين وفعلين طبيعيين بلا

انقسام ولا تغيير ولا تجزؤ ولا اختلاط[1].»

قسطنطين والعرب : وكانت الاضطرابات الداخلية التي نجمت في الدولة العربية الاسلامية عن مقتل عثمان ابن عفان قد انتهت . فاستتب الامر لمعاوية ابن ابي سفيان (٦٦١ – ٦٨٠) . ومعنى هذا في رأينا ان الأمر استتب لتجار قريش اولئك الذين قدروا عظمة التجارة التي كانت تربط حوض المتوسط بالشرق الاقصى . فكان بالتالي طبيعياً ان يدركوا مبلغ الخسارة التي حلّت باللبنانيين والسوريين والمصريين من جراء ما سبب لهم الفتح العربي من انقطاع عن اسواقهم في آسية الصغرى والبلقان واليونان وايطالية وفرنسة واسبانية والمانية وبريطانية . وهكذا لم يروا بدّاً من متابعة الحرب ضد الروم ودفعها الى نتيجة حاسمة[2] . وكان معاوية ومن حوله يعلمون علم يقينٍ ان رغبة الروم في العودة الى القتال لم تنتهِ . وقد اغتنم قسطنطين الثالث فرصة انشغال معاوية بالمشاكل الداخلية فدس الى جبال الساحل السوري اللبناني بضعة آلاف من المردة يغيرون منها على الحواضر والارياف فيهددون سيادة العرب في الشام ويعيثون في البلاد فساداً . وكان معاوية قد صالح قسطنطين هذا على مال يؤديه له كل سنة شرط ان يقطع قسطنطين الاعانة عن المردة[3] .

ولكن قسطنطين الثالث اغتيل سنة ٦٦٨ في سرقوصة . وفي سرقوصة هذه أعلن مزيزيوس Mizizios رغبته في العرش وثار سابوريوس Saborios القائد في ارمينية . واعتلى اريكة الملك في القسطنطينية فتى يافعٌ . وتمرّد

١ Mansi, *Amplissima Collectio Conciliorum*, XI, 629-640 ; Brooks, E. W , *Successors of Heraclius*, *Cam. Med. Hist*, 400-405.
جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤٢ .

٢ Lewis, A. R., *Naval Power and Trade in the Mediterranean*, 54-55.

٣ البلاذري ، فتوح البلدان ، ص ١٥٩ . *Theophanes, Chronographia*, 347

الجند مطالبين بحق هرقل وطيباريوس شقيقي قسطنطين الرابع في الملك. واستنجد سابوريوس بالعرب. فرأى معاوية والحالة هذه ان الفرصة سانحة لضرب الروم ضربة قاضية يستولي بها على القسطنطينية نفسها. وكان قد احتاط لامر المردة فاستقدم عدداً كبيراً من الفرس واسكنهم مدن الساحل اللبناني - عكة وصيدا وبيروت وجبيل وطرابلس - واتبعهم في السنة ٦٦٩ غيرهم من اهل العراق[١]. وكان معاوية قد عني ايضاً بترميم الحصون الساحلية مع ما فيها أسوار الاسكندرية. واذا به يقوم بمناورة عسكرية بحرية وبرية في الغرب ليضلل خصمه. فيغزو صقلية في السنة ٦٦٩ وينفذ عقبة في السنة ٦٧٠ الى حدود ولاية افريقية. ولكنه في الوقت نفسه عمد الى سبر غور الدفاع البيزنطي في قبدوقية في السنة ٦٦٩[٢]. فاذا بطلائع جيشه تصل الى القسطنطينية. وكان بطل هذه الحملة ابا ايوب الانصاري وقد توفي في اثنائها ودفن خارج اسوار عاصمة الروم. اما قائد الحملة فكان فضلة ابن عبيد الانصاري يؤيده يزيد ابن معاوية.

ومن طريف الاخبار التي اقترنت بهذه الحملة ما نقل عن بنت ملك الروم وبنت جبلة ابن الايهم الغساني. فقد روي ان بنت ملك الروم كانت اذا رجحت كفة قومها تقيم الزينة على قصرها في العاصمة. وكانت بنت جبلة تقيم الزينة على قصرها اذا رجحت كفة العرب. وهذا ما رغّب يزيد ابن ابي سفيان في فتح المدينة للحصول على بنت جبلة.

وفي ربيع السنة ٦٧٣ وصلت عمارة عربية اسلامية كبيرة الى مياه القسطنطينية تحاصر عاصمة الروم من البحر وتحاول انزال الجنود اليها. فصدتها مراكب الروم. وفي الخريف عادت هذه العمارة الى شبه جزيرة

١ الأعلاق النفيسة لابن رستة، ص ٣٢٧. والبلاذري ايضاً.

٢ *Theophanes, op. cit., 532-533.*

كيزيكوس لتمضي فصل الشتاء ولتتلقى المؤن والذخائر من الساحل السوري اللبناني . وفي الربيع التالي استأنف المسلمون الحصار فارتدوا ثانية. فعادوا يصرفون الشتاء في كيزيكوس . وظلوا كذلك حتى المرة الرابعة. واستعمل الروم في هذا الحصار الذي دام اربع سنوات (٦٧٣ – ٦٧٧) سلاحاً جديداً اعده مهندس لبناني كان قد فرّ من بلده بعلبك عند دخول العرب المسلمين اليها ، وهو كالينيكوس الشهير . واختراع كالينيكوس هذا الذي نشر الذعر في صفوف العرب المسلمين كان عبارة عن حراريق نارية مركبة من النفط والقطران والكبريت وغيرها من المواد السريعة الاشتعال اذا صبّت على جيش أحرقته وان سقطت في الماء لم تنطفىء . وقد دعاها الروم آنئذٍ النار البحرية ، ثم سميت فيما بعد النار الاغريقية[١] . واستخدم الروم جنودهم واصدقاءهم في جبال طوروس والامانوس ولبنان للقيام بغارات جريئة في بلاد الشام نفسها تعرقل اعمال التموين وتهدد العاصمة العربية نفسها[٢] . وجاءت السنة ٦٧٧ فاذا بالعرب يعودون الى الحصار . فانطلقت لصدهم مراكب النار البحرية فأحرقت عدداً كبيراً من مراكب العرب . فاضطر ما بقي من العمارة العربية للعودة الى قواعده في الشام . وهبّت عاصفة هوجاء حطمت قسماً آخر ، وطارد البيزنطيون البقية الباقية فغنموا معظمها[٣] . وفي السنة ٦٧٨ فاوض معاوية الروم في الصلح فأقروه

١ *Zenghlis, C., Le Feu Grégeois, Byzantion, 1932, 265 288 ; Schlumberger, G., Un Empereur Byzantin, 53 ff.*

٢ *Theophanes, Chron., 356 ; Lammens, H., Moawia, 18-20.*

٣ *Canard, M., Expéditions des Arabes Contre Constantinople. Journal Asiatique, (1925-26), 77-80.*

الدكتور ابراهيم احمد العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٦ – ٥٨ .

عليه لثلاثين سنة شرط ان يدفع لهم ثلاثة آلاف قطعة من الذهب وخمسين عبداً وخمسين جواداً عربياً عن كل سنة فقبل[1]. « فأصبح اسم قسطنطين الرابع محط احترام القبائل البربرية الضاربة في الاراضي المحيطة بدولة الروم، وارسلت هذه القبائل تخطب وده. ورأت الدول الاخرى في غرب اوروبة ان رومة الجديدة لم تقل في عظمتها واهميتها عن رومة القديمة الخالدة[2]. »

وغامر عقبة ابن نافع في هذه الآونة في افريقية الشمالية فبلغ طنجة « وجوّل لا يعرض له احد ولا يقاتله[3]. »، وأوطأ فرسه الماء حتى بلغ الماءُ صدره وقال: « اللهم اشهد اني قد بلغت المجهود ولولا هذا البحر لمضيت في البلاد اقاتل من كفر بك حتى لا يُعبد احدٌ من دونك[4] ». وكان قد اهمل امر المدن المحصنة على ساحل البحر، فتناول رجالها المدد من الروم بعد ان حُطّم الاسطول العربي. وتفاهموا وكُسَيلة احد زعماء البربر، وعرضوا لعقبة في مكان يقال له تهوذة في الجزائر في السنة ٦٨٣ فقتلوا عقبة ومن كان معه[5]. واستغلّ كُسَيلة نصره ودخل القيروان فأقام بها الى ان قوي امر عبد الملك ابن مروان[6].

وتوفي يزيد ابن معاوية في السنة ٦٨٣ وتولى الخلافة بعده ابنه معاوية الثاني. ورأى هذا انه ليس باهلٍ للخلافة فخلع منها نفسه ولم يعين له خليفة. فعادت الأمور الى ما كانت عليه قبل ثلاث سنوات عندما توفي معاوية

١ *Theophanes, Chron., 356.*
٢ الدكتور ابراهيم العدوي: المرجع نفسه، ص ٥٨ – ٥٩.
٣ ابن عبد الحكم، ص ١٩٨.
٤ المالكي، رياض النفوس، ٢٥.
٥ ابن عبد الحكم، ص ١٩٨.
٦ ابن الاثير، ج ٤، ص ٩١.

الاول . وتبوأ العرش مروان ابن الحكم والاعداء له بالمرصاد . وكان رجلاً طاعناً في السن . وكان قسطنطين الرابع قد استغل مشاكل يزيد فأكرهه على الخروج من قبرص . وجاءَت مشاكل معاوية الثاني ومروان فزحفت جيوش قسطنطين عبر الحدود الجنوبية فدكت حصون ملاطية وأجلت العرب عن جرمانية (مرعش) (٦٨٣) . وتوفي مروان فاضطر ابنه وخليفته عبد الملك ان يفاوض الروم وان يدفع مالاً سنوياً اكثر مما كان العرب يدفعون من قبل . وتم الصلح على هذا الشرط في السابع من تموز سنة ٦٨٥[١] .

يوستنيانوس الثاني : (٦٨٥ - ٦٩٥) وتوفي قسطنطين الرابع بداء الزحار في اول ايلول من السنة ٦٨٥ . وتولى العرش بعده ابنه يوستنيانوس الاشرم[٢] ، وكان لا يزال في السادسة عشرة من عمره . وكان كأبيه وجده ذكياً شجاعاً نشيطاً . وكان طموحاً مشبعاً بحب العظمة والمجد، فأراد ان يحتذي مثال سميه يوستنيانوس الكبير . ولكنه كسائر افراد أسرته كان يشكو شيئاً من قلة الاتزان . فتطور سوء ظنه بالناس وحبه للعنف الى شراسة في الخلق ورغبة في سفك الدماء .

ونقض يوستنيانوس هذا معاهدة السنة ٦٨٥ مع العرب وارسل جيوشه لقتالهم . وكان عبد الملك لا يزال مرتبكاً مشغولاً في تثبيت دعائم خلافته ضد منافسين اقوياء ، فاشترى الصلح مع الروم في السنة ٦٨٩ وقبل ان يدفع ليوستنيانوس الثاني مالاً سنوياً اعظم مما دفعه معاوية : ثلاث مئة وخمسة وستين الفاً من قطع الذهب ، وثلاث مئة وستين عبداً ، وثلاث مئة وستين جواداً كريماً . وقبل بان يقسم ولايات إيبيرية وارمينية وقبرص بينه وبين يوستنيانوس بالسوية .

١ *Brooks, E. W., op. cit.,405-406.*

٢ *Rhinotmetus.*

وعلم عبد الملك فيما يظهر ان خصمه كان ضعيف البصيرة ففاتحه بخذل المردة والعمل على نقلهم من تلال لبنان وسورية والامانوس. فقبل يوستنيانوس وحطّم بيده «هذا السور النحاسي الذي كان يفصل حدوده عن حدود خصومه العرب المسلمين[١]». وبعث قائداً من جيشه الى امير المردة يوحنا متظاهراً بطلب النجدة منه ضد العرب. فجاءَ القائد الى قب الياس حيث مسكن الامير. فلقي ترحاباً وتكريماً، وجلس يحدث الامير عن غزو العرب. ثم اشار الى جنده وكانوا على علم بمقصده فوثبوا على الامير فقتلوه وفتكوا بكثيرين من بطانته. ثم اعتذر الى الامير سمعان ابن اخت الامير يوحنا معيداً الكلام على رغبة القسيلفس في ان يتلقى نجدة المردة، وطفق يزيّن لهم ان يصحبوه الى القسطنطينية. فأجابوه الى ما طلب، وتجمهر اثنا عشر الفاً منهم يتزعمهم الامير سمعان، وساروا الى القسيلفس فوزعهم حرساً في ارمينية وتراقية وقزيقوس[٢].

وجاءَ في تاريخ الطائفة المارونية، للبطريرك اسطفان الدويهي، ان يوستنيانوس الثاني لم يكتفِ بما فعل، بل جيّش على المردة جيشاً جرّاراً بقيادة موريق وموريقيان بعث به في السنة ٦٩٤ الى لبنان فقتلوا رهبان دير مار مارون على العاصي وحلّوا في الكورة بين اميون والناووس، وتدفق الجبيليون عليهم من اعالي الجبال فقاتلوهم حتى قتلوا اكثرهم[٣]. ولعل هذه الحوادث وقعت في اثناء السنة ٦٨٩ عندما قام يوستنيانوس ينفذ شروط معاهدته مع عبد الملك لا في السنة ٦٩٤ كما تقدم. ففي السنة ٦٩٤ كان يوستنيانوس في حروب جديدة مع عبد الملك دارت

١ *Theophanes, Chron., 363, 364.*

٢ *Regesten der Kaiserurkunden des Ostromischen Reiches, 257.*

٣ تاريخ الطائفة المارونية، للبطريرك اسطفان الدويهي، (بيروت، ١٨٩٠)، ص ٨٠ – ٨٢.

رحاها في آسية الصغرى واسفرت عن اندحار كبير امام جيوش الامويين[1].

وجال يوستنيانوس في السنة ٦٨٩ جولة حربية ضد القبائل البلغارية، وأردفها في السنة ٦٩٠ بحملة موفقة ضد الصقالبة في البلقان. وجمع عدداً كبيراً من هؤلاء وجعل منهم فرقة كبيرة وانزلهم في منطقة الدردنيل ليرابطوا فيها فيدفعوا العرب عنها في حرب مقبلة. وكان العرب قد جعلوا من هذه المنطقة، في اثناء هجومهم الاخير على القسطنطينية، نقطة ارتكاز لهم قبل عبورهم المياه لحصار عاصمة الروم.

حرب القراطيس والدنانير: وكان عبد الملك ابن مروان قد بدأ ينظم امور الدولة الاموية. وكانت الدولة البيزنطية لا تزال تستورد الورق من مصر. وكانت قد جرت عادة الاقباط على كتابة اسم المسيح وعبارة التثليث في اعلى الطوامير. ورأى عبد الملك ابن مروان ان هذه العبارة لا تتفق ومظهر الدولة الاسلامية، فاستبدل اسم المسيح وعبارة التثليث بالعبارة: «قل هو الله احد». وكتب في صدور كتبه الى الروم: قل هو الله احد، وذكر النبي مع التاريخ. فكتب اليه يوستنيانوس: انكم قد احدثتم كذا كذا فاتركوه والا اتاكم في دنانيرنا من ذكر نبيكم ما تكرهون. وكانت العملة السائدة في البلدان الاسلامية لا تزال دنانير رومية ودراهم فارسية. فغضب عبد الملك وخشي ما قد يحدثه تهديد الفيلفس من اثر سيء في نفوس المسلمين. فأشار خالد ابن يزيد على عبد الملك بالتمسك بما احدثه في القراطيس وقال: «يا أمير المؤمنين حرّم دنانيرهم فلا يُتعامل بها، واضرب للناس سككاً، ولا تعفِ هؤلاء الكفرة مما كرهوا في الطوامير[2].» وسكّ عبد الملك دنانيره الاولى في السنة ٦٩٢ وأرسل

١ والواقع الذي لا مفر من الاعتراف به هو ان احداً من المؤرخين لم يوفق بعد الى ضبط اخبار الروم والعرب وتعيين تواريخها في هذه الفترة.

٢ كتاب الفتوح للبلاذري، ص ٢٤٩. والكامل لابن الاثير، ج ٤، ص ٥٣.

المبلغ السنوي المفروض عليه للفسيلفس من هذه الدنانير الجديدة . فغضب يوستنيانوس لخلو هذه الدنانير من صور اباطرة الروم ولحملها عبارات لم تخلُ من التحدي : « ارسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله » . فرفض الفسيلفس قبول هذه الدنانير وتحرك بجيوشه الى الحدود العربية الاسلامية . واصطدم الجيشان في السنة ٦٩٣ بين سبسطية وسيواس Sebastopolis . واستعاض العرب المسلمون عن الاعلام بنسخة من المعاهدة بينهم وبين الروم رفعوها عالياً . وقاد يوستنيانوس جيشه بنفسه وكاد ينتصر في الجولة الاولى . ولكن العرب اتصلوا بعناصر الصقالبة من جيش الروم وأغروهم بالوعود فخانوا الروم وانضموا الى العرب . فدارت رحى الحرب على الروم وخسروا ارمينية . وفي السنة ٦٩٤ عاد محمد ابن مروان فغزا ، فبلغ انيولية ومرعش وملاطية . ودخل عثمان ابن الوصيد الى ارمينية فهزم الروم فيها واثخن فيهم بالقتل والاسر . وعاد العرب الى الصوائف في الحرب . وما انفكوا يبعثون بالصائفة كتيبةً بعد اخرى حتى غنموا مالاً كثيراً . واقتصَّ يوستنيانوس ممن بقي من الصقالبة في آسية الصغرى ، فأصبح موضع كراهيتهم . وحبا عبد الملك من التجأ اليه منهم بالمساكن في ثغور الشام وقبرص ، فنجحوا وأثروا اثراءً غريباً ، وغدا بنو جنسهم في آسية الصغرى اداة لخدمة العرب المسلمين في اي نضال حربي ينشب بين هؤلاء وبين الروم[1] . « واستفاد المسلمون كثيراً من ولاء الصقالبة اذ كانوا على علم بدروب آسية الصغرى ومسالكها ، فقاموا بوظيفة الادلاء للجيوش الاسلامية . ولذا تابعت الجيوش الاموية انتصاراتها واغاراتها على مدن آسية الصغرى دون ان تلقى جهداً كبيراً[2] . »

١ *Cedrenus, G., Historiarum Compendium, I, 772; Zonaras, XIV, 229-231; Theophanes, Chron., 365-367* .

٢ الامويون والبيزنطيون ، للدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ١٨٠ .

المجمع البنثيكتي «الخامس السادس»: (٢٦٢) وقال كاتب البيذاليون في مقدمة كلامه على هذا المجمع: «ان ابرز الرؤساء في المجمع البنثيكتيPenthektos اي الخامس والسادس[١] كانوا بولس القسطنطيني وباسيليوس اسقف غورتيني في كريت واسقف رابينة – وهما نائبا البابا الروماني – وبطرس الاسكندري وانسطاس الاوروشليمي وجاورجيوس الانطاكي. وقد التأم هذا المجمع بأمر ملوكي لا ليفحص هرطقة خاصة ولا ليحدد ايماناً حتى يكون مجمعاً خاصاً قائماً بنفسه، بل ليكتب قوانين ضرورية تتعلق بحالة الكنيسة واصلاحها[٢]. واشترك في اعمال المجمع ٢٢٧ او ٢٤٠ اسقفاً. وسنّ المجمع مئة قانون تتعلق بنظام الكنيسة داخلاً وخارجاً وبالحياة المسيحية، ولا تزال هذه القوانين مرعية الاجراء الى يومنا هذا. منها ما يبحث في علاقات الشمامسة بالقساوسة وفي زواج هؤلاء واولئك، ومنها ما يعيّن السن التي يجب ان يبلغها الاكليريكي قبل سيامته، ومنها ما يحرّم الدَين بالربا على رجال الدين والرشوة للوصول الى المناصب الكنائسية، ومنها ما يتعلق بالكتب المقدسة وكيفية استعمالها والمحافظة عليها والتعليم بها، ومنها ما يبحث في الرهبانية والاديار، وفي الجمعيات السرية وعتق الرقيق، وفي أمر اليهود، ومنها ما يحرّم التصاوير البذيئة والسحر والكهانة.

وأشهر هذه القوانين القانون السادس والثلاثون الذي نص على ما يلي: «اننا نجدد ما اشترعه الآباء القديسون المئة والخمسون الذين اجتمعوا في هذه المدينة المحروسة من الله وما اشترعه الآباء الست مئة والثلاثون الذين

١ وفي الآداب الغربية *Quinisextum*.
٢ جراسيموس متروبوليت بيروت، تاريخ الانشقاق، ج ١، ص ٣٤٩، هامش.

اجتمعوا في خلقيدونية ... فترسم ان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم اسوة بتقدم كرسي رومة القديمة . وان يُعظم مثله في الامور الكنائسية ليكونه ثانياً بعده . وان يحسب بعدهما كرسي الاسكندرية المدينة العظيمة ، ويحسب بعده كرسي انطاكية ، وبعد هذا كرسي مدينة الاوروشليميين .»

وعُرضت اعمال هذا المجمع على البابا سرجيوس (٦٨٧ – ٧٠١) ليوقعها بعد الفسيلفس فأبى محتجاً ببعض محتوياتها كتحريم الصوم ايام السبت والاذن للكهنة بالزواج . فأراد يوستنيانوس ان يكرهه على ذلك ولكن جيشه في ايطالية وقف الى جانب البابا[1] .

خلع يوستنيانوس : واستنزفت حروب يوستنيانوس كل ما في الخزينة . وبرغم هذا فأن الفسيلفس الذي كان يحذو حذو سميه يوستنيانوس الكبير اراد ان يقوم هو ايضاً بانشاآت تخلد اسمه ، فاضطر وزيراه ثيودوتوس واسطفانوس الخصي ان يجمعا الاموال عن طريق الاغتصاب . ومما يروى عن ثيودوتوس انه كان يعلّق الذين يمتنعون من دفع الضرائب بالحبال فوق دخان النار . وبينما كان وزيراه يجرّان عليه كراهية الطبقات الشعبية كان هو يجر على نفسه كراهية رجال الكنيسة والجيش . ففي السنة ٦٩٤ طلب ان تهدم كنيسة في القسطنطينية ليقيم في مكانها بناية له . فكلف البطريرك المسكوني ان يصلي على الكنيسة قبل هدمها . فأجابه البطريرك : « أما لاجل بناء كنيسة فعندنا افشين ولكن لاجل هدم كنيسة فليس لنا ما نقول . » فأجبره الفسيلفس ان يصلي للهدم بالقوة . فوقف البطريرك ودموعه تسيل وصلى قائلاً : « المجد لله الطويل الأناة كل حين وكل اوانٍ والى دهر الداهرين . »

[1] Gorres, F., *Justinian II und das Romische Papsltum, (Byz. Zeit., 1908), 440-450.*

وبعد الذي اصيب به يوستنيانوس من مس في الحرب العربية بدأ يقتل ضباطه ويحبسهم ويستأصل شأفة جنوده المهزومين حتى اصبح العمل في القيادة العليا لجيشه يشبه في خطره التعين لمنصب القائد الاعلى في اثناء ارهاب روبسبيار ابان الثورة الافرنسية[١].

وفي السنة التالية (٦٩٥) عين يوستنيانوس لاونديوس قائداً اعلى. فخشي لاونديوس سوء العاقبة وأعتقد ان ايامه اصبحت معدودة. فنصح له راهب اسمه بولس ان يضرب ضربة جريئة لان الشعب والجيش يسيرون وراءه. فهاجم لاونديوس السجن وحرر عدداً كبيراً من السجناء السياسيين فانضمت اليه العامة، فنادى بهم: «النصارى في كنيسة الحكمة»، واذاع في البلد ان حياة البطريرك في خطر. فاجتمع الشعب في باحة الكنيسة العظمى. وجاءهم البطريرك فبارك عليهم قائلاً: «هذا هو اليوم الذي صنعه الله.» وسار لاونديوس الى القصر وقبض على يوستنيانوس ووزيريه. فجدع انف الفسيلفس وسلم الوزيرين الى الجماهير. فطافوا بهما وحرقوهما. ثم نفى لاونديوس الفسيلفس الاشرم الى الخرسون في القرم. ونادى الزرق بلاونديوس فسيلفساً وتوّجه البطريرك[٢].

الفوضى: (٦٩٥ – ٧١٧) وانهزم العرب المسلمون في تهودة كما ان اشرنا وانسحبوا من ولاية افريقية. وكان ما كان من امر الانقسامات الداخلية بينهم ونشوب الثورات على الامويين في الحجاز وفي العراق وغيرهما، فاستطاع الروم ان يستعيدوا ما كان لهم من نفوذ وسلطة في افريقية. وجهز عبد الملك ابن مروان في السنة ٦٨٨ جيشاً كبيراً أمّر عليه زهير ابن قيس وبعثه لاسترداد افريقية وذلك رغم انشغاله بثورة

١ واللفظ في معظمه للدكتور مصطفى طه بدر في كتابه الامبراطورية البيزنطية، ص ١٣٨.

٢ *Brooks, E. W., op. cit., Cam. Med. Hist., II, 408-410.*

عبدالله ابن الزبير . وكتب النصر لزهير فقهر كَسَيلَة في ممس . ثم توغل في البلاد يخضع قبائل البربر الموالية للروم . وترك الروم المسلمين يطيلون خطوط تموينهم . ثم انزلوا قوة كبيرة في برقة لتعمل في مؤخرة زهير او لتفاجئه وهو في طريق العودة الى مصر . ونشبت موقعة في برقة (٦٨٩) خرّ فيها زهير صريعاً وانهزم العرب المسلمون . وفي السنة ٦٩٥ أعد الخليفة الاموي جيشاً آخر وأمّر عليه حسّان ابن النعمان . فسار حسّان الى القيروان وقام منها الى قرطاجة اعظم مدن الروم وامنعها . واوقع بهم هزيمة شنعاء . واستولى على قرطاجة في صيف السنة ٦٩٧ . فانسحب منها الروم الى صقلية . ثم عادوا الى قرطاجة في خريف السنة نفسها بقيادة البطريق يوحنا فدخلوها عنوة . واعاد العرب الكرة عليها في صيف السنة ٦٩٨ مستعينين هذه المرة بقوة بحرية كبيرة فدخلوها آمنين[١] .

ونجا القسم الاكبر من جيش افريقية . وأبحر الضباط الى القسطنطينية . ودبروا في اثناء رحلتهم مؤامرة لخلع لاونديوس . واشركوا معهم في هذه المؤامرة طيباريوس عبسيمروس درونغاريوس الاسطول اي نائب القائد[٢] . ولدى انضمامه اليهم باسطول بحر ايجه نادوا به فسيلفساً . فاستولى على العاصمة متخذاً اسماً له طيباريوس الثالث ، وجدع انف لاونديوس وحبسه في احد الاديرة (٦٩٨ – ٧٠٥) . ووفق طيباريوس في حروبه ضد العرب واسترد مناطق الحدود التي كان قد فقدها يوستنيانوس ولاونديوس وغزا

١ *Becker, K., Exp. of Saracens, Cam. Med. Hist., II, 369-370.*
وافضل ما صنف بالعربية في فتح المغرب كتاب الاستاذ حسين مؤنس « فتح العرب للمغرب » (١٩٤٧) ، وفصول الدكتور ابراهيم احمد العدوي في كتابه « الامويون والبيزنطيون ».

٢ *Tiberius Apsinarus-drungarius.*

سورية الشمالية . « ولكن الاهالي والجيش كانوا قد اصبحوا لا يخضعون لسيطرة احد وكان الفسيلفس لا يستطيع ان يعتمد على احد وباتت ادنى هزة كافية لقلب عرشه المتداعي[1] . »

وفرّ يوستنيانوس الثاني من منفاه . ورسا مركبه في مياه البلغار . وكان تربيل ملك البلغار يبحث عن حجة يتذرع بها لغزو الروم ، فلما استنصره يوستنيانوس زحف تربيل بجيشه على القسطنطينية . وكان سكان العاصمة آسفين لزوال حكم هرقل وخلفائه . فعاد يوستنيانوس الى العرش الذي خلع عنه (٧٠٥) . « وكان قد عوّل ألاّ يفعل شيئاً الا ان يثأر لانفه المبتور » . فأرسل في طلب لاونديوس وطيباريوس وشدّهما بالحبال جنباً الى جنب ووضعهما على الارض امام عرشه في الملعب وجلس واتخذ جسميهما موطئاً لقدميه . ثم قطع رأسيهما . واعدم عدداً من كبار الضباط ورجال البلاط وسمل عيني البطريرك ووضع كثيرين من وجهاء القسطنطينية في اكياس ثم اغرقهم في البوسفور .

وفي السنة ٧١١ ثار عليه فيليبيكوس البرداني فدخل العاصمة بينما كان يوستنيانوس في سينوب . ثم قتل يوستنيانوس وقتل ابنه طيباريوس من زوجته ثيودورة الخزرية . وبذلك انتهى امر الهرقليين بعد ما حكموا مئة سنة وسنة . ولكن فيليبيكوس هذا لم يكن سوى رجل لهو ولذة . فقضى وقته (٧١١ ـ ٧١٣) منصرفاً الى المتع . ولما كان من اصحاب المشيئة الواحدة فقد عزل البطريرك كيروس الى دير واقام يوحنا السادس بطريركاً محله . ثم عقد مجمعاً محلياً في السنة ٧١٢ اجبر فيه الفسيلفس والبطريرك الجديد اساقفته ان يحرقوا اعمال المجمع السادس .

حتى اذا كانت السنة ٧١٣ اتفق قائدان من قادة الجيش فعزلا

[1] الامبراطورية البيزنطية لاومان ، ص ١٤٠ .

فيليبيكوس . وأقام الشعب رئيس كتاب القصر ارتاميوس فسيلفساً باسم انسطاسيوس الثاني ، فضبط زمام الملك وعزل البطريرك يوحنا السادس وأقام جرمانوس بطريركاً عوضه . وعقد الفسيلفس والبطريرك الجديد مجمعاً محلياً أيد قرارات المجمع السادس (٧١٥) . ولكن في السنة ٧١٦ تمرّد الجند واعلنوا خلعه ، ونادوا بثيودوسيوس الثالث فسيلفساً . فاستعفى انسطاسيوس وأقام راهباً في دير .

حصار القسطنطينية : (٧١٧ - ٧١٨) وكان البلغاريون والمسلمون في اثناء هذا كله يغزون ولايات الحدود كلٌ من صوبه . وكانت غاراتهم تزداد حدةً وتوغلاً . فسقطت تيانة في يد العرب المسلمين في السنة ٧١٠ وأماسية في السنة ٧١٢ وانطاكية البسيدية في السنة ٧١٣ . وتوغل العرب في السنة ٧١٦ في فريجية وحاصروا عمورية[١] . وباتوا لا ينتظرون الا النصر . ولكن الروم كانوا قد انجبوا لاون الاسوري رجل الساعة الذي تبوأ العرش برضى ثيودوسيوس الثالث وموافقة البطريرك ومجلس الشيوخ ورجال البلاط .

وكان قد تولى الخلافة في دمشق سليمان ابن عبد الملك (٧١٥ - ٧١٧) ، وكان سليمان يحسب انه هو المقصود بالحديث القائل ان خليفة يحمل اسم نبي سيفتح القسطنطينية . فأعد اسطولاً كبيراً وجيشاً عظيماً وأسند القيادة في البر لاخيه مسلمة ، وفي البحر لوزيره سليمان . فقام مسلمة من طرسوس الى الدردنيل والتقى في ابيدوس بسليمان وعمارته . وكان لاوون قد حشد كل ما لديه في العاصمة للدفاع . فقطع الجيش العربي الدردنيل وزحف على القسطنطينية وحاصرها براً . وقامت العمارة العربية بالعمل نفسه من

١ اطلب التفاصيل في كتاب الدكتور ابراهيم احمد العدوي « الامويون والبزنطيون » ص ١٨١ - ١٨٢ .

البحر . وحاول سليمان ان يسد طريق البحر الشمالية فانبرت لصده بوارج الروم فأنزلت بمراكبه ضرراً كبيراً . وبقي منفذ القسطنطينية الشمالي مفتوحاً للمدد من البحر الاسود . واعتمد مسلمة على تجويع المدينة اكثر من اعتماده على مهاجمتها جبهياً . ولكن لاوون كان قد حسب لهذا المحذور حسابه فأمر كل أسرة بان تختزن مؤونة سنتين . أما مسلمة فانه لم يحسب الحساب لشتاء قارس يدهمه ، فجاء شتاء السنة ٧١٧ - ٧١٨ بثلج دام ثلاثة اشهر . فمات عدد كبير من جنود مسلمة بالبرد وداء الزُحار . وبين من لقوا حتفهم الوزير سليمان . وفي ربيع السنة ٧١٨ وصل اسطول احتياطي من مصر وجيش جديد من طرسوس . واحتل هذا الجيش شاطىء البوسفور الآسيوي ورسا الاسطول في مياهه . فتسللت سفن النار الرومية الى مرسى الاسطول المصري فأحرقته . ونزلت قوة من الروم وراء الجيش الجديد فباغتته ومزقته إرباً . وبدأت المجاعة تهاجم صفوف مسلمة . ثم فاجأه البلغاريون من الوراء فقتلوا من رجاله عشرين الفاً . فتراجع عن عاصمة الروم بعد ان فقد معظم جيشه . وتعرّض الباقي من عمارته لعاصفة في بحر ايجه فلم يعد الى شواطىء الشام سوى خمس سفن فقط[١] .

١ *Canard, M., Expéditions Arabes, Journal Asiatique, 1929, 102-80 ;*
الطبري ، ج ٢ ، ص ١٣٤٦ . *Theophanes, Chron., 395-399.*

الفصل السابع عشر

تطور وتغيير

الارض والسكان : وكان من جراء حروب القرن السابع ان تقلّص ظل الروم عن قسم من ارمينية وعن الجزيرة والشام ومصر وافريقية. وفقد الروم معظم البلدان التي فتحها يوستنيانوس في الغرب وتراجعوا عن خط الدانواب الى الجبال بين ميسية وتراقية. فنقصت امبراطوريتهم نصفها.

وكان الآفار والصقالبة قد بدأوا منذ اواخر القرن السادس يعبرون الدانوب فيعيثون فساداً في إيليرية وتراقية. فلما حلّت الفوضى في عهد فوقاس ونشبت حروب هرقل الطاحنة في آسية تعددت هجمات هؤلاء البرابرة واصبحت الى هجرة شاملة اقرب منها الى غزوٍ. واضطر الروم ان يذعنوا للواقع في بعض الاحيان فيعترفوا لبعض هذه القبائل كالكرواتيين والسرب بكيان خاص في داخل حدودهم. ولئن وفقوا في بعض الاحيان الى ردّ القبائل الزاحفة عبر الدانوب فإنهم لم يستطيعوا المحافظة على هذا الحدّ دائماً، فكانت تعود القبائل فتتسلل جماعات في الخفية وبالتدريج فتستقر داخل الحدود حيث تسمح لها بذلك الظروف. ومن هؤلاء الصقالبة.

ويستدل من بعض المراجع الاولية ان قبائل الكروات والصرب عبروا الدانوب في الربع الاول من القرن السابع ، واحتلوا بالقوة جميع إيليرية حتى شاطىء الادرياتيـــك ، وان هرقل اعترف بوجودهم في هذه الاراضي لقاء معونة يقدمونهـا له ضد الآفار شرط ان يتقبلوا النصرانية[١] . وفرّ سكان البلاد امام تلك القبـــائل . فالتجأ ابناء سالونة الى حصن ديوقليتيانوس واسسوا مدينة اسبالاتو . ونزح ابناء ابيدورة فأقاموا في منطقة راغوزة . وفرّ غيرهم الى كاتارو والى جزر الشاطىء الى برازا ولاسينة وغيرهما[٢] .

وهكذا لم يشرف القرن السادس على اواخره حتى كانت جماعات من الصقالبة قد استقرّت في ميسية السفلى بين الدانوب وجبال الهاموس . وفي عهد فوقاس وهرقل سارت جماعات اخرى من الصقالبة في موكب الآفار فنزلت بنسائها واطفالها وجميع ما ملكت ايمانها في مقدونية وتراقية وغشيت الأرياف بكاملها[٣] . ومما جاءَ في اعمـــال القديس ديمتريوس ان الصقالبة في السنوات ٦١٧ - ٦١٩ ركبوا البحر في قوارب نقرت في جذوع الشجر ففتكوا بسكان ثسالية وآخية وابيروسة وبعض آسيـــة . وانتشروا في جميع جزر الارخبيل . وجاءَ ايضاً انهم في السنة ٦٢٣ بلغوا الى جزيرة اقريطش فقتلوا وسبوا وان الذعر شمل الجبناء والشجعان على حد سواء . فأيقن الجميع ان ليس امامهم الا الموت او عذاب الاسر[٤] .

وبقيت هذه القبائل طوال القرن السابع تغزو في البر والبحر ولا يقر

١ *Constantius Porphyrogenitus, Administrando Imperio, 143-144, 150, 159, 162.*

٢ *Sisic, Gesch. der Kroaten ; Jirecek, Gesch. der Serben ; Niderle, Manuel de l'Antiquité Slave.*

٣ *Patrologia Graeca, Vol. 116, p. 1325.*

٤ *Ed. Tougard, 119-135.*

لها قرار . وسعت حكومة العاصمة بما لديها من وسائل لاخضاع هذه القبائل ولكن دون جدوى . وفي السنة ٦٥٧ جرّد قسطنطين الثالث حملة عسكرية عليهم فهزمهم واشتق لنفسه طريقاً الى ثيسالونيكية وارغمهم ان يخلدوا الى السكينة . ولكنهم عادوا الى سابق نزعاتهم فحاصروا هذه المدينة نفسها ما بين السنة ٦٧٧ والسنة ٦٨٠ . فقاد يوستنيانوس الثاني في السنة ٦٨٩ حملة اخرى عليهم واخضعهم ونقل منهم ثلاثين الفاً الى شاطىء الدردنيل الآسيوي[١] .

وفي اواخر القرن السابع تدفق البلغار عبر الدانوب واستوطنوا . والبلغار من الشعوب الطورانية ابناء عم الهون والاتراك . وكانوا من قبل يعبرون الدانوب غزاة مغيرين ولكنهم لا يلبثون ان ينقلبوا الى ما ورائه . وكان هرقل قد استعان بهم بين السنة ٦٣٥ والسنة ٦٤١ ضد الآفار منعماً على زعيمهم بلقب بطريق مقدماً له الهدايا . الا ان الخزر في السنة ٦٧٩ اضطروا هؤلاء البلغار ان يجلوا عن اراضيهم في ما وراء الدانوب . فتدفقوا عبر هذا النهر بقيادة خاقانهم أسبروخ واحتلوا ما تاخم النهر من الاراضي حتى جبال البلقان . ثم أكره قسطنطين الرابع ان يعترف بالواقع وان يسترضيهم بمالٍ محدد يدفعه كل سنة . فنشأت دولة بلغارية فتية تمكنت من الاندماج برعاياها الصقالبة . فتقبلت لغتهم وتقاليدهم ووحدت كلمتهم . فأصبحت خطراً كامناً على دولة الروم[٢] .

الادارة : وأدت الحروب الطاحنة التي دارت رحاها في القرن السابع الى تغيير اساسي في اساليب ادارة الولايات . وكانت القاعدة الاساسية المتبعة في تنظيم ادارة الولايات منذ عهد قسطنطين الكبير توجب الفصلَ بين

١ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 212-218.*

٢ *Runciman, S., The First Bulgarian Empire, London, 1930.*

السلطتين العسكرية والمدنية في ولايات الدولة وذلك خوفاً من تمرّد الولاة او قادة الجيش على السلطة المركزية. لكنَّ هذه القاعدة انقلبت عند نهاية القرن السابع رأساً على عقب اذ لجأ الاباطرة الى دمج السلطتين في يد قائد عسكري في كل ولاية. فحُوّلت الولايات الى ثيمات او بنود كما اسمّاها العرب[1].

وكان يوستنيانوس الكبير قد لجأ الى مثل هذه الخطة في ادارة ولايتي قرطاجة ورابينة وذلك لتكرر هجمات اللومبارديين في ايطالية والمور في افريقية. فأنشأ وظيفة الاكسرخوس وجعله قائداً عسكرياً وحاكماً مدنياً في آنٍ واحد. الا ان العلامة الالماني الدكتور ارنست اشتاين يرى ان هرقل درس عن كثب نظام الحكم عند اعدائه الالداء الاكاسرة فأخذ عنهم دمج السلطتين العسكرية والادارية في يد قائد عسكري يقوم على رأس جيشه في منطقة معينة، فكان ان انشأ نظام الثيمات[2]. ويرى غيره من رجال الاختصاص ان هذا النظام الجديد لم يعمم دفعة واحدة بل نشأ بالتدريج في ارمينية اولاً ثم في سائر آسية الصغرى فاوروبة[3].

والواقع الذي لا سبيل فيه الى جدال هو ان آسية الصغرى عند نهاية القرن السابع كانت قد قسمت الى اربع ثيمات او بنود: (١) ثيمة

١ والبند لفظ فارسي معرب معناه العلم الكبير. وقال المسعودي في كتابه التنبيه والاشراف: ارض الروم واسعة في الطول والعرض مقسومة من قديم الزمن على اربعة عشر قسماً اعمال مفردة تسمى البنود كما يقال اجناد الشام، ص ١٥٠. وممن عني بهذه الناحية من كتاب العرب ابن خرداذبه المتوفي سنة ٩١٢ ميلادية في كتابه المسالك والممالك الذي طبع في ليدن سنة ١٨٨٩، وقدامة في كتابه الخراج، وهو من اعيان النصف الاول من القرن العاشر.

٢ *Stein, E., Byzantinisch-Neugriechische Jahrbucher, I, (1920), 84-85*

٣ *Kulakovsky, J., Byzantium, III, 287-431; Bréhier, L., Journal des Savants, XV, 412-505.*

ارمينية في شمالي شرقي آسية الصغرى ، (٢) ثيمة اناتوليكة[١] ، (٣) ثيمة الابسيق (اوبسيكيون) عند بحر مرمرا ، (٤) ثيمة القبريوت وكانت هذه تضم شاطىء آسية الصغرى الجنوبي والجزر المجاورة له وذلك للصمود في وجه الاسطول العربي . وكان قد نشأ ايضاً نظام مماثل في اوروبة فظهرت ثيمة تراقية لدرء خطر الصقالبة وثيمة هيلاس للغرض نفسه في بلاد اليونان وثيمة في صقلية للدفاع ضد العرب[٢] .

والاساس في نظام الثيمة كان فيا يظهر اقامة جيش دائم في منطقة معينة يسهر على الدفاع عنها . ويُقطعُ ضباطه وجنوده اراضي معينة في المنطقة نفسها يستثمرونها . وتمتزج هذه العناصر العسكرية بسكان المنطقة فتبث فيهم روح الشجاعة والجرأة وتدرّبهم على حمل السلاح والقتال[٣] .

وثمة ما يدل على ان هرقل لم يهمل التشريع . فهنالك قوانين اربعة سنها في الفترة بين السنة ٦١٢ والسنة ٦٢٩ عني فيها ببعض مشاكل الاكليروس . وتوجد كذلك بقايا شرائع سنها هذا الفسيلفس للحد من تزوير النقود والاختام والوثائق الرسمية . وقد كان لهذه الشرائع فيما يظهر اثر في ما شرعه الالمان في الغرب والعرب في الشرق[٤] في هذا الموضوع نفسه .

الدولة تصبح هلينية : وكانت الدولة منذ تأسيسها قد اصطبغت بطابع شرقي في مفهومها للسلطة والحكم وفي نظامها الرتبي وتسلسل

١ من اللفظ اليوناني اناتولي ، ومعناه الشرق ، ومنه اللفظ العربي التركي : الاناضول .

٢ *Constantinus Porphyrogenitus, De Thematibus, Crop. Script. Hist. Byzant. ed. Bekker, 1840.*

٣ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 223.*

٤ *Lopez. R., Byzantine Law in the Seventh Cent. and its Reception by Germans and Arabs, Byzantion, XVI, (1944), 445-461.*

الصلاحيات وفي التشريفات وتعظيم الامبراطور وما الى ذلك. وجاءَ القرن الخامس فتفككت عرى الدولة في الغرب ولم يبقَ منها صامداً سوى ولاياتها الشرقية. وبرغم نجاح يوستنيانوس في ايطالية وافريقية واسبانية، فان الربط الذي اعاد احكامه بين الشرق والغرب لم يثبت طويلاً. وجاءَ القرن السابع فانفصلت اسبانية وأصبحت افريقية مهددة، واضطربت ايطالية وسلخ العرب مصر والشام والجزيرة. واحتلّ الصقالبة والبلغار جزءاً كبيراً من البلقان. فأصبح العنصر اليوناني هو العنصر السائد في الدولة، وأصبحت آسية الصغرى قلب الدولة ومركز الثقل فيها. فتهلنت الدولة وبقيت يونانية حتى آخر عهدها.

اللاتينية تتوارى فتزول: وكانت اللغة اللاتينية لا تزال في عهد يوستنيانوس الكبير لغة الدولة الرسمية ولغة التشريع والادارتين المدنية والعسكرية. وحتى اوائل القرن السابع كان الامبراطور لا يزال ينادى بالقابه اللاتينية القديمة «التقي السعيد الدائم العظيم[1]». غير ان انتصار هرقل على الفرس جعله يزيد على القابه بصورة رسمية اللقب اليوناني «الفسيلفس». وكان هذا اللقب شائعاً من قبل ولكن بصفة رسمية[2]. وكانت اللاتينية لغة الاسر الحاكمة. بقيت وكذلك حتى انقطاع اسرة يوستنيانوس. فأما الاسر التي عقبتها فانها كانت اسوية كأسرة طيباريوس وموريقيوس وهرقل. ولذا رأينا البابا غريغوريوس العظيم (٥٩٠ – ٦٠٤) يتذمر لأنعدام وجود التراجمة الاكفاء الذين يجيدون اللاتينية في العاصمة البيزنطية[3].

ولنا في التشريع شاهد آخر على صحة ما نقول. فأن يوستنيانوس الكبير

١ *Pius, Felix, Perpetuus, Augustus.*

٢ *Lingenthal, Z., Jus Graeco-Romanorum, III, 46.*

٣ *Grégorii, Epist., VII, 27.*

الذي تكلم اللاتينية واشترع بها وجد نفسه مضطراً ان يأذن باستعمال اللغة اليونانية في بعض القوانين التي أصدرها[1] وان يغض النظر عن ظهور بعض الشروح باليونانية. حتى اذا اقبل القرن السابع أصبح التشريع كله باللغة اليونانية فقط.

ونلمس التطور نفسه في لغة الادارة. فان يوحنا ليدوس الذي عاصر يوستنيانوس يفيد ان ترقيه في سلك الوظائف المدنية يرجع الفضل فيه قبل كل شيء الى المامه باللاتينية هذه اللغة النادرة[2].

وتطورت اسماء الوظائف فأصبح معظمها في القرن السابع يونانياً، وما بقي منها لاتينياً لحق به التحوير فاتخذ شكلاً يونانياً. وحتى عهد هرقل كانت اللاتينية لغة الجيش الوحيدة. وكان معظم كبار الضباط يتكلمون اللاتينية وهم من ابناء الولايات الاوروبية ويحملون اسماء لاتينية[3]. واما في ايام هرقل فان رجال الجيش أصبح معظمهم آسيويين من ارمينية وسائر الولايات الآسيوية واصبحت لغة الجيش اليونانية. واذا كان الروم قد لبثوا يرددون بعض العبارات اللاتينية حتى القرن العاشر فانهم قليلاً ما كانوا يفقهون شيئاً مما يلفظون[4].

تزايد نفوذ الكنيسة: وتم اندحار الوثنية في القرن السادس واكتمل انتصار النصرانية. ولكن النصارى كانوا لا يزالون منقسمين شطرين رئيسين: ارثوذكسيين كاثوليكيين، ومونوفيسيين. وكان هم الاباطرة الاكبر ان يوفقوا الى ايجاد حل يجمع الشمل ويوحد الكلمة. فجاءت

١ *Novelles, 7,1.*

٢ *Johannes Lydus, De Magistr., III, 68.*

٣ *Bury, J. B., Later Rom. Emp., II, 172-173 ; Aussaresses, L'Armée byz., 82-83.*

٤ *Bury, J. B., op. cit., II, 176.*

حروب الفتح العربي فسلخت عن جسم الدولة كل من قال بالطبيعة الواحدة فأصبحت الدولة البيزنطية ارثوذكسية كاثوليكية موحدة. وأصبح الفسيلفس حراً طلقاً يقول بعقيدة يجمع عليها رعاياه، وينتحل نحلة دينية لا يختلف فيها من رعاياه اثنان، فيقسم عند تقبله التاج من يد بطريرك العاصمة: «انه سيكون ابن الكنيسة البار وخادمها الامين»، وانه سيرعاها بعنايته ويدافع عنها جهده، ويحترم امتيازاتها وتقاليدها، فيحرّم كل ما تحرمه، ويؤيد كل ما أقرته مجامعها[1].

وتزايد نفوذ الكنيسة في الاوساط الشعبية، فبهرت عظمة طقوسها العقول، وحرّك وعظها الافئدة والصدور، وتعلق الشعب برهبانها وعقد على صلواتهم وتضرعاتهم الآمال بالسعادة والنجاح. فأقبل الناس على الترهب زرافات زرافات، ورأوا في ارتداء الثوب افضل السبل الى خلاص النفس. وتعددت الاديرة فحوت منها العاصمة وحدها عدداً عظيماً[2].

وبسقوط الاسكندرية وانطاكية واورشليم في يد العرب أصبح بطريرك القسطنطينية زعيم الكنيسة الاوحد في الشرق. وكان بطريرك القسطنطينية قد أصبح بطريركاً مسكونياً منذ السنة ٥٨٢ بقرار من مجمع محلي عقد في القسطنطينية للنظر في خصومة نشبت بين غريغوريوس بطريرك انطاكية واستيريوس والي الشرق. وقد نشأ عن هذا القرار جدل عنيف بين حامل هذا اللقب يوحنا الصوّام وغريغوريوس الذيالوغوس بابا رومة[3]. وبطبيعة الحال أيد الفسيلفس بطريرك عاصمته فبذرت بذور الشقاق والانفصال بين فرعي الكنيسة الام. وقضت ظروف سبقت اليها

١ *Codinus, Officiis, ed. Bonn, 86-87*.

٢ *Marin, E., Les Moines des Constantinople, (Paris, 1896)*.

٣ ومن القابه، ايضاً، الاول والكبير. راجع تفاصيل هذا الجدل، وتاريخ هذا اللقب، في تاريخ الانشقاق، لجراسيموس متروبوليت بيروت، ج ١، ص ٣١٢ – ٣٣٠.

الاشارة بان يهاجم ضباط الجيش الامبراطوري القصر البابوي سنة ٦٣٩ وان ينهبوا كنوزه. وفصل قسطنطين الثالث في السنة ٦٥٩ كنيسة رابينة عن كنيسة رومة. وفي السنة ٦٥٣ اوقف اكسرخوس رابينة البابا مرتينوس وارسله الى القسطنطينية، فتركت هذه الاعمال كلها اثراً سيئاً في نفوس ابناء رومة وغيرهم. ومما زاد في التباعد بين الفرعين الرئيسين للكنيسة الأم أن اللغة اليونانية في رومة قلّ تداولها وتفهمها بقدر ما قلّ تداول اللاتينية وتفهمها في القسطنطينية[1]. وبرغم الاتفاق الذي ساد جو المجمع المسكوني السادس المنعقد في السنة ٦٨٠ فان شيئاً كثيراً من الحذر وقلة الثقة بقي كامنا في الصدور. ثم جاء المجمع البنثيكتي في السنة ٦٩٢ فأكد مرة ثانية بان يكون لكرسي القسطنطينية التقدم «اسوة» بتقدم كرسي رومة القديمة[2]. فلم يكن ذلك مما ارتاحت اليه النفوس في رومة الارتياح كله.

وأدى تعاظم امر الرهبانية في الدولة الى زيادة كبيرة في عدد الرهبان وبالتالي الى نقص في دخل الخزينة، لأن القانون أعفى الرهبان من دفع الضرائب، كما منع جبايتها عن الاوقاف الدينية. وتوافرت ثروة الرهبانيات فقوي نفوذها، وأصبحت عنصراً سياسياً هاماً يتدخل في أحيان فيعرقل سير السياسة ويعقّد مشاكلها. ومن جراء الانسياق غير الواعي في موجة من التعبُّد الشديد، ساد النفوس ضرب من القدرية الغاشمة أفضت بدورها الى فقدان النشاط والعزم والحزم وروح المبادرة، ولاسيما ازاء الحوادث الكبرى[3].

١ *Gregorii Magni Epistolae, VII, 29; XI, 74.*

٢ القانون السادس والثلاثون.

٣ *Paparrigopoulo, K., Civilisation Hellenique, 184 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 228-231.*

الفصل الثامن عشر

الآداب والعلوم والفن في القرن السابع

وهو اشد القرون عقماً في تاريخ الفكر البيزنطي . ولعل السبب في ذلك هول الاخطار التي احدقت بالدولة وتتابع الحروب الطاحنة التي استنفدت جهودها فشغلت ابناءها عن العمل في حقل الفكر والفن .

وافضل ما تبقى من آثار هذا القرن في التاريخ والادب شعر جاورجيوس البسيدي شماس كنيسة الحكمة الالهية في القسطنطينية . عاصر هذا الشماس هرقل ونظم في حروبه الفارسية وفي حصار القسطنطينية سنة ٦٢٦ قصائد خاصة بقيت موضع اعجاب الروم زمناً طويلاً . ورجال الاختصاص يجمعون اليوم على ان جرجس البسيدي افضل من نظم عند الروم في المواضيع الزمنية غير الدينية[١] .

وقد عاصر هرقل مؤرخ آخر هو يوحنا الانطاكي فكتب تاريخاً عاماً منذ آدم حتى آخر ايام فوقاس (٦١٠) . ويرى فريق ان ما ينسب اليه هو في الحقيقة نتاج قلم يوحنا ملالاس الانطاكي . على انه قول ضعيف لان ملالاس كتب بوصفه انطاكياً ينظر الى تاريخ العالم من نافذة انطاكية دون سواها . اما يوحنا الذي نحن بصدده فانه ينظر الى الحوادث العالمية

١ *Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 709.*

بوصفه رجلاً عالمياً لا انطاكياً فقط ، وهو اشد حذقاً في تناول مراجعه وتقديرها من يوحنا ملالاس . وفي عصر هرقل ايضاً نشأ اكليريكي مجهول فدوّن خرونيقون الفصح Chronicon Paschale وذكر حوادث العالم ايضاً منذ آدم حتى السنة ٦٢٩ . ولهذا الخرونيقون اهميته لان صاحبه يذكر فيه مراجع زملائه المؤرخين ويدوّن بعض ما شاهد أو عاصر من الاحداث والاشياء .

والجدل العنيف الذي نشب في القرن السابع حول المشيئة الواحدة نشّط التأليف في هذا القرن . على ان ما صُنّف في تأييد القول بالمشيئة الواحدة قد اهمل ففقد بعد انتصار القول بالمشيئتين . ولا سبيل الى تعرف من كتب في المشيئة الواحدة الا بطريق من كتبوا يردّون على هذا القول . وأشهر اصحاب الرد على القول بالمشيئة الواحدة مكسيموس المعترف . وهو قسطنطيني الموطن ، شريف النسب ، فيلسوف ولاهوتي مرموق . كان في اول امره كاتب سر لهرقل الفسيلفس . فلما قال الفسيلفس بالمشيئة الواحدة خرج مكسيموس من البلاط الملكي واعتزل في دير في خريسوبولي (اسكي دار) ، ثم صار رئيساً لهذا الدير . ومن هنا التعبير الغربي Maxime l'Abbé . وقد دافع عن القول بالمشيئتين والفعلين ، وكتب الكتب متأثراً بمؤلفات اثناسيوس الكبير ، وغريغوريوس النزينزي وغيرهما . وكان عهد قسطنطين الثالث فأمره ان يكف عن الخطابة والكتابة فأبى . فأمر الفسيلفس بقطع لسانه ويده اليمنى . ثم نفاه الى لازقة ، فتوفي في المنفى في السنة ٦٦٢ ، وأعلن في القديسين . ولا يزال الارثوذكسيون ، حتى يومنا هذا ، يرتلون : « لنمتدحنّ حق الامتداح مكسيموس العظيم ، عاشق الثالوث ، الذي حكم بصراحة للايمان الالهي بان يمجد المسيح بطبيعتين ومشيئتين وفعلين . ولنهتفنّ قائلين : السلام عليك يا كاروز الايمان . » ويرى بعض رجال الاختصاص ان مكسيموس المعترف جمع في

رسائله ومؤلفاته بين التصوف النظري الذي وضعه ذيونيسيوس الآريوباغوسي وبين مشاكل الرهبانية العملية ، فاستحق بذلك ان يدعى مؤسس التصوف البيزنطي[١].

واتصلت آراء مكسيموس بالغرب فتأثر بها عدد من رجال اللاهوت . وفي طليعة هؤلاء يوحنا الاريجيني **Johannes Scotus Eriugena** من اعيان القرن التاسع . وكان يوحنا هذا قد عشق مؤلفات ذيونيسيوس الآريوباغوسي فاعترف انه لولا مصنفات مكسيموس « الفيلسوف الالهي الكلي الحكمة » لما تمكن من فهم ذيونيسيوس[٢].

وعني صفرونيوس بطريرك المدينة المقدسة الذي عانى متاعب حصارها من قِبَل العرب باخبار القديسين ، فكتب مطولاً في سيرة القديسين المصريين كيروس ويوحنا ، فأتحفنا بفذلكات مفيدة من جغرافية واجتماعية . ومما ينسب اليه انه هذب صلاة الشكر المسائي : الافشين « يا نوراً بهياً » .

ومن اعيان هذا القرن أيضاً لاونديوس اسقف نيابوليس في قبرص . ألف في سير القديسين ولاسيما سيرة يوحنا الرحوم بطريرك الاسكندرية فأفادنا لانه اهتم في كتابته لناحيتي الاقتصاد والاجتماع . ويختلف لاونديوس عن معظم من ألَّف في أخبار القديسين انه كتب متأثراً باللهجة اليونانية الدارجة في عصره ، اذ جعل هدفه ارشاد العامة قبل الخاصة[٣].

وممن اشتهر في هذا القرن ايضاً اندراوس الدمشقي الذي نشأ في دمشق وترعرع فيها ، فعكف منذ حداثته على العلم . ثم تقبل النذر في فلسطين ، فصار كاتب ثيودوروس بطريرك المدينة المقدسة . واشترك في

١ *Epifanovich, S., The Blessed Maximus Confessor and Byz. Theology, 137; Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Litt., 63, 141.*

٢ *Brilliantov, A., Influence of Eastern Theology upon Western, 50-52.*

٣ *Gelzer, H., Leontios von Neapolis, 91.*

اعمال المجمع المسكوني السادس الذي انعقد في عهد قسطنطين الالحى سنة ٦٨٠ ، ثم صار شماساً للكنيسة العظمى ، فرئيساً لاساقفة اقريطش . وتوفي بين السنة ٧٢٠ والسنة ٧٢٣ . أما أشهر آثاره فاناشيده الدينية المعروفة بالقانون الكبير . ولعله اول قانونٍ من نوعه ، يشتمل على أهم حوادث الكتاب المقدس . ويتلى هذا القانون في الاسبوعين الاول والاخير من الصوم الكبير .

وكان طبيعياً جداً ان تحول الحروب الطويلة التي نشبت في هـذا القرن دون العناية بانشاء المباني الفخمة ، ولكن القليل البـاقي من آثار البناء التي ترجع الى هذا القرن يدل بوضوح على ان الاسس الفنية التي وضعت في عهد يوستنيانوس الكبير كانت ما تزال متبعة في عهد هرقل وخلفائه . وتدل هذه الآثار نفسها على ان مدى تأثير الفن البيزنطي كان قد تعدى حدود الامبراطورية . فكتدرائية ايتشميازن الارمنية التي رممت بين السنة ٦١١ والسنة ٦٢٨ تنطق بأثر الفن البيزنطي في ارمينية ، وكذلك كنيسة قلعة عانة (٦٢٢) وبعض تصاوير كنيسة القديسة مريم القديمة في رومة .

ويرى العلامة الفنان شارل ديل ان قبة الصخرة التي أنشأها الخليفة الاموي عبد الملك ابن مروان في بيت المقدس بين السنة ٦٨٧ والسنة ٦٩٠ بعد الميلاد هي من حيث فنهـا نموذج مكمل للفن البيزنطي في القرن السابع . فشكلها المثمن الزوايا وقبتهـا ولاسيما تلبيس جدرانها بالرخام وتزيينها بالفسيفساء المذهبة ، جميع ذلك ينطق بأثر الفن البيزنطي . ويرى هذا العـلامة الرأي نفسه فيما يتعلّق بالمسجد الاموي في دمشق فيذكر ان الوليد ، عندمـا أراد ان يحوّل كنيسة مار يوحنا المعمدان الى جامع ، استعان بزميله فسيلفس الروم فأرسل له الصنّـاع لهذه الغاية وان الكنيسة هذه اصبحت بعد تحويلهـا تشبه من الجهة الفنيّة بسيليقة

بيزنطية ذات قبة وان الفسيفساء التي وشحت الجـــدران هي فسيفساء بيزنطية ايضاً[١].

١ *Diehl, Ch.. Manuel d'Art Byzantin, I, 344-345 ; Saladin, Manuel d'Art Musulman, 55-71, 80-87 ; Kondakof, Voyage, Syria, III.*

الباب السابع

انتعاش وتوطيد واستقرار

•

الفصل التاسع عشر

الاسرة الاسورية او السورية

(٧١٧ - ٨٠٢)

اصلها : وفي السنة ٧١٧ اعتلت عرش الروم أسرة ظلّ المؤرخون يعتبرونها إسورية حتى نهاية القرن التاسع عشر . ولكن في السنة ١٨٩٦ كتب العالم الالماني شينك في مجلة الابحاث البيزنطية مقالاً قيّماً في مؤسس هذه الاسرة لاوون الثالث ، فجعله سورياً لا إسورياً[١] . ثم جاء بعده من ايده[٢] ، ومن عارضه[٣] . والسبب في هذا الاختلاف في الرأي هو ان ثيوفانس المرجع الرئيس في سيرة لاوون قال عنه انه من ابناء

١ *Schenk, K., Kaiser Leones, III. Byz. Zeit., V, 296 ff.*

٢ *Iorga, N., Origines de l'Iconoclasme, Bulletin Acad. Roumaine, XI, (1924), 147.*

٣ *Kulakovsky, J. A., Hist., of Byzantium, III, 319.*

لاوون الثالث

٧١٧ — ٧٤٠

أرتافزدوس = حنة   حنة = (٢) قسطنطين الخامس = (١) ايرينة الخزرية

مغتصب   افذوكية = (٣) ٧٤٠ ٧٧٥

٧٤١ — ٧٤٢   الزبلي

ابناء اربعة   ايرينة = لاوون الرابع الخزري

٧٧٥ — ٧٨٠

ثيودوتة = (٢) قسطنطين السادس (١) = مارية

٧٨٠ - ٧٩٧

مارينوس

تقلا = (١) ميخائيل الثاني (٢) = افروسينة

٨٢٠ - ٨٢٩

بتروناس   برداس   ثيودورة = ثيوفيلوس

الوصي   الوصية

٨٥٦ - ٨٦٦   ٨٤٢ - ٨٤٦   ٨٢٩ - ٨٤٢

تقلا   ميخائيل الثالث

خليلة باسيليوس الاول   السكير

٨٤٢ — ٨٦٧

جرمانيكية (مرعش) ومن اصل اسوري[1] وان انسطاسيوس الذي نقل كتاب ثيوفانس الى اللاتينية في منتصف القرن التاسع قال في ترجمته ان لاوون كان من ابناء جرمانيكية وانه كان سوري المولد[2] . والواقع ان اسطفانوس الاصغر يؤيد القول بالاصل السوري ويوافقه على ذلك المؤرخ العربي المجهول صاحب كتاب العيون والحدائق الذي صنف فيما يظهر في النصف الثاني من القرن الحادي عشر . فهذا المؤرخ المجهول يجعل لاوون سورياً يجيد العربية كاليونانية[3] .

وشجرة النسب الواردة في الصفحة السابقة تشمل الاسرتين الاسورية والعمورية. ويتضح منها ان لاوون الثالث ، المؤسس المنظم المصلح كما سيمرّ بنا ، توفي في السنة ٧٤١ وان ابنه قسطنطين الخامس الذي تزوج من ابنة خاقان الخزر جلس بعده على العرش فساس البلاد اربعاً وثلاثين سنة اثبت في اثنائها انه خير خلف لوالده المؤسس . وجاء بعده ابنه لاوون الرابع « الخزري » نسبة الى والدته ، وتزوج من آثينيّة اسمها ايرينة. ولكن كان مريضاً بداء السل فمات صغيراً بعد ان حكم مدة وجيزة (٧٧٥ – ٧٨٠) . وكان ابنه وخلفه قسطنطين السادس لا يزال في العاشرة فاصبحت ايرينة الوصية الوحيدة على العرش واقترن اسمها باسم ابنها القاصر في جميع شؤون الدولة . وكانت ايرينة هذه ذكية محبوبة من الجماهير . الا انها كانت شديدة الطموح . فما ان تولّت منصب الوصاية حتى افعمها جاه المنصب استبداداً وطمعاً يشوبه الغرور . ومع ذلك نالت عطف الجماهير وتأييد رجال الدين لانها اوقفت حرب الايقونات . وقد ملأت جميع المناصب الهامة برجال من بطانتها.

١ *Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 391.*

٢ *Chronographia Tripertita, ed. Boor, 251.*

٣ ج ٣ ، ص ٢٥ .

وطالت مدة حكمها عشر سنوات وهي مستأثرة بالسلطة لا يشاركها فيها احد . واستولى عليها الغرور وعظمت ثقتها بنفسها فبقيت على استئثارها بالسلطة حتى بعد ان بلغ سن الرشد . فثار عليها لما بلغ الثانية والعشرين من عمره وتسلم ازمة الاحكام بالقوة . فبقيت ايرينة اماً شاذةً لا ترضى عن استئثار ابنها بالسلطة وظلت تحلم باستعادة نفوذها ، حتى كانت السنة ٧٩٧ فتمكن المتآمرون الذين كانوا يعملون لحسابها من القبض على ابنها قسطنطين السادس فسملوا عينيه وحبسوه في احد الاديرة . وبذلك انتهى حكم هذه الاسرة الاسورية او السورية . اما قسطنطين فـانه عاش سنوات عدة راهباً اعمى . وراقب عن بعد خمسة اباطرة تعاقبوا على العرش من بعده . واول هؤلاء امه ايرينة التي جلست على العرش خمس سنوات متتاليـة . والظريف الطريف عنها انها كانت تلقب فسيلفساً لا فسيلسة[1] لان الروم في عهدها كانوا يرون ان حق الاشتراع من خصائص الرجال لا النساء . ولم تسقط ايرينة قبل السنة ٨٠٢ عندما سيطر وزير ماليتها الكبير نقفور على بعض الخصيان ورجال البلاط . فقبض عليها بهدوء وحبسها في احـد الاديرة . ولم يحرك احد ساكناً من اجلها . واعتلى نقفور العرش بهدوء[2] .

الحرب العربية : وكتب على لاوون الثالث ان يصدّ العرب وان يمنع مسلمة من الاستيلاء عـلى القسطنطينية كما سبق ان اشرنا . وكانت محـاولة مسلمة تلك هي الاخيرة من نوعها في تاريخ الخلفاء الامويين فلم يتسنَ لهم بعدها الدخول الى اوروبة الشرقية ولم يحاولوا الحرب بجد ونشاط بعد هذه الصدمة القوية . ولعل السبب في هذا كان ظهور الخزر في اقصى

١ *Lingenthal, K. E. Z., Jus Graeco-Romanum, III, 55; Zepos, P., Jus Graeco-Romanum I, 45.*

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر، ص ١٥٥ – ١٥٦.

الشمال وتعاونهم مع الروم وانتفاضهم على أذربيجان ، وقد حالف لاوون الثالث هؤلاء الخزر . وفي السنة ٧٣٢ أزوج ابنه قسطنطين الخامس ابنة خاقان الخزر ايرينة[١] . ولعل السبب في هذا ايضاً ان الذين تربعوا على عرش الامويين في هذه المدة كانوا اشخاصاً ضعفاء الهمة والعزيمة ، سقطوا صرعى للغواني والشراب ، وعبيداً للملذات والشهوات . وقد يكون السبب ايضاً ما وقع من التصادم بين القيسيين واليمنيين ، وما حصل من سخط مسلمي فارس على الامويين لانهم لم يساووا بين المسلم غير العربي والمسلم العربي[٢] .

بيد ان غزوات العرب الامويين لم تنته عند الفشل الذي حلّ بهم حول اسوار القسطنطينية في السنة ٧١٨ ، فقد اغاروا في السنة ٧٢٥ على قبدوقية واستولوا فيها على قيصرية وهددوا نيقية . وفي السنة ٧٣٧ عادوا الى الحرب وبلغوا تيانة في جنوبي قبدوقية ، فضربوا عليها الحصار في السنة ٧٣٩ . ولكنهم فشلوا فشلاً ذريعاً في يوم اكروينون[٣] (افيوم قره حصار) ، فاضطروا ان يجلوا عن غربي آسية الصغرى ، وان يتراجعوا شرقاً فجنوباً . وفي هذا اليوم على الارجح قتل عبدالله البطال الذي تميز في حرب مسلمة فأصبح فيما بعد السيد غازي الذي اعتبره الاتراك بطلاً من ابطالهم ، فأنشأوا له قبراً بالقرب من اسكي شهر (دوريلايوم) وتكية فمسجداً للطريقة البكتاشية[٤] .

واستغل قسطنطين الخامس الغليان الداخلي في الدولة الاموية فانقضّ في السنة ٧٤٥ على حدودها الشمالية واستعاد مرعش ودولوك ، وأجلى

١ *Lombard, Alfred, Constantin V, 31.*

٢ الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية والدولة الاسلامية ، ص ٦٣ – ٦٥ .

٣ *Akroinon.*

٤ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 238.*

نصارى الحدود الى تراقية . وفي السنة ٧٤٦ جهّز اسطولاً كبيراً في مياه آسية الصغرى الجنوبية ومخر به الى قبرص ، فقضى على اسطول عربي كان في مياهها واحتل الجزيرة . وفي السنة ٧٥١ جرّد حملة على حدود العرب في ارمينية فاستولى على ارضروم وملاطية . ثم اتجه نحو الفرات فاحتل حصن قلوذية وبلغ شمشات[١].

وكانت جبال طوروس بسلسلتيها هي الحد الفاصل بين الدولتين . وكان خط الدفاع البيزنطي ينقسم قسمين رئيسين ، احدهما يمتد من ملاطية الى عين زربة ، وهو مخصصٌ لصد الغارات من شمالي العراق ، والآخر يمتد مقابلاً الشام لصد الحملات المنبعثة منها . وعني الروم عناية فائقة بهذين الخطين الطبيعيين ولاسيما الممرين عبرهما : الممر الذي ينتهي عند ابواب قيليقية بين ادنة وسائر الاناضول الشمالي ، وممر كوردخاي بين مرعش والبستان[٢]. وكان على قمة شديدة الارتفاع عند اقصى الممر الاول في جهة الشمال حصن حصين يتحكم بسهول قبدوقية الجنوبية ويسمى قلعة اللؤلؤة ، وقد أصبح في هذا العهد الذي نحن بصدده مضرب الامثال في المناعة . وكان هذا الممر يضيق جداً في جنوبيه فيصبح عرضه عند ابواب قيليقية بضعة امتار . وكانت تحيط به صخور شاهقة في ارتفاع عمودي ، وتشرف عليه قلعة الصقالبة ، بحيث تستطيع حاميتها وقف جيش كبير العدد . أما ممر كوردخاي فكانت اهم قلاعه قلعة زبطرة[٣]، وقلعة ملاطية لوقوعها عند ملتقى الطرق الرئيسة المؤدية من سبسطية وسيواس وقيصرية الى ارمينية وشمالي العراق . واطلق العرب على الممر الاول اسم دوب السلامة ، وعلى

١ *Lombard, A., op. cit., 35-36 ; Laurent, J., l'Arménie entre Byzance et l'Islam, 184, 208.*

٢ *Arabissos.*

٣ *Zapetra.*

الممر الثاني اسم درب الحدث . وقد اقام الروم ، عبر آسية الصغرى ، من قلعة اللؤلؤة الى القسطنطينية ، سلسلة من المنارات لارسال الانباء باشعال النار . فكانت النار التي توقد على برج حصن اللؤلؤة يراها الحراس المقيمون في برج جبل ارغايوس المطل على بحيرة تاتة ومنه يراها الحراس في برج اغيلوس ، ثم ينتقل خبرها الى معسكر دوراليوم الكبير ، فبرج ماماس ، فبرج موكيلوس ، فبرج خليج بيثينية ، فبرج القديس اوكزنتيوس ، فالقصر الكبير . وفي عهد الامبراطور ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢) ادخل لاوون الرياضي تحسيناً على هذه الطريقة . فانه أعد ساعتين تسيران في زمن واحد احداهما جعلها في القصر الكبير في القسطنطينية ، والاخرى في قلعة اللؤلؤة . ورتب لاوون ان تتفق السلطتان : السلطة المقيمة في القصر ، والسلطة المقيمة في القلعة ، على اثنتي عشرة حادثة يرمزون لكل حادثة منها بساعة معينة من الساعات الاثنتي عشرة . وتكتب كل حادثة امام الرقم المخصص بها على واجهة الساعة . فاذا حدث ان أحس محافظ قلعة اللؤلؤة في الساعة الرابعة مثلاً ان العدو على اهبة عبور الحدود انتظر الى الساعة السادسة ليتبين حركات العدو ثم اشعل النار . وعندما تنقل تلك الاشارة عبر المحطات الى القصر الامبراطوري ينظر الحراس الى الساعة فيعلمون متى اشعلت النار في قلعة اللؤلؤة ويقفون بذلك على معنى هذه الاشارة ، اي ان العدو اخذ يحرك ركابه للهجوم . واذا اشعلت النار في الساعة السابعة علموا ان الحرب وقعت بين الطرفين . واذا اشعلت في الساعة الثامنة دلت على ان العدو قد اهمل الحرائق وهكذا[١].

١ *Bury, J. B., op. cit., II, 244-245.*
ونقله للعربية بمعظمه من لفظ الدكتور احمد العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٠ - ٧٥ .

وعني العرب بمثل ما عني به الروم . فأسس هارون الرشيد (٧٨٦ ٨٠٩) اقليم عواصم بالاضافة الى اقليم الثغور . فشمل اقليم العواصم حلب ومنبج وانطاكية الى الساحل . وجعل عليه ابنه المعتصم . واقليم العواصم هذا كان سلسلة من الحصون الداخلية تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم . وكان اقليم الثغور في عهده ينقسم قسمين : الثغور الجزرية لحماية العراق ، ومن حصونها زبطرة ومنصور والحدث ، والثغور الشامية ومن حصونها المصيصة وادنة وطرسوس[١] .

وليس في المراجع العربية او غيرها ما يدل على ان الخلفاء العباسيين قد هدفوا الى ما هدف اليه اسلافهم الامويون من حيث القضاء على دولة الروم والسيطرة على حوض البحر المتوسط . فالصوائف والشواتي في عهدهم لم تكن سوى غارات للاستيلاء على معاقل جبال طوروس او للنهب والسلب الشائعين في ذلك العصر . فغزو الربيع كان يبدأ من منتصف ايار بعد ان تكون الخيول العربية قد سمنت ، ويستمر شهراً من الزمن تجد فيه هذه الخيول غذاءً وفيراً في مراعي الروم . ثم تخلد الى السكينة شهراً ، وتستأنف بعده غارات تستغرق ستين يوماً . اما غزو الشتاء فكان يقع عادة في النصف الاول من آذار[٢] .

وفي السنة ٧٨٣ ثار الصقالبة على ايرينة فاضطرت ان تسحب بعض قواتها من آسية الصغرى لاخماد هذه الثورة في مقدونية وبلاد اليونان . فانتهز العرب الفرصة وتوغلوا في آسية الصغرى فكسروا الروم في درنون

١ البلاذري ، ص ١٧٦ . والعدوي ، ص ٧١ – ٧٢ .
Le Strange, G., East. Caliphate, 128.
٢ قدامة ابن جعفر ، الخراج ، ٢٥٩ . راجع ايضاً الملحق الثاني من كتاب الدكتور ابراهيم احمد العدوي ، ص ١٨١ – ١٨٥ .

ووصلت طلائعهم الى ضفة البوسفور . فصالحت ايرينة على ان تدفع مالاً سنوياً قدره سبعون او تسعون الف دينـــار . وفي السنة ٧٨٤ استولى العرب على ثيبـاسة في قبدوقية[١] . وكان الفريقان يراقبان السواحل فأسر الروم في السنة ٧٩٠ بضع سفن عربية وهي في طريقهـــا من مصر الى الشام . واغار الاسطول العربي على قبرص في هذه السنة نفسهـــا وانزل قواته في الجزيرة وهزم اسطول الروم في مياه اضالية وأسر اميره ولكن خسارة العرب كانت فيما يظهر عظيمة[٢] . وفي السنة ٧٩٨ توغل العرب في آسية الصغرى مرة اخرى فـاكتسحوا قبدوقية وغلاطية فاضطرت ايرينة ان تدفع الى هارون الرشيد المـال السنوي نفسه الذي كانت قد دفعته الى المهدي[٣] .

البلغار والصقالبة : وعاون البلغار لاوون الثالث على العرب اثناء حصـارهم القسطنطينية . وظلّت العلاقات ودية بين الروم والبلغار ثلاثين سنة . امـا قسطنطين الخامس (٧٤٠ ـ ٧٧٥) فأنه نقل الى البلقان عدداً كبيراً من الارمـن والسوريين المسيحيين وانشأ سلسلة من الحصون عند حدود البلغار ثم شنها حرباً على هؤلاء ليقضي على دولتهم ولكنه لم يفلح ، وقد أطلق عليه بعض المؤرخين لقب ذابح البلغار[٤] Bulgaroctonus . وعند نهاية القرن الثامن اتخذ البلغار خطة الهجوم فأكرهوا قسطنطين السادس ووالدته ايرينة على ان يؤدوا لهم مالاً معلوماً كل سنة .

وفي المراجع مـــا يدل على ان الصقالبة كانوا قد انتشروا في طول

١ *Honigmann, E., Ostgrenze des Byz. Reiches, 47.*

٢ *Brooks, E. W., Relations between Emp. and Egypt, Byz. Zeit., (1913), 385; Weil, Gesch. der Chalifen, II. 157.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 239.*

٤ *Lombard, A., Etudes, Constantin V, 59.*

اليونان وعرضها عند منتصف القرن الثامن وانهم ظلّوا يتدفقون عليها حتى اصبحوا اصحاب الكلمة فيهـا وفي قسم كبير من البلقان . وقد سبقت الاشارة الى الحملة التي انفذتها ايرينة نفسهـا لمحاربة هؤلاء الصقالبة في السنة ٧٨٣[١] .

الاكلوغة : وعني لاوون الثالث بالتشريـع ، فرأى ان القوانين والانظمة التي ترجع الى عصر يوستنيانوس الكبير قد اصبحت تفتقر الى اعادة نظر وتعديل . رأى النـاس في بعض الولايات الشرقيـة لا يزالون يؤثرون العرف حتى على بعض شرائـع يوستنيانوس ، كما رأى بعد تقلص الامبراطورية من جراء الفتح العربي وتغلب الصقالبة والبلغـار على جزء كبير من البلقان ان اليونانية قد اصبحت هي اللغة الوحيدة التي يفهمها السكان ، وبالتالي لابدّ من تشريـع باليونانية خلاف تشريـع يوستنيانوس الموضوع باللاتينية . فصمم لاوون على العمل في هـذا الحقل فانتقى في السنة ٧٢٦ ، لا ٧٣٩ ، كما يرى البعض[٢]، لجنة من كبار رجال القانون اسند اليها اعادة النظر في قوانين يوستنيانوس واصطفاء المفيد منها وتحسينه ووضعه باليونانية . وأطلق لاوون على مجموعته هذه اسم الاكلوغة Ecloga ومعنـاه المنتخبات . ومما جـاءَ في مقدمة الاكلوغة هذه ان قوانين الاباطرة قد اصبحت صعبـة المنال إما لتفرقها في الكتب الكثيرة او لصعوبتها على الفهم او لقلة تداولها في الاوساط خارج العاصمة « المحروسة من الله » . ومما جاءَ في هذه المقدمة ايضاً انه يجب على القضاة ان يتجردوا من العاطفة وان يحكموا بالعقل والعدل ، والا يحتقروا الفقراء والمساكين والا يتركوا الاقوياء المجرمين طلقاء الايدي وان يمتنعوا من قبول الهدايا . وكذلك نصّت هذه

١ *Vasiliev, A. A., op. cit , 240.*

٢ *Ginnis, D., Das Promulgationsjahr der Isaurischen Ecloge, Byz. Zeit., (1924), 356-357.*

المقدمة على وجوب دفع مرتبات القضاة من الخزينة « الصالحة » كي لا تتم نبوءة عاموس « لانهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين فتسلط علينا غضب الرب بتجاوز وصاياه[1] . »

وتتضمن الاكلوغة في اقسامها الثمانية عشرة الحقوق المدنية والاحوال الشخصية . ولا تبحث في الجزاء الا قليـــلا . وهي تختلف عما اشترعه يوستنيانوس اختلافاً بيناً في بعض الاحيان . فهي تأخذ بالعرف احيانـــاً وباجتهادات القضاة السابقين احيانـاً اخرى . ويتساوى امامها الغني والفقير ، الامر الذي لا نلقاه دائماً في مجموعة يوستنيانوس . والاكلوغة مسيحية اكثر من الدجستا تحلّ فيهـــا الاستشهادات بنصوص الكتاب المقدس محل الاستشهادات بالشرع الروماني القديم[2] . ولكن مع هذا كلّه لا يرى رجال الاختصاص في الاكلوغـة ما رآه المورخ اليوناني باباريغوبولو الذي صنف في الربع الاخير من القرن التاسع عشر ، فانه رأى في الاكلوغة أسساً لم يتوصل اليها القانون في الغرب الا بعد الف سنة[3] .

قانون المزارعين : وثمة ثلاثة قوانين اخرى تعود في الارجح الى عهد الاسوريين ايضـاً . واشهر هذه القوانين قانون المزارعين . وهو في رأي الثقات من اشتراع لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس . امـــا تاريخ صدور هذا القـانون فقد كان في الوقت نفسه الذي صدرت فيه الاكلوغة (٧٢٦) او بعيد ذلـك[4] . ويرى العالم الروسي بنشنكو ان هذا القـــانون مستمد من العرف الذي ساد الاوساط الريفية والذي لم

١ Zepos, J., *Jus Graeco-Romanum, II*, 14, 16-17; Freshfield, E., *A Manuel of the Roman Law, Ecloga*, 68-70.

٢ Bury, J. B., *Constitution of Later Rom. Emp., II*, 414.

٣ Paparrigopoulo, K., *Hist. Civ. Hellenique*, 205-209.

٤ Lingenthal, Z., *Gesch. des Griechisch-romischen Rechts*, 250.

تشمله الاكلوغة[1] .

والداعي لاهتمام العلماء بهذا القانون خلُوه من الاشارة الى الكولوني والاقنان Serf واهتمامه بظواهر جديدة بين الفلاحين كالملكية الفردية الحرة والملكية الجماعية او المشاع وحرية الانتقال ومنع الخدمة الاجبارية . وقد نغالي اذا قلنا مع ثيودور اوسبنسكي ان هذه الظواهر الجديدة شملت الدولة بامرها وان الفلاح زمنَ الاسوريين دخل في عهد جديد فشكل طبقة جديدة حرة مستقلة[2] . وقد نغالي ايضاً اذا قلنا مع شارل ديل وزميله جورج مارسه ان لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس حاولا بهذا التشريع ان يوقفا تواري الممتلكات الحرة الصغيرة وان يحدا من طغيان الممتلكات الكبيرة وان يضمنا للفلاح ظرفاً افضل[3] . ولا يجوز التمادي في القول مع بعض العلماء ان لاوون وابنه اضطرا ان يدخلا على شرع الدولة عرفاً خاصاً صقلبياً في اساسه لكي يستهويا العناصر الصقلبية في الدولة ويوقفا ميل هؤلاء الى التحالف مع البلغار والتعاون معهم . ويرى المؤرخ الكسندر فسيليف ان في مجموعات ثيودوسيوس ويوستنيانوس وفي اخبار القديسين ما يدل على ان الملكية الحرة الصغيرة كانت لا تزال باقية حتى عهديهما وان الدولة الرومانية عرفت نظام المشاع في اوائل عهدها وان الملكية الحرة الصغيرة بقيت منتشرة في الدولة البيزنطية الى جانب الملكية الكبيرة وكولونيها وفدادينها[4] . ولعل الأقرب الى الحقيقة ان تؤخذ هذه الأمور جميعها بعين الاعتبار .

القانون البحري الرودوسي : ونجد في بعض نسخ الاكلوغة الخطية

١ *Pancenko, B. A., The Rural Code and Monastic Documents, 86 .*

٢ *Uspensky, Th. I., Byz. Emp., I, 28 .*

٣ *Diehl, Ch., et Marçais, G., Mande Oriental, 256, n. 23 .*

٤ *Vasiliev, Alexander, A., Byz. Emp. 246-247 .*

القديمة ملاحق تتضمن قانونين آخرين احدهما بحري والآخر عسكري . ويخلو هذان القانونان من اية اشارة الى تاريخ صدورهما . أمّا بعض رجال الاختصاص فقد رأوا في محتوياتها ما يدل على انها من انتاج الاسرة الاسورية .

والقانون البحري الرودوسي قانون تجارة بحري يبحث بنوع خاص في توزيع المسؤوليات عند تعرض السلع للخطر ، إما من جراء العواصف البحرية او القرصنة . وهو يختلف عما جاء من نوعه في تشريع يوستنيانوس فيقسم تبعة الخسارة بين صاحب المركب والتاجر والركاب . وتدل محتويات هذا القانون على انه صدر في عصر كانت قد شاعت فيه قرصنة العرب والصقالبة .

قانون الجند : اما قانون الجند فانه ماخوذ من قوانين يوستنيانوس ومن الاكلوغة ، ومصادر اخرى . وهو في اساسه قانون عقوبات عسكري يحدد الاحكام التي ينبغي للسلطة ان تجريها على الجنود في حال رفض الطاعة ، او التمرد ، او الفرار ، او الفسق ، او ما اشبه . والعقوبات المفروضة صارمة جداً . فاذا صحت نسبة هذا القانون الى لاوون الثالث فانه يظهر عندئذ شدة الانضباط الذي أوجبه هذا القائد العسكري[1] .

الثيات او البنود : وليس لدينا من المراجع الاولية ما ينبئنا بما فعل لاوون الثالث بنظام الثيات . ولكن رجال الاختصاص يرون فرقاً بين ما حفظته مراجع القرن السابع الرومية عن هذا النظام ، وبين ما دوّنه ابن خرداذبه في كتابه المسالك والممالك في القرن التاسع . وهم ينسبون هذا الفرق الى لاوون وابنه قسطنطين[2] . ويرى هؤلاء الاختصاصيون على ضوء هذا الفرق ان لاوون جعل ثيات آسية الصغرى ستاً بدلاً من اربع .

١ *Lingenthal, op. cit., 16-17; Byz Zeit.. III, 448-449.*

٢ *Brooks, E.W., Arabic Lists of Byz.Themes, Journal of Hellenic Studies, XXI, 67 ff.*

فاقتطع من ثيمة الاناضول في الغرب ثيمة جديدة اسمها التراقيّة نسبة الى الجنود التراقيين المقيمين فيها . كذلك يرون انه قد جعل القسم الشرقي من ثيمة الابسيق مستقلة اسمها ثيمة البوكولاري نسبة الى جنودها البوكولاري الذين كانوا يعنون بالتموين . ولم يتجاوز عدد الثيمات في اوروبة في القرن الثامن اربعاً ، وهي : تراقية ومقدونية وهلاس وصقلية[١]. ولعل السبب في تقسيم الثيمات الاسيوية كان خوف لاوون من ان يجرؤ عليه القادة ، كما جرؤ هو على سيده ثيودوسيوس الثالث ، فصغّر الثيمات لكي تنقص بذلك موارد القادة فيها وتتضاءل لديهم امكانات الخروج على السلطة المركزية .

ومما لا ريب فيه ان لاوون عني في آخر عهده باسوار العاصمة ففرض ضريبة خاصة بها ، ورمم ما كان قد تساقط منها بفعل تكرار الزلازل . ولا تزال ابراج الاسوار الداخلية تحمل اسمه واسم ابنه قسطنطين الخامس حتى يومنا هذا[٢].

حرب الايقونات : والايقونة لفظ يوناني معناه الصورة او الرسم . وهو يستعمل في المصطلحات الدينية للاشارة الى صور القديسين . والايقونات في عرف الكنيسة نوعان : منها العادي ، ومنها العجائبي . وحرب الايقونات تنقسم الى مدتين منفصلتين : الاولى من السنة ٧٢٦ حتى السنة ٧٨٠ وتنتهي بالمجمع المسكوني السابع ، والثانية تمتد من السنة ٨١٣ حتى السنة ٨٤٣ وتنتهي بارجاع الارثوذكسية الى حالتها الاولى .

واسباب هذه الحرب الداخلية الطاحنة لا تزال غير واضحة ولا ثابتة ، لان ما نعلمه عنها مأخوذ في معظمه من اقوال احد الخصمين . فلقد ضاعت مصنفات

١ *Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 6.*

٢ *Millingen, A., Byzantine Constantinople, 98-99.*

الذين حاربوا الايقونات . وما بقي منها جاءَ في معرض الردود التي كتبها الخصوم . فهو والحالة هذه غير صالح للاخذ به لما ينقصه من العدالة . وما يصح من هذا القول على المصنفات العامة يصح كذلك على قرارات المجمعين الذين حرّما اكرام الايقونات ، فمقررات مجمع السنة ٧٥٣ قد وردت في اعمال المجمع المسكوني السابع وهو المجمع الذي حرّمها . وكذلك قرارات مجمع السنة ٨١٥ فأنها وردت في تضاعيف احدى رسائل البطريرك نيقوفوروس .

والباحثون في اسباب هذه الحرب الداخلية يختلفون في الرأي ، فبعضهم يرى اسبابها دينية وغيرهم يراها سياسية . فالمؤرخ اليوناني المعاصر باباريغوبولو يرى في كتابه تاريخ الحضارة الهلينية ان حرب الايقونات كانت في اساسها حرب اصلاح سياسي اجتماعي وان لاوون الثالث ومن خلفه من اسرته أراد ان يحرر التعليم والتربية من سيطرة الاكليروس وان العناصر المستنيرة المتحررة في الدولة وبعض كبار رجال الدين والجيش قد ايّدوا هذه الحركة الاصلاحية وان اخفاق هؤلاء اجمعين انما نتج عن تمسك العناصر الجاهلة من النساء والرهبان واهل الاوساط العاديّة بكل قديم[١] . ويرى المؤرخ الفرنساوي لومبار في كتابه قسطنطين الخامس ان حرب الايقونات كانت حركة اصلاحية دينية ترمي الى تطهير النصرانية من ادران الوثنية ، وانما جاءَت في الوقت نفسه الذي جرت فيه محاولات اخرى للاصلاح سياسية اجتماعية ولكنها مستقلة لها تاريخها الخاص[٢] . ويقول العالم الافرنسي لويس براهيه ان محاربة الايقونات في تاريخ الروم ذات وجهين ، فثمة مشادة حول اكرام الايقونات وثمة بحث دقيق اذا كان يصح الرمز الى

١ *Paparrigopoulo, K., Hist. de la Civ. Hellenique, 188-191.*

٢ *Lombard, A , Constantin V, 105, 124-128.*

مـا فوق الطبيعة بالرسم والتصوير واذا كان يجوز ان يُمثّلَ القديسون والعذراء والسيد بالتصوير[1] . ويرى المؤرخ الروسي اوسبنسكي ان السبب الحقيقي الذي دفع بلاوون وخلفائه الى خوض غمار هذه الحرب انما كان خوفهم من ازدياد ثروة الرهبـــان وتزايد نفوذهم . فالمشادة كانت زمنية سياسية في مستهلّ امرها فجعلها الرهبان دينية ليوغروا صدور المؤمنين ويحضّوهم على مقاومة سياسة الحكومة[2] .

والواقع ان الاعتراض على الايقونات لم يكن ابن ساعته . ففي بدء القرن الرابع حرّم مجمع ألفيرة Elvira المحلي في اسبانية اقامة الصور في الكنائس[3] . ورأى يوسيبيوس اسقف قيصرية فلسطين ومؤرخ الكنيسة ان اكرام صور السيد وبطرس وبولس كان من عادات « الامم[4] » . وفي هذا القرن الرابع نفسه ظهر ابيفانيوس القبرصي ايضاً فمزّق ستاراً في الكنيسة لانه كان يحمل صورة السيد وأحد القديسين[5] . وفي القرن الخامس اعترض اسقف سوري على الايقونات قبل سيامته . وفي القرن السادس ضجت انطاكية مستنكرةً اكرام الايقونات . وفي هذا القرن ايضاً حرّم اسقف مرسيلية (مسالية) اقامة الايقونات في الكنائس . فكتب اليه غريغوريوس العظيم بابا رومة يثني على عدم التعبد لما هو من صنع البشر ، الا أنّه ذكّره في الوقت نفسه بالمؤمنين الاميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون ، وذكره

١ *Bréhier, L., La Querelle des Images, 3-4.*

٢ *Uspensky, Th. I., Byz. Emp. II, 22-53, 89-109, 157-174.*

٣ *Mansi, J. D., Sacrorum Conciliorum Nova, (Consilium Liberitanum, Par. XXXVI.)*

٤ *Historia Ecclesiastica, VII, 18, 4.*

٥ *Patrologia Graeca, XLIII, 390 ; For authenticity, see, Serruys, D., Acad. Inscriptions et Belles Lettres, (1904), 361-363.*

بضرورة اعانتهم على النظر الى ما لا يمكنهم ان يقرأوه في الكتب . وعاد فكتب اليه ثانية في ان عبادة الصور شيء والتعلم بها شيء آخر[1] .

ويجب الا يغيب عن البال ان اليهود في الشرق والغرب معاً لم يرضوا قط عن شيء من هذا ، وان القرآن علـّم بان الانصاب رجس من عمل الشيطان (سورة المائدة) وان الخليفة الاموي يزيد الثاني أمر في السنة ٧٢٣ بتحطيم الايقونات في كنائس النصارى[2] وان الاسوريين وخلفاءهم العموريين كانوا شرقيين آسيويين وانهم كانوا رجال سياسة وحرب قبل كل شيء ، وان المذهب البولسي كان قد شاع في آسية الصغرى ولاسيا في ولاية فريجية وان انصاره كانوا قد اصبحوا قوة مخيفة[3] . وكذلك يجب الا ننسى ازدياد عدد الرهبان وتزايد ثروتهم ونفوذهم ، فأنهم بلغوا مئة الف راهب في هذه الفترة وقد تزايدوا بصورة خاصة في العاصمة نفسها ، كما يجب ان نذكر ان هؤلاء جميعاً لم يكونوا من اهل الزهد والتقوى ، وان بعضهم لم يتقشف الا هرباً من احكام القضاة ورجال الامن[4] .

وقضى لاوون الثالث السنوات العشر الاولى من حكمه في توطيد دعائم ملكه وفي اخماد نار الثورة التي اشعلها الفيلفس انسطاسيوس الثاني (٧١٣ - ٧١٦) وقائد صقلية ، كما جهد في اعادة اليسر والطمأنينة الى الولايات التي كانت قد اصبحت مسرحاً للحروب وميداناً للاوبئة . وكانت العاصمة نفسها قد فقدت عدداً كبيراً من سكانها نتيجة هذه العوامل ولاسيا

١ *Epistolae, IX, 105 ; XI, 13, ed. Migne ; Patrologia Latina, LXXVII, 105.*

٢ *Becker, Ch., Islamstudien, I, 446.*

٣ *Lebedev, A. P., Ecumenical Councils of the Sixth, Seventh, and Eigth Centuries, 142.*

٤ *Kondakov, N. P., Iconography, II, 3 ; Andreev. I. D., Germanus and Tarasius Patriarchs of Const., 79 ; Vasiliev. A. A., Byz. Emp. 256-257.*

الطاعون الذي غشيها في السنة ٧١٨ فتدارك لاوون هذا الشرّ بان نقل السكان اليها من الولايات الشرقية ولاسيا الولايات المتاخمة للعرب . كذلك اعاد النظر في تنظيم جيشه وأصلح القوانين كما سبقت لنا الاشارة[1] .

وقضى لاوون في السنة ٧٢٢ بتعميد اليهود . وفي السنة ٧٢٣ سمع بما أمر به يزيد الثاني من تحطيم الايقونات في بلاده واستمع لما دار بين بطريرك القسطنطينية جرمانوس والاسقفين قسطنطين وتوما الاناضوليين حول رفع الايقونات من الكنائس ، فبدأ يبث الدعاية السلمية في اوساط العاصمة لاجل ترك الايقونات والاقلاع عن تكريمها .

وفي السنة ٧٢٥ او ٧٢٦ جمع لاوون الثالث مجلس الدولة الاعلى ودعا اليه البطريرك جرمانوس وباحثه في موضوع الايقونات ووجوب رفعها من الكنائس وحظر تكريمها . فاحتج البطريرك وذكّر الفسيلفس بعهوده للكنيسة تلك التي أقسم أن يرعاها عند تسلمه التاج . ولما لم تنفع الذكرى وضع الاموفوريون عن عاتقه واستعفى . وأصدر القيصر أمره بحظر تكريم الايقونات . وبدأ تنفيذ الامر بانزال تمثال السيد الذي كان يعلو باب القصر . فاندلعت في الحال ثورة اشتركت فيها النساء اشتراكاً فعلياً . ومزقت الجماهير الموظف الذي نفذ ارادة الفسيلفس . فرد لاوون على ذلك بالعنف فسقط عدد من القتلى . وهبّت ثورة في اليونان وجزر الارخبيل فاخمدها الجيش بالقوة . وفي السنة ٧٣٠ أصدر لاوون أمراً اشدّ من الاول فقاومه جرمانوس واحتج عليه . فاهانه لاوون وعزله ونصّب في مكانه انسطاسيوس . وكتب البابا غريغوريوس الثاني كتابة مرّة الى لاوون ولكنه لم يأبه بها . واقتدى البابا غريغوريوس الثالث بسلفه

١ Bréhier, L., Byzance, Vie et Mort, 77.

فنهى الفسيلفس عن برنامجه . فلم يعر رسالته اهتماماً . فعقد البابا غريغوريوس الثالث مجمعاً محلياً في السنة ٧٣٢ ، وحرم مكافحي الايقونات . فأنفذ الفسيلفس قوة بحرية ضد البابا ومن قال قوله في ايطالية فغرقت السفن في الطريق فأرسل عمارة غيرها ورفع سلطة البابا عن ابرشيات صقلية وكلابرية وكريت وإيليرية والحقها برئاسة بطريرك المسكونة . فقطع البابا كل علاقة له كنائسية ومدنية بلاوون[١] . هذا وليس في المراجع الاولى شيء هام عن حرب الايقونات في السنوات العشر الاخيرة من حكم لاوون . وهنا لابد من الاشارة الى رسالتي يوحنا الدمشقي ضد معظمي الايقونات ، فقد كتبت هاتان رسالتان في عهد لاوون . اما الرسالة الثالثة في المعنى نفسه فلا يمكن تحديد تاريخها بالضبط .

وتوفي لاوون والبابا غريغوريوس الثالث في السنة ٧٤١ . فتسلم قسطنطين الخامس ازمة الحكم في القسطنطينية وهو الذي اطلق عليه لقب الزبلي Copronymus لانه افرز في جرن العماد حين المعمودية . ويروى ايضاً انه لقب بالزبلي لانه كان يحب رائحة زبل الخيل . وما كاد يستوي على عرشه حتى انتزع الملك منه صهره آرتافزدوس زوج اخته حنة . فاضطر قسطنطين ان يحاصر العاصمة واستولى عليها عنوة وقلع عيني صهره واعين ابنيه ونفى الثلاثة معاً . ثم شرع في اضطهاد الكنيسة فسخر بالاحتفالات الدينية وبكل قديس . ومنع الاعياد والاصوام وخرّب الاديرة وجعلها ثكنات للجنود . وكتب اليه البطاركة والبابا يناشدونه ويودعونه ولكنه لم يصغ اليهم . وعقد مجمعاً في السنة ٧٥٤ فأوجب اخراج الايقونات من الكنائس

١ *Theophanes, Chronographia, ed. Boor, 404; Leclercq, «Constantin», Dict. d'Arch. Chrét., III, 248; Diehl, Ch., Leo III and Is. Dyn. Cam. Med. Hist., IV.*

والبيوت وقطع كل اسقف او كاهن او شماس يقتنيها وقضى على كل راهب او علماني يقول بالايقونات ان يحاكم امام المحاكم المدنية بتهمة معاداة الله والمعتقدات الموروثة عن الآباء. ثم حرم جرمانوس «عابد الخشب» كما حرم منصوراً اي يوحنا الدمشقي «صديق الاسلام وعدو الدولة ومحرّف الاسفار المقدسة». ودعا لقسطنطين الجديد ولزوجته التقية الارثوذكية بطول العمر[1].

وتقوّى قسطنطين الخامس بقرارات هذا المجمع فاندفع في محاربة الايقونات اكثر من ذي قبل وصبّ غيظه وبلاءه على الرهبان. فكم عين قلع، وكم يد واذن قطع، فضلاً عن قتلهم. واكره طائفة منهم على الزواج اكراهاً. واستعرض مرةً فئة منهم في ميدان الهيبودروم موجباً على كل منهم ان يمسك بيد امرأة في اثناء العرض. ويقول ثيوفانس ان حاكماً من حكام آسية الصغرى جمع رهبان ولايته وراهباتها في افسس فأمرهم بان يرتدوا الابيض ويتزوجوا حالاً ومن لم يطع فتسمل عيناه وينفى الى قبرص. فهنأه قسطنطين قائلاً له: لقد وجدت في شخصك رجلاً يحب ما أحب وينفذ جميع رغباتي[2]. وصادر قسطنطين املاك الاديرة وضمها الى املاك الدولة. وهكذا فرّ عدد كبير من الرهبان الى ايطالية وجنوبي روسية وشاطىء لبنان وفلسطين. ويقدر الاستاذ اندريف الرومي عدد الذين فروّا الى ايطالية بخمسين الفاً[3]. واشهر الشهداء في هذه الفترة من تاريخ الكنيسة اسطفانوس الاصغر[4]. ومن هنا، على الارجح، كان

١ *Mansi, Amplissima Callectio Conciliorum, XIII, 323, 327, 346, 354, 355; Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Bilderstreites, 7-29.*

٢ *Theophanes, Chron. ed. Boor, 445, 446.*

٣ *Andreev, I., Germanus and Tarasius, 78.*

٤ *Patrologia Graeca, Cols. 1070-1186.*

رأي الاستاذ اوسبنسكي ان المؤرخين ورجال اللاهوت قد حرّفوا الحقائق وشوهوها عندما رأوا في هذه الحوادث حرباً ضد الايقونات iconomachia لان الواقع انها كانت حرباً ضد الرهبان[1] monachomachia

والذي يراه الاستاذ اندريف الروسي ان موقف المجمع من هذه الحركة كلها قد أدخل شيئاً من الطمأنينة الى قلوب الشعب فجعلهم مؤمنين بها بضمير صالح . وبذلك تمكن الفسيلفس من أن يجعل كل مؤمن يقسم بانه سيجتنب تكريم الايقونات[2] .

وكان من جراء العنف الذي لجأ اليه لاوون الثالث وابنه قسطنطين الخامس ان نفرت رئاسة الكنيسة الغربية من حكومة الروم فتقربت من ملوك الغرب لتستعين بهم على دفع شر الاضطهاد . فأفتى البابا زخريا (٧٤١ - ٧٥٢) في السنة ٧٥١ ، بخلع كليديريك ملك فرنسة وتنصيب بيبينوس . وفي السنة ٧٥٥ قدم بيبينوس بجيش الى ايطالية يحارب اللومبارديين فجعل البابا اسطفانوس الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧) سيداً على كل ولايات الروم في ايطالية . ولما طالب قسطنطين الخامس بولاياته هذه اجابه بيبينوس انه وهبها لكرسي رومة عن حب لبطرس الرسول كيما تغفر له خطاياه . ومن هنا من هذا التباعد بين الفسيلفس والبابا ومن هذا التقارب بين البابا وبيبينوس زرعت بذور الانشقاق في الكنيسة ، البذور التي ادت فيما بعد الى انقسامها شطرين شرقية وغربية .

المجمع المسكوني السابع : وفي السنة ٧٧٥ توفي قسطنطين الخامس فخلفه ابنه لاوون الرابع . وكان لاوون الخزري مثل والده يرفض الايقونات ولكنه كان لين الجانب . وبعد خمس سنين خلفه ابنه قسطنطين

١ *Uspensky, Ch., N., Hist. of Byzantium, I, 228.*

٢ *Andreev, I., Germanus and Tarasius, 96.*

السادس وله من العمر عشر سنوات . وتولت امه ايرينة زمام الحكم باسمه وكانت من محبي الايقونات . ولكنها رأت منذ بداية عهدها في الوصاية ان الجيش ما يزال معادياً للايقونات وان الصقالبة في غليان مستمر ، فأرجأت النظر في اعادة الايقونات الى وقت آخر . وكان البطريرك بولس الرابع وغيره من كبار رجال الكنيسة قد اكرهوا اكراهاً على تقبل قرارات مجمع السنة ٧٥٤ فاستقال ونصح الى الوصية ان تجمع مجمعاً مسكونياً وان يُرقى الى الكرسي البطريركي طراسيوس كاتم اسرار المملكة . وكان طراسيوس عالماً تقياً فلم يقبل الدرجة الا بعد ان استوثق من الوصية بانها تدافع عن الرأي القويم[١].

وفي السنة ٧٨٤ كتب البطريرك طراسيوس وكتبت الوصية باسمها وباسم ابنها قسطنطين السادس الى البابا ادريانوس الاول (٧٧١ - ٧٩٥) والى البطاركة الثلاثة الشرقيين ابوليناريوس الاسكندري وثيودوريتوس الانطاكي والياس الاوروشليمي من اجل مجمع مسكوني يعقد في القسطنطينية . فأجاب ادريانوس مادحاً مبتهجاً ولكنه اعترض على ارتقاء طراسيوس من العوام وعلى لقبه بطريرك المسكونة وطلب ان ترد له املاك بطرس الرسول والسلطة على الابرشيات التي اضافها لاوون الثالث الى الكرسي القسطنطيني . وفي السنة ٧٨٦ اجتمع المجمع في القسطنطينية في كنيسة الرسل ولكن الجند اندفعوا اليها شاهرين السلاح فدفعوا بالآباء الى الخارج . وفي السنة ٧٨٧ التأم هذا المجمع في مدينة نيقية . وكان مؤلفاً من ٣٦٧ اباً وكان رئيسه طاراسيوس . وناب عن البابا ادريانوس القسان بطرس وبطرس وعن البطاركة الشرقيين الثلاثة القسان توما ويوحنا

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، تاريخ الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ .

الان الظروف السياسية كانت شديدة على هؤلاء .

وعقد المجمع المسكوني السابع ثماني جلسات واشترع اثنين وعشرين قانوناً . وفي الجلسة الاولى خطب البطريرك طاراسيوس الرئيس خطبة وجيزة . ثم قرىء كتاب قسطنطين الفيلفس ووالدته الوصية ايرينة : « اننا قياماً بالوصية الانجيلية وصية المسيح رئيس الكهنة الابدي قد عتنبنا في ارجاع السلام الى الكنيسة فبرضاه ومسرته قد جمعناكم انتم كهنته الجزيل برّكم الحافظين عهده بذبائح غير دموية ليكون حكمكم حكم المجامع المستقيمة الرأي » . ومما جاءَ في هذه الرسالة ان طاراسيوس أُغصب على قبول المنصب البطريركي وانه قال قبل ان يقبل الشرطونية : « اني ارى وانظر كنيسة المسيح المؤسسة على الصخرة التي هي المسيح الهنا مقسومة الآن ومنشقة واننا نحن كنا نقول قبلاً بغير ما نقول الآن ومسيحيو الشرق المماثلون لنا في الايمان يقولون قولاً آخر ووافقهم مسيحيو الغرب . ونحن غرباء عنهم جميعهم . وكل يوم نحرم من الجميع . فأطلب عقد مجمع مسكوني يحضره نواب عن بابا رومة وعن رؤساء كهنة الشرق » .

وبعد ذلك دخل الاساقفة المبتدعون واعترفوا بغلطهم وقدموا ندامة ورفعوا اعترافات ايمان مستقيم . وفي مقدمة هؤلاء باسيليوس اسقف انقيرة ، وقد قال في كتابه : « فأنا باسيليوس اسقف مدينة انقيرة قد اخترت ان اتحد بالكنيسة الجامعة اعني ادريانوس بابا رومة القديمة الجزيل القداسة وطاراسيوس البطريرك الجزيل الغبطة والكرامي الرسولية الجزيلة القداسة كرامي اسكندرية وانطاكية والمدينة المقدسة وسائر رؤساء الكهنة والكهنة الارثوذكسيين وقدمته اليكم انتم الذين نلتم السلطان عن الاصل الرسولي » .

وفي الجلسة الثانية قرئت رسائل البابا ورسائل البطاركة . ومما جاءَ في

رسالة البابا ادريانوس التي وجهها الى « اخيه الحبيب طاراسيوس » : « وبما ان برّكم قريب من الاقدام السامية اقدام ملوكنا العظام الجزيل تقواهم المتوجين من الله تضرعوا اليهم عنا ان يأمروا باعادة الايقونات المقدسة الى مركزها القديم في مدينة العاصمة المحروسة وفي كل مكان . » وسأل النواب طاراسيوس : هل يوافق على رسالة ادريانوس ام لا ، فأجاب : انه يوافق عليها لكونها ارثوذكسية وانه هو نفسه قد فحص وبحث وتعلم من الآباء واعترف ويعترف وسيعترف ويؤيد صحة التحارير التي قرئت قابلا الايقونات المصورة على اثر تسليم آبائنا الاقدمين . فقال عندئذٍ القس يوحنا احد نائبي البطاركة : « انه يليق بنا في الحاضر ان نرنم زبورياً : الرحمة والحق تلاقيا والعدل والسلام تلاثما . فأن الرحمة والحق تلاقيا اعني ادريانوس وطاراسيوس باتفاق رأيها وتعليمهما . »

وفي الجلسة الثالثة قرئت رسالة طاراسيوس الى البطاركة واجوبتهم عنها . وفي الرابعة اعترف الآباء بوجوب تكريم الايقونات وقبّلوها والغوا مجمع السنة ٧٥٤ لانه لم يكن مسكونيـاً . وفي السابعة كتب اعتراف الايمان وحدّد فيه المجمع وجوب تقبيل الايقونات والسجود الاكرامي لها « احتراماً للذين صورت عليهم لا عبادة لهم كما انهم الكنيسة اعداؤها ، لان العبادة انما تجب لله وحده دون غيره[1] » .

رومة تستعيد حقها في انتخاب الامبراطور : وكان من جراء هذا الاضطهاد الذي لحق بالكنيسة في الشرق والغرب ايضاً ومن جراء استمساك بطريرك القسطنطينية بلقب « بطريرك المسكونة » ان حاول بابا رومة لاوون الثالث إعادة الحق الى رومة العاصمة الاولى في انتخاب

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٦٥ – ٣٧٠ .
Mansi, Amplissima Collectio Conciliorum, XIII.

الامبراطور . فأنه اعتبر فيما يظهر سلطة ايرينة غير قانونية لانها امرأة ولانه لم يسبق لرومة ان اعترفت بحق امرأة في الملك . واعتبر عرش الامبراطورية الرومانية شاغراً بعد خلع قسطنطين السادس وسمل عينيه ، فتوّج كارلوس الكبير ملك الافرنج امبراطوراً في كنيسته الكندرائية وفي يوم عيد الميلاد من السنة ٨٠٠ ، واعتبره خلفاً للاوون الرابع وهرقل ويوستنيانوس وثيودوسيوس وقسطنطين . واعتبرت الحكومة البيزنطية هذا العمل خروجاً على السلطة . وتوقعت زحف كارلوس الكبير على الشرق لخلع ايرينة وتسلم ازمة الحكم كما فعل غيره قبله من الاباطرة الذين قاموا في الغرب فزحفوا ووحدوا[١] . ويرى البعض من رجال الاختصاص ان كارلوس علم حق العلم ان الحكومة البيزنطية ستنتقي بعد ايرينة فسيلفساً جديداً ففاوض ايرينة في الزواج ، وان ايرينة نظرت الى هذا الاقتراح بعين الرضى ولكنها غلبت على امرها فخلعت في السنة ٨٠٢ . ولذا فان برنامج كارلوس لم يتحقق[٢] . ولم يعترف الروم بلقب كارلوس الجديد قبل السنة ٨١٢ ولكنهم في مقابل هذا اضافوا رسمياً الى اللقب الفسيلفس الكلمة « الروماني » . ولم يدم عهد هذه الامبراطورية الرومانية في الغرب . فان خلفاءَ كارلوس الكبير كانوا صغاراً . وفي النصف الثاني من القرن العاشر استعاض بابا رومة عن هذه الامبراطورية الرومانية بامبراطورية رومانية « مقدسة[٣] » .

١ *Bury, J. B., Charles the Great and Irene, Hermathena, VIII, (1893), 17-37; Schramm, P., Kaiser Rom und Renovatio, I, 12-13.*

٢ *Theophanes, Chron., 475; Ostrogorsky, G., Gesch. des Byz. Staates, 128.*

٣ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp. 265-269.*

الفصل العشرون

خلفاء الاسوريين والاسرة العمورية

(٨٠٢ - ٨٦٧)

نيقيفوروس الاول وميخائيل الاول : (٨٠٢ - ٨٢٠) واستطاع نيقيفوروس Nicephorus او نقفور ان يستولي على الامبراطورية في يسر وسهولة كما سبق ان اشرنا . وكان ساميّ الاصل ان لم يكن عربياً[١]. ولم يقتفِ آثار ايرينة في تنفيذ مقررات المجمع السابع ، ولكنه لم يضطهد من قال باكرام الايقونات ولا هو شجعهم . وجاهد جهاداً طيباً في سبيل الخزينة ، فنقض الاعفاءات من الضرائب التي كانت قد منحتها ايرينة استرضاءً ، وأعاد النظر في سجل الاراضي ، وفي ضرائب الدخل ، وفرض ضرائب جديدة خصّ بها الاغنياء لتعبئة الجيش وتسليحه . فاكتسب بذلك كره بعض الاوساط . ومن هنا على الارجح تهجم عليه ثيوفانس المؤرخ[٢].

ومع انه اخمد بسهولة ثورات عدّة ، أشعلها ضباط ساخطون ، فانه لم يكن موفقاً في حروبه الخارجية . فقد كتب منذ اوائل عهده الى هارون الرشيد يقول : « ان هذه المرأة (ايرينة) وضعتك موضع الرخ ووضعت

١ *Brooks, E. W., Byzantines and Arabs, Eng. Hist. Rev., (1900), 743 ff.*

٢ *Bratianu, G., Etudes Byz. d'Hist. Econ. et Soc., 196 ff.*

نفسها موضع الشاة ، فأدّ اليّ ما كانت المرأة تؤدي اليك » . فاجابه الرشيد : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله هارون امير المؤمنين ، الى نقفور كلب الروم . اما بعد ، فقد فهمت كتابك والجواب ما تراه لا ما تسمعه[1] . » وأغار هارون على آسية الصغرى . واحتل في السنة ٨٠٦ تيانة (طوانى) وانشأ فيها مسجداً وجعلها قاعدة لاعماله الحربية . وغزا رودس في السنة ٨٠٧ وفرض الغرامة ، فدفعها نيقيفوروس كما دفعتها ايرينة من قبله[2]. ثم شُغل هارون بالثورات في اقاليمه الشرقية . وغزا نقفور البلغار في السنة ٨١١ لينتقم من مليكهم كروم الذي كان قد سطا على تراقية ، فاحرز عليه نقفور انتصاراً باهراً ، ولكنه فوجىء بعد ذلك بهجوم ليلي اشتد فيه القتال . فسقط نقفور وجرح ابنه وولي عهده ستوراقيوس . على ان الروم لم يقفوا حتى بلغوا ادرنة وتركوا جثة الفسيلفس في ميدان القتال . فقطع البلغاريون رأس نقفور واتخذوا جمجمته كأساً[3].

نيقيفوروس
٨٠٢ — ٨١١

ستوراقيوس
٨١١

بروكوبية = ميخائيل الاول
٨١١ - ٨١٣

١ القلقشندي ، صبح الاعشى ، ج ١ ، ص ١٩٢ . الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٧٩. *Bury, J. B., Hist. of Eastern Rom. Emp., 249-250.*

٢ *Theophanes, Chron., ed. Boor, 482-483*

٣ *Ibidam, 489-491.*

وكان نيقيفوروس قد اشرك ابنه الوحيد ستوراقيوس في الحكم منذ السنة ٨٠٣ وزوّجه من نسيبة لايرينة بعد ان فازت في مسابقة على الجمال ، ولكن جرح ستوراقيوس كان قاتلاً فتولى العرش بعده صهره ميخائيل الاول وهو من اسرة نبيلة عريقة في الشرف . وكان ميخائيل هذا لطيف المعشر معجباً بالرهبان ، فأبعد عن الوظائف جميع أعداء الايقونات ، فأثار غضبهم ودفع بهم وبمن قال قولهم الى التآمر . ومما زاد في الطين بلة ان البطريرك نيقيفوروس اعلنها حرباً على المهاجرين الشرقيين . وكان هؤلاء قد نقلوا من الولايات النائية المتاخمة لحدود العرب الى العاصمة وتراقية ليحلوا محل الذين سقطوا في الحروب او ماتوا من جراء الطاعون . وهؤلاء الشرقيون كانوا لا يزالون يدينون بمذاهب لم تقرها المجامع المسكونية . وعلى الرغم من وساطة البعض ورجائهم الى البطريرك ان يعامل هؤلاء بالحسنى ويتودد اليهم لعلهم يعودون الى حضن الكنيسة ، فان البطريرك تمادى في القسوة فعادت المشادة الدينية الى ما كانت عليه من قبل[١].

وكانت الحرب البلغارية لا تزال ناشبة . وكان خاقان البلغار كروم لا يزال يسطو على الارياف والمدن حتى وصلت طلائع فرسانه الى اسوار ادريانوبل . فضج السكان . وطالب المهاجرون الشرقيون بالعودة الى اوطانهم في آسية . ورأى الوجهاء والاعيان ان لا مفر من الحرب لصد هذا العدوان . فأعد ميخائيل جيشاً كبيراً وزحف الى الجبهة في ايار من السنة ٨١٣ . فالتقى في الثاني والعشرين من حزيران جيوش البلغار عند ادريانوبل فدارت الدائرة على الروم وانهزم ميخائيل ، فنادى الجند بلاوون الارمني ، احد كبار القادة فيهم ، فسيلفساً . وفي العاشر من تموز دخل

١ *Theophanes, Chron., 495 ; Theodore Studion, P. G., 1481-1485, Ep. II, 155.*

لاوون العاصمة فاستقبله الشيوخ . وتنازل ميخائيل وترهب واعتزل في دير من اديرة الجزر[١].

لاوون الخامس : (٨١٣ - ٨٢٠) واول ما فعله هذا الفسيلفس الارمني انه أقسم يمين الولاء للكنيسة وقطع وعداً بان يحافظ على عقائدها ومصالحها . ثم عني باسوار العاصمة للصمود في وجه البلغار الذين ما فتئوا يصدمونها . وكان خاقانهم كروم يحاول ارهاب السكان بذبح الابرياء عند الاسوار . ولكن في ربيع السنة ٨١٤ بينما كان هذا الخاقان يعد هجوماً جديداً على العاصمة البيزنطية فاجأته المنية . وكان ذلك في الرابع عشر من نيسان . فاضطر ابنه ان يصالح الروم ليتسنى له توطيد العرش، فسالمهم ثلاثين سنة . وسلمت القسطنطينية من هجمات البلغار ثمانين سنة[٢].

وكان لاوون وصولياً في سياسته . وكان يعتمد على جنود آسيويين لا يحترمون الايقونات ولا يرغبون في تكريمها . فما ان استتب له الامر وتخلص من خطر البلغار حتى نكث يمينه ونبذ عهد الولاء للكنيسة . وكان مراوغاً مداوراً ، فبث بادىء ذي بدء في الاوساط الرسمية وغير الرسمية ان ما حلّ بالدولة من ضعف وما احدق بها من خطر انما نشأ عن العودة الى تكريم الايقونات وتقديسها . وبعد ان تمكن من جمع قرارات مجمع السنة ٧٥٤ عقد مجلساً في القصر ضم بعض وجهاء الطرفين المتخاصمين ممن قال بالايقونات وممن حرّمها . ودعا البطريرك نيقيفوروس الى هذا المجلس في خريف السنة ٨١٤ وثيودوروس رئيس دير الاستوديون وطلب الى المجتمعين ان يبحثوا في امر الايقونات . فأجابه ثيودوروس

١ *Theophanes, Chron., 500-503 ; Bury, J. B., Hist. of East. Rom. Emp., 29-30 ; Schlumberger, G., Les Iles des Princes, 35-38.*

٢ *Runcimann, S., First Bulgarian Empire, 72-75.*

بصراحة وشدة ان البحث في الامور الدينية منوط برجال الدين وان الواجب على الفيلسوف ان يطيع هؤلاء في امور الدين لا ان يغتصب دورهم اغتصاباً وان للفيلسوف انَ يعنى بما سوى ذلك[1] . فأجاب لاوون بانه لا يرغب في حمل الناس على الاستشهاد . وفي عيد الميلاد من هذه السنة استمع للقداس الالهي في كنيسة الحكمة الالهية مظهراً الخشوع مكرماً الايقونات . ولكنه في ربيع السنة ٨١٥ القى القبض على البطريرك نيقيفوروس ونفاه الى خريسوبوليس واقام في موضعه علمانياً يدعى ثيودوتوس . ثم عقد مجمعاً محلياً في نيسان من السنة نفسها في كنيسة الحكمة الالهية ثبت فيه مقررات مجمع السنة ٧٥٤ وحرّم تكريم الايقونات[2] . على ان لاوون الخامس كان اقل امراعاً بمن سبقه الى محاربة الايقونات ، مع أن مقاومة من كرّم الايقونات كانت اشد واقوى من ذي قبل . فاكتفى لاوون بنفي الاساقفة والرهبان وبحبسهم . نفى ثيودوروس مثلاً الى بيثينية ثم الى ازمير . وهذا المجاهد بقي قوياً شديداً ، فكتب من سجنه في ازمير في السنة ٨١٩ يشدد عزائم الرهبان كما انه استغاث ببابا رومة وببطاركة الشرق الثلاثة[3] .

واشرك لاوون ابنه في الحكم وظن انه بذلك يؤسس امرة حاكمة . ولكن رفاقه في السلاح الذين عاونوه في الوصول الى الحكم وفي طليعتهم ميخائيل العموري لم يرضوا عن مسلكه فتآمروا عليه . واكتشف لاوون هذه المؤامرة وقذف بميخائيل الى السجن ولكنه اجّل عقابه حتى عيد الميلاد وترك شركاءه في المؤامرة احراراً . فعزم هؤلاء واصدقاؤهم على ان يضربوا

١ *Vita Theodore, Patrologia Graeca, Vol. 99, 181-183*

٢ *Theophanes, Chron., 1033-1036.*

٣ *Vie de St. Georges d'Amastris, 110-136.*

ضربتهم قبل ان ينكشف امرهم . وقرروا ان يذبحوا لاوون في كنيسته الخاصة عند حضوره القداس لانه كان لا يقترب من القربان المقدس حاملاً السلاح . وهكذا حضر المتآمرون قداس الميلاد وهاجموا لاوون في اثناء صلاة التوبة . فاختطف هو الصليب المعدني الثقيل من المذبح وضرب به بعض الذين هاجموه . ولكنهم تكاثروا عليه وذبحوه على مقربة من المذبح واخرجوا ميخائيل من سجنه وتوّجوه فسيلفساً قبل ان تكسر قيوده الحديدية[1] .

الاسرة العمورية : (٨٢٠ – ٨٦٧) وكان ميخائيل الثاني هذا ريفياً غير مثقف . وقد اطلق عليه اسم العموري نسبة الى عمورية Amorium مسقط رأسه في ولاية فريجية . وكان يدعى الالثغ والتمتام . وكان قد قضى حياته في الجيش وترقى في سلكه حتى اصبح من كبار الضباط . وبقي جندياً عتيقاً بطباعه وعاداته . ولكنه كان قديراً ماهراً حكيماً . فخصّ عرشه بشطر وافر من وقته . وتزوج من افروسينة ابنة قسطنطين آخر ورثة الاسوريين . فقوّى بذلك حقه في التاج . واشرك ابنه ثيوفيلوس في الحكم . ثم اصدر امراً منع فيه كل مشادة حول الايقونات ، واستدعى من المنفى جميع المبعدين بسبب ذلك . واستقبل ثيودوروس الراهب الاستديوني في قصره واكد له حرية العبادة ، وقال لنقيفوروس البطريرك : ليس لي ان ابتدع في الايمان والعقيدة ولا ان اجادل في التقاليد الموروثة او ان انقضها[2] . ولكنه قبل ان يتسنى له شيء من هذا

١ Anonyme (Scriptor Incertus), Vie de Léon l'Arménien, Pat. Graeca; Legende Arabe , Byzantion, 1939, 383 sq

٢ Gelzer, H., Abriss der Byz. Kaisergeschichte, 967; Ternovsky,F. A., Graeco-Eastern Church, 487; Dobroklonsky, A.,Theodore the Confessor, I, 849.

اضطر ان يجابه ثورة مخيفة دامت سنتين وفاقت في اتساعها اكثر ثورات عصرها .

ثورة توما الصقلي : (٨٢١ – ٨٢٣) وكان بين رفاق ميخائيل في السلاح ضابط كبير صقلي الاصل او ارمني التحق بخدمة احد البطارق في عهد ايرينة ، فاتصل سراً بزوجة البطريق وذاع هذا السر ، فهرب الى الشام وبقي فيها حتى عهد لاوون الخامس . فلما كان عهد نقفور عاد الى بلاد الروم واشترك في ثورة بردانيوس في السنة ٨٠٣ ، ثم عاد الى جوار الرشيد وبقي حتى عهد المأمون (٨١٣ – ٨٣٣) . وهذا الضابط الكبير هو توما الصقلي بطل هذه الثورة التي نحن بصددها .

ومما جاءَ في المراجع اليونانية انه في اثناء في ثورة بردانيوس (٨٠٣) على نقفور تنبأ احد الرهبان بفشل بردانيوس ورفاقه لاوون وميخائيل وتوما وبان الاولين يحملان التاج الامبراطوري ، وبان الثالث ينادى به امبراطوراً ولكنه يهلك بعد ذلك بقليل .

والواقع ان لاوون اصبح فسيلفساً ، وان ميخائيل استوى على العرش بعده ، وان توما طمحت نفسه الى الملك ، فبدأ يسعى له في ارمينية والبونط منذ اواخر عهد لاوون . فلما قتل لاوون في السنة ٨٢٠ استغل توما الظرف واتجهت انظاره شطر القسطنطينية وعرشها . وأيدت آسية الصغرى بمعظمها توما الصقلي لم يشذّ منها سوى ثيمتي ارمينية والابسيق . فادعى توما انه قسطنطين السادس ابن ايرينة ، فالتف حوله مكرمو الايقونات . ورأى المستضعفون من سكان آسية الصغرى في توما محرراً ، فدخلوا في حزبه املاً في تحسين مستقبلهم « فرفع الخادم يده في وجه سيده ، والجندي في وجه قائده ، والقائد في وجه اميره[١] . » ويرى بعض

١ *Theophanes Continuatus*, 53.

رجال الاختصاص ان الصقالبة في آسية الصغرى رأوا في توما محرراً قومياً فاندفعوا في سبيل نصرته اندفاعاً عظيماً . ولا ننسى ان الاباطرة كانوا قد نقلوا الى آسية الوفاً من الصقالبة .

وتفاهم توما والمأمون فأمده هذا بجيش قوي . ثم استمال جباة الضرائب في آسية فتوافر لديه المال . وأمر المأمون ايوب بطريرك الروم في انطاكية ان يرسم توما فسيلفساً ، لانه سمع ان الفسيلفس لا يقام من غير بطريرك « فقرأ البطريرك عليه الادعية ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً باحجار ثمينة[١] » والتحق بتوما ايضاً اسطول ايجه فلم يبقَ لدى ميخائيل الثاني سوى الاسطول الامبراطوري .

ونهض توما بجيوشه الى بر الاناضول . ولم يكن عند ميخائيل الثاني فكرة صحيحة عن قوة خصمه ، فدفع لملاقاته بجيش صغير . ونشبت معركة انتصر فيها توما وانهزم جيش الفسيلفس . فأدرك ميخائيل انه يواجه ثورة ليست كالمعتاد وان انصار الايقونات يؤيدون توما . ولهذا اسرع فاستدعى اليه زعماء القائلين بتكريم الايقونات وحاول اقرار السلام الديني بمؤتمر في القصر كما سبقت معنا الاشارة . ولكن ثيودور الراهب رفض الاجتماع مع الهراطقة . وقصد توما القسطنطينية متناسياً انه يترك وراءه انصاراً لخصمه ووصل الى المضايق وعبر البحر الى تراقية فتبعه عدد كبير من السكان وبينهم الصقالبة المقدونيون . وبلغ القسطنطينية في اواخر السنة ٨٢١ وبدأ حصارها براً وبحراً . وكان يتوقع ان تفتح العاصمة ابوابها بمجرد اقترابه منها ، ولكنها لم تفعل . وضعفت الحماسة له في اوساط حزب الايقونات لانه كان قد احاط نفسه بالمسلمين وجاء منهم بعدد كبير . ورفع ميخائيل علم الحرب على سطح كنيسة بلاخرنة ، وترأس ابنه ثيوفيلوس موكباً رافعاً

١ Michel le Syrien, III, 57 .

الصليب ورداءَ العذراء ودار حول الاسوار يسأل المعونة الالهية لانقاذ المدينة . واستمرت عمليات الحرب متساجلة واقتصرت على اصطدامات يسيرة لان ميخائيل صرف نفسه عن الاشتباك بمعركة حاسمة لكثرة جنود توما . ثم اتفق ميخائيل واموورتاج خاقان البلغار فأصبح توما امام عدوين . وضج جيشه ساخطاً لان الحرب طالت دونما وصول الى نتيجة حاسمة . وانحاز قسم كبير من جيش توما الى الفسيلفس في احدى المعارك فارتد توما الى اركاذيوبوليس . فحصره ميخائيل فيها خمسة أشهر . فجاع اهل المدينة وقامت فيها مؤامرة فألقي القبض على توما وقيد وسُلّم الى ميخائيل في منتصف تشرين الاول من السنة ٨٢٣ فقتله[1]. ولم يقوَ المأمون على امداد توما باكثر مما فعل لاشتغاله بثورة الخُرَّمية .

نزول العرب في اقريطش: (٨٢٦ - ٨٢٧) وثار اهل قرطبة على الخليفة الحكم في السنة ٨١٤ فهزمهم الخليفة وأمر من بقي منهم حياً ان يغادر اسبانية في ثلاثة ايام . فجمع الثوار نساءهم واطفالهم وما استطاعوا حمله وأبحروا الى افريقية . وقصد قسم منهم بلغ عدده خمسة عشر الفاً الى ارض مصر فنزلوا في ضواحي الاسكندرية في هذه السنة نفسها . ثم انتهزوا فرصة اشتغال المصريين بثورة على العباسيين فاحتلوا الاسكندرية نفسها في السنة ٨١٦ . وفي السنة ٨٢٥ جاء القائد العباسي عبدالله ابن طاهر وطلب الى الاندلسيين مغادرة الاسكندرية ونصح لهم ان ينزلوا في اقليم من اقاليم الروم[2].

وفي السنة ٨٢٦ اغار الاندلسيون الاسكندريون على جزيرة اقريطش

١ وافضل من صنف في ثورة توما الاستاذ الكسندر فازيلييف . راجع ترجمة مؤلفه : الروم والعرب ، ص ٢٨ – ٤٨ ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادي شعيره والدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ، دار الفكر العربي .

٢ الكندي ، الولاة والقضاة ، ص ١٦٣ – ١٨٠ .

غارة استطلاعية تمهيدية وآبوا بالغنائم والاسرى . وفي السنة ٨٢٧ او ٨٢٨ نزلوا فيها فلم يلقوا مقاومة تذكر . وانشأوا لهم حصناً واحاطوه بالخندق وجعلوه حاضرة لهم . فسميت قاعدتهم الخندق ولا يزال اسمها Candia . وحاول ميخائيل انتزاع اقريطش من يد هؤلاء العرب . فانفذ اليها حملة قوية في السنة ٨٢٨ وأردفها بحملة اخرى في السنة ٨٢٩ ولكن جهوده لم تثمر . وقُدّر للعرب الاندلسيين ان يبقوا فيها مدة قرن يغيرون منها على الجزر المجاورة وعلى مراكب التجار ، فيقضون بذلك مضجع الروم وينزلون بتجارهم خسارة فادحة[1].

ثورة يوفيميوس الصقلي : (٨٢٦ – ٨٢٧) وثار يوفيميوس تورمارخوس صقلية في السنة ٨٢٦ على ميخائيل الثاني واعلن نفسه فسيلفساً . ولكنه خشي سوء العاقبة ، فراسل زيادة الله الاول الاغلبي (٨١٧ – ٨٣٨) ، وفاوضه على ان يحكم يوفيميوس صقلّية بلقب امبراطور ويدفع للامير الاغلبي مالاً سنوياً . فأنفذ زيادة الله سبعين سفينة وعشرة آلاف فارس الى صقلية بقيادة عبدالله اسد ابن الفرات . وكان نزولهم فيها في السنة ٨٢٧ بدءاً لاحتلال طويل الامد . ولم يوجه الروم جهوداً كبيرة للدفاع عن هذه الجزيرة نظراً لبعدها ولانشغالهم بناحية الشرق[2]. ولم تكن انتصارات العرب فيها سريعة ولكنهم استولوا بالتدريج على الجزيرة كلها في عهد خلفاء ميخائيل .

ثيوفيلوس الاول : (٨٢٩ – ٨٤٢) وبرغم هذه الثورات المزعجة

١ فازيلييف ، الروم والعرب ، ص ٥٢ – ٦١ . الدكتور ابراهيم العدوي ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٨ – ٩٠ .
Bury. J. B., East. Rom. Emp., 287-291 : Brooks, E. W., Arab Occupation of Crete, Eng. Hist. Rev., 1913, 431-443 .

٢ *Gabotto, F., Eufemio il Movemento Separatista nella Italia Bizantina.*
فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٦٢ – ٨٤ .

المخيفة فان ميخائيل توفي وفاة هادئة وتولى الحكم بعده ابنه ثيوفيلوس (حبيب الله) . وكان ثيوفيلوس هذا رجل حرب ، فقاد جيوشه بنفسه واحرز بعض الانتصارات ، وفي الوقت نفسه كان رجل ادارة وتدبير مالي ، فترك في الخزينة عند وفاته ما يعادل مليون ليرة ذهبية . وعني بالبناء فشيد قصراً جديداً في القسطنطينية ضاهى به قصر المأمون وفاقه زخرفاً وجمالاً . واصبحت شجرته الذهبية حديث الشرق بامره ، كما ظلت اسوده الذهبية التي ترفع من اسفل العرش فتزأر حديث الاجيال المقبلة . واهتم لمدارس الدولة التي كانت تخرج رجال الادارة والاساقفة فوكل امره الى لاوون الرياضي اشهر علماء عصره وارفعهم شأناً ونجح بابقائه في بلاده على الرغم من ان خليفة بغداد كان يشوّقه للانتقال اليه[1]. ومما يجدر ذكره في هذا المقام ان ثيوفيلوس حين اصبح ارملاً طلب الى الامبراطورة فروسينة ان تجمع في تشريفاتها اجمل بنات الاشراف في العاصمة وسار بين صفوفهن ليختار زوجة . وكان يحمل في يده تفاحة من الذهب تشبهاً بباريس بطل الاساطير اليونانية القديمة . فوقع نظره في اول الامر على الحسناء ايكاسية . وعندما اقترب منها قال لها : « ان معظم الشر من النساء » . فاجابت : « ومعظم الخير ايضاً » ، فافحمته . ويبدو ان هذا الرد لم يرض الفيلسوف لانه تابع طريقه واعطى التفاحة الذهبية لثيودورة التي كانت تنافسها في الجمال . وكان اختياره سريعاً لان ثيودورة كانت تكرم الايقونات فاستعملت نفوذها كله ضد آراء زوجها[2].

ويختلف المؤرخون في موقف ثيوفيلوس من الايقونات . فبعضٌ يرى فيه عدواً لدوداً للايقونات وأنصارها ، وبعض يراه معتدلاً في موقفه مقتصراً

١ Goerges le Moine, III, 23 ; Symeon Magister, Chronique, 20.

٢ اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب الدكتور مصطفى طه بدر ، ص ١٦٤ — ١٦٥ .

في اجراءاته على العاصمة وضواحيها[1]. والواقع انه رغم تعلقه بالعذراء والقديسين قد اتخذ له في هذه الامور مستشاراً عدواً للايقونات وهو العالم الشهير يوحنا الكاتب. وجعل من صديقه هذا بطريركاً مسكونياً وكوى كفيّ العازار الراهب المصور بالحديد الحامي، وجلد ثيوفانس واخاه ثيودوروس الراهبين الفلسطينيين ووسم جبينيهما بابيات من الشعر نظمها هو نفسه[2].

ثيوفيلوس والعرب: وظهرت طائفة الخرّمية في جبال فارس بين اذربيجان والديلم، وتولى رئاستها بابك وعاث في البلاد فساداً في عهد المأمون، وهزم جيوش الخليفة العباسي المرة تلو الاخرى. وأباد جيشاً باكمله بعثه المأمون في السنة ٨٢٩ – ٨٣٠. وقد دامت ثورة بابك حتى ايام المعتصم (٨٣٣ – ٨٤٢). فجرّد المعتصم جيشاً كبيراً بقيادة الافشين وغيره للقضاء على هذه الثورة. فأرسل بابك الى ثيوفيلوس يحرّضه على الخليفة العباسي. فرأى ثيوفيلوس في ثورة بابك فرصة يقابل فيها العباسيين بمثل ما فعلوا عندما ساعدوا توما في ثورته على والده ميخائيل. وهكذا أعدّ ثيوفيلوس جيشاً كبيراً واتجه به الى اعالي الفرات وهو يأمل الاتصال بالخرّميين. وبلغ الى زبطرة سنة ٨٣٧ واشعل فيها النار وسبى نساءها واطفالها ثم دخل سميساط وملاطية[3]. وعاد بعد ذلك الى القسطنطينية فاستقبل فيها استقبال الظافر وخرج الناس للقائه باكاليل من الزهر. واقيمت حفلة سباق ظهر فيها ثيوفيلوس بثياب زرقاء فوق عربة تجرها خيول بيضاء. وألبس تاج النصر ونادى الشعب: احسنتَ السير ايها السائق الاصيل!

١ *Bury, J. B., East. Rom. Emp , III, 140-141.*
٢ *Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 286.*
٣ البلاذري، فتوح البلدان، ص ١٩٢. اليعقوبي، ج ٢، ص ٥٨٠.

ولكن المعتصم استطاع ان يقضي على ثورة بابك في اواخر السنة ٨٣٧ ففرغ للروم وأعد ثلاثة جيوش سيّر احدها بقيادة الافشين عبر طوروس من درب الحدث ، وقاد هو الجيشين الآخرين وعبر بهما من ابواب قيليقية . وكانت انقرة نقطة التلاقي . فصمد ثيوفيلوس اولاً عند نهر الهاليس (او آلس كما يسميه العرب) ، ولكنه لما علم بزحف الافشين منفرداً قام لصده قبل ان يتسنى للافشين الانضمام الى الجيشين العربيين الآخرين . فالتقاه قرب دوزمانة وهي لا تبعد كثيراً عن ترخال . فدارت الدائرة على الروم وانهزم ثيوفيلوس منكفئاً الى القسطنطينية . وتقدم العرب الى عمورية وحاصروها ثم دخلوها عنوة ونهبوا واحرقوا ، واسروا عدداً كبيراً من الجند والضباط والقادة ، وقتلوا ستة آلاف من الاسرى . وأمر الخليفة اثنين واربعين من كبار الضباط ان يُسلموا ليسلموا . فلما أبوا قتلوا عند ضفة دجلة[١]. ولعل المعتصم فكر في الزحف على القسطنطينية ولكنه اضطر للتراجع اذ وردت عليه إنباء مؤامرة قامت لخلعه[٢]. وفي السنة ٨٣٩ ظهرت عمارة رومية في مياه السواحل الشامية . وفي السنة ٨٤٠ تقدم الروم فأخذوا مرعش واحتلوا بعض مناطق ملاطية . ورغب المعتصم في السلم ولكنه عاد فأعد عمارة كبيرة ليغزو بها القسطنطينية . الا ان المنية عاجلته في السنة ٨٤٢ ، وعصفت عاصفة هوجاء بالعمارة العربية فحطمتها[٣]. ووجه ثيوفيلوس وفوداً نحو الغرب : الى البندقية والى انكلهايم عاصمة لويس التقي الورع ، والى عبد الرحمن الثاني الاموي الاندلسي ، يطلب المعونة . ولكن

١ *Bury, J. B., Mutasim's March Through Cappadocia, Journal of Hell. Studies, 1909, 120-129; Vasiliev, A.A., Martyrs of Amorion, Transactions of Imp. Acad. of Sciences, VIII, Ser. III.*

٢ الطبري ، ٣ ، ١٢٣٦ .

٣ *Diehl et Marçais, Monde Oriental, 312-313 .*

ثيوفيلوس على الرغم من الترحيب بهذه الوفود لم يلقَ اية معونة .

ميخائيل الثالث : (٨٤٢ - ٨٦٧) وتوفي ثيوفيلوس في السنة نفسها التي توفي فيها المعتصم ، وخلّف خمس بنات وابناً ذكراً هو ميخائيل الثالث . واذ كان ميخائيل هذا لا يزال في السادسة من عمره فان الملك الراحل جعل زوجته ثيودورة وصية على الملك القاصر . وعاونها في الوصاية مجلس تألف من كبار رجال الدولة . وكان ذروموس ثيوكتيستوس Theoctistus عم ثيودورة ووزير المال أشهر هؤلاء وألمعهم .

وكانت ثيودورة من محبي الايقونات . ووافقها على ذلك مجلس الوصاية . فدعت الآباء الارثوذكسيين الى مجمع ليحلوا ثيوفيلوس زوجها من خطيئته في اضطهاد من كرّم الايقونات . وطلبت الى البطريرك يوحنا الكاتب ان يشترك في اعمال هذا المجمع فأبى ، فعزله مجلس الوصاية وأقام مثوذيوس المعترف بطريركاً محله . وصدّق المجمع اعمال المجمع السابع . وفي اول احد من الصوم الكبير من السنة ٨٤٣ نصبت الايقونات المكرمة في كنيسة الحكمة الالهية واصبح هذا اليوم وما زال عيداً سنوياً لرفعها وانتصار الرأي الارثوذكسي[١] . وأصدر البطاركة الثلاثة خريستيفوروس الاسكندري وايوب لانطاكي وباسيليوس الاوروشليمي بياناً مشتركاً بوجوب حماية الايقونات وتكريمها .

وظلت ثيودورة ، بالتعاون مع عمها ثيوكتيستوس ، تدير دفة الحكم اربع عشرة سنة (٨٤٢ - ٨٥٦) . وفي خلال هذه المدة طرأ تغيير على عضوية مجلس الوصاية فأصبح اخو ثيودورة برداس عضواً في هذا المجلس . فنشبت مشادة بينه وبين ثيوكتيستوس اهم اسبابها حب السلطة وشهوة الحكم .

١ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ١ ، ص ٣٩٥ .
Vasiliev, A. A., Byz. Emp., 287.

فنشأ انقسام داخلي بين الأعضاء وادى الى استقالة عمانوئيل عم الفيلفس والى سجن ثيوكتيستوس وقتله سنة ٨٥٤ . وكان السبب وشاية رفعها برداس الى الفسيلفس الشاب ان ثيوكتيستوس عقد النية على التزوج من ثيودورة او احدى بناتها للوصول الى العرش . فنشأت مشادة عنيفة بين ثيودورة واخيها برداس حول السلطة ادت في السنة ٨٥٦ الى خروج ثيودورة وبناتها من القصر . وأصبح برداس صاحب الصول والطول . وتوفي احد ابناء برداس فأقامت امرأته افذوكية في بيت عمها برداس . ولم تكن الحماة والكنة على مشرب واحد فاندلعت الشرور في البيت . واظهر برداس عطفاً على كنته فاتهمته امرأته بكنته . فطرد امرأته من البيت . فالتجأت الى اخته ثيودورة الأمبراطورة . فتكدرت ثيودورة من هذا النفور وما رافقه من خبر قبيح . وفي هذه الاثناء كان قد توفي البطريرك مثوذيوس في السنة ٨٤٨ وحل محله أغناطيوس بمساعدة ثيودورة . وكان اغناطيوس هذا رجلاً ورعاً تقياً ولكنه كان فظاً قاسياً . وكان خبر برداس وأمرأته وكنته قد شاع في المدينة ، فوبخ البطريرك برداس ونهاه عن المحرّم ونصح له أن يقبل امرأته في بيته . فأبى برداس . وفي عيد الظهور الالهي سنة ٨٥٧ تقدم برداس مع ميخائيل الثالث ليتناول الأسرار الألهية . فأبى البطريرك مناولته وطرده خارج الكنيسة امام الشعب كله . فأخذ برداس يرجو ويستعطف وشفع له القيصر ولكن دون جدوى .

وكانت الكنيسة الارثوذكسية قد انقسمت على نفسها من حيث موقفها من الدولة ، وظلت منقسمة حتى السنة ٩١٢ . فالأستوديون ومن أيّدهم من المتشددين في الدين رأوا ان لا مبرر لتدخل السلطة في شؤون الكنيسة . أما الرهبان الاوليمبيون وكبار الأساقفة فكانوا معتدلين في موقفهم من السلطة وتدخلها ، ومن هنا نشئت متاعب مثوذيوس البطريرك . ومن

هنا كان انتقاء اغناطيوس . فان الامبراطورة ثيودورة ظنت ان المعسكرين سيؤيدانه ، نظراً لطهارته وتشدده في الدين ، ونظراً لكونه ابن ميخائيل الثاني الفسيلفس السابق . ومن هنا ايضاً ضغط برداس على فوطيوس العلماني ليكون خلفاً للبطريرك اغناطيوس[1].

وحنق برداس على البطريرك اغناطيوس وطفق يسعى للانتقام منه . واتفق ان راهباً ادعى أنه ابن ثيودورة من رجل كان لها في السابق . فأخذ الشعب ينظر اليه كأنه هو الملك المزمع بعد تنحيها . فقبض عليه برداس وزجه في السجن . واستنطقه فلم يعترف . فأمر بقلع عينيه وقطع اوصاله . وكان البطريرك اغناطيوس يعطف على هذا الراهب ويدافع عنه ناسباً عمله الى الجنون . فاغتنم برداس الفرصة واتهم البطريرك بالتآمر على الفسيلفس ليرجع ثيودورة وبناتها الى ادارة المملكة . فصدق الفسيلفس ميخائيل الثالث كلام برداس وامر اغناطيوس ان يجعل ثيودورة وبناتها راهبات في احد الاديرة . فسألهن اغناطيوس هل يردن الدخول في سلك الرهبنة فأنكرن . فامتنع عن اجابة طلب الفسيلفس قائلاً ان القانون يقضي منهن الموافقة وهنّ لا يوافقن فاكراههن مخالف للقانون . فصدّق ميخائيل ان البطريرك عدو له . فأكره والدته واخواته على الترهب كما أمر اغناطيوس ان ينزل عن كرسيه . فقدم اغناطيوس استعفاءه في الثالث والعشرين من تشرين الثاني وبقيت الكنيسة خمسة وعشرين يوماً بدون راع . وتشاور الاساقفة والفسيلفس وبرداس في أمر الخلف ، واجمعوا على انه يجب ان يكون رجل سلام يتوسط للوفاق بين الجهتين ، واشترطوا ان يكون ايضاً ذا همة ونشاط ليدفع الهرطقات . فاتفقوا على فوطيوس كاتم اسرار المملكة وقتئذٍ ، وهو الذي اشتهر

١ Brehier, L., *Byzance, Vie et Mort*, 117-118.

بالدراية والحكمة والفضيلة والتقوى والعفة الطوعية والعلم والفلسفة[1]. فرفض فوطيوس ان يتولى المنصب ولم يرضَ ان يستعيض عن السكينة والراحة باتعاب السدة البطريركية. فأصر عليه الرؤساء والاعيان بوجوب القبول، فلم يصغِ لهم. فانحاز اليه عندئذٍ اكثر اتباع اغناطيوس المستقيل. وهدده برداس بالسجن فأذعن لمشيئته. وأخذ يعلو درجات الكهنوت في سرعة فائقة. فسيم في اليوم الاول متوحداً، وفي اليوم الثاني اناغنوسطاً، وفي اليوم الثالث ايبوذياكوناً، وفي الرابع شماساً، وفي الخامس قساً، وفي السادس يوم عيد الميلاد اسقفاً وبطريركاً. وكان المتقدم في شرطونيته غريغوريوس آزبستاس اسقف سرقوسة. فأدى تقدم غريغوريوس آزبستاس في الشرطونية الى نفور اغناطيوس المستقيل وخمسة اساقفة معه. واشتد الخصام. ويئس اغناطيوس واتباعه من الوصول الى حل مرضٍ، فكتبوا الى بابا رومة يشكون ظلمهم، وكتبوا ايضاً الى بطاركة الاسكندرية وانطاكية واوروشليم.

وفي اثناء هذا كله استؤنفت محاربة الايقونات وذرّ قرن الشقاق بين الارثوذكسيين واصحاب الطبيعة الواحدة، وهب البولسيون والمانيسيون يشاغبون[2]. وعرا الكنيسة اضطراب شديد من جراء هذه القلاقل. فرأى الفسيلفس ومجلسه الاعلى والبطريرك الجديد ان يجمعوا مجمعاً مسكونياً. وكتب فوطيوس «رسائل الجلوس» وارسلها الى البابا وسائر البطاركة. وبات ينتظر «رسائل السلام» في الرد عليها. فارسل البطاركة الشرقيون الثلاثة رسائل السلام. اما بابا رومة نيقولاوس الاول فانه لام الفسيلفس

[1] *Dvornik, F., Photian Schism, Cam., 1948, 432.*
راجع ايضاً كلامنا عنه في الفصل التالي.

[2] *Runciman, S., Mediaeval Manichee Cam., 1947; Obolensky, D., Bogomils, Cam., 1948.*

على عزل اغناطيوس ، واحتج على توشيح علماني ليخلفه ، وطالب باعادة رئاسته على الابرشيات التي كانت قد سلخت عن كرسي رومة في عهد لاوون الثالث ، وارسل اسقفين اثنين الى القسطنطينية ليحملا رسالته وينظرا في الموقف عن كثب . فلما وصلا ووقفا على مسألة فوطيوس واغناطيوس وجدا ان اغناطيوس كان قابلاً بشرطونية فوطيوس وان الجميع التمسوا فوطيوس واحرجوه ليقبل البطريركية . فاشتركا في المجمع المسكوني الثامن (الاول والثاني) الذي انعقد في القسطنطينية في السنة ٨٦١ ووافقا على ارتقاء فوطيوس وعلى سائر قرارات هذا المجمع واهمها الا يقوم بعد ذلك بطريرك من طبقة العوام او الرهبان ما لم يتمرس في الدرجات الكنائسية درجة درجة ، ويتمم المدة القانونية فيها[1].

وارسل ميخائيل الثالث اعمال هذا المجمع (الاول الثاني) المسكوني الى البابا نيقولاوس الاول مع احد كتابه لاوون ومع سفيري البابا وزودهم بهدايا كنائسية ورسالة منه الى البابا . وكتب فوطيوس ايضاً رسالة ملأى باقوال اللطف الانجيلي[2]. فلما تسلم نيقولاوس هذا البريد ووقف على مضمونه وعلى ما فعله نائباه في القسطنطينية ألغى عمل النائبين مدعياً انهما تجاوزا صلاحيتهما ، وعقد مجمعاً محلياً في السنة ٨٦٣ وحكم على فوطيوس وقطعه ، واعترف باغناطيوس بطريركاً قانونياً وهدد باللعنة والحرم كل من يتجاسر ان يخالف هذا القرار . وكتب بذلك الى الفسيلفس فأجابه الفسيلفس بكتاب مرّ جعل البابا يقول عنه ان كاتبه قد غمس قلمه في حلق ثعبان . ومما زاد العلاقات تعقداً ان ميخائيل الثالث وفوطيوس البطريرك كانا قد نجحا بنشر الدين المسيحي في الاوساط البلغارية الحاكمة

١ *Bréhier, L., Byzance op. cit. 119; Regestes des Actes du Patriarcat Byzantin, 466 ; Mansi, Amplissima, XVI, 297-301 .*

٢ جراسيموس متروبوليت بيروت ، الانشقاق ، ج ١ ، ص ٤٤٨ — ٤٦٨ .

فتدخل البابا في شؤون الكنيسة البلغارية الجديدة . فثار ثائر ميخائيل وفوطيوس وأعدا منشوراً لقطعه واتهما الكنيسة الرومانية بالهرطقة والخروج على مقررات المجامع المسكونية وطلبا عقد مجمع مسكوني للنظر في هذه الامور . ثم اغتيل ميخائيل الثالث في الرابع والعشرين من ايلول سنة ٨٦٧ .

تنصر الصقالبة : (٨٦٤ - ٨٦٧) وحوالى السنة ٨٦٢ أوفد رستيسلاف امير مورافية الكبرى رسلاً الى القسطنطينية يستجير بميخائيل الثالث على البلغار حلفاء خصمه لويس الالماني . وأثمرت مساعي رستيسلاف حوالى السنة ٨٦٤ عندما هزم الروم جيشاً بلغارياً كان في طريقه الى الحدود المورافية للتعاون مع الالمان . وراب رستيسلاف أمر المرسلين الالمان الذين كانوا يخلطون بين الدين والسياسة في بلاده . فطلب مبشرين ارثوذكسيين يعلمون شعبه الدين القويم . فاختار البطريرك فوطيوس الاخوين قسطنطين ومثوذيوس لهذه الغاية . وكان الامبراطور قد سبق له ان خبر قسطنطين قبل تبوئه العرش البطريركي حين اوفده الى الخزر في جنوبي روسية للقيام بمهمة سياسية ودينية . وكان قسطنطين من أشهر علماء عصره في الدين والفلسفة ، ويعرف لغة الصقالبة لانه نشأ في ثيسالونيكية وترعرع فيها في منطقة كثيرة الصقالبة . ورحل الاخوان الى مورافية في السنة ٨٦٤ فاشتقا من الاحرف اليونانية حروفاً صقلبية ، ونقلا الانجيل الى اللغة الصقلبية وبشرا بها وصنفا في هذه اللغة بعض الكتب الضرورية للخدمة الدينية .

تنصر البلغار : (٨٦٤) واستقر البلغار كما سبق ان أشرنا في ميسية وتراقية واختلطوا بالصقالبة وتعلموا لغتهم . وكانوا اقلية عسكرية حاكمة . فرأى بوغوريس Boris خاقانهم (٨٥٢ - ٨٨٩) ان مصلحته تقضي بتقبل الدين المسيحي وهو دين رعاياه الصقالبة ليتسنى له توطيد سلطته المركزية ازاء الزعامات المحلية الاقليمية عند الامراء البلغاريين . وبدأ البلغار يتعرفون الى النصرانية عن طريق رعاياهم الصقالبة وعلى يد الاسرى الروم .

وكان الاسرى البلغار يتعلمون الدين المسيحي في بلاد الروم . وكان من جملة هؤلاء شقيقة خاقان البلغار بوغوريس . فانها اقامت مدة طويلة اسيرة في بلاط الروم وتعلمت الدين المسيحي وتقبلت المعمودية . وعند مبادلة الاسرى عادت الى بلادها ومعها مثوذيوس اخو قسطنطين المشار اليه آنفاً، فحاولت مع مثوذيوس استمالة بوغوريس الى الايمان فلم تستطع . وكان مثوذيوس هذا راهباً بارعاً في فن التصوير . وكان بوغوريس يرتاح الى الصور المتقنة . فرسم مثوذيوس صورة الدينونة ، ورسم فيها الديان جالساً وميزان العدل مرفوعٌ والصديقون ينالون الاكاليل والاشرار يدخلون جهنم . فلما رأى بوغوريس الصورة تخشع وخاف ومال الى النصرانية . وفي السنة ٨٦٤ وقع جوع شديد في بلاد البلغار واستعان لويس الالماني ببوغوريس على رستيسلاف . فهب بوغوريس يزحف بجموعه . فهجم عليه ميخائيل الثالث وخاله برداس . فسلّم نفسه والبلاد وعاهد ان يعتمد ويكون مسيحياً . وجاءَ بوغوريس وعظماء مملكته الى القسطنطينية واعتمد على يد البطريرك فوطيوس وسمّي ميخائيل في المعمودية باسم اشبينه ميخائيل الفيلفس . وعيّن البطريرك فوطيوس رئيس اساقفة لبلغارية وقسيسين ومعلمين . وبعد سنتين (٨٦٦) هجم لويس الالماني على بوغوريس وغلبه . فطلب البابا نيقولاوس الى لويس الالماني ان يدفع بوغوريس الى طلب معلمين روحيين من البابا . فبادر البابا الى ارسال قسيسين الى بلغارية . وكان ما كان من امر الاختلاف بين فوطيوس ونيقولاوس . فطعن القسيسون الباباويون بفوطيوس واعادوا معمودية من سبق ان اعتمدوا على يد قساوسة الروم وطردوا هؤلاء من بلغارية . فأذاع فوطيوس منشوره ضد البابا في السنة ٨٦٧ كما سبق ان اشرنا[١].

١ *French, R. M., Eastern Orth. Church, 57-66 ; Diehl et Marçais, Monde Oriental, 324-326.*

ميخائيل الثالث والعرب : وأدى اندفاع ثيودورة في سبيل الدين القويم الى اضطهاد البولسيين في آسية الصغرى . وهم فرقة مسيحية انتسبت باسمها الى بولس السميساطي واختلفت في عقيدتها وطقوسها عن الكنيسة الام . فاستدعت الكنيسة رؤساءهم وخيّرتهم بين الارثوذكسية والقتل . فلما رفضوا اخذت الحكومة البيزنطية تعمل على اخضاعهم بالقوة فقتلت منهم عدداً كبيراً . وفر الباقون الى حدود العرب الى تفريقة Tephrice ونواحيها . فأصبحوا اداة فعالة بيد العرب في حروبهم مع الروم .

وتوفي المعتصم في السنة ٨٤٢ وتولى الخلافة بعده ابنه الواثق (٨٤٢ – ٨٤٧) فواجه ازمات داخلية خطيرة منها ثورة دمشق وثورة الاكراد وعصيان الخوارج . فلم يستطع المضيّ في محاربة الروم . وكان الروم لا يزالون في غمرة الفشل الذي اصابهم في صقلية . ولذا فأننا نقرأ عن وصول رسول رومي الى بلاط الواثق يفاوض في فداء الاسرى . وحصل الفداء على ضفاف اللامس في اواخر السنة ٨٤٥ . وارسلت ثيودورة في السنة التالية جنداً الى صقلية ولكن هزمهم ابو الاغلب العباس . ثم حاول الروم النزول في خليج منديلو بالقرب من بالرمو فلم يوفقوا . وتجاوز هجوم العرب صقلية الى ايطالية . فتقدموا الى مصب التيبر في السنة ٨٤٦ . وعادوا الى المصب نفسه في السنة ٨٤٩ . فهبّت عاصفة قوية واغرقت اسطولهم . وأسر كثير منهم واقتيدوا الى رومة والزموا بالعمل في بناء مدينة الفاتيكان[١] .

وكان العرب الاندلسيون في اقريطش لا يزالون يعرقلون سبل تجارة الروم ويهددون جزر ايجه وشواطئه بالقرصنة فأمرت ثيودورة بالاغارة على ساحل مصر لتخريب ما فيه من صناعة بحرية كانت تزود عرب اقريطش بالسفن والعتاد واحياناً بالرجال . فقام اسطول رومي الى دمياط في

١ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ١٨٠ – ١٨٧ .

ربيع السنة ٨٥٣ وهاجم دمياط في الثاني والعشرين من ايار، يوم عيد الاضحى. وكان الوالي العباسي على مصر عنبسة ابن اسحق قد استدعى حامية دمياط للاشتراك في عرض حربي في الفسطاط. فهرب سكان دمياط وهلك منهم خلق كثير. واستولى الروم على المؤن والذخيرة المعدة للشحن الى اقريطش واحرقوا السفن المكدسة في المخازن البحرية واقلعوا الى تنيس ثم الى اشتوم فأحرقوا ما كان بها من الآلات الحربية[1].

ولم يطل عهد الواثق في الخلافة. فانه أصيب بداء الاستسقاء فعولج بالاقعاد في تنور مسخن فوجد لذلك خفة فأمرهم من الغد بالزيادة فقعد فيه اكثر من اليوم الاول فحمي عليه فأخرج منه في محفة[2]، فمات في الثانية والثلاثين من عمره. وبويع بعده اخوه المتوكل على الله جعفر ابن المعتصم (٨٤٧ – ٨٦١) فكان نيرون العرب. فان ما اقترفه من افانين الانتقام والجور لم يصل اليه خيال. وبلغ ما نشأ عن كبائره من النفور مبلغاً حمل ابنه المستنصر على قتله. ثم مات المستنصر ألماً وندماً في السنة الاولى من خلافته (٨٦١)، فأختار الحرس وجنود الاتراك خلفاً له المستعين بالله. فدامت خلافته ثلاث سنوات. ثم استبدلت به عصابة من الحرس المعتز بالله (٨٦٦)، فانبرت عصابة اخرى وخلعت المعتز هذا في السنة ٨٦٩ فجلس على كرسي الخلافة المهتدي (٨٦٩ – ٨٧٠) ففكر بالاصلاح فأدى ذلك الى قتله في قصره. فخلفه المعتمد فدام عهده اثنتين وعشرين سنة (٨٧٠ – ٨٩٢) بفضل اخلاص اخيه الموفق[3].

وفي آخر صيف السنة ٨٥٦ حين عاد علي ابن يحيى من صائفته التقليدية

١ المصدر نفسه، ص ١٨٨ – ١٩٢.
٢ الكامل لابن الاثير، ج ٥، ص ٢٧٦ – ٢٧٧.
٣ تاريخ العرب لـديو، تعريب عادل زعيتر، ص ٢٢٨ – ٢٢٩.

قام بتروناس اخو برداس خال الفسيلفس بغزو العرب فأحرز نصراً في ارض سُميساط وتقدم حتى بلغ قريباً من آمد ثم اتجه الى الشمال الغربي نحو البولسيين في تفريقة فأحرق قرى عدة وأسر عشرة آلاف . ولم يكد ميخائيل الثالث يستكمل فتوّته حتى نهض لغزو العرب في السنة ٨٥٩ قاصداً سميساط ومعه برداس خاله فبلغ الفرات فنهب وأحرق وأسر . وحصل فداء في السنة ٨٦٠ . وقام نصر ابن الازهر الى القسطنطينية لهذه الغاية . وعليه السواد وقلنسوة وسيف وخنجر فلم يرضَ بتروناس خال الفسيلفس ان يأذن للسفير العربي بالدخول الى البلاط على هذه الهيئة واحتج بوجه خاص على الثوب الاسود وحمل السيف . فغضب الرسول ورجع ، فادركوه وادخلوه فقدم الى الامبراطور ما حمل من الهدايا الف نافجة مملوءة مسكاً وثياباً من حرير وكمية من الزعفران النادر وحلياً اخرى مختلفة . وكان ميخائيل يجلس في الاستقبال على عرشه يحيط به بطارقته الاشراف وبين يديه التراجمة مسرور وغلام للعباس ابن سعد الجوهري ومترجم عجوز اسمه سرحان ولعله سرجيوس . فتقدم رسول الخليفة بالتحيات وجلس في المكان الذي اعد له . ووضعت الهدايا امام الفسيلفس . فأخذها وأحسن معاملة السفير . ومكث رسول الخليفة العباسي اربعة اشهر في عاصمة الروم . ثم استؤنفت مفاوضات الفداء . واقسم كل طرف على الوفاء . ثمّ تمّ تنفيذه عند اللامس Limes فأطلق الروم اكثر من الفي مسلم فيهم عشرون امرأة وعشرة اطفال واطلق العرب اكثر من الفي اسير . اما الالف الباقية فتركت لقاء ما وُعِدَ به الفسيلفس من افتداء البطريق المأسور في لؤلؤة . وكان قوم من الروم قد دخلوا الاسلام وقوم من العرب قد تنصروا . ومن رغب في النصرانية ترك عند الروم[1].

١ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٤٧ – ١٤٥١ .

والغريب ان النضال بين الروم والعرب استؤنف في صيف هذه السنة نفسها . فسار ميخائيل الثالث بنفسه لغزو العرب ووصل الى موربوتامن . فأنذره وكيله في العاصمة قائد الاسطول الدرنغار نسيتاس اوريفاس بقدوم الروس . فاضطر الفسيلفس ان يسرع في العودة قبل ان يشرع في الحرب شروعاً جدياً . فوصل الى العاصمة وقد احاط بها الروس وقتلوا من حولها السكان ، فلم يستطع ان يعبر المضيق الا بعد مشقة[1]. وانتهز العرب حملة الروس وغياب الفسيلفس فبذلوا نشاطاً كبيراً . فشنّ امير ملاطيـة عمر ابن عبدالله غارة" على الروم فعاد بسبعة آلاف اسير. وأغار قرباص فأسر خمسة آلاف . وعاد علي ابن يحيى بخمسة آلاف ايضاً ومئتي فرس وثور وحمار . وأغار فضل ابن قارون بحراً بعشرين سفينة وأخذ انطاكية[2].

وفي صيف السنة ٨٦٣ في ايام المستعين قام عمر ابن عبدالله امير ملاطية بحملة موفقة بلغ بها قلب ارض الروم ، فخرّب ثيمة ارمينية ، وتقـدم حتى بلغ البحر الاسود فأخذ اميسوس (سمسون) ، وساءه ان يوقف البحر سيره فأمر بضرب البحر ! وعلم ميخائيل الثالث بهذا كله ، فجهّز جيشاً قوياً وجعل على رأسه بتروناس خاله . فزحف بتروناس فأدرك عمر ابن عبدالله عند بوزن Poson في بفلاغونية في الثالث من ايلول سنة ٨٦٣ فحصره واوقع به هزيمة تامة واحتزّ رأسه وارسله الى القسطنطينية وقتل عدداً كبيراً من جنوده واسر الباقين[3].

وسادت الفوضى في ايام المستعين بالله ، من مكة ، الى حمـص ،

١ Vasiliev, A. A., Byz. Emp , 277-278.

٢ الطبري ، ج ٣ ، ص ١٤٤٩ .

٣ فازيليف ، الروم والعرب ، ص ٢١٨ — ٢٢٥ .

فالموصل ، فاصفهان . واستبد الحرس من جنود الاتراك وهددوا المستعين ، فحاول الفرار من سامرّا الى بغداد ، فقطع بذلك صلته بالترك . فاقاموا مقامه المعتزّ . وتنازل المستعين عن حقه في الخلافة (٨٦٦) واعتزل باقي حياته في المدينة .

الفصل الحادي العشرون

العلم والادب والفن في القرنين الثامن والتاسع

احياءُ الجامعة : وقد يكون برداس اخو ثيودورة وخال ميخائيل الثالث وصولياً في السياسة طامعاً في الحكم ولكنه كان دون ريب ذكياً مفكراً ، محباً للعلم والادب والفن ، حامياً لها مشجعاً عليها . واليه يعود الفضل والشرف في احياء الجامعة في القسطنطينيـــة ، والعودة الى العلوم العالية ، النصرانية منها والوثنية . فانه استدعى الى القصر أعلم علماء زمانه وجمعهم في مدرسة عالية « الماغورة » وعهد برئاستها الى فخر ثيسالونيكية لاوون الرياضي الطبيب الفيلسوف[١]. وكان بين اساتذتها فوطيوس البطريرك وقسطنطين رسول الصقالبة وقد سبقت الاشارة اليهما . وكانا يدّرسان اللغة والفلسفة . وعلّم غيرهما الهندسة والفلك . واشتد عطف برداس على الجامعة فتردد اليها واحتك باساتذتها وطلابها ، وحضهم على السير في سبيل العلم والفكر .

ولم يرضَ بعض رجال الدين عن هذه العنـاية بالعلوم القديمة لانهـــا صدرت عن الوثنيين فاتهموا لاوون بالسحر واذاعوا ضده المناشير واكدوا

١ *Fuchs, F., Die hohern Schulen von Konstantinopel im Mittelalter, Berlin, 1926.*

انه سيرافق سقراط وافلاطون وارسطو في جهنم . ولكن برداس مضى في عمله العلمي غير مبالٍ بهذا كله فنفخ في عاصمة الروم روحاً علمية مباركة مهدت السبيل لوثبة القرن العاشر ، وخلّدت ذكرى الاسرة العمورية في تاريخ الحضارة الى ما شاء الله .

نادي فوطيوس : وجعل فوطيوس (البطريرك فيما بعد) بيته نادياً ادبياً علمياً . ودعا اليه اصدقاءه الادباء والعلماء للمطالعة والبحث . وجمع اليه عدداً كبيراً من المؤلفات المسيحية والوثنية . ونزولاً عند طلب أصدقائه هؤلاء دوّن خلاصة ما كان يقرأ في النادي من المؤلفات فصنف بذلك كتابه البيبليوتيكه Bibliotheca او الميريوبيبلون Myriobiblon كما يدعى احياناً ومعناه « الوف الكتب » . فحفظ لنا بمجموعته هذه اشياء واشياء من مؤلفات فقدت فيما بعد . فنجد في مجموعته كلاماً مفيداً من اقوال رجال اللغة والخطباء والمؤرخين وعلماء الطبيعة والاطباء والآباء والمجامع . وصنف فوطيوس كثيراً في اللاهوت واللغة وخلّف مواعظ عديدة ورسائل كثيرة[1] .

دير الاستوديون : وعاد ثيودوروس الراهب من منفاه . فأقام في دير استوديون في العاصمة ورممه واصلحه . ثم هب لاصلاح الرهبنة فقدّم الحياة المشتركة « الكينوبيوس » Koinos bios على الاعتزال الفردي واوجب تهذيب الرهبان . ففرض القراءة والكتابة ، ونسخ المخطوطات ، ودرس الاسفار المقدسة ، ومؤلفات الآباء ، ونظم الترانيم وترتيلها . ونظم هو بالاشتراك مع اخيه يوسف رئيس اساقفة ثيسالونيكية معظم كتاب التريوذيون الخشوعي . وكتب في اصول الايمان كتابي الكتاكيزموس الكبير والصغير

١ *Bury, J. B., East. Rom. Emp., III, 445-446 ; Jorga, N., Hist. de la Vie Bizantine, II, 106-107.*

فلقيا رواجا كبيراً . وله رسائل عديدة في الدفـــاع عن الايقونات وفي الناموس والاجتماع . وتوفي في الحادي عشر من تشرين الثـاني سنة ٨٢٦ وتلاميذه حوله يرتلون المزمور « طوبى للذين » . وتناول هو الاسرار واخذ يرتل هذا المزمور ، فلما بلغ الى القول : « الى الدهر لا انسى حقوقك لانك بها احييتني » ، أسلم الروح وله من العمر سبع وستون سنة[1].

يوحنا الدمشقي: (٦٧٦ – ٧٦٠) « كوكب الكنيسة ومعلمهـــا ومقاوم الاعداء يوحنا الحكيم المتأله اللب . » ولد يوحنا من ابوين غنيين تقيين في دمشق . واقتدى ابوه راهبـــاً اسمه قوزما كان قد وقع اسيراً في يد المسلمين في ايطالية . وكان قوزما الراهب على شطر وافر من العلم فعني بتعليم يوحنـا وتثقيفه . وخلف يوحنا اباه وجده في ادارة المال في عهد الامويين . وما فتىء مشرفاً عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤–٧٤٣) . ثم اعتزل الادارة وتقبل النذر في دير القديس سابا في فلسطين . وتوفي فيه حوالى السنة ٧٦٠ . وكانت حرب الايقونات فـأثرت في نفس يوحنا . فاجتهد في امر الايقونات وكتب ورحـــل في سبيل ذلك حتى القسطنطينية . فعرفه الآباء وقدروا مواهبه فأطلقوا عليه لقب خريسورواس ومعناه دفاق الذهب . وخريسورواس عندهم نهر بردى بلد يوحنا[2].

وافضل الآثار التي خلفها هذا العالم الحكيم وكوكب الكنيسة ومعلمها هو مؤلفه « ينبوع المعرفة » . وهو سفر جليل عرض به يوحنا العقيدة المسيحية عرضاً منطقياً على طريقة ارسطو معتمداً في ذلك على مقررات المجامع

١ *Gardner, A., Theodore of Studion, Life and Times, Lond., 1905; Patrologia Graeca, Vol. 99, c. 233.*

٢ *Jugie, M., Vie de St. Jean Damascène, Echos d'Orient, 1924, 137-161.*

واقوال الآباء منذ المجمع المسكوني الاول حتى يومه . فوضع بيد محبي الايقونات سلاحاً قاطعاً لم يكن لديهم من قبل . وأصبح مؤلفه فيما بعد مرجع الآباء الارثوذكسيين والكاثوليكيين في علم اللاهوت . وهو دونما ريب الينبوع الاكبر الذي استقى منه ونسج على منواله توما الاكويني عندما وضع في القرن الثالث عشر مؤلفه الشهير في اللاهوت Summa Theologiae. ونظم يوحنا التراتيل الروحية ولحنها ولاسيما ما يرتل منها يوم عيد الفصح. وجاءت هذه التراتيل اعمق واقوى من منظومات رومانوس البيروتي الذي سبقت الاشارة اليه[1].

ومما ينسب الى القديس يوحنا الدمشقي قصة برلام الزاهد ويوصافات الامير الهندي التي راجت كثيراً في العصور الوسطى . وبرغم أن العالم الافرنسي زوتنبرغ قد نفى علاقتها بيوحنا الدمشقي[2]، وبرغم ان كثيراً من المؤرخين قد تقبلوا استنتاجاته فان بعض العلماء المحدثين لا يزالون يرغبون في اسنادها الى يوحنا نفسه[3]. ومن المحتمل ان يكون راهب آخر من رهبان دير القديس سابا يحمل اسم يوحنا ايضاً هو الذي نقل هذه القصة[4].

ثيوفانس المعترف : (٧٤٨ – ٨١٨) ولد في القسطنطينية من والدين نقيين عريقين في الشرف . فوالده اسحق كان والياً على جزر الارخبيل ووالدته ثيودورة كانت ايضاً شريفة من شريفــات القسطنطينية . وتوفي والده وهو لا يزال في الثالثة من عمره . فــأشرفت والدته البارة على تربيته واستعانت باحد العلماء الاتقيــاء على تهذيبه وارشاده . ثم اكرهه

١ *Bardenhewer, O., Gesch. der Altkirlichen Lit., V, 51-65.*

٢ *Krumbacher, K., Gesch. der byz. Lit., 886-890.*

٣ *Woodward, C. R., Barlam and Joasaph, XII.*

٤ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٠٥ . الدكتور فيليب حتي ، تاريخ العرب ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

الفسيلفس على الزواج من ابنة لاوون احد كبار الموظفين في القصر. فأرشد عروسته الى الصلاة والتأملات الروحية وطلب اليها ان يعيش معها كشقيق لها لا كزوج فقبلت. وبعد وفاة الفسيلفس وحميه لاوون اطلق هو وزوجته عبيدهما ووزعا اكثر ما يملكان على الفقراء. وفي السنة ٧٨٠ تقبل كل منهما النذر وافترقا ليلتقيا في الحياة الابدية. وانعقد المجمع المسكوني السابع فدعي ثيوفانس للاشتراك في اعماله فلبى. ثم حاول لاوون الخامس اجتذابه اليه فما استطاع، ورد عليه ثيوفانس موجباً تكريم الايقونات. فاشتعل لاوون غيظاً وانفذ الى الدير السغرياني من القى القبض على الراهب البار وقيده بالسلاسل. ثم ادخله لاوون السجن وأمر بتعذيبه. وبعد سنتين نفاه الى جزيرة قفر. فتوفي فيها بعد وصوله اليها بثلاثة اسابيع. واول من عني بتدوين سيرة هذا الرجل البار هو ثيوذوروس الاستوديتي.

وأنفع ما خلّفه ثيوفانس خرونيقونه الشهير. بدأه من عهد الامبراطور ديوقليتيانوس ووقف به عند نهاية حكم الفسيلفس ميخائيل الاول (٢٨٤-٨١٣). وخرونيتون ثيوفانس هذا مفيد جداً لانه يحفظ لنا بعض ما ورد في مصنفات فقدت من بعده ولانه أسهب فيما دوّن عن حرب الايقونات. وقد نقل انسطاسيوس قيّم مكتبة الفاتيكان هذا الخرونيقون الى اللاتينية في النصف الثاني من القرن التاسع فزاد في فائدته اذ اعتمد عليه عدد كبير من مؤرخي العصور الوسطى في الغرب[١].

نيقيفوروس المعترف: (٧٥٨ – ٨٢٨) ولد في القسطنطينية وأبوه

١ مكسيموس بطريرك انطاكية على الروم الكاثوليكيين، اخبار القديسين، ج ٢، ص ٣٦٢ – ٣٦٨.

Ostrogorsky, G., «Theophanes», Real-Encyclopadie, II, 2127-2132.

هو ثيوذوروس كاتم اسرار الفسيلفس قسطنطين الزبلي (الخامس) وامه هي افذوكسية . احتمل الاضطهـاد الشديد في حرب الايقونات . وتوفي ثيوذوروس في المنفى فعادت افذوكسية بولدها نيقيفوروس الى القسطنطينية وعنيت بتربيته وتعليمه . وكان نيقيفوروس ذكياً جداً فبرع في « العلوم البشرية » وقد أظهر ما دلّ على حسن شمائله وخصاله فأحبه عظماء العاصمة . وأمرت ايرينة الوصية بترقيته الى الوظيفة نفسها التي شغلها والده ، وهكذا أصبح كاتماً لاسرار المملكة . وحينما رأت والدته افذوكسية انه لم يعد بحاجة الى مساعدتها أهملت كل شيء وانفردت في دير الراهبـات . وسعى نيقيفوروس الى عقد المجمع المسكوني السابع سنة ٧٨٧ وحضره بشخصه من قبل الفسيلفس لكي يشرف على حفظ النظام والترتيب . ثم اعتزل العمل في البلاط واهمل كل شيء وانفرد في البوسفوروس بالقرب من القسطنطينية وعمّر ديراً وضمّ اليه طـائفة من الرهبان . وكان اذا اكمل واجباته الرهبانية انصرف الى العلوم التي برع فيها . وفرغ الكرسي البطريركي في العاصمة بوفـاة طراسيوس في السنة ٨٠٦ فدعا الفسيلفس نيقيفوروس سميّه نيقيفوروس اليه وحثه على قبول الرتبة البطريركية ولكن نيقيفوروس اعتذر وتوسل الى الفسيلفس ان يعفيه لانه كان لا يزال علمانياً ولانه غير كفوء لهذه المنزلة الجليلة ولكن الفسيلفس أصرّ على رأيه وما لبث حتى انتصر على ارادة سميّه . وتبوأ نيقيفوروس العرش البطريركي المسكوني في منتصف السنة ٨٠٦ . ثم هب « ينقي حقـل الرب من زوان الاراسيس والضلالات والغلطات والبدع ، ولاسيما هرطقة محاربي الايقونات » . واتجه بعد ذلك الى تهذيب الاكليروس ملزمـاً كلًا منهم بالسلوك في الحدود التي ترسمهـا له القوانين . وفي السنة ٨١٣ حينما استولى لاوون الارمني على تخت الملك عاد فضيّق على من قال باكرام الايقونات فسجن نيقيفوروس

ثم نفاه فتوفي في المنفى في السنة ٨٢٨[1].

وألف نيقيفوروس كتباً في الرد على محاربي الايقونات . وأشهر آثاره في هذا الموضوع «دحض ما هذر فيه مأمون»، والاشارة هنا الى قسطنطين الخامس[2]. وكتب ايضاً في التاريخ ، فأرّخ الفترة التي امتدت من ايام موريقيوس في السنة ٦٠٢ الى السنة ٧٦٩ ، فأجاد ، وحفظ لنا اشياء واشياء عن السياسة وعن الكنيسة في تلك الحقبة . والتشابه بين تاريخه وبين خرونيقون ثيوفانس يعود الى ان الكاتبين كليهما اخذا في بعض الاحيان عن مرجع واحد[3].

جوجس الراهب : وقد صنّف خرونيقوناً كالمعتاد ، فابتدأ بالخلق وسقوط آدم ، ووقف عند انتصار الايقونات في السنة ٨٤٢ . ومصنفه هذا هام جداً ، لانه المرجع الوحيد لتاريخ الروم بين السنة ٨١٣ والسنة ٨٤٢ ، ولانه يبين بوضوح مشاغل زملائه الرهبان ، وما اهتموا به في الرهبانية ، وفي حرب الايقونات ، وفي انتشار الاسلام[4]. واعتمد المتأخرون من مؤرخي الروم هذا الخرونيقون في ترتيب الحوادث العالمية وتصنيفها ، كما ان مؤرخي الروس الاولين رجعوا اليه وافادوا منه .

كاسية الشاعرة : ولما أهمل ثيوفيلوس الفسيلفس كاسية في عرض الجميلات ، كما سبق ان أشرنا ، اتجهت انظارها نحو جمال النفس والروح . ثم عزفت عن الدنيا عزوفاً تاماً ، فأسست ديراً والتجأت اليه متعبدة . وعنيت في اثناء عزلتها بالتراتيل الروحية ، فنظمت فيها ما خلّد ذكرها .

١ مكسيموس البطريرك ، اخبار القديسين ، ج ٣ ، ص ١٥٨ – ١٦٤ .

٢ *Patrologia Greaca, Vol. C, 205 ff.*

٣ *Blake, R., Activité Litéraire de Nicephore, Ir Patriarche de Const., Byzantion, 1939, 1-15.*

٤ *Georgius Monachus, Chronikon, ed. de Boor.*

وقد كرّس المؤرخ الالماني كرومباخر شيئاً من وقته لدراسة شعرها ، فألفاها امرأة فذة ، جمعت حساسية المرأة ، الى شدة تدين ، الى صراحة نادرة[1].

الفكر اليوناني والاوساط العربية الاسلامية : وأدرك العرب المسلمون تفوق الروم في الفكر والحضارة . فقد جاءَ في مقدمة ابن خلدون ان ابا جعفر المنصور بعث الى ملك الروم يطلب كتباً يونانية ، وان الملك اجابه الى طلبه ، فارسل اليه كتباً من بينها كتاب اقليدس[2]. وترجم ابو يحيى ابن البطريق كتب جالينوس وابقراط . وفي عهد الرشيد نقل يحيى ابن ماسويه بعض الكتب الطبية الى العربية . ولكن هذا النقل بلغ اقصاه في عهد الخليفة المامون . فانه كان من انصار المعتزلة الذين عززوا العقل وتهافتوا على الفكر وآثاره . وراسل المأمون زميله لاوون الارمني وطلب اليه ان يأذن لبعثة اسلامية بالحصول على بعض المصنفات اليونانية في الفلسفة والهندسة والطب . فأجابه لاوون الى ذلك . فأتت القسطنطينية بعثة ثقافية عباسية كان اعضاؤها الحجاج ابن قطر ، وابن البطريق ، وصاحب بيت الحكمة . وعاد هؤلاء بكنوز ثمينة الى بغداد ، فأشرف قسطا ابن لوقا على ترجمتها[3]. ولما ترامى الى المأمون نبأ لاوون الرياضي راسله يستدعيه الى بلاطه وأغراه بالعطاء . ولكن ثيوفيلوس الفيلفس علم بهذه الدعوة في حينها فأبقى لاوون في القسطنطينية وعيّنه مدرّساً في احدى الكنائس . ثم عاد المأمون يرجو ثيوفيلوس ان يسمح بان يزوره لاوون مدة قصيرة ، «وذكر في رسالته انه يعد قبول هذا الطلب عملاً ودياً وانه

١ *Krumbacher, K., Gesch. der Byz. Lit., 716 ; Bury, J. B , East. Rom. Emp., 81-83 .*

٢ المقدمة ، ص ٤٠١ .

٣ ابن النديم ، كتاب الفهرست ، ص ٣٤٠ و ٣٩٩ .

يعرض لقاء ذلك الف قطعة من الذهب وعقد صلح دائم. غير ان ثيوفيلوس رفض واعتبر علم لاوون واختراعاته سراً لا ينبغي ان يطلع عليه المسلمون[1].» وأحب الواثق بالله ان يستقصي اخبار اهل الكهف، فأرسل احد العلماء المسلمين الى افسس لمشاهدة كهوفها، وهي التي كانت تحفظ جثث الشبان السبعة الذين استشهدوا في ايام ديوقليتيانوس. واذن ميخائيل الثالث بذلك واوفد مع العالم المسلم دليلاً يرشده[2].

الجدل بين النصارى والمسلمين: ومن ظواهر الفكر في القرنين الثامن والتاسع التحاجّ الديني الذي حصل بين بعض العلماء الارثوذكسيين الكاثوليكيين وبين بعض علماء المسلمين. وكان الداعي لهذا الجدل ان الخلفاء كانوا اذا تسنموا عرش الخلافة يوجهون الى الملوك المعاصرين كتباً يدعونهم فيها الى الدخول في الاسلام، فلم يكن بد من الرد على هذه الكتب. ومن اسباب هذا الجدل ايضاً ان خطر التحول عن المسيحية تزايد بتقدم العرب في جميع نواحي حياتهم. فكان من الضروري ان تُنَظَّمَ مناعة في العقيدة للمسيحيين في الثغور، وفي جميع الاقطار الشامية، وفي مصر ايضاً. وكان سكان هذه الاقطار من الارثوذكسيين الكاثوليكيين وهم لا يزالون يستعملون اللغة اليونانية في ارض الاسلام، في زمن يوحنا الدمشقي ايام الامويين، وفي زمن ابي قرة في اوائل العهد العباسي. فجاءت تآليف هؤلاء في الجدل باليونانية. ولكن ابا قرة في مياره بدأ استعمال العربية. وكتب بها ابو كاليبس بحيرة الحوار بين عبد المسيح الكندي وبين عبدالله الهاشمي.

١ الدكتور ابراهيم العدوي، الامبراطورية البيزنطية، ص ١٤٦ – ١٤٧.
Theophanes Continuatus, Historia, ed. Bonn, 190; Bury, J. B., East. Rom. Emp., 436-438; Fuchs, F., Hohern Schulen, 18.

٢ الدكتور ابراهيم العدوي، الامبراطورية البيزنطية، ص ١٤٧.

اما يوحنا الدمشقي فانه ناقش بعض الآيات القرآنية وانتقد وحي القرآن وعادات المسلمين في العبادات والاخلاق . ورفض ابو قرة بعثة محمد رسولاً وجادل فكرة الخلق المستمر ونصيب الله في اعمال المخلوقات واعتبرها اقوالاً يجرّ اليها الدخول في الاسلام . ومما قاله ابو قرة انه اذا قيل بخلق المسيح لزم ان يكون الله قد بقي زمناً دون كلمة وروح ، وبالتالي لزم ان يكون القرآن الذي هو كلمة الله مخلوقاً . وظهرت رسالة بحيرة الراهب في عهد المأمون . ثم كان هجوم اسلامي قويّ على اثر ما فعله ميخائيل الثالث اذ ارسل مقالتين احتج في احداها بمبدإ السببية . فرفض المسلمون فكرة وجود ابن لله مشارك له في الخلود وفي الصفات . وظهرت رسالة الجاحظ مال فيها صاحبها الى تأييد سياسة المتوكل الشديدة نحو اهل الذمة . وعرض ابو القاسم ابن ابراهيم البلخي لفكرة البنوّة . وألف ابو عيسى الوراق كتاباً ضخماً نقد فيه عقائد النصارى بمذاهبهم الثلاثة[1].

الفن : ويرى بعض رجال الاختصاص ان محاربي الايقونات قضوا بتعصبهم على روائع فنية فحرموا بذلك الفن والعلم فائدة التلذذ والانتفاع بهذه الروائع[2] . ويرى غيرهم ان النزاع حول الايقونات وتحطيمها نفخ في الفن البيزنطي روحاً جديدة مستمدة من الفن الهليني القديم ومن الفن الفارسي كما يرون ان تحريم تصوير المسيح والعذراء والقديسين لم يشمل تصوير البشر العاديين ، فانطلقت يد الفنانين وغدت واقعية بتأثير المُثُل الهلينية الباقية . ومما يرى هؤلاء ايضاً ان الفن البيزنطي اتجه في هذه

١ ارمان آبل : تحاج اهل الاديان في القرنين الثامن والتاسع ، وهو الملحق السادس لكتاب فازيليف في تاريخ الروم والعرب ، تعريب الدكتور محمد عبد الهادي شعيره والدكتور فؤاد حسنين علي ، ص ٣٦٨ — ٣٧١ .

٢ *Dalton, O. M., Byz. Art and Arch., 14.*

الحقبة ، نتيجة ً لحرب الايقونات ، اتجاهاً زمنياً واضحاً مستلهماً الطبيعة والحياة اليومية العادية[1].

ومؤسف ان يكون معظم آثار هذه الفترة قد اندثر وسواء منه ما كان دينياً او زمنياً . وقد يكون بعض الفسيفساء في كنائس ثيسالونيكية (سلانيك) من آثار هذه الحقبة وقد لا يكون . وقل القول نفسه عن بعض التصاوير المحفورة في العاج وهي التي يقدر فريق من الباحثين انها ترقى الى عصر حرب الايقونات . وثمة كتب دينية مزينة ببعض الصور قد تكون من آثار هذه الحقبة نفسها ، واشهرها مخطوطة الخلودوف المحفوظة في موسكو[2].

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني والاخير

١ Diehl, Ch., *Art Byzantin*, I, 385-386.

٢ Vasiliev, A. A., *Byz. Emp.*, 299.

محتويات

الجزء الاول

صفحة

الباب الثالث

تدفق البرابرة وتفرق النصارى

الباب الرابع

تمشرق الفكر والفن والدولة

الباب الخامس

كرامة ومجد وعظمة

صفحة

الباب السادس
تطور وتغيير في عناصر الشعب
وفي حدود الملك وانظمته

الباب السابع
انتعاش وتوطيد واستقرار

HISTORY

of

THE BYZANTINE EMPIRE

WITH SPECIAL REFERENCE TO ITS RELATIONS WITH CONTEMPORANEOUS MOSLEM STATES

By

Asad J. Rustum, M. A., Ph. D.

Dar Al-Makchouf

Beyrouth